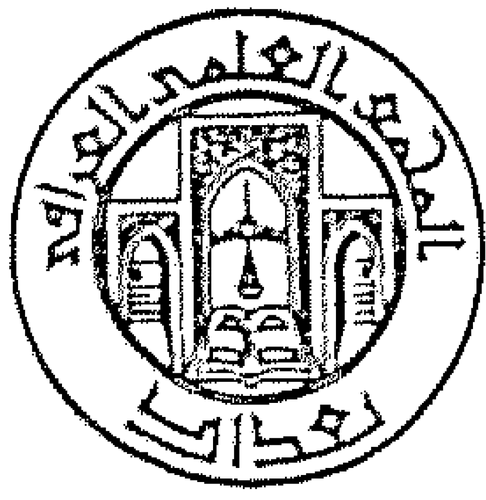


مركز دراسات الوحدة العربية



المجمع العلمي العراقي

إشكالية العلاقة الثقافية مع الغرب

بحوث ومناقشات الندوة الفكرية

التي نظّمها المجمع العلمي العراقي

صالح أحمد العلي
محمد توفيق حسين
حسام محيي الدين الآلوسي
عبد الرحمن الحبيب
حميد الجميلي
سعدون حمادي
محمود علي الداود
عصام عبد الغني محبوب
عبد الإله بلقزيز
صلاح المختار
عبد الستار جواد
عبد الجبار داود البصري
هادي نعمان الهيتي
خالد حبيب الراوي
صباح ياسين

إشكالية العلاقة الثقافية مع الغرب

بحوث ومناقشات الندوة الفكرية

التي نظمها المجمع العلمي العراقي



مركز دراسات الوحدة العربية



المجمع العلمي العراقي

إشكالية العلاقة الثقافية مع الغرب

بحوث ومناقشات الندوة الفكرية

التي نظّمها المجمع العلمي العراقي

صالح أحمد العلي
محمد توفيق حسين
حسام محيي الدين الآلوسي
عبد الرحمن الحبيب
حميد الجميلي
سعدون حمادي
محمود علي الداود
عصام عبد الغني محبوب
عبد الإله بلقزيز
صلاح المختار
عبد الستار جواد
عبد الجبار داود البصري
هادي نعمان الهيتي
خالد حبيب الراوي
صباح ياسين

الفهرسة أثناء النشر ـ إعداد مركز دراسات الوحدة العربية
إشكالية العلاقة الثقافية مع الغرب: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها المجمع العلمي العراقي/ صالح أحمد العلي... [وآخ].
٣٢٨ ص.
يشتمل على فهرس.
١. البلدان العربية ـ العلاقات الثقافية ـ الغرب. أ. ندوة إشكالية العلاقة الثقافية مع الغرب (١٩٩٥: بغداد). ب. المجمع العلمي العراقي.
303.482

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة
عن اتجاهات يتبناها مركز دراسات الوحدة العربية»

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «سادات تاور» شارع ليون ص. ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣ ـ بيروت ـ لبنان
تلفون: ٨٦٩١٦٤ ـ ٨٠١٥٨٢ ـ ٨٠١٥٨٧
برقياً: «مرعربي» ـ بيروت
فاكس: ٨٦٥٥٤٨ (٩٦١١)

الطبعة الأولى
بيروت، أيار/ مايو ١٩٩٧

المحتويات

المشاركون

د. أحمد مطلوب	عضو المجمع العلمي العراقي، بغداد.
د. حبيب القيسي	أستاذ في كلية الآداب، جامعة بغداد.
د. حسام محيي الدين الآلوسي	رئيس قسم الفلسفة في كلية الآداب، جامعة بغداد.
د. حسن محمد طوالبة	باحث أردني.
د. حميد الجميلي	كلية الادارة والاقتصاد، جامعة بغداد.
د. خالد حبيب الراوي	رئيس قسم الإعلام، كلية الآداب، جامعة بغداد.
أ. خليل ابراهيم الزوبعي	باحث.
د. سعدون حمادي	عضو المجمع العلمي العراقي، بغداد.
د. صالح أحمد العلي	رئيس المجمع العلمي العراقي، بغداد.
أ. صباح ياسين	المدير العام للإذاعة والتلفزيون، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد.
أ. صلاح المختار	رئيس تحرير جريدة **الجمهورية** في بغداد.
أ. عبد الله سلوم السامرائي	وزير إعلام سابق، وعضو المجمع العلمي العراقي، بغداد.
د. عبد الإله بلقزيز	أمين عام منتدى المغرب العربي.
أ. عبد الجبار داود البصري	باحث ومدير في وزارة الاعلام سابقاً.
د. عبد الرحمن الحبيب	أستاذ الاقتصاد في جامعة بغداد سابقاً.
د. عبد الستار جواد	أستاذ في كلية الآداب، قسم الاعلام، جامعة بغداد.
أ. عصام عبد الغني محبوب	مدير في وزارة الخارجية، بغداد.
أ. علي عطية عبد الله	عضو المجمع العلمي العراقي، بغداد.

د. فوزي الخالصي	كلية الهندسة، جامعة بغداد.
د. محمد توفيق حسين	أستاذ التاريخ في جامعة بغداد.
د. محمود علي الداود	مركز دراسات الشرق الأوسط، الجامعة المستنصرية.
د. مسارع حسن الراوي	وزير سابق، وعضو المجمع العلمي العراقي.
د. هادي نعمان الهيتي	قسم الإعلام، كلية الآداب، جامعة بغداد.

الفصل الأول

العرب والعلوم الأجنبية في العهود الإسلامية الأولى

صالح أحمد العلي(*)

أولاً: العرب وسماتهم

المقصود بالعرب في بحثنا الحالي أهل جزيرة العرب الذين خرجوا منها واحتفظوا بسماتهم الرئيسية المميزة لهم، وهي اللغة العربية السليمة، والنظم الاجتماعية والسياسية العامة كالتي ألفوها، والتي تطغى على ممارسات فرعية قد لا تطابق خطوطها العامة.

واللغة هي أظهر مميز للعرب، وقد ذكرها القرآن الكريم في آيات عدة في سياق الاعتزاز، وأشار الى أنه نزل بلسان «العرب»، وإنما ذكر الشعوب والأقوام والقبائل، مفترضاً أنها مجموعات متعددة يجمعها التحدث بالعربية. ولم تمحُ العربية المبينة وجود لهجات محلية متعددة في مفرداتها وتراكيبها مختلفة بعض الاختلاف عن العربية المبينة المستقيمة التي نزل بها القرآن الكريم، ونظم فيها الشعر الرفيع، وتحدثت بها النخبة وكثير من العامة. أما اللهجات التي بينها وبين العربية السليمة تباين واسع كالأكادية والبابلية والآرامية والسريانية والعبرية، فقد جرى العرف على إفرازها عن السليمة، مع الاعتراف بعلاقتها الوثيقة بالأخيرة.

واللغة وثيقة الارتباط بالدم، لأن اللغة تنحصر من حيث العموم بالقوم الذين يتكلمون بها، وانتشارها بين غيرهم محصور بأوساط قليلة العدد، وخصوصاً التجار والمثقفين ورجال الإدارة.

١ ـ التدوين الأول

واللغة ليست مجرد كلمات وتراكيب شكلية، وإنما هي تعبر عن الأحاسيس

(*) رئيس المجمع العلمي العراقي، بغداد.

والأفكار، وهي بذلك مصدر أساسي يساعد في معرفة نطاق الفكر وجوانب نموه، والمرتكز الرئيسي لدراسة تطورها التاريخي هو التدوين. ومن أبرز إنجازات العرب الفكرية في الماضي السحيق هو اختراعهم الكتابات الهجائية التي يعبر عن كل صوت فيها حرف له شكله الخاص، وقدر الناس أهميتها. وقد أشار القرآن الكريم، وهو أكبر كتاب وصلنا بنصه كاملاً غير محرف، الى التسطير، بمعنى التدوين، والكتاب، والقلم، والكتاب المسطور (الاسراء: ٥٨، الأحزاب: ٦، الطور: ٢، وذكر في ست آيات أساطير الأولين: الأنعام: ٢٥، الأنفال: ٣١، النحل: ٢٤، المؤمنون: ٨٣، الفرقان: ٥٧، النمل: ٦٨، الأحقاف: ١٧، القلم: ١٥، المطففين: ١٣).

وكل هذه الآيات تشير الى مدونات قديمة للأولين، كان يعرفها الناس عند نزول القرآن الكريم، وسياق الآيات يدل على أنها معلومات تتعلق بالشؤون الدينية والعقائد، وقد يشمل عن الماضين أخباراً لها صلة بالأمور الدينية وآثارها. وتكرار ذكر أساطير الأولين يدل على كثرتها ومعرفة الناس بها في مكة والمدينة خصوصاً، ولعلها كانت في أماكن أخرى.

وذكرت المصادر منها قصص أسفنديار التي كان يقصها النضر بن الحارث متحدياً القرآن الكريم.

وأشار القرآن الكريم الى تنظيم الكتب، ففيها سجل يطويها ومدونات في يمينها وشمالها، وذكر المداد والأقلام والقراطيس والصحف المتفرقة.

إن كثرة ذكر القرآن الكريم الكتب والكتابة وأدواتها، والإشارة الى أهميتها في تسجيل المعاملات والأفكار، يشير الى شيوعها في مكة والمدينة في الأقل، ولا بد من أنه لم يقتصر على هذين المركزين، وإنما كان قائماً في العدد الكبير من المراكز الحضرية والتجارية والإدارية، وخصوصاً العدد المعروف من الدول المستقرة في أطراف الجزيرة وفي اليمن، غير أن هذه المدونات لم يصلنا منها سوى عدد محدود مما كتب على مواد تقاوم العوامل الطبيعية ومن الحجارة، وأكثرها شواهد قبور أو معالم قليلة.

٢ ـ دلالات القرآن الكريم

إن القرآن الكريم هو المدون الواسع الذي وصلنا مدوناً مضبوطاً بإرادة الله تعالى: **﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾**[١] وبيقظة المسلمين وهم الحريصون على الحفاظ على نصه. وقد نزلت آيات القرآن الكريم متتابعة خلال العشرين سنة الأولى من قيام الدعوة، وكان نزولها في مكة والمدينة. وهو يعرض مبادئ عامة في الأفكار الدينية

(١) **القرآن الكريم**، «سورة الحجر،» الآية ٩.

والعقائدية، ويذكر عدداً من الأحوال الاجتماعية وتنظيماتها وعوامل تطورها، ويتجلى منها تقديره للعلم والعلماء ـ وقد وردت الكلمة في عدد كبير من الآيات والحكمة والحكماء، كما وردت في أكثر من ثمانين موضعاً ـ وتأكيده على استخدام الحواس، وإعمال الفكر القائم عليها للمعرفة، وعلى اهتمامه الكبير بالإنسان الفرد الذي يعيش في المجتمع، ووجوب سلوكه بما يعين على الانسجام والاستقرار والسلام والنمو. ومع أن القرآن الكريم نزل بالوحي، وأن آيات القرآن الكريم تؤكد على البصيرة والإيمان بالقلب، إلا أنه لم يول الغيبيات تقديراً، ونبذ أساليب الكهانة والسحر، وحتى الشعر، وتظهر مفرداته سعة العناية بالمحسوسات المادية، إضافة الى ما يتعلق بأحاسيس الإنسان وعواطفه وسلوكه الاجتماعي وبعض نظمه السياسية.

وفي القرآن الكريم إشارات كثيرة الى أحوال الأمم والأنبياء في الأمم الغابرة، وذكر لعقائد وأفكار وأحوال غير المسلمين في زمن نزول القرآن، وإشارات الى الانفتاح عليهم وحوارهم ومجادلتهم: ﴿**بالتي هي أحسن**﴾[٢] والرضا بما يرون مما ينسجم مع الدعوة الإسلامية. فالانفتاح والحوار السلمي والأخذ بالصحيح الذي يقبله العقل هو الاتجاه العام المقبول في الإسلام.

إن الأحوال التي يعرضها القرآن الكريم هي أظهر في مكة والمدينة، غير أن المعلومات المتفرقة التي وصلتنا تظهر في مجموعها أنها لا تختلف كثيراً عنها في المراكز الحضرية المتعددة المنبثة في أرجاء الجزيرة، وهي أكثر تعبيراً للسان في أوساط العموم من دون العلية الشاذة أو المنحطّة القليلة، ومع أن فيهم كثيراً من البدو والرعاة والفلاحين من أهل الريف، إلا أن فيهم أعداداً كبيرة من التجار ورجال الأعمال. ولم يقتصر إسهامهم على التجارات الداخلية بين المراكز في الجزيرة العربية، وإنما أسهم كثير منهم، وخصوصاً أهل الأطراف، في االملاحة والتجارة الخارجية، فكانوا مهيمنين على التجارة مع أقاليم المحيط الهندي، بما في ذلك بلاد شرقي افريقيا وبلاد الهند وجزر الهند الشرقية، وربما الصين. وفي الغرب امتدت تجارتهم إلى موانئ البحر المتوسط منذ زمن الفينيقيين وظلت الى قبيل الإسلام، تشهد على ذلك النقوش المعينية التي اكتشفت في عدد من المناطق في أطراف البحر المتوسط الغربية، والتجارة تتطلب حسن الاتصال بالناس والمرونة والانفتاح للاطلاع على الأحوال والممارسات والنظم.

٣ ـ السمات الأصيلة للعرب الأولين

لم تكن جزيرة العرب مقصورة على سكنى أهلها العرب، وإنما دخلها بعض الأغراب، وخصوصاً في أطرافها وقرب سواحلها، وتوغل بعضهم الى داخلها. وكان من

(٢) المصدر نفسه: «سورة النحل،» الآية ١٢٥ و«سورة العنكبوت،» الآية ٤٦.

هؤلاء الدخلاء رجال الأعمال والتجار وبعض أهل الديانات الذين وجدوا فيها ملجأً لهم، أو ميداناً لنشر دياناتهم. غير أن الدخلاء عددهم قليل، وهم يتباينون في ثقافاتهم وأحوالهم، وآثارهم في التكوين البشري أو الأفكار محدودة، على الرغم من أنهم لم يلقوا مقاومة أو اضطهاداً الا من حاول منهم بسط نفوذه السياسي.

ذكرنا أن المدونات التي وصلتنا غير منتظمة، الا أنه وصلتنا الثروة اللغوية الواسعة التي عني علماء موثقون حريصون على جمعها مما كان مستعملاً في قلب شبه الجزيرة خصوصاً، ويتبين منها اهتمام العرب بالإنسان والحيوان والنبات مما في جزيرتهم، وبالمشاعر والإحساسات، والعلاقات الاجتماعية والمثل الأخلاقية. والمعلومات التي جمعوها مفردات متفرقة، وقل من عني بتسجيل الأفكار المتصلة بها والعلاقات بينها، فهي تظهر المادة الأولية للعلوم الطبيعية، ولا تظهر تنظيمها الذي هو أبرز مظاهر التقدم العلمي. ولعل هذا التنظيم أو بعضه كان موجوداً، وربما متقدماً، ولكن لم ينقله المدونون.

تثبت الإسلام وأكمل نظمه ومعالمه العامة في زمن الرسول ﷺ واستقرت توجهاته العامة، وامتدت دولته إلى أرجاء شبه جزيرة العرب وتثبتت فيها بعد قضاء أبي بكر على حركات الردة والانشقاق، فأصبح كل العرب تقريباً مسلمين، وصار الإسلام يظلل كل جزيرة العرب، وحدث تطابق شبه تام بين العرب والمسلمين، وكانت عناصر التداخل بين العروبة والإسلام واسعة، كالسدى واللحمة التي يصعب الفصل بينهما. فرسالة الإسلام عالمية تدعو الى مكارم الأخلاق وإقامة علاقات اجتماعية حضرية على أسس من السلوك الذي يبني مجتمعاً متعاوناً سليماً قابلاً للنمو، ونظاماً سياسياً تظلله سيادة واحدة وسلطة عليا جامعة تلزم الناس بتنفيذ أوامرها المستمدة من روح الإسلام وما تتطلبه من مساواة وعدالة وإنصاف، والمكوّن الأكبر لهذه الدولة هم العرب، ومنهم الخلفاء، والقادة الأولون، ومستشاروهم من الصحابة الذين يسر اتصالهم الطويل بالرسول ﷺ تقمسهم في الإسلام واقتناعهم بمثله وإدراكهم أهمية الأخذ بها لتكون الدولة، وهم جميعاً من العرب، يتكلمون العربية التي نزل فيها القرآن بلسان عربي مبين: ﴿**لساناً عربياً**﴾[3]، ﴿**قرآناً عربياً غير ذي عوج**﴾[4]، ﴿**حكماً عربياً**﴾[5].

٤ ـ إقامة القواعد العربية في الأقاليم والأمصار

لما تثبتت دولة الإسلام في جزيرة العرب وتم توحيد أهلها سياسياً، أصبح تحت تصرف الخلافة جيش كبير حسن التدريب على القتال، فلم تتوان هذه عن توجيهه من

(٣) المصدر نفسه، «سورة الأحقاف،» الآية ١٢.

(٤) المصدر نفسه، «سورة الزمر،» الآية ٢٨.

(٥) المصدر نفسه، «سورة الرعد،» الآية ٣٧.

أجل توسيع الدولة. واستطاع هذا الجيش خلال سنوات قليلة الانتصار في معارك حامية على جيوش الفرس والروم، فضم المسلمون الى دولتهم أقاليم العراق والجزيرة الفراتية وبلاد الشام، ثم تابعوا تقدمهم حتى وصلت جيوشهم في أقل من قرن من الزمن الى أواسط آسيا في الشرق وإلى المحيط الأطلسي وجبال البرانيس في الغرب، فقضوا الى الأبد على الدولة الساسانية في المشرق، وانتزعوا من دولة الروم جميع الأقاليم الجبلية الواقعة في شرقي آسيا الصغرى وفي جنوب البحر المتوسط وغربه، ووحدوا كل أقاليم هذه البلاد، وأزالوا ما كان يفصلها من حواجز، وأباحوا لأهلها حرية التنقل والعمل والحياة، ما دامت لا تهدد الأمن والنظام، وعملوا على إقرار تنظيم إداري يؤمن العدالة والاستقرار ويتيح المجال للتقدم والازدهار.

وقضت المتطلبات العسكرية والإدارية أن يتخذ المسلمون مراكز لإقامة المقاتلة وعيالاتهم، والولاة المكلفين بإدارة الأقاليم، والعناية بأمر المقاتلة العرب. وكانت هذه المراكز تسمى «الأمصار»، وقد أقر الخليفة عمر بن الخطاب الذي أمر بإنشائها، أن يكون كلا منها في مراكز استراتيجية في أطراف الريف، ومتصلة بالجزيرة العربية لا تنفصل عنها بحاجز واقٍ أو عارض معرقل جغرافي، ومناخها مألوف للعرب ملائم لهم، وصلتها وثيقة بالجزيرة، مما يسر الهجرة اليها. وأبرز هذه الأمصار الأولى، الكوفة والبصرة في العراق، والفسطاط في مصر، والجابية في جنوبي بلاد الشام، بالإضافة الى المدينة، وهي مركز الخلافة والدولة. وكان المقاتلة في هذه الأمصار مسؤولين عن حفظ الأمن والنظام في الأقاليم التي فتحها مقاتلة كل مصر، وفي المشاركة في المعارك التي تتطلب حشد قوة كبيرة. وقد أصبح لكل من هذه الأمصار الأولى مكانة متميزة في الحياة الإدارية والسياسية، وفي الحياة الاقتصادية والفكرية. وليس من المبالغة القول إن تاريخ القرن الأول الهجري إنما هو تاريخ هذه الأمصار والأحداث التي شارك أهلها فيها. وكما تطلب التوسع الكبير التالي للدولة إقامة مراكز جديدة للمقاتلة العرب في مواقع ذات أهمية عسكرية وإدارية. وكانت أولى هذه المراكز هي التي أقيمت في بلاد الشام، وخصوصاً في دمشق، وحمص، وقنسرين، وبعض مدن فلسطين والأردن.

ثم تلا ذلك إقامة مراكز في مناطق من الأقاليم المترامية في المشرق والمغرب. وهذه المراكز أقيمت في بعض مدن الجزيرة الفراتية والمناطق الجبلية في شرقيها، ومنها أردبيل وقزوين، وفي الهضبة الإيرانية، وخصوصاً في الري وأصفهان وشيراز، وفي عدد من مدن خراسان، وأبرزها مرو ونيسابور وطوس وبلخ. وقد اتخذت القيروان كمركز في المغرب، وفي الأندلس أقيمت خمسة مراكز. وقد احتفظ المقاتلة العرب في هذه المراكز بتنظيماتهم العسكرية والإدارية، إضافة الى دينهم الإسلامي وتراثهم الثقافي، غير أن المراكز التي استوطنوها لم تكن خالصة لهم، وإنما أقاموا فيها الى جانب سكانها الأولين. ولعلهم كانوا، أكثر تأثراً بغير العرب من سكان الأمصار الأولى، ولكنهم لم يقطعوا صلتهم بهذه، وكان دورهم في الأحداث السياسية والفكرية أقل من دور أهل الأمصار

الأولى إبان القرن الأول الهجري، وإنما كان تأثيرهم واضحاً في مد الكيان الفكري العربي اليها في القرون التالية(٦).

أنشئت الأمصار لتكون مقام المقاتلة العرب المسلمين المشاركين في الفتوح والمسؤولين عن استقرار الأمن والنظام في الأقاليم. وكان المقاتلة عشائر متعددة وأفراداً جاؤوا من مختلف أرجاء جزيرة العرب، بما في ذلك هضبة نجد والسواحل الشرقية والحجاز واليمن.

وراعت الخلافة تجمعاتهم القبلية، التي اعتمدتها أساساً لتنظيم السكن والإدارة، فجعلت كل عشيرة وحدة يسكن افرادها معاً في خطة تسمى باسم العشيرة وتوزَّع بين أفرادها، ولكل عشيرة «عريف» يحتفظ بسجلات أسماء أفراد العشيرة، ويبلغها الأوامر ويوزع العطاء على الأفراد، ويكون مسؤولاً عن حفظ الأمن والنظام.

والأبنية العامة في كل من هذه الأمصار محدودة، أبرزها مسجد جامع واحد تقام فيه الصلوات، وتعقد فيه الاجتماعات العامة، ويتخذ فيه القاضي مركزه للقضاء، وتعقد حلقات للدراسة والمناقشات. وتحيط الجامع عادة ساحة واسعة تتفرع منها سكك عريضة، وعليها خطط العشائر تفصل بينها طرق ودروب ضيقة، وفي جوار الجامع دار الإمارة والدواوين. وفي كثير من خطط العشائر مساجد متفرقة، لكل عشيرة مسجد تؤدى فيه الصلوات وتعقد بعض الاجتماعات.

وكان معظم الأبنية في السنوات الأولى من تأسيس الأمصار بسيطة خالية من الزخارف ومظاهر الجمال، وكثير منها مبنياً بالطين واللبن، وبعضها أخصاصاً، ثم تطور البناء بعد ذلك فكثرت الأبنية بالطابوق والحجارة، ولكنها لم تبدل سماتها العامة. وفي كل مصر عدد من الجبانات يدفن فيها الموتى، وقد تتخذ ساحات تجمع في أوقات الفتن والاضطرابات. ولم تحصن هذه الأمصار بأسوار وخنادق، ولم تكن فيها ساحات مخصصة لتجمع العساكر، ولا أبنية لصنع الأسلحة وخزنها، وكانت أعمال البيع والشراء تتم في ساحات مكشوفة أو في بيوت كبيرة.

وكانت الدولة توزع على المقاتلة وعيالاتهم عطاء من النقود، وأرزاقاً من مواد غذائية تؤمن حداً مقبولاً لإعاشتهم، والحداد لأي من العطاء للفرد في السنة مئتي درهم، وللمرأة والأطفال مئة درهم، والحداد على الفين وخمسمئة درهم، وهو شرف العطاء. وبين ذلك أصناف، والاختلاقات غير كبيرة، وهي تؤمن معيشتهم وتيسر لهم الانصراف الى اهتماماتهم الأخرى في الحياة(٧).

---

(٦) انظر تفاصيل أوفى في: صالح أحمد العلي، امتداد العرب في صدر الإسلام.

(٧) انظر تفاصيل أوفى في: صالح أحمد العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري، وهشام جعيط، الكوفة: نشأة المدينة العربية الإسلامية.

وكانت صلة المستقرين في الأمصار وثيقة بأقاربهم من أهل الصحراء في البداية، ثم ضعفت هذه الصلة، وازدادت العلاقة بين أهل المصر وثوقاً بسبب تقارب السكن ونشوء علاقات اجتماعية واقتصادية وفكرية بين أفرادها. كما أصبح لكل مصر سمته الخاصة بالروابط المادية والحضارية التي تربط أهله.

وقد أدى استقرار العرب وتناقص الحروب الى إنماء الحياة الحضرية، ومما ساعد في نمائها استقرار الأمن والنظام ووجود سلطة علية تحافظ عليه، والحرية الواسعة التي كان العرب يألفونها في مجتمعاتهم الأولى وعملت الدولة على إبقائها، فانصرف كثير من العرب الى عرض خبراتهم وثقافاتهم وإنماء اهتماماتهم التي انصب معظمها على ما يتعلق بالإنسان والفكر، فتنامى الاهتمام بالكلمة الطيبة، والفكرة الحسنة، وبأحوال العرب الاجتماعية ونظمهم وتاريخهم وإسهاماتهم الجديرة بالفخر في ماضيهم وإنجازاتهم في الإسلام. وكان النشاط الفكري حراً لا تحصره قيود ويحدث في أماكن متفرقة، ولكنه كان أكثر حيث يتجمع الناس في الجامع وأماكن البيع والشراء[٨]، كما كانت الاتصالات شخصية، والنقل من الشفاه وبالسماع.

وكان الإسلام الرابط الأوسع الذي يجمع الناس، فهو دين الجميع وفرائضه واجبة، وأكد الخليفة عمر بن الخطاب على قراءته وتدارسه، وشجع على ذلك، فازداد الاهتمام بدراسته، ونظم بعضهم جماعات متميزة سموا القراء وكان لهم دور في عدد من الحوادث السياسية.

وبجانب هذا ظهر الاهتمام بدراسة الحديث وسيرة الرسول ﷺ، والفقه.

وعني أكثر العرب بمتابعة اهتماماتهم القديمة في الأدب و«الكلمة الطيبة»، وبتناقل أخبار أسلافهم وعلاقاتهم النسبية، وبالحوادث الحربية والسياسية التي ظهرت بعد ذلك. وساعد تعدد المجموعات على إنماء معلومات متعددة، وأتاحت الحرية نقدها، وذوق العرب السليم في اختيار الطيب منها لتناقله، وكان لما يخص الإنسان والسياسة النصيب الأوفى، فكان ذلك أساس الكيان الفكري العربي.

٥ ـ عالمية اللغة العربية

كانت للغة العربية مكانة متميزة عند أصحاب السلطة من خلفاء وقادة وولاة، وعند جمهور العرب من مقاتلة وغيرهم، وعزز مكانتها أنها أقوى رابط يجمعهم وييسر

---

(٨) انظر تفاصيل أوفى في: صالح أحمد العلي: «المكونات التاريخية الأولى لوحدة الثقافة العربية،» ورقة قدّمت إلى: **وحدة الثقافة العربية وصمودها بوجه التحديات: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها المجمع العلمي العراقي بمشاركة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٤)، **ودراسات في نشأة الحركة الفكرية في الإسلام**.

تفاهمهم، ويقارب أفكارهم، ويسهّل وحدتهم. وعزز الإسلام مكانة العربية، فيها نزلت الآيات ﴿بلسان عربي مبين﴾[٩] ﴿قرآناً عربياً غير ذي عوج﴾، وكانت قراءته بالعربية واجبة في الصلوات الخمس، وفي عدد من الفرائض الإسلامية، وقد أكسبها القرآن الكريم سمة قدسية، وعممها بين جميع المسلمين الذين كان تزايد عددهم وانتشارهم في جميع الأرجاء الواسعة للدولة عاملاً في زيادة انتشارها بين مختلف الأوساط. ومما يسر انتشارها سعتها وكثرة مفرداتها التي تشمل التعبير عن كثير من مظاهر الحياة المادية والاجتماعية والاقتصادية والعاطفية والفكرية، إضافة الى مرونتها وقابليتها للتوسع بالتصريف والاشتقاق. ويسر كل ذلك لها أن تصبح «عالمية» لا يقتصر استعمالها على العرب الذين كانوا أبرز حملتها، وانتشرت مراكز سكناهم بعد توسع الدولة الى أرجاء متفرقة واسعة في المشرق والمغرب، وكان تعلمها ييسر أعمال من لهم علاقات واسعة، كالتجار ورجال الأعمال، وأهل العلم بمختلف ميادينه. وهيأ تثبيت سلطان الحكم على هذه الدولة الواسعة واستقرار الأمن والنظام فيها، وحرية التنقل، الى أن تصبح «اللغة العالمية» وتطغى على اللغات المحلية التي قبعت في مجتمعات صغيرة محدودة، بل حتى على اللغة الفهلوية والدرية التي فقدت حماتها من الحكام الساسانيين، ورجال الدين الزرادشتيين الذين انكمشوا بعد زوال الملوك الساسانيين، وقبعوا في مراكز محدودة يعنون بأمور الدين الزرادشتي الذي ارتبط بالحكام، وكان تعقد عقائده أو شدة مبادئه يباعده عن المتطلبات الروحية والعملية لحياة الناس.

ولم تكن الإغريقية أحسن حظاً من الفهلوية، ذلك أنها كانت لها أيام عز في زمن الإسكندر المقدوني وخلفائه من السلوقيين والبطالسة خصوصاً، فكانت لغة الجاليات الإغريقية المنبثة في أرجاء الشرق الأوسط، وصارت لغة العلم الذي رعاه الملوك، وأسهم فيه كثير من أبناء البلاد الأصليين. ثم تضاءلت مكانة الإغريقية، وحتى العلوم المدونة فيها، وكثر الاهتمام بالتدوين باللغات المحلية، ومنها الآرامية ووريثتها السريانية، ولم ينقذ تقلصها تقدير الرومان لها، وهم الذين ورثوا السيادة على حوض البحر المتوسط منذ القرن الأول الميلادي. وأصبحت مراكز العلم المدون بالإغريقية محدودة في العالم الإسلامي وفي مناطق محدودة، أبرزها الإسكندرية وأنطاكية، وكانت مراكزها المنتعشة في بلاد الدولة البيزنطية. فلا غرابة أن نجد العرب عندما اهتموا بنقل علوم الإغريق يرسلون البعوث الى الدولة البيزنطية للحصول على كتب الإغريق. ولم يكونوا ليفعلوا ذلك لو كانت هذه الكتب متوفرة في بلاد الدولة الإسلامية.

٦ ـ الشعوب والأقوام في الدولة الإسلامية

وانطلق العرب من جزيرتهم، بجيوشهم من عرب الجزيرة، وبتوجيه من قيادتهم

---

(٩) القرآن الكريم، «سورة الشعراء،» الآية ١٩٥.

العليا في المدينة، فدحروا جيوش الروم، وأزالوا دولة بني ساسان، في سنين قليلة، وتابعوا دولتهم وتوسيعها حتى وصلت في أقل من قرن الى الأطلسي وأطراف البرانيس غرباً، والى أواسط آسيا شرقاً، فضمت جميع أقاليم أطراف البحر المتوسط الغربية والجنوبية والشرقية، وأقاليم أرمينية وكل الهضبة الإيرانية وبلاد الصين وأواسط آسيا. وامتد ذراع من دولتهم الى بلاد السند، وبذلك ضمت بلاداً شاسعة، وشعوباً كثيرة، ومجتمعات لكل منها كثير من التقاليد الخاصة، وأعراف وسنن يقتصر بعضها على المجتمعات المحلية، ويمتد بعضها الى مناطق واسعة. وأباحت الدولة لكل منها الاحتفاظ بأساليب حياته والسير على أعرافه وسننه ما دام لا يخل بالاستقرار ولا يهدد الأمن.

وكانت لهذه الشعوب والأقوام والمجتمعات التي ضمتها دولة الإسلام ثقافات ومعارف وعلوم لنا عن أصولها وبعض سماتها معلومات أوسع مما نعرفه عما للعرب في جزيرتهم. وترجع هذه السعة الى أن الوثائق المكتوبة التي وصلتنا أكثر، وأن معالم حضاراتها أشخص، والدراسات الحديثة عنها أكثر، علماً بأن كل ذلك لم يصل إلى حد الكمال، وبعضه لا يزال بعيداً عن الكمال، وفيه كثير من التشويش.

يخرج عن نطاق بحثنا الحالي عرض الأصول القديمة للفكر والمعارف في المجتمعات التي ضمتها دولة الإسلام، ولذلك نقتصر على ما كان معروفاً محتفظاً بحيويته عند تكوين الدولة. ومن أولى الملاحظات عليها أنها كانت في لغات متعددة، تنقل أكثرها شفاهاً، ويدون بعضها بكتابات متعددة، في أقاليم المشرق. وذكر ابن المقفع أن فيها من لغات هي الفهلوية، ويتكلم بها أهل أصفهان والري وهمدان ونهاوند وآذربيجان، والدرية لغة أهل المدائن والبلاط الساساني، وأهل خراسان وبلخ، والفارسية لغة أهل فارس، والخوزية لغة بعض أهل الأحواز، والسريانية لغة أكثر أهل العراق[١٠]، ونضيف الى ذلك الصفدية، والتركية في أقاصي المشرق، والعبرية لغة اليهود في المشرق والمغرب، والعربية لغة العرب، ولا بد أنه كانت بجانب ذلك لغات أخرى، كلغة الأكراد وأهل الديلم وطبرستان، ولهجات متعددة لم تجر دراسة شاملة في حصرها.

ومثل هذا التنوع كان قائماً في أقاليم الغرب، حيث كانت لغات أهلها العربية والسريانية في بلاد الشام وفلسطين، والقبطية في مصر، والبربرية في شمالي أفريقية، ولكل من هذه لهجات منوعة، كما كانت فيها الإغريقية واللاتينية.

ولا ريب في أن صعوبة المواصلات وضعف سبل الاتصال عمّق عزلة المجتمعات، وزاد من احتفاظ كل جماعة بثقافاتها آماداً طويلة.

---

(١٠) أبو الفرج محمد بن إسحق بن النديم، **الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم**، ص ١٥، وحمزة بن الحسن الأصفهاني، **التحريف في حدوث التصحيف**، ص ٦٧.

والى جانب التعدد في اللغات واللهجات، كان تعدد في الكتابات. ففي أقاليم المشرق كانت عند الساسانيين سبعة خطوط، هي: دفيريه، ويكتبون بها كتابهم المقدس، ويش ديريه، وهي ثلاثمئة وخمسة وستون حرفاً يكتبون لها الفراسات والرموز، وكشتج، وهي ثمانية وعشرون حرفاً يكتبون بها العهود والقطائع والنقود، ويتفرع منها نيم كشتج يكتبون بها الطب والفلسفة التي تكتب أيضاً بكتابة تسمى راس مهد، وشاه ذبيريه، وبها يتكاتب الملوك في ما بينهم، ورازمهريه التي يكتب بها الملوك الأسرار، وحروفها أربعون، ولهم هجاء يقال لها زوارشن وهي نحو الف كلمة تقرأ فيه الكلمة على غير ما تكتب. وللصغد أقلام متعددة قيل إنها تبلغ نحو مئتين، وللتبت والبلغار أقلام خاصة بهم[١١].

أما أقاليم المغرب، فمعلوماتنا عن تنوع خطوطها نزرة، ويمكن القول إجمالاً ان الشائع فيها الخطوط المصرية القديمة، والخط السرياني والعبري والإغريقي والروماني. وهذا التعدد في اللغات، والتنوع في الحروف والخطوط والكتابات، يعيق إنماء الكتابات العامة التي تيسّر للعدد الأكبر الإفادة منها، ويعزز الإقليميات الضيقة التي هي ألصق بالنطاق المحدود منها بالآفاق الواسعة.

لقد كان أكثر هذه الثقافات المحلية المتنوعة شعبياً وغير رسمي، وتيسرت له فرصة الامتداد والاتصال بالعرب بعد تكوّن الدولة الإسلامية، وأكثر ما تم ذلك عن طرق «شعبية» وغير رسمية، ومنها الموالي والجواري، وأصحاب الحرف. وفي الكتب إشارات الى بعض دورهم، فأما الجواري، فقد ازداد عددهن، ودخل كثير منهن بيوت العرب وتعلمن العربية، ومما له دلالة في هذا الميدان قول الفقهاء في صدر الإسلام ان مما يجب أن يمتع به الزوج مطلقته تزويدها بخادم، وهي دلالة على كثرة الخدم وأكثرهن من الأعاجم، وكذلك النظرة الفاحصة الى كتب الأنساب الأولى التي عنيت بتسجيل أنساب «العلية» من الرجال، وذكرت أصول والديهم، وأن كثيراً من أولادهم جاؤوا من أمهات أولاد، ويخرج عن نطاق بحثنا إيراد الأمثلة على ذلك. وأما في العلم، فنكتفي بالإشارة الى ما دونته المصادر من أن رؤساء علم الفقه في الأمصار كافة في زمن عبد الملك بن مروان كانوا من الأمصار، ولا نشير الى الأعداد الكبيرة من العلماء الموالي، مما حمل ابن خلدون على القول بأن أكثر حملة العلم في الإسلام من الموالي، وهو حكم مبالغ فيه، ولكنه يعكس بعض الحقيقة.

٧ ـ تعريب الدواوين

كان ولاة الأمر من خلفاء وولاة في الدولة الإسلامية ذوي نظرة واسعة، اهتموا بتوسيع الدولة وتثبيت الأمن فيها لتيسير الحياة السلمية المعينة على الازدهار والنماء. وقد

(١١) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ١٥ ـ ٢٠.

عنوا بوضع النظم الكفيلة لتحقيق ذلك من دون أن يحرصوا على التدخل في تفاصيل النظم أو القائمين على تحقيقها. وكانت جباية الخراج من أبرز ما تعتمد عليه الدولة في مواردها المالية الأساسية لعطاء المقاتلة وحاجات الدولة الأخرى، فاقتصروا على تعيين الولاة للإدارة، وتركوا تفاصيل نظم الجباية الى من كانوا يعملون فيها. وقد عبر عبيد الله ابن زياد عن سبب ذلك بقوله: «فوجدت الدهاقين أبصر بالجباية، وأوفى بالأمانة، وأهون على مطالبة»[12]. والواقع أن المدائني يذكر «أنه لم يزل ديوان خراج السواد وسائر العراق بالفارسية... فعزم الحجاج على أن يجعل الديوان بالعربية، وقلد ذلك صالح بن عبد الرحمن» و«أجل الحجاج صالح بن عبد الرحمن أجلاً حتى قلب الديوان»[13].

وفي أقاليم المغرب «لم يزل ديوان الشام بالرومية حتى ولي عبد الملك بن مروان، فلما كان سنة ٨١هـ أمر بنقله... فلم تنقض سنة حتى فرغ من تعلمه وأتى به عبد الملك، فدعا عبدجون كاتبه، فعرض ذلك عليه فغمه، وخرج من عنده كئيباً، فلقيه قوم من كتّاب الروم، فقال: اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة، فقد قطعها الله عليكم»[14].

إن هذا التعريب مقصود على ديوان الخراج الذي تقوم معاملاته على نظم متعددة ترتبط بالزراعة ومنتوجاتها ونظم الضرائب فيها، ولم يشمل الدواوين الأخرى كديوان الجند وديوان الرسائل التي كانت من البداية بالعربية. ولم يكن العرب جاهلين بالمعاملات الحسابية الضرورية للتجارة والتراث، والقرآن الكريم تطرق إلى نظم بعضها، ولكن تعريب الدواوين أزال بعض مظاهر الازدواجية في الإدارة، وأغنى الأساليب العربية. وقد حث عبد الحميد الكاتب في رسالته المشهورة الكتّاب على اتقان العربية وأساليب القرآن الكريم، غير أن أثر نصيحته كان محدوداً، فقد ظل أسلوب هؤلاء الكتّاب يتميز بالتركيز والتدقيق، مقابل أساليب العرب السلسة الفضفاضة، وظل أكثر هؤلاء الكتّاب من أهل العراق، على الرغم من أن أصولهم ليست فارسية، الا أنهم كانوا متعصبين للتراث الثقافي الفارسي، وخصوصاً في تقديرهم رسائل الملوك الساسانيين. وفي هذا يقول الجاحظ في رسالته المشهورة «في ذم أخلاق الكتّاب»[15]: «إن الكاتب منهم إذا وطن مقعد الرئاسة وتورك مشورة الخلافة، روى لبزرجمهر أمثاله، ولأردشير عهده، ولعبد الحميد رسائله، ولابن المقفع أدبه، وصير كتاب مزدك معدن علمه، ودفتر كليلة ودمنة كنز حكمته... ثم يقطع ذلك من مجلسه بسياسة أردشير بابكان أو تدبير

---

(١٢) أبو العباس أحمد بن يحيى البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج ٢ و٤، ص ١٠٩.

(١٣) أبو العباس أحمد بن يحيى البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٣٠٠.

(١٤) المصدر نفسه، ص ١٩٢.

(١٥) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، «في ذم أخلاق الكتّاب،» في: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، **ثلاث رسائل**، ص ٤٢ ـ ٤٣.

أنوشروان، واستقامة بلاد ساسان».

٨ ـ النقل من الفارسية

كان أبرز النقلة من الفارسية سالم مولى هشام بن عبد الملك، وعبد الله بن المقفع الذي كان معاصراً لهشام. وكان تاريخهم (**خداي نامه**) وعدد من وصايا ملوكهم هو أكثر النقل، فالنقل بدأ وكان واسعاً في زمن الأمويين المعروفين بتعصبهم للثقافة العربية، وكان محدوداً بتاريخهم (**خداي نامه**)، وعدد من وصايا ملوكهم، وبعض حكمياتهم(١٦)، وليس فيها مبالغة بالإشادة بهم، وإنما فيها ما يستفيده الحكام العرب من الاطلاع عليها. وهي ليست أكثر أو أعمق مما كان للعرب، فلا تتميز كثيراً من غيرها، ويتجلى ذلك من دراسة كتاب **عيون الأخبار** لابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) الذي جمع مقداراً كبيراً من المعلومات في هذا الميدان من مختلف المنابع، ومنها الفارسية التي لا تشغل في كتابه حيزاً كبيراً أو مكانة متميزة، وإنما تنسجم مع النطاق العربي العام وتنفيه وتحرفه.

إن مرجع قلة ما نقل عن الفارسية، على الرغم من كثرة المتعصبين لأهلها في العهود الإسلامية الأولى، هو ضعف الحركة الفكرية إبان حكم الساسانيين الذي دام أكثر من ثلاثمئة سنة، كما أن آثار تراثهم أبرز في الأدوية وبعض الأفكار الفلكية والقصص الشعبية التي تثير الخيال ولا تسمو بالفكر.

٩ ـ العلوم عند الفرس

يقول صاعد بن أحمد: «ومن خواص الفرس عناية بالغة بصناعة معرفة ثابتة بأحكام النجوم وتأثيرها في العالم السفلي، وكانت لهم أرصاد للكواكب قديمة ومذاهب في حركاتها مختلفة»(١٧). ويقول المسعودي: «وجدت عند بعض أهل البيوتات المشرفة من الفرس كتاباً عظيماً يشتمل على علوم كثيرة من علومهم وأخبار ملوكهم وأبنيتهم وسياساتهم لم أجدها في شيء من كتب الفرس كخداينامه وابن نامه وكهنامه، أو كان تاريخ هذا الكتاب أنه كتب مما وجد في خزائن ملوك فارس للنصف من جمادى الآخرة من سنة ١١٣هـ ونقل لهشام بن عبد الملك بن مروان من الفارسية الى العربية»(١٨). ولم أجد إشارة الى هذا الكتاب والعلوم التي ذكرها.

---

(١٦) انظر: محمد محمدي، **الترجمة والنقل عن الفارسية في القرون الإسلامية الأولى**، الروافد الفارسية في الأدب العربي؛ (بيروت: الجامعة اللبنانية، قسم اللغة الفارسية وآدابها، ١٩٦٤)؛ آرثر كريستنسن، **ايران في عهد الساسانيين**، ترجمة يحيى الخشاب؛ مراجعة عبد الوهاب عزام (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٧)، وما كُتب عن نقل كتب الفرس في: صالح أحمد العلي، **العلوم عند العرب**.

(١٧) أبو القاسم صاعد بن أحمد صاعد الأندلسي، **طبقات الأمم**، ص ١١.

(١٨) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، **التنبيه والإشراف**، ص ٩٢.

وذكر ابن النديم أسماء الفرس المشهورين في الطب في أيام ملوك الأعاجم، وممن وصل الينا تأليفه ونقل الى العربية ثيادورس، وكان نصرانياً وبنى له سابور ذو الأكتاف البيع في بلده ونقل له الى العربية **كنائس ثيودورس**[١٩]. ولم يذكر للفرس غير هذا الكتاب، الأمر الذي يدل على قلة إسهامهم في الطب الذي كان بيد النصارى، وخصوصاً في جنديسابور.

عني الفرس بالزجر والمواليد. وذكر ابن النديم من الكتب: **زجر الفرس، والفأل لأهل الفرس، والاختلاج على ثلاثة أوجه لفارس**[٢٠]،كما ذكر في القائمة التي أوردها عن النقلة من الفارسية أسماء أشخاص لهم علاقة بالتنجيم، وهم عمر ابن الفرخان، وأبو سهل الفضل بن نوبخت، والتميمي واسمه علي بن زياد.

فأما عمر بن الفرخان، فكان أحد المنجمين الذين عينوا وقت بناء بغداد وفسر كتاب **المجسطي**[٢١] وكتاب **الأربعة** لبطليموس[٢٢] وهما كتابان إغريقيان.

وألف محمد بن عمر بن الفرخان كتباً في المواليد وتحاويل السنين، وهذه المواضيع ألّف فيها أبو سهل الفضل بن نوبخت[٢٣]. ونقل العرب من الفرس كتباً في الأزياج، أبرزها **زيج الشهريار**[٢٤]، وألف عدد من العلماء كتباً في المواليد، وأبرزهم الوندر زغر ابن زادا انفروح، وله عدة نقول الى العربية[٢٥]. ولا تحتوي كتبهم الدينية على معلومات عن العلوم، وكل هذا يظهر ضعف اهتمام الفرس بالعلوم الصرفة والتطبيقية وقلة ما نقل العرب عنهم فيها.

١٠ ـ علوم أهل الهند

الهند بلاد واسعة غنية بعدد من المحاصيل الزراعية، ولأهلها حضارة قديمة وإسهام في الفكر، وكانت ملجأ بعض العلماء من المشرق. كما أن للهنود مع الساسانيين علاقة فكرية من مظاهرها كتاب **كليلة ودمنة**[٢٦]، فقد جلبوا رجلاً من أطباء الهند وأسكنوه

(١٩) ابن النديم، **الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم**، ص ٣٦٠، وأبو العباس أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ص ٤١٣.

(٢٠) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٧٦.

(٢١) المصدر نفسه، ص ٣٢٧.

(٢٢) المصدر نفسه، ص ٣٢٨.

(٢٣) المصدر نفسه، ص ٣٣٢.

(٢٤) المصدر نفسه، ص ٣٠٥، وأبو الحسن علي بن يوسف القفطي، **إخبار العلماء بأخبار الحكماء**، ص ٧٠.

(٢٥) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ١٢٧، وانظر تفاصيل أوفى في: العلي، **العلوم عند العرب**.

(٢٦) أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، **تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة**، ص ١٢٣.

السوس من الأحواز «فلما مات ورث طبه أهل السوس»، ولذلك صار أهل تلك الناحية مطلعين على طب العجم(٢٧). وقد أشار الجاحظ الى تفوق الهنود في علم الحساب وعلم النجوم وأسرار الطب، فضلاً عن تفوقهم في الصناعات(٢٨). وأشاد صاعد بعظمة الهنود وما لهم من حكمة وتقدم في علم العدد وصناعة الهندسة وأحكام النجوم وأسرار الفلك وسائر العلوم الرياضية، كما ذكر أنهم «أعلم الناس بصناعة الطب وأبصرهم بقوى الأدوية وطبائع المولدات وخواص الموجودات»، وذكر من كتبهم في علم النجوم **السندهند والأرجبهذ والأركند**. ومما وصلنا من علومهم في الموسيقى الكتاب المسمى بالهندية **نافر**، وتفسيره «ثمار الحكماء في أصول اللحون وجوامع تأليف النظم»، ومما وصل الينا من علومهم في العدد **حساب النجار** الذي بسطه محمد بن موسى الخوارزمي(٢٩).

بدأ اتصال العرب بعلوم الهند عندما أرسل أبو جعفر المنصور في طلب طبيب يعالج معدته(٣٠)، وقد جاء بغداد وفد من السند فيهم علماء في النجوم وأطباء أقاموا في بغداد ونشروا علمهم، ثم تلاهم أطباء وعلماء جاؤوا في زمن هارون الرشيد(٣١).

ومن أبرز الأطباء الأولين منكة الذي قدم الى بغداد في زمن هارون الرشيد، الذي كان المقربون إليه من البرامكة، فكانت له مكانة عند الرشيد(٣٢). وقد عدد ابن النديم وعدد من المصادر أسماء الأطباء الهنود في بغداد في العهود الأولى من تشييدها، وهم منكة وبهلة وصالح بن بهلة وصرك ومؤلف **السند** هشاء واطرسي(٣٣). ومن كتب الطب الهندية التي نقلت الى العربية كتاب **شاتامي**، وهو كتاب في السموم، وكتاب **أسماء عقاقير الهند**(٣٤) وكتاب **سرد**(٣٥) الذي نقل عنه علي بن ربن الطبري في كتابه **فردوس الحكمة**.

---

(٢٧) أبو الحسن علي بن ربن الطبري، **فردوس الحكمة في الطب**، ج ١، ص ٨٤٥.

(٢٨) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: **الحيوان**، ص ١٦١، و«فخر السودان على البيضان،» في: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، **رسائل الجاحظ**، تحقيق عبد السلام هارون، ج ١، ص ١٠٢.

(٢٩) صاعد الأندلسي، **طبقات الأمم**، ص ١٤١٢.

(٣٠) الطبري، **فردوس الحكمة في الطب**، ج ٣، ص ٣٨٨، والبيروني، **تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة**، ص ٣٥١.

(٣١) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، **البيان والتبيين**، ج ١، ص ٩٣، وابن النديم، **الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم**، ص ٤٢٥.

(٣٢) **الرسالة الهارونية**، ص ١٩٤، وابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ص ٢٧٥.

(٣٣) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٤٧٤؛ أبو الحسن علي بن يوسف القفطي، **تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء**، ص ٢١٥، وابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٠٥، ٣٦٠، ٣٦٥ و٣٧٧.

(٣٤) أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ١، ص ٧٤؛ الطبري، **فردوس الحكمة في الطب**، ص ٥٥٧، وابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٠٥.

(٣٥) اليعقوبي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٧٤، والطبري، المصدر نفسه، ص ٥٥٧.

وفي علم النجوم كانت أشهر كتبهم السندهند والأرجبهذ والأركند[٣٦]، وقد اعتمد السندهند كل من محمد بن ابراهيم الفزاري ويعقوب بن طارق[٣٧].

ومما أفاده العرب من الهنود حساب الغبار المسمى الحساب الهندي، وكان هذا الحساب أساس عدد من المؤلفات ألفها العرب بعنوان الحساب الهندي أو أرقام السندهند[٣٨].

ثانياً: العرب والعلم الإغريقي

١ ـ العلم الإغريقي

حظيت المؤلفات المدونة بالإغريقية، وخصوصاً في الطب والعلوم الصرفة والتطبيقية بتقدير متميز في أوساط من العرب وعند المحدثين الغربيين، ومن أبرز عوامل هذا التقدير أن الكتب وصلتنا شبه كاملة، ومرجع ذلك أن كثيراً منها ألف برعاية الملوك الهلنستيين الذين كانت لغتهم الإغريقية وتنافسوا في من يؤلف فيها، وأن أكثرها دوّن على أوراق البردي، وهي خير مواد الكتابة قبل انتشار الورق، وقد حفظ كثير منها في مكتبات الملوك أو المراكز التي يرعاها الحكام. وكان كثير منها يتميز بغزارة المعلومات ودقة التدوين وحسن التنظيم، ومما زاد في تقديرها حديثاً أن معظم الدول الغربية الحديثة اعتبر الثقافة الإغريقية من المقومات الأساسية في الثقافة الغربية الحديثة، فعنوا بجمعها والتدقيق في نشرها وفي شرحها، وأظهروا علناً أو ضمناً إعجابهم بها، فولدوا انطباعاً بأنها بدء الفكر العلمي ومفخرته[٣٩].

لا ريب في أن كثيراً من المؤلفات الإغريقية جديرة بالتقدير، غير أنه تجدر الملاحظة أنها ليست كبيرة في المقدار إذا لوحظت المدة الطويلة التي دونت خلالها هذه المؤلفات. ثم إن كثيراً من هذه الكتب المدونة بالإغريقية ألفها كتاب من أرومة غير اغريقية، وكثير منهم من أهل مصر وبلاد الشام والجزيرة والعراق، فلا يصح القول إنها تعبر عن تميز

(٣٦) صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص ١٣؛ المطهر بن طاهر المقدسي، كتاب البدوء والتاريخ، (المنسوب) لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي، ص ٤٦٢، والبيروني، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، ص ١٥.

(٣٧) كارلو ألفونسو نالينو، علم الفلك: تاريخه عند العرب في القرون الوسطى، ص ٦٠ ـ ٦٣.

(٣٨) صاعد الأندلسي، المصدر نفسه، ص ١١٤؛ القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٢٦٦؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج ١، ص ٦٦؛ أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ١، ص ٩٢؛ البيروني، المصدر نفسه، ص ٣٦، وصالح أحمد العلي، تاريخ العلم عند العرب.

(٣٩) انظر: ما خلفته اليونان، وتراث اليونان.

بيولوجي للعقل الإغريقي. كما أن الدراسات الحديثة أظهرت أن كثيراً من معلومات المؤلفات بالإغريقية ليست من مبتدعاتهم، وإنما أخذت ممن كان قبلهم، وإن تزايد معلوماتنا عن العلوم في بلاد المشرق، بما في ذلك مصر والعراق وبلاد الشام، يظهر بعض دين الإغريقية لمن سبقها من الأوائل. والراجح أنه لو استمر كشف وثائق العلوم المدونة بالهيروغليفية أو البابلية لظهر مدى المبالغة في تقدير الإبداع الإغريقي. وقد أدرك عدد من المؤلفين العرب هذه الحقيقة، فأشار إلى ازدهار العلم في العهود السابقة للازدهار الإغريقي. وتجدر الإشارة إلى أن عدد ممن ذكر من المؤلفين بالإغريقية خلال ألف سنة من القرن الرابع قبل الميلاد حتى ظهور الإسلام في القرن السابع، هو أقل بكثير من العدد الهائل المعني بالعلم والفكر في عهود الازدهار الإسلامي، وأن كثيراً مما نسميه كتباً هي رسائل لا يزيد حجمها على بضع صفحات.

لقد نشط التأليف بالإغريقية قبيل زمن الإسكندر، واحتفظ بنشاطه ثم تضاءل منذ القرن الرابع، أي قبيل مئتي سنة من مجيء الإسلام، وذلك عندما سيطرت المسيحية وأصبحت العقيدة الرسمية للدولة البيزنطية، فركز النصارى على دراسة عقائدهم، وأخذ الأباطرة يضطهدون الثقافة اليونانية، وأغلق جستنيان مدرسة أثينا وشتت علماءها. وفي هذا يقول المسعودي بعد أن يذكر تقدم الحكمة والعلم في زمن الإغريق وفترة من مملكة الروم: «ولم تزل العلوم قائمة مشرقة الأفكار قوية المعالم شديدة المكارم سامية البناء الى أن تظاهرت ديانة النصرانية من الروم... ضعفوا معالم الحكمة وأزالوا رسمها ومحوا سبلها وطمسوا ما كانت اليونانية أبانته وغيرته»[٤٠]. والواقع أن الفترة بين عامي ٦١٠ و٧١٧م كانت من أحلك الفترات في تاريخ الفكر البيزنطي، حيث شحت فيها المؤلفات وضعف الإسهام الفكري[٤١].

وعندما ضم المسلمون بلاد الشام ومصر الى دولتهم كانت اليونانية مقصورة على دواوين الجباية والمالية وعلى كنائس بعض فرق النصارى، وخصوصاً الملكانية، وهو مذهب أباطرة الدولة البيزنطية، وكان معظم أتباع هذا المذهب في بلاد الشام، وقليل منهم من المدائن والكوفة[٤٢]. وقد استوطن بغداد بعد تأسيسها[٤٣] أغلب نصارى المشرق

---

(٤٠) المسعودي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٥٤.

(٤١) انظر: جورج سارطون، **تاريخ العلم**، الترجمة العربية، ص ٦.

(٤٢) الطبري، **فردوس الحكمة في الطب**، ج ٢، ص ٢٥٦ و٦٣٠؛ البلاذري: **أنساب الأشراف**، ج ٥، ص ٢٨، و**فتوح البلدان**، ص ٢٨٩، وأبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني، **كتاب الأغاني**، ج ١٩، ص ٥٩.

(٤٣) أحمد بن محمد بن الفقيه، **كتاب البلدان**، ص ٢٤٤؛ أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، **البلدان**، ص ٢٤٤، وابن النديم، **الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم**، ص ٢٢٠.

بمن فيهم اليعاقبة والنساطرة، فكانت لغة كنائسهم وكتبهم السريانية.

والواقع أن مراكز العلم الإغريقي كانت عند تكوين الدولة الإسلامية مقصورة على بلدان محدودة هي الإسكندرية وأنطاكية، وربما حران والرها[٤٤]. وكان العلم فيها تلقينياً، ولم يشجع النصارى دراسة الفلسفة المخالفة للثقافة المسيحية، فلما عني العرب بعلوم الإغريق لنقلها الى العربية أرسلوا المبعوثين الى بلاد الدولة البيزنطية لجمعها، ولم يكونوا بحاجة الى ذلك لو كانت موجودة في بلادهم.

٢ ـ نقل الكتب من الإغريقية

يقول ابن النديم إن أول نقل في الإسلام من لغة الى أخرى كان هو الذي تم بأمر خالد بن يزيد، ووصفه بأنه حكيم ابن مروان، وكان فاضلاً في نفسه وله همة ومحبة للعلوم، خطر بباله الصنعة فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونان ممن كان منهم ينزل في مصر، وقد تفصح بالعربية، وأمرهم بنقل كتب من اللسان اليوناني والقبطي الى العربية. وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة الى أخرى[٤٥]. وهذا النقل تم بناء على رغبة شخصية من رجل ذي مكانة مرموقة في الأسرة الأموية، واعتمد على رجال من أهل مصر، وكانت أكثر عنايته بكتب الصنعة. وذكر له ابن النديم كتباً، منها كتاب **الصحيفة الكبير**، وكتاب **الصحيفة الصغير**، وكتاب وصيته الى ابنه في الصنعة[٤٦]، والراجح أن المقصود بالصنعة كتب الكيمياء وما اليها مما يتصل بالمعادن وتحويلها. وقد ذكر ابن النديم أن اصطفن القديم قام بنقل كتب الصنعة وغيرها لخالد بن يزيد[٤٧].

ثم أمر عمر بن عبد العزيز بنقل كتاب أهرون القس الى العربية، فقام بنقله ماسرجويه الاسرائيلي[٤٨]. وتجدر الملاحظة أنه في زمن خلافة عمر بن عبد العزيز القصيرة انتقل العلم من الإسكندرية الى انطاكية.

لم يذكر نقل غير هذه الكتب من الإغريقية في زمن الأمويين، غير أن تعليم الطب على الأقل ظل قائماً في زمنهم في الإسكندرية على الأقل.

---

(٤٤) المسعودي، **التنبيه والإشراف**، ص ١٠٥؛ ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ص ١٧١، وانظر: مايرهوف، «من الاسكندرية إلى بغداد،» في: عبد الرحمن بدوي، **التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية: دراسات لكبار المستشرقين**، ط ٤ (بيروت: وكالة المطبوعات، ١٩٨٠).

(٤٥) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٠٣.

(٤٦) المصدر نفسه، ص ٤١٩.

(٤٧) المصدر نفسه، ص ٤٠٤، وانظر: فاضل خليل ابراهيم، **خالد بن يزيد**.

(٤٨) ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ص ٢٣٢.

٣ ـ نقل كتب الإغريق في صدر الدولة العباسية

أولى الخلفاء العباسيون الأوائل اهتماماً بالحركة الفكرية، وعني بعضهم بنقل الكتب من الإغريقية. وأشارت الكتب الى اهتمام أبي جعفر المنصور في ذلك، فيقول صاعد: «فكان أول من عُني منهم بالعلوم الخليفة الثاني أبا جعفر المنصور، فكان رحمه الله مع براعته في الفقه وتوسعه في علم الفلسفة خاصاً في علم النجوم وبأهلها»[٤٩]. ووصف محمد بن علي الخراساني اهتمام المنصور بعدد من جوانب الحركة الفكرية، بما في ذلك الفقه والحديث واللغة، وأشار الى اهتمامه بالعلوم، فقال: «كان أول خليفة قرّب المنجمين وعمل بأحكام النجوم»... وهو أول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات الأعجمية الى العربية، منها كتاب **كليلة ودمنة**، وكتاب **السندهند**، وترجمت له كتب أرسطوطاليس من المنطقيات وغيرها، وترجم له كتاب **المجسطي** لبطليموس، وكتاب **الاريثماطيقا** وكتاب **اقليدس** وسائر الكتب القديمة من اليونانية والرومية والفهلوية والفارسية والسريانية، وأخرجت للناس فنظروا فيها وتعلقوا الى علمها[٥٠]. وممن اشتهر بالنقل في زمن أبي جعفر المنصور[٥١] البطريق، فقد نقل أشياء من الكتب القديمة، وكان نقله من الرومية الى اللاتينية.

لهارون الرشيد شهرة متميزة باهتمامه بالعلوم وتأسيسه بيت الحكمة التي اكتسبت شهرة لا تتناسب مع ما يتوفر عنها من معلومات اقتصرت على ذكر أسماء ثلاثة أشرفوا عليها، وهم سهل بن هارون وسلم وعريم[٥٢]، ومن نساخها علان الشعوبي[٥٣]، ولم يشتهر أي منهم بالاهتمام بالعلوم، وتدل أسماؤهم على أن صلتهم بالفارسية أوثق منها بالإغريقية.

ذكرت المصادر بعض مظاهر اهتمام هارون الرشيد بنقل كتب اغريقية، فقد ترجم الحجاج بن مطر كتاب **اقليدس**، وتسمى ترجمته الهارونية[٥٤]، ونقل الحجاج أيضاً كتاب **المرأة** لارسطو[٥٥] وكتاب **المجسطي** ليحيى بن خالد البرمكي وزير هارون الرشيد. ويذكر ابن جلجل[٥٦] أن الرشيد قلد يوحنا بن ماسويه، وهو سرياني مسيحي، ترجمة الكتب

---

(٤٩) صاعد الأندلسي، **طبقات الأمم**، ص ٤٨.

(٥٠) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ٢٢٣.

(٥١) ابن النديم، **الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم**، ص ٣٠٤.

(٥٢) المصدر نفسه، ص ١٥٤ و٣٠٧.

(٥٣) انظر: المصدر نفسه، ص ١٧٢، وسعيد الديوجي، **بيت الحكمة وما كتبه عنها يوسف العش** في: يوسف العش، **المكتبات في الإسلام**.

(٥٤) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٢٥.

(٥٥) المصدر نفسه، ص ٣١٢.

(٥٦) أبو داود سليمان بن حسان بن جلجل، **طبقات الأطباء والحكماء**، ص ٦٥، وابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**.

القديمة مما وجد في أنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم التي سيطر عليها المسلمون، ووضعه أميناً على الترجمة، ووضع له كتّاباً حذاقاً يكتبون، وقد خدم هارون والأمين والمأمون وعاش الى زمن المتوكل، ولم تذكر المصادر أنه كان على بيت الحكمة، وأسماء الكتب التي أشرف على ترجمتها.

وفي زمن الرشيد عني عدد من الأسرة العباسية ورجال إدارتها بالعلم والبحث، فكان لأم جعفر بنت الفضل مجلس في دارها «لا يجلس فيه الا الحسّاب والمتطببون»[٥٧]، وفي زمنه نقل ابن ناعمة الحمصي كتاب **سوفسطيقا** لارسطو[٥٨]، ونقل سلام الأبرش كتاب **السماع الطبيعي**[٥٩].

ولما ولي المأمون الخلافة في العراق أظهر ميله للمعتزلة، واهتم بجمع كتب الإغريق ونقلها الى العربية، وكاتبَ ملك الروم للحصول على هذه الكتب، وأرسل عدداً من العلماء والنقلة، فاختاروا كتباً جاؤوا بها، ثم أحضر حنين بن اسحاق، وكان في حداثة سنه، وأمره بنقل الكتب من الإغريقية الى العربية[٦٠].

امتد الاهتمام بالعلم ورعاية النقل الى رجال الدولة العباسية وعدد من البارزين فيها، ومن هؤلاء الحسن بن سهل، واسحاق بن سليمان بن علي، وبنو موسى بن شاكر، وكان برعايتهم من المترجمين يحيى بن البطريق، وقسطا بن لوقا، وثابت بن قرة، وحنين ابن اسحاق، وهو أبرز النقلة لكثرة ما نقل، وتعدد مواضيعها أو إتقان لغتها[٦١].

٤ ـ النقلة

عقد كل من ابن النديم وابن أبي أصيبعة فصلاً عن النقلة من اليونانية[٦٢]، وذكرا في مواضع أخرى من كتابيهما أسماء عدد من النقلة. ويتبين من قائمة ما ذكروه أن أكثرُهم، إن لم يكن كلهم، نصارى، نقلوا بعض هذه الكتب من ترجماتها السريانية، ثم عنوا في ما بعد بنقلها من أصولها الإغريقية. وقد نص على أن بعض النقلة من النساطرة السريان، ومن أبرزهم حنين، وابنه اسحاق، وابن اخته حبيش، ولم ينص على مذاهب

(٥٧) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ١٩٢.

(٥٨) ابن النديم، **الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم**، ص ٣١٠.

(٥٩) المصدر نفسه، ص ٢١٤.

(٦٠) المصدر نفسه، ص ٣٠٤؛ صاعد الأندلسي، **طبقات الأمم**، ص ٤٨، والقفطي، **تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء**، ص ١٣١.

(٦١) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٠٤، وانظر: المجمع العلمي العراقي، **الكتاب التذكاري عن حنين**.

(٦٢) انظر تفاصيل أوفى في: العلي، **تاريخ العلم عند العرب**، ورشيد جمعة الجميلي، **حركة الترجمة**.

عدد من بارزي النقلة، وإنما ذكر نسبة كثير منهم الى مدن من بلاد الشام والجزيرة الفراتية، ولا بد من أن تكون مذاهب هؤلاء هي اليعقوبية أو الملكانية اللتين كانتا سائدتين عند نصارى هذه الأقاليم والمدن، وكانت الإغريقية منتشرة فيها، حيث كانت لغة دواوين الخراج قبل تعريبها، ولغة أكثر كنائسها، فضلاً عن أنه كانت فيها مراكز العلم الإغريقي.

أما نصارى العراق، فكانت غالبيتهم المطلقة من النساطرة، ولغة الكنائس عندهم هي السريانية، وكانوا معنيين بدراسة ما يتعلق بالطقوس والجدل واللاهوت والمذاهب المسيحية، ولم يعنوا كثيراً بدراسة العلوم، وخصوصاً الصرفة والطبيعية.

انصب أكثر اهتمام السريان النساطرة في العراق على دراسة الطب وممارسته، وكانت مدرستهم الطبية في جنديسابور من أبرز مراكز الطب ودراسته، وبرز من رجالها آل بختيشوع الذين انتقل عدد من بارزيهم الى بغداد في زمن خلافة أبي جعفر المنصور، وتوارث ستة من أجيالهم مراكز مرموقة في ممارسة الطب، وكان كثير منهم أطباء الخلفاء وكبار رجال الأسرة العباسية ودولتها، ورعى هؤلاء عدداً منهم نقل كتب الطب الى العربية، كما رعوا بعض النقلة، ومنهم حنين بن اسحاق، وأغدقوا عليهم العطايا.

نقل السريان الى لغتهم عدداً من كتب الطب الإغريقية، وخصوصاً بعض كتب جالينوس، وألفوا عدداً قليلاً من كتب الطب، وأشهر من عني منهم بالنقل والتأليف في الطب بالسريانية[٦٣] أهرون القس الذي نقل كتابه الى العربية بأمر من عمر بن عبد العزيز، وسرجيوس الراسعيني، وهو أول من نقل كتب اليونانيين على ما قيل الى لغة السريانيين[٦٤]، ويوحنا بن سرابيون. وقد نقل حنين بن اسحاق معظم كتبهم الى العربية[٦٥].

وكان الأطباء السريان كالمحتكرين للطب في صدر الدولة العباسية، وربما قبلها، وفي هذا يقول الجاحظ عن النصارى: «ومما عظمهم في قلوب العوام، وحببهم الى الطغام أن منهم كتّاب السلاطين، وفراش الملك، وأطباء الأشراف والعطارين والصيارفة»، ويروي قصة فشل طبيب مسلم في حرفته وأنه لو كان نصرانياً لم يحق من هذا الفشل[٦٦].

(٦٣) ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ص ٣٥٥.
(٦٤) المصدر نفسه، ص ٣١٥.
(٦٥) انظر: **فهرست ما ترجم من كتب جالينوس**، نشره برجشتراسر ثم عبد الرحمن بدوي.
(٦٦) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، «الرد على النصارى،» في: الجاحظ، **ثلاث رسائل**، ص ١٧.

٥ ـ ميادين العلوم المنقولة عن الإغريقية

كانت كتب الطب أكثر ما نقل عن الإغريقية، وهذا راجع بعضه الى أهمية الطب في حياة الناس، والى أن عناية العرب اقتصرت على الأدوية وعلاج الجروح، وأنهم كانت لهم خبرات عملية لم تدون في كتب منظمة.

وأكثر ما نقل في الطب هي كتب جالينوس، وقد ألف حنين بن اسحاق فيها كتابيه: أحدهما فهرست لها، والثاني ما نقل منها الى السريانية والعربية. ويتبين من الفهرست أن جالينوس ألف نيفاً ومئة وثلاثين كتاباً ورسالة، منها كتب ومؤلفات أبقراط وعدد من الأطباء البارزين الذين سبقوه، وكتب عن حرفة الطب وأخلاقيته، غير أن أكثر مؤلفاته في التشريح والعلاج، وكانت معتمدة في دراسة الطب، ثم لخصها الإسكندرانيون في جوامع تشمل ستة عشر من كتبه، وأصبحت هذه الجوامع معتمدة في تدريس الطب.

نقل سرجيوس الى السريانية نقلاً رديئاً واحداً وعشرين كتاباً، ونقلت قرابة مئة من كتب جالينوس الى العربية، وقد نقل أكثرها حنين بن اسحاق (٣٤)، وحبيش (٢٨)، وعيسى بن يحيى (١٩)، واصطفن (٧)، واسحاق بن حنين (٦)، كما أن هناك كتاباً واحداً نقله كل من يحيى بن البطريق، وابراهيم بن الصلت، وشملي، وثابت بن قرة. وتم نقل أكثر هذه الكتب برعاية بني موسى بن شاكر.

وذكر ابن النديم مؤلفات عدد من الأطباء الإغريق، ترجم عدد منها الى العربية، ومن هؤلاء المؤلفين روفس (٤٣)، وقليقروس (١٥)، واوريباسيوس (٥)، وكتباً مفردة لسونوس، وديسقوريدس.

٦ ـ الهندسة

كانت الهندسة من أوائل العلوم التي نقلت الى العربية، وأبرزها كتاب **اصطروشيا** أو **أصول المهندس** لاقليدس، وكانت له عدة شروح اغريقية، وهو أول ما نقل في زمن هارون الرشيد، وله نقول وشروح عدة بالعربية. وظل كتابه مسيطراً في علم الهندسة حتى الأزمنة الحديثة.

ونقل العرب كتباً في الأكر، والدوائر، والمثلثات، والمخروطات.

٧ ـ الفلك والجغرافية

كان كتاب **المجسطي** في علم الفلك وحركات النجوم لبطليموس أشمل كتاب في الموضوع: «لا يعرف كتاب في علم من العلوم قديمها وحديثها ويشتمل على جميع ذلك العلم وأحاط بأجزاء ذلك الفن إلا ثلاثة كتب هي كتاب المجسطي... وكتاب أرسطو

في علم صناعة المنطق، وكتاب سيبويه النحوي البصري في علم النحو العربي»[٦٧]، وكان كتاب **المجسطي** من أوائل الكتب التي نقلت الى العربية في زمن خلافة أبي جعفر، ثم تلتها نقول وشروح عدة تالية.

أما كتاب بطليموس في الجغرافية فنقله متأخراً الكندي وثابت بن قرة، ولم يحظ بالمكانة التي كانت لـ **المجسطي** واعتمد عليه العرب في خطوط طول وعرض البلدان.

٨ ـ ميادين العلوم الصرفة والتطبيقية وآثارها

إن البحث الحالي يشمل النقل في ميادين العلوم الصرفة والتطبيقية، ولم تدخل فيه الآداب والعلوم الإنسانية والفلسفة. ونكتفي هنا بالإشارة الى أن العرب لم يعنوا بنقل كتب هذه الميادين الى العربية، ولعل مرجع ذلك ان مواضيعها متصلة بحياة الناس ونظمهم الاجتماعية والسياسية، وكذلك باللغة، فأما حياة الناس فهي خاصة بهم، تتطور تبعاً لتطور الأحوال المحيطة بهم، فهي محلية وليست عالمية، ويكون للعقائد الدينية الأثر الأقوى. ومن هنا تبعد آراؤهم القائمة على تعدد الآلهة والمجالس السياسية عن ممارسات العرب المسلمين الذين تحكم حياتهم مبادئ الإسلام والوحدانية التي تنزه الله تعالى عن كثير من ممارسات البشر. إن أثر هذا يتجلى واضحاً في عدم نقل روايات الإغريق وملاحمهم وأشعارهم وكثير من خطبهم، إذ إنها محلية بعيدة عما ألفه العرب وقدروه.

أما الفلسفة فحكمها خاص، وأثرها واضح، إذ هي عالمية وليست محلية في أفكارها وميادينها، وقد عنيت المؤلفات الإغريقية بها، وقدمت أبحاث ودراسات عني بها النصارى ثم المسلمون، فترجم كثير من كتبها، ودرست بسعة، وجرت عليها شروح وتوضيحات، وكان للمنطق منها أثر خاص في ميادين واسعة من الفكر. وإن سعة الاهتمام بها، وامتداد آثارها، وما كتب عليها من شروح وتوضيحات أو ردود، يكوّن ميداناً خاصاً لا تقل أهميته عن ميدان العلوم، وإن عدم بحثنا له هنا لا يرجع الى انتقامنا من أهميته، وإنما لأنه جدير بأن يفرد له بحث خاص.

ذكرنا أن ميادين العلوم الصرفة والتطبيقية التي عني العرب بنقلها عن الأعاجم، وخصوصاً عن الإغريقية والهندية، لم تكن غريبة عن العرب، وأنها بسبب اتصالها بحياة الناس من مختلف فئاتهم وطبقاتهم، كانت تجري ممارستها وفق تقاليد ترجع الى أزمنة سحيقة، وأن متابعة ممارستها طوال هذه الآماد يدلل على صحة معلوماتهم عنها. وهذه الممارسات منبعثة من الواقع العام، وليس من فرض رسمي تفرضه الهيئات الحاكمة العليا التي يقتصر تدخلها على منع ما يسبب الضرر أو ينافي الأخلاق. فتطبيقاتها عامة على الجميع، وليست مقصورة على فئة محدودة، وهي ليست جامدة، إنما يجري تطبيقها

---

(٦٧) القفطي، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٩٩.

باستمرار. وهي قابلة للنمو بما تقتبسه مما هو مطبق في مجتمعات لم يجر معها الاتصال من قبل، ولا بد من أن تكون الدولة الإسلامية وامتدادها الى أرجاء مترامية الأطراف يسيران مع توسيع الخبرات المحلية التي كانت مقصورة على مجتمعات ضيقة معزولة، فأحدثا فيها تبادل خبرات؛ قدمت فيها خبراتها وأخذت من خبرات غيرها. ومن هنا نجد في الأندلس ممارسات كان بعضها مما في المشرق، ومثل هذا في أواسط آسيا، أي أن الإقليمية بدأت تسمو الى مستوى العالمية.

إن هذه الممارسات الشعبية لم تكن عامة عند الجميع، ومن الطبيعي أن يبرز في كل مجتمع من يكون له اهتمام خاص، وعناية أوسع مما لغيره في الميدان الذي يعنى به من طب، أو هندسة أو فلك. ولم يدون أكثرهم خبراته، لقلة مواد التدوين وغلائها، ولم يحرصوا على تخليد أسمائهم، ولكن ثمار جهودهم تدل على كثرتهم وسعة خبرتهم. فقلة الأوبئة، وسلامة صحة الناس دليل على تقدم الطب، ومعرفة الطرق في الفيافي دليل على معرفتهم بالفلك، والعمائر والبيوت والآبار والترع دليل على تقدم في الهندسة، وازدهار التجارة يتطلب تقدم المعرفة بالحساب، ومعلوماتنا الحالية المتفرقة عن التقنيات تشير الى هذا التقدم الذي ستتضح معالمه عند تقدم دراستنا الى آثار التقنيات. ولا بد من أن بعض أسباب إغفال ذكر المبدعين القدماء، هو عناية الناس بالأفكار من دون أصحابها، وبالممارسات من دون مبدعيها، أي أن الاهتمام كان شعبياً وليس شخصياً. وليس من قبيل المصادفة العابرة أن يكون الفزاري من كبار علماء الفلك في زمن المنصور، أو لا بد من أن آخرين كانت لهم مكانة علمية لم تعن الكتب بتدوين أسمائهم.

بدأ نقل كتب العلوم في نطاق محدد في زمن دولة بني أمية، وبناء على رغبة من بعض خلفائها عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك، وأمرائها خالد بن يزيد، وتوسع في زمن العباسيين منذ بدء خلافتهم. وقد رعى عدد من خلفائهم الأوائل، أبو جعفر وهارون الرشيد والمأمون خصوصاً، وكذلك عدد من رجالهم المتنفذين ورجال ذوي المكانة في دولتهم، هذا النقل لكتب العلوم.

وكان القصد من النقل توسيع المعرفة، وليس لغرض سياسي، كعرض أفكار تثبيت مكانة الحكام أو تضعضع مكانة المعارضة. كما أن أكثر ما نقل يخدم أغراضاً علمية، وليست نفعية لجر أرباح مادية. ولم ينحصر نفعه بفئة محدودة معينة، وإنما أتيح لمن يريد الإفادة منه. ويسر نشره استعمال الكاغد، وهو مادة سهلة الاستعمال والحمل، رخيصة الثمن، فلم تنحصر نسخ الكتاب المنقول في مكان واحد معين، وإنما كان له مجال الانتقال الى أماكن عدة، بعضها نائية عن مكان نقلها، وتيسر للناس الإفادة منها من دون قصرها على طبقة سياسية أو اجتماعية.

لم تحتكر الكتب المنقولة العلم الذي تحويه، وإنما ظهرت في جانبها مؤلفات لأهل الدولة، واكتسب بعض هذه المؤلفات مكانة مرموقة لا يقل بعضها عن، إن لم يفق، المنقولات.

كان النقل مكتوباً بلغة عربية في مفرداتها وأساليبها، واختلفت المقولات في مدى مطابقتها الصور السليمة المقبولة، فكانت بعض المنقولات الأولى فجة في أسلوبها، وربما مفرداتها، وقد وصفها ابن النديم بأنها «عقطبية»، ثم سادت فيها الأساليب العربية السليمة، وصارت مفهومة ومستساغه للقارئ العربي، ولا تختلف كثيراً عن مؤلفات العرب في مفرداتها وأساليها. وهذا يظهر مدى امتداد العربية الفصحى عند النصارى، من السريان والنساطرة وغيرهم، علماً أن العربية كانت لغة ثانية لهم، وأنهم لم يتأثروا كثيراً بلغة وأساليب القرآن الكريم الذي لا بد من أن قراءته لم تشع بينهم، وأن تعدد الأصول المكانية لهؤلاء النقلة، من مدن العراق، وبلاد الشام، والجزيرة الفراتية يظهر سعة امتداد اتقان العربية، وهو موضوع تجدر دراسة أصوله وعوامل تثبيته.

كثرت في المنقولات الأولى المصطلحات الأعجمية الفجة، ثم تناقصت فسارت المؤلفات تستعمل مصطلحات عربية صرفة مستجدة من اللغة الذي يقر بفصاحتها أهل المعاجم. وتدل مقارنة المنقولات بأصولها الأولى، على مدى إدراك النقلة دقة معاني المفردات. غير أنه بقيت في المنقولات تعابير أعجمية في علوم كالجغرافية والهندسة، وقد عم استعمال بعض هذه التعابير، فأغنى العربية بزيادة مفردات بعضها أعجمي وبعضها اشتقاقي.

أظهر النقل تقدير العرب للمعرفة بصرف النظر عن مصادرها: «الحكمة ضالة المؤمن التقطها حيث وجدها»، ولا يتحمل الناقل مسؤولية ما نقل، فإذا كان النقل خطأ، فإن الرد على القول وليس على الناقل.

لقد كان النقل لأغراض إنماء المعرفة، وليس لتأييد دعاوى سياسية. فهي لسد نقص في الهيكل الثقافي وليس لتشويهه لأغراض الدعاية. لقد تثبت في الدولة مثل أعلى فكري هو خدمة الإنسانية وتقدمها من دون الاقتصار على تمجيد فئة محدودة لتشويه هذا المثل الأعلى الذي يوجه الباحثين لاشعورياً، فنقل العلوم لا يخدم أغراض الشعوبية، ولا ينقص من مكانة العرب، ولا يثلم الكيان الفكري الذي استقرت معالمه العامة بعد استقرار الدولة. وقد دونت إشارات فيها تفاصيل مما نقل، وظهر معجبون بالعلوم الأعجمية، ولكن هذا لم يكن مظهر شعوبية جامدة أو أداة هدم للكيان، ولم تحدث في ميادين العلوم مناظرات مناقضة كالتي حدثت في بعض الميادين السياسية الاجتماعية.

كان الناس يعملون بحدود طاقاتهم وضمن اجتهاداتهم لخدمة الإنسانية في ميدان الفكر المفتوح للجميع، والذي يخدم الكل لتحقيق التقدم والازدهار: **﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾**(٦٨)، **﴿والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير مردا﴾**(٦٩).

---

(٦٨) القرآن الكريم، «سورة المجادلة،» الآية ١١.

(٦٩) المصدر نفسه، «سورة مريم،» الآية ٧٦.

الفصل الثاني

التجربة التاريخية لعلاقة العرب بالثقافة الأجنبية

محمد توفيق حسين(*)

- ١ -

الحضارة العربية الإسلامية حضارة أصيلة، تستند أصالتها إلى أساس متين متقادم من تراث الحضارات والثقافات في الوطن العربي القديم، التي تشأت نشأة ذاتية، ونمت، وتكاملت خلال دهور طويلة: حضارات وادي النيل، وبلاد الشام، والعراق، وجزيرة العرب. وقد مرت تلك الثقافات القديمة العظيمة بفترات، قصيرة أو طويلة، من الجمود والخمود، لأسباب وعوامل عديدة، في مقدمتها اكتفاء الناس بما حصل لديهم من معرفة، وعكوفهم عليها، محاكاة وتقليداً وترديداً، والغزوات الأجنبية، وانعدام الأمن، واختلال الاقتصاد، وفقر المجتمع، وفقد جمهور الناس الأمل والطموح. ولكن هذا التراث الحضاري الذي كان ينقل بالمشافهة والممارسة جيلاً بعد جيل، أو يحيا منزوياً في المعابد والجوامع، وعند قلة من المثقفين والعلماء ورجال الفكر، يتعهدونه في عزلة وصمت وهدوء، سرعان ما ينبعث من جديد، ويسترد عافيته ونشاطه، ويستأنف مسيرته، ويعيد خلق نفسه بنفسه، عند توافر الظروف الملائمة للانبعاث. وكان الإسلام هو الباعث والحافز والمحرّك لهذا البعث الجديد، المتجسد في الحضارة العربية الإسلامية.

كان من حق جزيرة العرب أن تذكر في مقدمة أسس الحضارة العربية الإسلامية، وإنما أخرت ذكرها لعلاقتها المباشرة بظهور الإسلام. جزيرة العرب هي موطن العرب

(*) أستاذ التاريخ في جامعة بغداد.

والعربية والعروبية، في أطرافها وحواضرها قامت دول وإمارات حضارية متقادمة العهود، وازدهرت فيها الزراعة والصناعة والتجارة، وما كان ضرورياً ومتاحاً من الثقافة والمعرفة. وفي بوادي جزيرة العرب وصحاريها عاش العرب البدو، وطوروا لأنفسهم دورة اقتصادية متكاملة، تقوم على تربية الإبل والضأن والخيول، وما تستتبع الحياة البدوية الصحراوية المتنقلة من إلمام بمعرفة الضروري من الفلك والجغرافية والطب والبيطرة والصيدلة، واقتفاء الآثار، والعيافة والقيافة والريافة، وأخبار الأيام والأنساب والأحساب. وقد امتاز العربي بأخلاق الفرسان، من استقلال الفكر، والاعتزاز بالنفس، والإحساس بالكرامة والحرص عليها، ومن كرم ومروءة وأمانة، وغير ذلك من الفضائل التي تجمعها كلمة «فتوة». وكانت عندهم تقابل فضائل «الإيمان» عند المسلمين.

وفي جزيرة العرب نشأت، ونمت، وتطورت، اللغة العربية، هذه اللغة المدهشة بغنى مفرداتها، ويسر اشتقاقها، الأمر الذي أتاح لها نمواً غير محدود، ومنطق نحوها، وطواعيتها للتعبير عن كل فكرة، ومسايرة كل جديد في العلم والفلسفة والفنون. وفي هذه اللغة الأصيلة الفريدة نظم الشعراء ــ قبل الإسلام ــ روائع الشعر، ونطق الخطباء ببليغ الخطب، وصاغ الكهنة والحكماء الحكم والأمثال، وقصّ الإخباريون ما كان يمتع الناس ويفيدهم من أحداث تاريخهم. وكانت اللغة العربية خير أداة عبرت فيها الثقافة العربية الإسلامية عن ذاتها، بحيث أصبحت، بحق، هي الثقافة العالمية في عصرها.

ولعل أعظم ما قدمته جزيرة العرب للحضارة العربية الإسلامية هو الإنسان العربي نفسه. كانت كل عوامل ومواد انبعاث حضارة وثقافة عظيمة متوافرة في جزيرة العرب، وما يحيط بها من بلاد العرب. ولكن الإنسان العربي كان بعيداً عن وعي ذاته، وإدراك ما يختزن في نفسه من قوى وطاقات؛ قبائل متفرقة لكل قبيلة دائرة من الصحراء تعيش فيها، وإلٰه خاص بها تعبده، ومصالح محدودة تتعهدها وتحارب من أجلها، متفرقة جموعهم كحبات رمل الصحراء، ما إن يجمعها هدف موقت، ويكومها تلاً أو كثيباً برهة من زمان، حتى تعصف بها ريح عاتية من أسباب الفرقة والخلاف، فتعيدها كما كانت حبات رمل متناثرة. كان ينقص الإنسان العربي رسالة عليا يؤمن بها، وهدف يجاهد لبلوغه وتحقيقه. وكان الإسلام هو هذه الرسالة العليا المنتظرة، وكان محمد بن عبد الله ﷺ هو النبي والرسول المبلغ، والمعلم، والقائد الموحد. في مدرسة محمد ﷺ تعلم وتربى مئات من القادة، قادة للناس في السلم والحرب، في بناء الدولة وبناء المجتمع، وفي الانبعاث الحضاري والثقافي الجديد. ولم يشهد تاريخ البشرية مثيلاً لهذه المدرسة المحمدية، ولهذا الرسول المعلم. في أقل من قرن واحد امتدت عقيدة الإسلام، ودولة الإسلام، على معظم أقطار العالم المعمور يومئذ.

كان المسلمون يعون جيداً أن ما تحقق إنما تحقق بفضل الإسلام. من هنا كان حرصهم على وحدة عقيدة الإسلام، ومقاومتهم لكل انحراف عنها، وما كانوا يتخوفون

من أن يكون انحرافاً عنها. ومن هنا هذه الحساسية عند جمهور المسلمين من الثقافات الأجنبية الدخيلة، وخصوصاً في الموضوعات التي تمس العقيدة والإيمان من قريب أو بعيد. إن حرص جمهور المسلمين على وحدة العقيدة الإسلامية، وسلامتها، ونقائها من كل شائبة، تؤلف نقطة أساسية، أو هي النقطة الأساسية، في موضوع بحثنا هذا.

إن مبدأ ثقافة المسلمين وأساسها هو القرآن الكريم؛ بفهمه واستيعابه نمت وتطورت علوم المسلمين، مثل علوم القرآن: القراءات، وأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، والغريب، والإعجاز، والتأويل والتفسير وغيرها؛ وعلوم الحديث: جمعاً ونقداً للسند، وتحقيقاً للمتن؛ وعلوم اللغة: مفردات، ونحواً، وبلاغة وفصاحة وبياناً وأدباً؛ والفقه، أصوله ووسائل استنباط الفروع من الأصول، وعرض قضاياه الكبيرة منها والصغيرة، في كل ما يتعلق بحياة المسلم من عقيدة وشعيرة، ومعاملات اقتصادية ومالية واجتماعية، والحكم العادل وشروطه وأصوله، وحقوق وواجبات الراعي والرعية. . . الخ.

هذه العلوم التي عددتها، وغيرها من علوم التاريخ وتقويم البلدان، استتمت أسسها ومناهجها، بجهود المسلمين الذاتية، قبل أن يواجهوا الثقافات الأجنبية مواجهة أخذ وعطاء، وقبول ورفض، أي قبل أن تبدأ حركة الترجمة والنقل بجد وقصد وتخطيط، منذ عهد الرشيد وابنه المأمون، في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث.

وللترجمة دوافع ومقاصد عديدة، من أهمها شعور المشتغلين بالثقافة، ومن يرعى الثقافة من رجال الدولة وعلية القوم، بالحاجة إلى معرفة ما عند الأمم الأخرى من علوم وفنون وفكر وفلسفة، يضيفونها إلى ما عندهم منها، ويسدون بها ما ينقصهم منها. وطلب المعرفة متأصل في الإنسان، وحب الاستطلاع مغروز في طبيعته، فإذا كان هذا الإنسان ذكياً، مشغوفاً بالمعرفة، مفتح الذهن للبحث عن الحقيقة، طلبها من أي مصدر، وشجع من ينقلها له بلغته.

ومن دوافع الترجمة أن أبناء الحضارات والثقافات الأجنبية، الذين تعلموا العربية، كانوا يرغبون في نقل ما يستطيعون من تراثهم الفكري اعتزازاً ومباهاة ومفاخرة به، أو رغبة في النباهة الشخصية، والحظوة والمال عند الحكام والمشتغلين بالعلم.

ـ ٢ ـ

ومن الحق، ونحن نتكلم على حركة الترجمة والنقل إلى اللغة العربية، أن نبدأ بتعريب الدواوين في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦ هـ).

في خلافة عمر بن الخطاب (رض) وضع «الديوان»، وهو يرد في المصادر القديمة باسم الديوان مطلقاً، أو ديوان الجند، أو ديوان العطاء. وفي عهد عبد الملك بن مروان

أدخلت إصلاحات جذرية على بنية إدارة الدولة ومؤسساتها الرئيسية، الدواوين، من حيث لغتها، وبالتالي من حيث ثقافة القائمين على إدارتها. وكان في الكوفة والبصرة ديوانان: أحدهما بالعربية لإحصاء الناس وأعطياتهم، وهذا هو الديوان الذي كان قد وضعه عمر ابن الخطاب، والآخر للخراج، وللضرائب الأخرى، بالفارسية. وكان في الشام مثل ذلك، ديوانان: أحدهما بالرومية (اليونانية)، والآخر بالعربية. وقد جرى الأمر على ذلك إلى أيام عبد الملك بن مروان.

عندما تقلد الحجاج بن يوسف الثقفي إمارة العراق، كان يدير ديوان الخراج. وهو الديوان الفارسي، زاذان فروخ. فأمر الحجاج كاتبه صالح بن عبد الرحمان بنقل الدواوين من الفارسية إلى العربية، ففعل ذلك سنة ثمان وسبعين. وقد علَّم صالح بن عبد الرحمان كثيراً من الشبان النابهين أصول الكتابة في الديوان، فكان عامة كتّاب العراق من تلامذته.

وفي الشام أمر الخليفة عبد الملك بن مروان، سليمان بن سعد الخشني، وكان يتقلد له ديوان الرسائل، أن يحول الديوان المكتوب باليونانية إلى العربية، ففعل، وردَّ إليه عبد الملك جميع دواوين الشام[1]. لقد أعاد عبد الملك بن مروان إلى الخلافة العربية وحدتها وقوتها، وزادها قوة ومتانة بأن وحَّد لغة إدارتها، وعملتها، حين عرّب الدواوين والنقود. وكان تعريب الدواوين، يومئذ يعني تعريب جهاز الدولة بأسره، وما تبع ذلك من تعريب ثقافة الكتَّاب عموماً، بنشر اللغة العربية وآدابها. ولسوف يزداد عدد الكتَّاب بازدياد الحاجة إليهم، فتؤلف لثقافتهم الكتب في مختلف فروع المعرفة؛ ولسوف يؤلفون هم الكتب في مختلف فروع المعرفة. وكان الكتَّاب من أهم فئات الشعب التي قامت على جهودها الثقافة العربية الإسلامية.

وفي عهد الخليفة هشام بن عبد الملك استكمل تعريب الدواوين في المشرق، واشترط الإسلام على من يتولى الكتابة فيها، فصارت الدواوين، من يومئذ، عربية إسلامية. وفي خراسان كانت لغة الدواوين والحسابات الفارسية، وكان أكثر الكتّاب فيها يومئذ مجوساً. وقد عربت الدواوين في خراسان في ولاية نصر بن سيار منذ سنة ١٢٠هـ، وأول من نقل الكتابة فيها من الفارسية إلى العربية إسحاق بن طليق الكاتب. وفي العراق وخراسان أسلم كثير من كتّاب الدواوين لأن الخليفة هشام بن عبد الملك كتب إلى ولاته وإلى عمال الخراج يأمرهم ألا يستعينوا بأحد من أهل الذمة وأهل الشرك في أعمالهم وكتابتهم[2].

ومن أشهر كتَّاب الدواوين، في آخر أيام الأمويين، عبد الله بن المقفع، وكان من

(١) أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، حققه مصطفى السقا، إبراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي (القاهرة: مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٣٨)، ص ١٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٢ و ٦٧.

أوائل المترجمين من الفارسية إلى العربية، وقد طبع الترجمة بأسلوبه العربي البليغ، فصار ذلك أسلوباً في النقل من الفارسية إلى العربية سار على نهجه معظم من جاء بعده من المترجمين.

سأقتصر، في هذا الموجز، على الترجمة من الثقافة الفارسية واليونانية، لأنهما كانتا من أهم الثقافات الأجنبية التي تعاملت معها الثقافة العربية، ولأن موضوع الثقافات الأخرى طويل، لا يمكن أن تلمّ به مقالة، ويكفي أن نقرأ ما ذكره ابن النديم، في مقدمة كتابه **الفهرست**، لندرك جسامة الموضوع وتعدد أطرافه وفنونه: «هذا فهرست كتب جميع الأمم من العرب والعجم الموجود منها بلغة العرب، وقلمها، في أصناف العلوم وأخبار مصنفيها».

اللقاء بين الثقافة العربية والثقافة الفارسية قديم، بحكم المجاورة القريبة. وقد نقل المترجمون إلى العربية أطرافاً من الثقافة الفارسية: أخبار تاريخهم، وسير ملوكهم وأمرائهم، مما كانوا يسمونه: «خداينامه». ونقلوا كتباً عن إدارة دولتهم، ورسوم التعامل في دوائرها ودواوينها، وآداب المهن والصناعات، وكتباً في مراتب الموظفين والناس عموماً. ومن هذه الكتب **كتاب التاج وتاج نامه**، ويرد هذا الكتاب في ثبت آثار ما ترجمه عبد الله بن المقفع بعنوان: **التاج في سيرة انوشروان**. والواقع أن **كتاب التاج** ليس اسم كتاب واحد بعينه، إنما هو اسم فئة مخصوصة من الكتب، كانت توضع لملوك الساسانيين، ولم يكن لها فن معين، أو نوع خاص من العلوم والمعارف، بل كانت تدور على كل ما له علاقة بالملوك أو يمت إليهم بصلة في حياتهم العامة والخاصة[3]. ويرد في المصادر العربية ذكر أربعة من كتب **التاج**: **أولها** الكتاب الذي ترجمه ابن المقفع، **وثانيها** الكتاب المذكور في **فهرست** ابن النديم بعنوان: **كتاب التاج وما تفاءلت به ملوكهم**، **وثالثها** كتاب يذكره ابن قتيبة في **عيون الأخبار** ويقتبس منه فقرات. **ورابعها** الكتاب المنسوب إلى الجاحظ، وإن كانت نسبته إليه موضع شك عند الباحثين، وعنوانه **كتاب التاج في أخلاق الملوك**.

ومن الكتب الفارسية المترجمة إلى العربية **كتاب الآيين أو آيين نامه**، ويسميها المسعودي في كتابه **التنبيه والإشراف**، «**كتاب الرسوم**»[4]. وهذه الكتب، هي أيضاً، اسم جامع لا يختص بكتاب واحد معين، بل يطلق على فئة من الكتب الموضوعة طبق قواعد فن من الفنون، أو آداب غرض من الأغراض، مشتملة على الواجبات المفروضة، والنواهي والمكروهات، أو السنن المتبعة في كل فن، مثل آداب الحرب وقواعدها، وفن

(٣) محمد محمدي، **الترجمة والنقل عن الفارسية في القرون الإسلامية الأولى**، الروافد الفارسية في الأدب العربي؛ ١ (بيروت: الجامعة اللبنانية، قسم اللغة الفارسية وآدابها، ١٩٦٤)، ص ٢٥ ـ ٢٦.

(٤) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، **التنبيه والإشراف** (بيروت: دار التراث، ١٩٦٨)، ص ٩١.

الرماية، وفن الضرب بالصوالجة، وفن العيافة والاستدلال بها. وقد ضاعت ترجمات هذه الكتب، كما ضاعت أصولها الفارسية، وحفظت أجزاء وفقرات منها في كتب التاريخ والأدب العربي، مثل **تاريخ الطبري**، و**عيون الأخبار** لابن قتيبة، و**العقد الفريد** لابن عبد ربه، و**سراج الملوك**، للطرطوشي، وغيرها. ومن هذه المصادر العربية جمع محمد محمدي طائفة منها ونشرها[٥]. وقد ترجم إلى العربية كتاب آخر من نوع كتب **الآيين نامه** باسم: **گاه نامه**، ومعناه: **كتاب المراتب أو كتاب المناصب**. يقول المسعودي[٦]: «وللفرس كتاب يقال له: «كهنامه» فيه مراتب مملكة فارس، وإنها ستمائة مرتبة على حسب ترتيبهم لها. وهذا الكتاب من جملة «آئين نامه»، تفسير «آئين نامه» كتاب الرسوم. وهو عظيم في الألوف من الأوراق لا يكاد يوجد كاملاً إلا عند الموابذة وغيرهم من ذوي الرئاسات». وقد تسربت منه معلومات كثيرة إلى المؤلفات العربية، في ما يتعلق بالمراتب الإدارية، وأنظمة الحكم في الدولة الساسانية، ونظام الطبقات فيها.

ومن كتبهم التي ترجمت إلى العربية **تنسر نامه**، أو **كتاب تنسر**، ترجمه عبد الله بن المقفع عن اللغة الفارسية الوسطى «البهلوية»، أو «الفهلوية». وقد ضاع النصّ الفارسي، فقام ابن اسفنديار بترجمته إلى الفارسية معتمداً على ترجمة ابن المقفع العربية. كما قد ضاعت ترجمة ابن المقفع العربية، فقام يحيى الخشاب بترجمته عن الفارسية ونشره في القاهرة بعنوان: كتاب تنسر: **أقدم نص عن النظم الفارسية قبل الإسلام**[٧].

وهناك أيضاً كتاب **كارنامك أردشير**، وقد بقيت أجزاء وقطع منه مفرقة في المصادر العربية. وقد نشر صفحات منها بعنوان: **منتخب من عهد أزدشير بن بابك في السياسة**، محمد كرد علي[٨]. ونشر إحسان عباس فقرات مطولة منه بعنوان: **عهد أردشير**[٩].

أما كتاب **خداينامه**، أو **كتاب الملوك**، فكتاب كبير، ترجمه، أو ترجم أقساماً منه، عبد الله بن المقفع، وقد اعتمده معظم المؤرخين العرب مصدراً لتاريخ الفرس، كاليعقوبي، والطبري، والمسعودي، وابن قتيبة، وغيرهم. كما اعتمده مصدراً أبو منصور الثعالبي، وهو غير الثعالبي مؤلف **يتيمة الدهر**، لكتابه: **غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم**[١٠].

(٥) محمدي، المصدر نفسه.

(٦) المسعودي، المصدر نفسه، ص ٩١، ومحمدي، المصدر نفسه، ص ٢٦٢ ـ ٢٦٥.

(٧) كتاب تنسر، أقدم نص عن النظم الفارسية قبل الإسلام، نقله إلى العربية يحيى الخشاب ونشره في القاهرة.

(٨) محمد كرد علي، **رسائل البلغاء**، ط ٤ (القاهرة: [د. ن.]، ١٩٥٤)، ص ٣٨٢ ـ ٣٨٤.

(٩) **عهد أردشير**، حققه وقدم له إحسان عباس (بيروت: دار صادر، ١٩٦٧).

(١٠) أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي، **غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم**، نشره زوتنبرغ في باريس سنة ١٩٠٠ مع ترجمة فرنسية، وأعيد طبعه في طهران سنة ١٩٦٣.

وكذلك اعتمد عليه الفردوسي في **الشاهنامه**[١١]. وقد أدخل هؤلاء المؤلفون كثيراً من روايات إيرانية أخرى مثل **آيين نامه وگاه نامه وتاج نامه**، ثم من كتب النصائح والقصص العامية[١٢].

لقد ترجم إلى العربية عدد كبير من الكتب الفارسية، يذكرها ابن النديم في **الفهرست**[١٣]، ويذكر عدداً من مترجميها، وقد تقدم ذكر بعضها. ومن تلك الكتب كتب على ألسنة الحيوان، أشهرها كتاب **كليلة ودمنة**، وهو كتاب هندي الأصل، ترجم إلى الفارسية، ونقله عن الفارسية عبد الله بن المقفع، وهو من أشهر ما ترجمه إلى العربية من الكتب. ومنها كتب من الأساطير والقصص والحكايات والأسمار، لعلّ أشهرها: **هزار أفسان** ومعناه: **ألف حكاية**، وما يزال مؤرخو الأدب مختلفين في الأمر: هل **هزار أفسان** هو أصل من أصول **ألف ليلة وليلة** العربي[١٤].

كانت الكتب المترجمة عن الفارسية، في بدء عهد الترجمة، تظهر بصورة ترجمات مستقلة، ولكنها ترجمات حرفية، لا تخلو غالباً من حذف وإضافة واختصار وإسهاب، مسايرة للأساليب البليغة في اللغة العربية، كما فعل ابن المقفع في ترجماته. وأحياناً كانوا يقومون بترجمة قسم من كتاب، أو تلخيصه، أو نقل فقرات منه، كما هو الحال في أكثر المنقولات عن التاريخ الفارسي الكبير **خداينامه**. وكان المؤلفون يأخذون رسالة، أو كتاباً فارسياً، ويضيفون إليها مختارات من كتب أخرى، ليصنفوا مما اختاروه كتاباً جديداً، كما فعل الفيلسوف أبو علي أحمد بن محمد مسكويه في كتاب **الحكمة الخالدة أو جاويدان خرد**[١٥]، إذ جمع فيه فصولاً من حكم الفرس، والهند، والعرب، والروم، وحكم **الإسلاميين المحدثين**.

وأشير هنا إلى ما اختاره مسكويه من آداب الفرس: آداب بزرجمهر، حكم كسرى قباذ، كتاب بزرجمهر إلى كسرى، حكم تؤثر عن انو شروان، حكم لبهمن الملك، فصل من كلام حكيم فارسي وغيره، وصية أخرى للفرس، فصل آخر، فصل من كلام حكيم آخر.

---

(١١) أبو القاسم منصور بن فخر الفردوسي، **الشاهنامه**، ترجمة أبو الفتح بن علي البنداري؛ تحقيق عبد الوهاب عزام (القاهرة: [د. ن.]، ١٩٣٢).

(١٢) آرثر كريستنسن، **إيران في عهد الساسانيين**، ترجمة يحيى الخشاب؛ مراجعة عبد الوهاب عزام (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٧).

(١٣) أبو الفرج محمد بن إسحق بن النديم، **الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم** (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٣٠)، ص ٤٢٢ - ٤٢٤.

(١٤) يحيى الخشاب، **التقاء الحضارتين العربية والفارسية** (القاهرة: [د. ن.]، ١٩٧٠)، ص ٥٨.

(١٥) أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه، **الحكمة الخالدة**، تحقيق عبد الرحمن بدوي، دراسات إسلامية؛ ١٣ (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٢).

يخصص ابن النديم الفن الأول من المقالة التاسعة، من **الفهرست** للحديث عن الديانات والمذاهب التي كانت في نطاق دولة الإسلام، فيتكلم على مذاهب الصابئة الحرنانية [الحرانية] وأشهرهم وأعيادهم ولباسهم ورؤسائهم. ويتحدث بتفصيل طويل عن المنانية، أي ديانة ماني أو المانوية، ومذاهب أتباعه من الثنوية أو الاثنينية، ويلخص مبادئها وعقائدها، ويعدد كتب ماني، وكتب الأئمة بعده، ويتحدث عن الديصانية، والمرقيونية، والصابئة المغتسلة، أي الصابئة المندائيين في العراق. ويتحدث عن طوائف ومذاهب أخرى من طوائف المجوس. ويخصص ابن النديم الفن الثاني من المقالة التاسعة للحديث عن ديانات الهند والصين.

كل هذه المعلومات والترجمات عن الديانات والمذاهب غير الإسلامية، كانت روافد انصبت في الثقافة العربية، وأتاحت للعلماء والباحثين العرب، دراستها وفحصها، والمقارنة بينها، ونقدها. وقد أفاد منها مؤرخو الفكر الديني والفلسفي، فاعتمدوها في مؤلفاتهم. وتمثل كتب أبي الريحان البيروني: **تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة**، وابن حزم الأندلسي: **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، والشهرستاني: **الملل والنحل** وغيرها، قمماً عالية في علم تاريخ الأديان. وعلى أساسها يمكننا أن نقول، بحق، إن العرب هم واضعو علم تاريخ الأديان والمذاهب، وعلم الأديان المقارن.

كانت الثقافة العربية ثقافة عالمية، رحبة الآفاق، منفتحة على ثقافات العالم، تريد الاطلاع على كل ما هو نافع وحق فيها، ترى ذلك حقاً شرعياً لها، وواجباً عليها. يقول الجاحظ: «وقد نقلت كتب الهند، وترجمت حكم اليونانية، وحولت آداب الفرس... من أمة إلى أمة، ومن قرن إلى قرن، ومن لسان إلى لسان، حتى انتهت إلينا، وكنا آخر من ورثها»[(١٦)].

لقد نقل المترجمون إلى العربية كل ما وقع تحت أيديهم من كتب الأديان والمذاهب. وقد بذلوا غاية جهودهم في المحافظة على معانيها، والأمانة في أدلتها. يقول ابن النديم[(١٧)]، وهو يتحدث عن كتاب في الأديان، قديم النسخ، يشبه أن يكون من خزانة المأمون: «قال أحمد بن عبد الله بن سلام، مولى أمير المؤمنين الرشيد: ترجمت صدر هذا الكتاب والصحف والتوراة والإنجيل وكتب الأنبياء والتلامذة من لغة العبرانية واليونانية والصابية، وهي لغة كل كتاب، إلى العربية، حرفاً حرفاً، ولم ابتغ في ذلك تحسين لفظ ولا تزيينه، مخافة التحريف. ولم أزد على ما وجدته في الكتاب الذي نقلته، ولم أنقص،

---

(١٦) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، **الحيوان**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ٧ ج (القاهرة: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٣٨ ـ ١٩٤٥)، ج ١، ص ٧٥.

(١٧) ابن النديم، **الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم**، ص ٣٣.

إلا أن يكون في بعض ذلك الكلام ما هو متقدم بلغة أهل ذلك الكتاب، فلا يستقيم لفظه في النقل إلى العربية، إلا أن يؤخر، ومنه ما هو مؤخر لا يستقيم إلا أن يقدم، ليستقيم ذلك بالعربية... وأعوذ بالله أن أزيد في ذلك أو أنقص منه إلا على هذا الوجه الذي ذكرته وبينته في هذا الكتاب». وقد بلغ بعض مؤرخي الفكر العرب درجة عالية من التحقيق والأمانة العلمية بحيث كانوا يدفعون عن معتقدات وآراء المذاهب الأجنبية ما يعرفون أنه غير حق، وغير صحيح. يقول المسعودي(١٨): «ومتكلمو الإسلام من أصحاب الكتب والمقالات، ومن قصد إلى الرد على هؤلاء القوم [يعني المجوس]، ممن سلف وخلف، يحكون عنهم أنهم يزعمون أن الله تفكر، فحدث من فكره شر، وأنه الشيطان، وأنه صالحه وأمهله مدة من الزمان يفتنه فيها، وغير ذلك من مذاهبهم، مما تأباه المجوس، ولا تنقاد إليه، ولا تقرّ به. وأرى أن ذلك حكاية عن بعض عوامهم ممن سمع يعتقد ذلك، فنسب إلى الجميع».

على أن للتسامح حدوداً يقف عندها، ما وقف المخالفون في العقيدة والمذهب عند حدودهم لا يتعدونها، وما قصروا كتبهم على أنفسهم. وقد فتحت الخلافة العباسية للفرس كل مجالات المشاركة في الدولة والمجتمع والحياة الفكرية، فكان منهم وزراء، وولاة، وقادة جيوش، وقضاة، وكتّاب دواوين، وعلماء في مختلف فنون المعرفة. ومع كل هذا التسامح والانفتاح بقي فريق منهم حانقين، معاندين للعرب والإسلام، قاموا بإخراج كتب الديانات الفارسية القديمة من ظلمات مخابئها، وسعوا لنشرها بين الناس، وجندوا جهودهم للطعن في دين العرب، وتشويه تاريخهم، ونشر نقائصهم ومعائبهم، وتحويل كل فضيلة لهم إلى رذيلة، أولئك هم الزنادقة، والشعوبيون. ووقفت دولة الخلافة بالمرصاد لهم، لأن في دعوتهم زعزعة لأسس الدولة، التي قامت أصلاً على الدين الإسلامي. وقد تصدى للرد على الزنادقة والشعوبية أدباء العرب، وفي مقدمتهم الجاحظ، في كتبه، وخصوصاً في **البيان والتبيين**، وابن قتيبة في رسالته: **كتاب العرب أو الرد على الشعوبية**(١٩).

ـ ٣ ـ

تمتد أصول الثقافة اليونانية إلى ثقافة مصر وبلاد الشام والعراق التي سبقتها بأكثر من ألفي سنة في الفكر النظري والممارسة العملية لمختلف فنون المعرفة. ومن بلاد الشام أخذ اليونان حروف كتابتهم التي هي أصل حروف كل اللغات الأوروبية. وقد ساهم في هذه الثقافة عدد كبير من أبناء الوطن العربي القديم، كتبوا باليونانية، واتخذوا لهم أسماء

(١٨) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص ٨١.

(١٩) كرد علي، رسائل البلغاء، ص ٣٤٤ ـ ٣٧٧.

يونانية، مثل اقليدس، وزينون مؤسس الرواقية، وأفلوطين مؤسس الأفلاطونية المحدثة، وفورفوريوس الصوري، تلميذه ومنظم فلسفته، وغيرهم، فعدوا من علماء وفلاسفة اليونان، ونسيت أصولهم العرقية.

وقد مرت الثقافة اليونانية منذ بدء ازدهارها في القرن السادس قبل الميلاد، إلى التقائها بالثقافة العربية في بغداد في القرن الثامن بعد الميلاد، بتحولات كثيرة، ومنعطفات كبيرة، وصبت فيها روافد عديدة من ثقافات المشرق. وكانت فتوحات الاسكندر المقدوني المنعطف الكبير في الثقافة اليونانية، وفي الثقافة المشرقية إلى حد كبير. وبعد وفاة الاسكندر في بابل العراق سنة ٣٢٣ ق.م. انقسمت امبراطوريته الواسعة بين قادة جيشه. وكانت مصر من حصة بطلميوس، مؤسس دولة البطالسة أو البطالمة، وعاصمتها الاسكندرية التي أنشأها الاسكندر المقدوني. وأسس سيلوقوس دولة في بلاد الشام والعراق والمشرق كانت عاصمتها انطاكيا في بلاد الشام، وسلوقيا في العراق.

في الاسكندرية ـ في مصر ـ أنشأ بطلميوس سوتير معهداً للبحث والتأليف، ومكتبة كبيرة، أو الـ «ميوزيوم» ومعناه: «معبد ربات الفنون»، ويعرف عادة باسم مكتبة الاسكندرية، أو متحف الاسكندرية، أو معهد الاسكندرية. وتابع خلفه بطلميوس فيلادلفوس (٢٨٥ ـ ٢٤٧ ق.م.) العناية بالمكتبة حتى أصبحت أكبر مكتبة في العالم في زمانها، يؤمها العلماء والباحثون. لقد كانت لغة الدولة في عهد البطالمة هي اللغة اليونانية. وقد أقبل على تعلمها من كان يعمل في دواوين الدولة من المصريين. وقد ساهم المصريون بالحركة العلمية في معهد الاسكندرية. يقول أوليري:[٢٠] «ويظهر أنه كان في معبد عين شمس ما يشبه مجمعاً للحكماء من قبل، وأن هؤلاء الحكماء انتقلوا إلى المؤسسة الجديدة التي ورثت بذلك حكمة قدماء المصريين».

كان الفكر اليوناني فكراً نظرياً قائماً في الأساس على الملاحظة المباشرة لعدد محدود من حقائق الطبيعة والحياة، وعلى الحدس والتأمل الفكري المجرد. وخلال أجيال عديدة اجتمعت مادة من الوقائع والحقائق استعان بها أرسطوطاليس على وضع أسس علوم الطبيعة. وقد ساعده تلميذه الاسكندر المقدوني على القيام بأبحاثه في التاريخ الطبيعي، وأمده بالمعلومات والحقائق التي جمعها من الأقطار التي فتحها، كما أمده كذلك بالأموال والهبات. ولكن كان هذا هو البداية. وإنما استكمل العلم اليوناني أدواته ومناهجه وأبحاثه في علوم الرياضيات والفلك والطبيعة، في الاسكندرية في مصر. كان معهد الاسكندرية معهداً علمياً كبيراً. ففي الأبحاث الأدبية قام العلماء العاملون في المكتبة بعمل عظيم في جمع تراث اليونان الأدبي ونقده. ولا يدخل هذا في موضوع بحثي،

---

(٢٠) دولاسي ايفانز أوليري، علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب، ترجمة وهيب كامل (القاهرة: [د. ن.]، ١٩٦٢)، ص ٢٣.

وإنما أذكر أسماء بعض علماء هذا المعهد، الذين كانوا يعملون فيه، أو يتصلون بعلمه من قريب أو بعيد، والذين نقلت مؤلفاتهم ونظرياتهم إلى اللغة العربية. فمن العلماء في الرياضيات برز اسم إقليدس الذي عاش قبيل عام ٣٠٠ ق.م. في عهد بطلميوس الأول. ويحتوي كتابه **أصول الهندسة** أو **أركان الهندسة** على خلاصة للمعلومات التي حصلها اليونان من أيام فيثاغورس إلى عهده، وقد نسقها وبوبها في تسلسل منطقي. لقد أعطى إقليدس، وكان عالم رياضيات أصيلاً، للهندسة نظاماً، وجمع قواعدها وأركانها في منظومة منسقة. وبرز كذلك اسم أريستارخوس الفلكي (المتوفى حوالى عام ٢٣٠ ق.م.)، وقد قال: إن الشمس هي مركز الكون، وإن الأرض تدور حولها. ولم يعتمدها أحد من الفلكيين، حتى أثبتها كوبرنيقوس في مطلع العصر الحديث. وقد ذكرها البيروني ولكنه لم يأخذ بها.

ويعتبر إراتوسثنيس (المتوفى حوالى عام ١٩٤ ق.م.) كبير الجغرافيين الفلكيين في عصره، وقد ابتكر طريقة لقياس محيط الأرض وقطرها، وهي الطريقة التي طبقها في ما بعد الخليفة المأمون. وقد عرف العرب مؤلفات صديقه من صقلية أرشميدس (المتوفى عام ٢١٢ ق.م.)، واستعملوها، وخصوصاً في الميكانيكا (كتاب الحيل). كما برز أبولونيوس (حوالى عام ٢٢٥ ق.م.) في الإسكندرية، وتوفر على دراسات القطاعات المخروطية، واستعمل الاصطلاحات: قطع أهليلجي (أو ناقص)، وقطع مكافىء، وقطع زائد. وقد وضع هيبارخوس (المتوفى حوالى عام ١٢٥ ق.م.) علم الفلك على الطريقة العلمية التي كان لا بد فيها من قياس الزوايا والأبعاد على الكرويات. وبالإضافة إلى أبحاثه في الأوتار والجيوب، وضع ثبتاً يشتمل على ٨٥٠ كوكباً ثابتاً. وكان هذا الثبت إيذاناً بظهور علم الفلك الحقيقي[٢١]. وقد اكتشف هيرون الإسكندري آلات كثيرة، وألف في علم العدسات والميكانيكا، وخواص الهواء والريح. وكان جزء كبير من بحوثه الرياضية متعلقاً بعلم المساحة.

تضاءل الاهتمام بالعلوم النظرية في عهد الامبراطورية الرومانية، ولكنه لم يخل من ظهور عدد من مشاهير العلماء الكبار، في مقدمتهم: كلوديوس بطلميوس من مدينة الإسكندرية (حوالى ١٤٠ ـ ١٦٠م). الذي علم في أثينا والإسكندرية، ومن أهم كتبه الكتاب الذي ترجمه العرب بعنوان: **المجسطي**، وهو يشتمل على خلاصة لكل ما سبقه من أبحاث في حجم الأرض وتحديد الأماكن بالضبط. وضع هذا العالم جداول فلكية وخرائط لأقاليم الأرض، وقد جهد إمكانه أن يحدد خطوط الطول والعرض على أساس مشاهداته وأرصاده، وعلى أساس المشاهدات والأرصاد السابقة المدونة والمروية.

وقد وضع بطلميوس أبحاثه في صيغة نظام متسق، وعلل حركات الكواكب

---

(٢١) المصدر نفسه، ص ٤٠.

السيارة بنظريته المبتكرة عن الدوائر المتراكزة، وهي محاور دائرية تتحرك مراكزها على دوائر أكبر[٢٢].

ـ ٤ ـ

يبدأ تاريخ الأدب اليوناني الصرف بأبقراط، من جزيرة قوص (٤٦٠ ـ ٣٦٥ ق.م.)، وقد نقل عدد من مؤلفاته إلى السريانية، ونقل معظمها، إن لم نقل جميعها، إلى العربية. وكان كبير الأطباء من بعده، وأبعدهم شهرة، جالينوس (١٣٠ ـ ٢١٠م) الذي نشأ على تعاليم الفلسفة الرواقية، وتدرب على مهنة الطب في برغامة وسميرنا (إزمير)، وعمل في روما طبيباً للأمبراطور مركوس أوريليوس، وكان مؤلفاً مكثراً، نظم المعارف والعلوم الطبية في عصره، ومن ضمن ذلك المعارف المستمدة من التشريح، حيث كان تشريح جثث البشر يمارس منذ زمن طويل في الإسكندرية وغيرها. وقد ترجمت معظم كتبه الطبية والفلسفية إلى العربية، ونقل معظمها حنين بن إسحاق. ومن مشاهير مؤلفي اليونان في الطب أوريباسيوس (القرن الرابع الميلادي)، وقد ترجم أحد كتبه إلى العربية حنين بن إسحاق.

ومن أطباء السريان المشهورين بولص الأجانيطي، الذي عاش في أواخر القرن السابع الميلادي، وله كتاب في الطب يتضمن تسع مقالات، نقله إلى العربية حنين بن إسحاق. وكانت له شهرة عظيمة عند العرب، خصوصاً باعتباره خبيراً بعلل النساء، وحجة في الولادة، ولذلك سموه: «القوابلي»، أي المولّد[٢٣]. وفي هذه الفترة عاش أهرون القس الإسكندري الذي يقول عنه ابن العبري[٢٤]: «وكناشه في الطب موجود عندنا بالسريانية، وهو ثلثون مقالة، وزاد عليها سرجيس مقالتين أخريين». وكناش أهرون القس هو أول كتاب في الطب يترجم إلى اللغة العربية.

وفي مصر نشأت الأفلاطونية المحدثة، أو الجديدة، وهي آخر مذهب كبير في الفلسفة اليونانية كان له أثر واسع في الفلسفة الإسلامية إبان نشوئها وفي أول احتكاكها بالفكر اليوناني. وكان مؤسس هذه الفلسفة أفلوطين، وهو مصري، ولد في ليكوبوليس، أسيوط، حوالى عام ٢٠٠م. وقد درس على الفيلسوف أمونيوس ساكاس، وسافر إلى المشرق للاطلاع على معتقدات الفرس والهنود، وعلم الفلسفة في روما، وكان له فيها

---

(٢٢) روبرت برن، **تاريخ اليونان**، ترجمة محمد توفيق حسين (بغداد: [د. ن.]، ١٩٨٩)، ص ٥٠٦.

(٢٣) أبو الفرج يوحنا غريغوريوس بن العبري، **تاريخ مختصر الدول**، وقفاً على طبعة الأب انطون صالحاني (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٨٩٠)، ص ١٧٦.

(٢٤) المصدر نفسه، ص ١٥٧.

مريدون كثيرون، ومات فيها سنة ٢٦٩م[٢٥].

وقد رأس المدرسة بعده تلميذه فورفوريوس الصوري، من مدينة صور في لبنان، ورتب مؤلفاته وجمعها في كتاب يحتوي على ستة أبواب، يحتوي كل باب على تسعة فصول. ومن هنا اسم الكتاب باليونانية انياد، وقد عربه العرب باسم **التاسوعات** أو **التساعات**، أو **التساعيات**، وقدم فورفوريوس الكتاب بمقدمة تناول فيها سيرة معلمه أفلوطين. وقد ترجم عبد المسيح بن عبد الله بن ناعمة الحمصي أجزاء من **التساعات** الرابعة والخامسة والسادسة، إلى اللغة العربية، منسوبة إلى أرسطوطاليس، بعنوان: **آثولوجيا أرسطوطاليس**، التي كان لها تأثير كبير في الفلسفة والتصوف، ومن الأفكار الرئيسية في هذه الفلسفة قولها بالإلهام المباشر، وأنه يمكن تحصيل المعرفة بالإدراك الحسي، والاستدلال من الإدراك الحسي، أما أسمى مراتب المعرفة فيتلقاها طالب المعرفة بالإلهام المباشر.

وألف فورفوريوس كتباً فلسفية عديدة، أشهرها كتابه **ايساغوجي**[٢٦]، أو **المدخل إلى مقولات أرسطوطاليس الخمس**، وقد ترجم **ايساغوجي** مرات إلى السريانية والعربية، وكتبت له شروح وتفاسير عديدة، باعتباره خلاصة لمنطق أرسطوطاليس.

وخلف فورفوريوس، بعد وفاته على رئاسة مدرسة الأفلاطونية المحدثة، تلميذه السوري يمليخا من أهل سهل البقاع، وعند موته عام ٣٣٠م تشتتت المدرسة، إذ كانت الامبراطورية الرومانية قد اعتنقت المسيحية، وكان على الفلاسفة أن يحتفظوا بميولهم الدينية سراً.

ودخلت الأفلاطونية المحدثة إلى أثينا، واتخذتها موئلاً لها، وكان أكبر معلميها ومؤلفيها وشراحها برقلس (٤١٠ ـ ٤٨٥م). وقد ترجم بعض مؤلفاته وشروحه إلى اللغة العربية[٢٧].

ـ ٥ ـ

كانت الإسكندرية، منذ تأسيس معهدها في مطلع القرن الثالث ق.م. وحتى أواخر القرن الرابع بعد الميلاد، مركز العلوم والآداب والفلسفة اليونانية، ولكنها لم تبق

---

(٢٥) عبد الرحمن بدوي، محقق، **أفلوطين عند العرب**، نصوص حققها وقدم لها عبد الرحمن بدوي، نسخة ٢ (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٥).

(٢٦) فرفريوس الصوري، **ايساغوجي**، نقل أبي عثمان الدمشقي؛ تحقيق ودراسة أحمد فؤاد الأهواني (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٢).

(٢٧) عبد الرحمن بدوي، **الأفلاطونية المحدثة عند العرب**، دراسات إسلامية؛ ١٩ (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٥)؛ أبرقلس، **الخير المحض**، **في قدم العالم**، **في المسائل الطبيعية**؛ هرمس، **معادلة النفس**، وأفلاطون، **الروابيع** (القاهرة: [د. ن.]، ١٩٥٥).

هي المركز الوحيد. كما أن اللغة اليونانية لم تبق هي لغة العلم والفلسفة والتدريس، فقد حلت محلها، أو شاركتها، اللغة اليونانية في التأليف والمدرسة والكنيسة.

وتعرض معهد الإسكندرية لنكبات عديدة، أولها ما أصابه من تدمير وحرائق من جراء الحرب بين يوليوس قيصر ومارك أنطونيوس عام ٣١ ق.م. وآخرها حرق المكتبة وتدميرها بأيدي الجهلة من الرهبان المتعصبين في عهد الأمبراطور ثيودوسيوس (٣٧٩ - ٣٩٥م)، الذي أغلق المعابد الوثنية. وفي عام ٤١٥م. قتل المتعصبون من الرهبان عالمة الرياضيات هيباتيا، وكانت قد نشرت في الإسكندرية شرحاً للأفلاطونية المحدثة. ولكن العلم لم ينقطع من الإسكندرية نهائياً، وإن تقلص نشاطه، وتضاءل شأنه، وبقي حياً في مدارس صغيرة يتعهده ويعلمه عدد محدود من الأطباء والعلماء والفلاسفة حتى الفتح الإسلامي لمصر.

وقد حفظ السريان أجزاء من التراث العلمي والفلسفي اليوناني، وكانوا أول نقلته إلى العربية.

وكان معظم الرسائل والكتب المسيحية، في عصورها الأولى، باللغة اليونانية. ولهذا بقيت بعيدة عن متناول جماهير المؤمنين، وخصوصاً في القرى والأرياف. فلما ظهرت الطوائف الدينية، بعد الانقسامات اللاهوتية التي حصلت في المجامع الكنسية، في نيقية وخلقدونية وغيرها، وأهم هذه الطوائف النسطورية واليعقوبية، أقبل الكهنة والعلماء السريان على لغتهم السريانية يتعهدونها بالعناية، ويطورونها، ويكتبون ويؤلفون ويدرسون فيها. وكان استعمال اللغة السريانية في المدرسة والكنيسة، تأكيداً على الهوية الوطنية لهذه الطوائف، في مواجهة لغة الدولة اليونانية (البيزنطية، لغة الروم)، ومذهبها الرسمي الملكاني، ولغة الدولة الفارسية ودينها المجوسي[٢٨].

وقد نشأت، على غرار مدرسة الإسكندرية، مدارس في مدن عديدة، منها أنطاكيا، ونصيبين، والرها، ورأس العين، ودمشق، والقدس، في بلاد الشام والجزيرة الفراتية، والحيرة في العراق، وجنديسابور، التي أسسها الملك الساساني سابور الأول (٢٤١ - ٢٧٢م) في منطقة الأهواز (الأحواز، خوزستان).

وقد أدى الصراع الفكري بين الطوائف المسيحية إلى الاهتمام بالفلسفة، والمنطق بصورة خاصة. وقد ظل المنطق، على الدوام، المقدمة الضرورية للدراسات اللاهوتية في التعليم النسطوري كله. واعتنى النساطرة واليعاقبة السريان بالطب اليوناني والفلك والرياضيات. ولكن اهتمام السريان بالتراث اليوناني كان مقيداً بحاجات العقيدة المسيحية،

---

(٢٨) من الكتب المفيدة في دور السريان الثقافي، كتاب: أغناطيوس أفرام الأول برصوم، بطريرك أنطاكية وسائر المشرق، **اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والآداب السريانية** (بغداد: [د. ن.]، ١٩٧٦).

فأخذوا منه ما يلائمهم، وشرحوه في ضوء عقيدتهم. ومن هنا قلة اهتمامهم بالأدب اليوناني، ملاحم ومسرحيات، والأدب التاريخي اليوناني، وعنايتهم بالمنطق، وبعدد محدود من مؤلفات أفلاطون وأرسطوطاليس[٢٩]، وعنايتهم البالغة بالأفلاطونية المحدثة وشروحها، وكانت هذه الفلسفة قد نشأت ونمت في وسط مسيحي فتأثرت به، وأثرت فيه. وقد كيفوا التراث اليوناني وفق أساليبهم في التدريس فوضعوه في خلاصات مركزة، أو مختارات، ففقدت بذلك محاورات أفلاطون أسلوبها في الحوار المسرحي المنفتح على آفاق غير محدودة. وكان لكل هذا أثره في اتجاه الترجمة إلى العربية، فقد كان السريان هم أول من نقل الفكر اليوناني إلى العربية، عن ترجمات سريانية لهذا الفكر. ولا مجال هنا للحديث عن مترجمي الفكر اليوناني إلى السريانية قبل الإسلام، بل يكفي أن أشير إلى علم كبير من أعلامهم، هو سرجيوس الراسعيني (حوالى عام ٥٣٦م)، وكان فيلسوفاً، وطبيباً، وقد ترجم إلى السريانية كتباً مختلفة في الطب والفلك والفلسفة واللاهوت[٣٠].

كانت بداية حركة الترجمة للعلوم اليونانية في العصر الأموي. وتعود الخطوة الأولى فيها، كما يحدثنا الإخباريون، إلى الأمير خالد بن يزيد بن معاوية (توفي سنة ٨٥هـ/ ٧٠٤م، أو سنة ٩٠هـ)، فقد كان له ولع بالكيمياء، ومارس صناعتها، وكتب فيها رسائل، وترجمت له بعض الرسائل. ولم يصلنا شيء مؤكد من مؤلفاته ومما ترجم له. وأما الخطوة الثانية فتنسب إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١هـ). يذكر الإمام مالك بن أنس، في **الموطأ**، أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبي بكر بن محمد بن عمر بن الحزم (في المدينة)، أن انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ، أو سننه، فأكتبه: فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء. وأخرج أبو نعيم في **تاريخ أصفهان**، عن عمر بن عبد العزيز، أنه كتب إلى أهل الآفاق: انظروا إلى حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه[٣١].

ويقول موفق الدين بن أبي أصيبعة[٣٢]: «عبد الملك بن أبجر الكناني: كان طبيباً عالماً ماهراً. وكان أول أمره مقيماً في الإسكندرية لأنه كان المتولي في التدريس بها من بعد الإسكندرانيين الذين تقدم ذكرهم، وذلك عندما كانت البلاد في ذلك الوقت للملوك النصارى. ثم إن المسلمين لما استولوا على البلاد وملكوا الإسكندرية أسلم ابن أبجر على يد عمر بن عبد العزيز، وكان حينئذٍ أميراً قبل أن تصل إليه الخلافة، وصحبه. فلما أفضت الخلافة إلى عمر، وذلك في صفر سنة تسع وتسعين للهجرة، نقل التدريس إلى

أنطاكية وسائر المشرق، **اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والآداب السريانية** (بغداد: [د. ن.]، ١٩٧٦).

(٢٩) أوليري، **علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب**، ص ٨١.

(٣٠) برصوم، المصدر نفسه، في مواضع عديدة من الكتاب وكذلك فهرسه.

(٣١) أحمد أمين، **فجر الإسلام: يبحث عن الحياة العقلية في صدر الإسلام إلى آخر الدولة الأموية**، موسوعة أحمد أمين الإسلامية، ط ٢ (القاهرة: [د. ن.]، ١٩٣٣)، ص ٢٦٠.

(٣٢) أبو العباس أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، شرح وتحقيق

أنطاكية وحران، وتفرق في البلاد. وكان عمر بن عبد العزيز يستطب ابن أبجر ويعتمد عليه في صناعة الطب». ويقول ابن أبي أصيبعة (ص ١٥٨): «واهرن القس صاحب **الكناش**، وألف كتابه بالسريانية، ونقله ماسرجيس إلى العربي، وهو ثلاثون مقالة، وزاد ماسرجيس مقالتين». ويقول في موضع آخر (ص ٢٣٢): «ماسرجويه متطبب البصرة. كان يهودي المذهب، سريانياً. وهو الذي يعنيه أبو بكر محمد بن زكريا الرازي في كتاب **الحاوي** بقوله: «قال اليهودي». وقال سليمان بن حسان المعروف بابن جلجل: «إن ماسرجويه كان في أيام بني أمية، وأنه تولى في الدولة المروانية تفسير [أي ترجمة] كتاب أهرن بن أعين إلى العربية الذي وجده عمر بن عبد العزيز، رحمه الله، في خزائن الكتب، فأمر بإخراجه، ووضعه في مصلاه، واستخار الله في إخراجه إلى المسلمين للانتفاع به. فلما تم له في ذلك أربعون صباحاً، أخرجه إلى الناس، وبثه في أيديهم».

أوردت هذه الأخبار، على تباعد موضوعاتها وطولها، لأن فيها دلالات عديدة، وتوضح أموراً كثيرة: انتقال العلوم من الإسكندرية إلى بلاد الشام، وبدء حركة النقل والترجمة إلى اللغة العربية، وأن الترجمة بدأت بالنقل عن السريانية، وأنها بدأت أولاً بنقل العلوم العملية الضرورية لحياة الناس، ولأن هذه الأخبار، ومحورها عمر بن عبد العزيز، وهو من هو عند جمهور المسلمين، أصبحت رمزاً لموقف المثقفين المسلمين من الثقافة بصورة عامة، بما فيها الثقافة الإسلامية الأصيلة والعلوم الأجنبية الدخيلة: الحفاظ على التراث الإسلامي، وفي مقدمته الحديث والسنة، وأخذ المفيد والنافع والصحيح من التراث العلمي الأجنبي.

ـ ٦ ـ

وأول من اهتم بالترجمة من الخلفاء ـ في العصر العباسي ـ أبو جعفر المنصور. في عهده ترجم الكتاب الهندي في الفلك والرياضيات: **السيدهانتا، السندهند**. وترجم له محمد بن عبد الله بن المقفع كتاب **المقولات** لأرسطوطاليس، ويتضمن كتاب **ايساغوجي**، أي **المقولات**، أو **الكليات الخمس** لفورفوريوس الصوري، وكتاب **قاطيقورياس**، أي كتاب **المقالات العشر** لأرسطوطاليس بتفسير فورفوريوس الصوري، وكتاب **أنالوطيقا**، أي كتاب **تحليل القياس** لأرسطوطاليس، وكلها بترجمة محمد بن عبد الله بن المقفع[٣٣]. ويعزوها القفطي[٣٤] إلى عبد الله بن المقفع، وأغلب الظن أن القفطي وَهَمَ، فخلط الوالد بابنه محمد.

نزار رضا (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٦٥)، ص ١٧١.

(٣٣) عبد الرحمن بدوي، **مخطوطات أرسطو في العربية** (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٩)، ص ١٠ ـ ١١.

(٣٤) أبو الحسن علي بن يوسف القفطي، **تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمى بالمنتخبات**

والخليفة المنصور هو أول من استقدم طبيباً من آل بختيشوع، ونوبخت، من جنديسابور إلى العراق. وهذا الأمر كان فاتحة للتعاون بين هذه المدينة وبين بغداد، في الطب وترجمة العلوم.

ولكن الترجمة إنما أصبحت حركة متدافعة التيار، ذات هدف ومنهج في أواخر القرن الثاني الهجري، برعاية هارون الرشيد ووزرائه، ورعاية ابنه المأمون، وعلى يد حنين ابن إسحاق وتلامذته ومعاونيه. وقد أنشأ الرشيد بيت الحكمة في بغداد: خزانة كتب ومعهد ترجمة وتأليف. وقد تابع خلفاء بني العباس رعاية ترجمة العلوم والفلسفة إلى أواخر القرن الرابع الهجري. واقتداء برعاة العلم والترجمة من الخلفاء، أقبل الوزراء، وأمراء الولايات، والعلية من أغنياء الناس وذوي الرئاسة فيهم، على جمع الكتب، وترجمة النافع الجيد منها، وبذلوا الأموال في ذلك. كان حنين بن إسحاق يترجم لبني موسى بن شاكر، الذين كانوا ينفقون على الترجمة خمسمئة دينار في الشهر. وهذا مبلغ عظيم في حساب تلك الأيام.

وأشير هنا، مجرد إشارة، إلى حدث صناعي عظيم، كان له أثر خطير في ازدهار حركة الترجمة والتأليف والنشر، منذ أواخر القرن الثاني الهجري، ذلك هو قيام صناعة متقدمة للورق في بغداد، ومنها انتشرت إلى بلاد الشام ومصر والمغرب والأندلس. وما كان لهذه الآلاف المؤلفة من المجلدات الضخام أن تؤلف وتترجم وتنشر من كل منها نسخ عديدة، لولا توفر الورق ورخص أسعاره، والشاهد على ذلك قيام أسواق متخصصة للوراقة في بغداد ومعظم الحواضر الإسلامية، لنسخ الكتب وتجليدها وبيعها. ويذكر ابن النديم في **الفهرست**، وكان هذا الأديب العالم الفيلسوف هو نفسه ورّاقاً، عناوين أكثر من ستة آلاف كتاب. ومع تقدم صناعة الورق وازدهارها تقدمت كيمياء صناعة الحبر وأدواته، وتقدم كل ما يتصل بصناعة الكتاب من شيرزة، وتجليد، وتذهيب وغيرها.

ساهم في الترجمة عشرات المترجمين. ويذكر كمال السامرائي[٣٥] أسماء سبعة وأربعين مترجماً، مع نبذة عن حياتهم وعناوين الكتب التي ترجموها. هذا في الطب وحده. وأوجز الكلام في حنين بن إسحاق، فهو كبير المترجمين، والمثال الرفيع للمترجم الأمين.

كان حنين بن إسحاق العبادي متعدد جوانب الفكر والعمل. كان طبيباً ممارساً، ومؤلفاً في الطب، وخصوصاً في طب العيون، وله فيه تجارب ونظريات مبتكرة. وكان محباً للكتب، فسافر إلى بلاد الروم وغيرها لشرائها ونسخها، ووضع منهجاً لنقد النصوص، وتحقيق المخطوطات، يرقى إلى أعلى ما وصلت إليه مدرسة الإسكندرية في

---

(٣٥) كمال السامرائي، *مختصر تاريخ الطب العربي*، ٢ ج (بغداد: منشورات وزارة الثقافة والإعلام، ١٩٨٤ ـ ١٩٨٥)، ج ١، ص ٣٥٧ ـ ٣٦٧.

نقد النص وتحقيق المخطوطات. وكان يقارن نسخ المخطوطة الواحدة، ليصل إلى تحقيق نسخة صحيحة، سليمة، قبل البدء بالترجمة. وكان يتقن العربية والسريانية واليونانية، ويتقن موضوعات العلوم التي يترجمها. وكان إلى أمانته في الترجمة والنقل سليم اللغة، واضح العبارة، جميل الأسلوب. كانت الترجمة قبله من السريانية إلى العربية، فاعتمدت مدرسته النقل المباشر من اليونانية إلى العربية في معظم ما ترجموا. وقد أصلح حنين بعض الترجمات السريانية ونقحها، وأعاد ترجمة بعضها، ونقل كتباً عديدة من اليونانية إلى العربية، أو نقلها تلامذته ومعاونوه، وراجعها هو ونقحها. وقد بلغ مجموع أعمال حنين ابن إسحاق ما يقارب المئة وأربعين كتاباً بين مؤلف ومترجم، يذكر منها كمال السامرائي، في **مختصر تاريخ الطب العربي**[٣٦]، ١٣٩ كتاباً. ومعظم المترجم منها عن أبقراط وجالينوس. ويوجز ابن أبي أصيبعة[٣٧] رأي الأقدمين في ترجمة حنين بن إسحاق: «وأما حنين فكان مهتماً بنقل الكتب الطبية وخصوصاً كتب جالينوس، حتى إنه في غالب الأمر لا يوجد شيء من كتب جالينوس إلا وهي بنقل حنين أو بإصلاحه لما نقل غيره. فإن رؤي شيء منها وقد تفرد بنقله غيره من النقلة مثل أسطاث وابن بكس والبطريق وأبي سعيد عثمان الدمشقي وغيرهم، فإنه لا يعتنى به، ولا يرغب فيه، كما يكون بنقل حنين وإصلاحه. وإنما ذلك لفصاحته وبلاغته، ولمعرفته أيضاً بآراء جالينوس، ولتمهره فيها». توفي حنين بن إسحاق سنة أربع وستين ومئتين للهجرة، وهو في نحو السبعين من عمره.

- ٧ -

مر في تضاعيف البحث ذكر عدد من العلماء والفلاسفة وكتبهم المنقولة إلى العربية. وأعيد التذكير هنا بذكر عدد من العلماء المؤلفين، والفلاسفة، وعناوين بعض كتبهم وأسماء مترجميها، ولا حاجة إلى إعادة ما تكرر من أسماء العلماء والأطباء الكبار مثل أبقراط، وجالينوس، واسقوريدس، وغيرهم.

من بين أهم كتب العلوم المترجمة إلى العربية كتاب **أصول الهندسة** لاقليدس، وكتاب **المجسطي** لبطلميوس، وقد نقله رأساً من اليونانية في عهد هارون الرشيد، وكتاب أرشميدس في المثلثات، ترجمه يوسف الخوري القس، ونقح الترجمة في ما بعد ثابت بن قرة الحراني. وترجم قسطا بن لوقا كتاب **الكرويات** لثيودوروس، ونقحه في ما بعد ثابت ابن قرة. وترجم ثابت كتاب **الحيل**، في الميكانيكا، لهيرون، وكتاب **أوطولوقس**، وكتاب

(٣٦) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٤٠ - ٤٥٩.

(٣٧) انظر: ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ص ٢٦٢، انظر أيضاً: **مهرجان أفرام وحنين المقام في بغداد، ٤ - ٧ شباط ١٩٧٤** (بغداد: مطبعة المعارف، ١٩٧٤)، وعامر رشيد السامرائي وعبد الحميد العلوجي، **آثار حنين بن إسحاق** (بغداد: [د. ن.]، ١٩٧٤).

السماء لثيوفراسطوس، كما ترجم ثبت مؤلفات جالينوس، وكتاب يوحنا فيلوبونوس **في الطبيعة** لأرسطوطاليس، ونقح الترجمة القديمة لـ **المجسطي** لبطلميوس. هذه جملة صغيرة من عشرات الكتب التي نقلت إلى العربية، بالإمكان الرجوع إلى المصادر القديمة لزيادة المعرفة بها.

وفي الفلسفة نقل المترجمون جميع مؤلفات أرسطوطاليس، تقريباً، مع الكثير من شروحها، باستثناء المحاورات، وقد ضاعت أصولها، وكتاب **السياسة**، وأضافوا إليها ترجمة كتب منسوبة إليه، وهي ليست من تأليفه. ويذكر منها عبد الرحمن بدوي ستة وعشرين كتاباً[٣٨]، ومنها كتاب **أوثولوجيا أرسطو** الذي ترجمه عبد المسيح بن عبد الله بن ناعمة الحمصي، وهو كتاب منحول على أرسطوطاليس. ومن مترجمي أرسطوطاليس نذكر محمد بن عبد الله بن المقفع، وقد تقدم ذكره. وأما أهم مترجميه فهو إسحاق بن حنين: «كان إسحاق بن حنين مهتماً اهتماماً خاصاً بترجمة مؤلفات أرسطوطاليس. وترجماته في الذورة العليا من الدقة والأمانة، وتكشف عن الدرجة العليا التي بلغها إسحاق في فهم أرسطوطاليس فهماً حقيقياً»[٣٩]. وقد حفظ عدد من مخطوطات ترجماته نشر عبد الرحمن بدوي منها جملة كبيرة: **منطق أرسطو** في ثلاثة أجزاء؛ وفي **السماء والآثار العلوية**؛ و**الطبيعة**، مجلدان، مع شروح ابن السمح، ومتى بن يونس، ويحيى بن عدي، وأبي الفرج بن الطيب؛ وفي **النفس** ومعه كتاب في **النبات** المنسوب لأرسطوطاليس وهو من ترجمة إسحاق بن حنين أيضاً. وفي الجزء الأول من **أرسطو عند العرب** لعبد الرحمن بدوي، «مقالة اللام من ما وراء الطبيعة» لأرسطو، شرح ثامسطيوس، وترجمة إسحاق بن حنين. وقد نشرت ترجمات لأرسطوطاليس لمترجمين آخرين أذكر منها: **في الشعر** نقل أبي بشر متى بن يونس القنائي من السريانية إلى العربية، نشره في القاهرة عام ١٩٦٧ شكري محمد عياد؛ و**تلخيص كتاب أرسطوطاليس في الشعر** تأليف أبي الوليد بن رشد، ومعه **جوامع الشعر** للفارابي، نشره محمد سليم سالم في القاهرة عام ١٩٧١ أيضاً.

وترجم المترجمون مؤلفات أفلاطون، وأصبح كتاب **الجمهورية**، و**النواميس أو القوانين**، مع كثير من شروحها أساساً للنظريات السياسية في مدرسة الفارابي. وكان كتاب **طيماؤوس** معروفاً معرفة جيدة عند المتفلسفين المسلمين.

وترجمت مختارات من مؤلفات أفلوطين وشروحات تلاميذه، نشر منها عبد الرحمن بدوي طائفة كبيرة في كتابيه: **أفلوطين عند العرب** و**الأفلاطونية المحدثة عند العرب**.

وقد ساهم فلاسفة العرب وعلماؤهم الكبار في ترجمة كتب الفلسفة، أو في تنقيح

---

(٣٨) بدوي، **مخطوطات أرسطو في العربية**، ص ٢٦ ـ ٤٢.

(٣٩) ريتشارد فالتذر، **الفلسفة الإسلامية ومركزها في التفكير الإنساني**، ترجمة محمد توفيق حسين (بيروت: [د. ن.]، ١٩٥٨)، ص ٢٤.

ما ترجم منها ومراجعتها، أذكر منهم: الكندي، والفارابي، ويحيى بن عدي.

لقد قام مترجمو الفلسفة اليونانية إلى العربية بدور عظيم، وخصوصاً في وضعهم أساس المصطلحات الفلسفية في اللغة العربية، وفي تطويعهم اللغة والأساليب للتعبير عن الفكر الفلسفي بدقة، فساعدوا بذلك على إنشاء أسلوب تجريدي في الفكر العربي.

أشرت، في ما تقدم من البحث، إلى أساليب المترجمين العرب في الترجمة، وبينت أن مترجمي الآداب الفارسية اهتموا بجمالية الأسلوب، وفصاحة اللغة، وبلاغة التعبير، طبقاً لقواعد الفصاحة والبلاغة العربية. وأما مترجمو العلوم والفلسفة، فقد اهتموا بدقة التعبير عن معاني ما يترجمون من العلوم والفلسفة. وأزيد الأمر وضوحاً باقتباس عبارة صلاح الدين الصفدي، المتوفى سنة ٧٤٦ هـ/ ١٣٤٥ م، في الموضوع[٤٠]: «قال الصلاح الصفدي في شرح لامية العجم: وللتراجمة في النقل طريقان، أحدهما طريق يوحنا بن البطريق وابن الناعمة الحمصي وغيرهما، وهو أن ينظر إلى كل كلمة مفردة من الكلمات اليونانية وما تدل عليه من المعنى، فيأتي بكلمة مفردة من الكلمات العربية ترادفها في الدلالة على ذلك المعنى، فيبينها وينتقل إلى الكلمة الأخرى كذلك حتى يأتي على جملة ما يريد تعريبه. وهذه الطريقة رديئة لوجهين: أحدهما أنه لا يوجد في الكلمات العربية كلمات تقابل جميع الكلمات اليونانية، ولهذا وقع خلال هذا التعريب كثير من الألفاظ اليونانية على حالها. والثاني أن خواص التركيب والنسب الإسنادية لا تطابق نظيرها من لغة أخرى دائماً. وأيضاً يقع الخلل من جهة استعمال المجازات وهي كثيرة في جميع اللغات. والطريق الثاني في التعريب طريق حنين بن إسحاق.. وهو أن يأتي إلى الجملة فيحصل معناها في ذهنه ويعبر عنها من اللغة الأخرى بجملة تطابقها سواء ساوت الألفاظ أم خالفتها. وهذه الطريق أجود. ولهذا لم تحتج كتب حنين بن إسحاق إلى تهذيب إلا في العلوم الرياضية لأنه لم يكن قيماً بها بخلاف كتب الطب والمنطق الطبيعي والإلهي، فإن ما عربه منها لم يحتج إلى إصلاح. فأما أوقليدس فقد هذبه ثابت بن قرة الحراني، وكذلك المجصطي والمتوسطات بينهما».

لقد تقبل مثقفو المسلمين علوم اليونان، وغيرهم من الأمم، بالرضا، بل لقد سعوا هم إليها. فسافر منهم من سافر إلى أقطارها لجمع مخطوطاتها وتحقيقها وترجمتها. وإذا كانوا قد اعترضوا على بعض نظريات هذه العلوم، أو ردوا بعضها وأهملوها، فإنما فعلوا ذلك اجتهاداً في تطوير العلم وتصحيح مساره.

وقد صححوا فعلاً بعض نظريات هذه العلوم، ونقحوا بعضها، وأضافوا إليها

(٤٠) نقلاً عن: جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، **صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام**، ويليه مختصر السيوطي لكتاب نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان لتقي الدين بن تيمية، تحقيق علي سامي النشار (القاهرة: الخانجي، ١٩٤٧)، ص ٨ ـ ١١.

الكثير من الفروض والنظريات والتفسيرات الجديدة، استناداً إلى جهودهم المتواصلة في الأرصاد الفلكية، وإلى تجاربهم في الكيمياء، وإلى ممارسة العلاج والفحوص السريرية الطبية، وإلى اطلاعهم على أقطار الأرض، وخبراتهم في الصناعة والزراعة.

وفي الفلسفة وسم فلاسفة العرب ما أخذوه عن اليونان بميسمهم الخاص، وطبعوه بخصوصية ظاهرة في أدق التفاصيل، وقدموا، في الحقيقة، أشياء كثيرة مبتكرة للفكر الفلسفي، واقترحوا حلولاً جديدة لمسائل ومشكلات قديمة. ومن يقابل منطق ابن سينا في كتاب **الشفاء** بمنطق أرسطوطاليس وفورفوريوس والشراح الآخرين يجد اختلافاً في الجوهر والتفاصيل.

- ٨ -

الفلسفة اليونانية، من حيث أسلوبها العقلاني، وبعض أفكارها الرئيسية في الإلهيات وما وراء الطبيعة بصورة خاصة، هي وحدها تقريباً من بين الفكر اليوناني، التي كونت مشكلة تحتاج إلى موقف وحل. ومن مشكلات هذه الفلسفة المثيرة للجدل: مشكلة قدم العالم أو حدوثه، وخلود النفس، وبعث الأجساد، وصفات الإله، واعتبار العقل الفعال كائناً إلهياً متفرداً، وسيطاً بين العالم الروحاني الواقع فوق تلك القمر، وبين العقل الإنساني، وبوساطته يتصل العقل الإنساني والقوة المتخيلة الإنسانية بالإله، وغيرها من القضايا.

نشأ الجدل في صدر الإسلام حول أمور كانت تهم المسلمين وتؤرقهم يومئذ: من هو أفضل الناس بعد وفاة الرسول ﷺ؟ ومن هو أحقهم بالإمامة وأولاهم بالخلافة؟ وأعمال العبد، طاعاتها ومعاصيها، هل هي بقضاء الله وقدره، أم الأمر في ذلك مفوض لحرية العباد واختيارهم؟ ثم القول في الإيمان: هل هو قول وعمل، أم هو قول بغير عمل؟ وهل يزيد وينقص، أم لا زيادة فيه ولا نقصان؟ وقضايا كثيرة أخرى من هذا القبيل. وقد نما هذا التيار الفكري العقلاني في البصرة، على يد واصل بن عطاء، المتوفى سنة ١٣١هـ، وأصبح يعرف بالاعتزال. وازداد عدد القضايا التي تناولها المعتزلة بالبحث والتفكير، طوال القرن الثاني، كل قضية منها تثير قضايا أخرى جديدة، والجدل فيها يحوج إلى الاستعانة بما عند الآخرين من أساليب في الجدل والبحث والتفكير. واستعان المعتزلة، ومن تابعهم في أسلوب تفكيرهم، بمنطق اليونان وفلسفتهم، وكان هذا واحداً من أهم دواعي نمو حركة النقل والترجمة للمنطق والفلسفة.

وقد ثار جدل طويل بين النهج السلفي الأصولي ــ نهج أهل الحديث ــ الذي يعتمد أصلاً على القرآن والسنة وعلى طريقة الصحابة والتابعين في فهم القرآن الكريم وتفسيره، وبين نهج المعتزلة العقلاني الذي يريد إخضاع قضايا العقيدة والحياة للبحث الفلسفي والطريقة المنطقية في التفكير. وقد حاول المتكلمون من أشاعرة وماتريدية وكرامية

وغيرهم، طوال القرن الرابع، التوفيق بين نهج المعتزلة والأصوليين من أهل الحديث، ودافعوا عن العقائد الدينية بأسلوب منطقي عقلاني، ولكنهم لم يلبثوا أن أصبحوا هم أيضاً يحسبون، بنظر الجمهور، في عداد المعتزلة والمتفلسفة، لتشابه أساليبهم المنطقية بأساليب الفلاسفة وقضاياهم.

إن تتبع مواقف المثقفين المسلمين، وعلى الأخص مواقف علمائهم وفقهائهم، من الفلسفة والمنطق وعلم الكلام، يحتاج إلى دراسة وبحث طويل. وقد يسّر هذه المهمة إلى حد كبير، الإمام جلال الدين السيوطي، المتوفى سنة ٩١١ هـ/ ١٥٠٥م، بكتابه: **صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام**(٤١). يحتوي هذا الكتاب على ملخصات كتب ورسائل ومختارات من آراء وأقوال عدد كبير من العلماء والفقهاء والمتصوفة، بدءًا من الإمام الشافعي، والبخاري، والطبري، وأبي طالب المكي، وأبي سعيد السيرافي، وابن عبد البر، والخطيب البغدادي، وإمام الحرمين، والغزالي، وغيرهم، وانتهاء بالإمام تقي الدين بن تيمية. واقتصر هنا، على إيجاز رأي الشافعي، وشرح السيوطي له، وآراء الغزالي، فهي نموذج لمواقف الآخرين.

يقول السيوطي، في الفقرة المُعنونه: «ذكر من صرح بذم المنطق أو تحريمه من أئمة الإسلام»: «فأقول: أما الصحابة، رضي الله عنهم، والتابعون وأتباعهم، فلم يرد عنهم فيه التصريح بشيء لكونه لم يكن موجوداً في زمنهم. وإنما حدث في أواخر القرن الثاني كما تقدم. وكان الإمام الشافعي، رضي الله عنه، حياً إذ ذاك، فتكلم فيه، وهو أقدم من رأيته حط عليه» (أي أسقطه. وقد توفي الإمام محمد بن إدريس الشافعي سنة ٢٠٤ هـ في خلافة المأمون).

وهذا هو نص الشافعي: «. . . سمعت الشافعي يقول: ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطاطاليس».

ويشرح السيوطي عبارة الشافعي فيقول: «والغرض بهذا الكلام شرح قول الشافعي، رضي الله عنه، وأنه من أراد تخريج القرآن والسنة على مقتضى قواعد المنطق لم يصب غرض الشرع البتة. فإن كان في الفروع نسب إلى الخطأ، وإن كان في الأصول نسب إلى البدعة، وهذا أعظم دليل على تحريم هذا الفن، فإنه سبب الإحداث والابتداع ومخالفة السنة ومخالفة غرض الشارع. وكفى بهذا دليلاً، وهو مستنبط من كلام الشافعي رضي الله عنه. ونظيره تحريم النظر في متشابه القرآن خوف الزيغ والفتنة»(٤٢).

نقض الإمام أبو حامد الغزالي (المتوفى سنة ٥٠٥ هـ/ ١١١١م) الفلسفة والمنطق

---

(٤١) المصدر نفسه.

(٤٢) المصدر نفسه، ص ١٤ ـ ١٩.

والكلام في كثير من مؤلفاته ورسائله، **المنقذ من الضلال**، **وتهافت الفلاسفة**، **والجام العوام عن علم الكلام**، **وإحياء العلوم**، **وفيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة** وغيرها. وأكتفي هنا بعرض موجز لرأيه.

يلخص الغزالي القضايا المرفوضة من الفلسفة ويبين أن الخلاف بينهم وبين غيرهم من الفرق ثلاثة أقسام: «قسم يرجع النزاع فيه إلى لفظ مجرد ـ كتسميتهم صانع العالم، تعالى عن قولهم، جوهراً، . . . ولسنا نخوض في إبطال هذا. . والقسم الثاني ما لا يصطدم مذهب فيه أصلاً من أصول الإسلام، وليس من ضرورة لتصديق الأنبياء والرسل، صلوات الله عليهم، منازعة فيه، كقولهم إن الكسوف القمري عبارة عن انمحاء القمر بتوسط الأرض بينه وبين الشمس. . . وهذا الفن أيضاً لسنا نخوض في إبطاله، إذ لا يتعلق به غرض، ومن ظن أنّ المناظرة في هذا من الدين، فقد جنى على الدين وضعف أمره، فإن هذه الأمور تقوم على براهين هندسية حسابية، لا يبقى معها ريبة، فمن اطلع عليها، وتحقق أدلتها، حتى يخبر بسببها عن وقت الكسوفين، وقدرهما، ومدة بقائهما إلى الانجلاء، إذا قيل له: إن هذا على خلاف الشرع، لم يسترب فيه، وإنما يستريب في الشرع. وضرر الشرع ممن ينصره لا بطريقه، أكثر ممن يطعن فيه بطريقه، وهو كما قيل: عدو عاقل خير من صديق جاهل. . . والقسم الثالث: ما يتعلق النزاع فيه بأصل من أصول الدين، كالقول في حدوث العالم، وصفات الصانع، وبيان حشر الأجساد والأبدان. وقد أنكروا جميع ذلك. فهذا الفن ونظائره هو الذي ينبغي أن يظهر فساد مذهبهم فيه دون ما عداه»(٤٣).

وقد تحدث الغزالي، في **إحياء العلوم**، عن علم الكلام، وهل هو حلال أم حرام؟ وقال: «وإلى التحريم ذهب الشافعي، ومالك، وأحمد بن حنبل، وسفيان، وجميع أهل الحديث»(٤٤). وفي عنوان كتابه: **الجام العوام عن علم الكلام** وحده إشارة واضحة إلى خطر علم الكلام على العقيدة، ووجوب أبعاد جمهور المسلمين عن دراسته.

ويلخص الغزالي، في **المنقذ من الضلال**، موقفه من الفلسفة، وعلم الكلام والرياضيات وعلوم الطبيعة والطب، وغير ذلك من العلوم، ويوضح معنى التصوف ويؤكد صحته، ويبين أن سبيل الوصول إلى الحقيقة في الروحانيات إنما هو الكشف والإلهام. يقول الغزالي(٤٥): «. . .حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض [مرض الشك

---

(٤٣) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **تهافت الفلاسفة**، صححه وعلق عليه سليمان دنيا (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٤٧)، ص ٣٨.

(٤٤) نقلاً عن عبد الحليم محمود في: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال**، مع أبحاث في التصوف ودراسات عن الإمام الغزالي بقلم عبد الحليم محمود (القاهرة: [د. ن.]، ١٣٨٥ هـ)، هامش ص ٨١.

(٤٥) المصدر نفسه، ص ٧٥ ـ ٧٦.

والحيرة الروحية والعقلية]، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال، ورجعت الضرورات العقلية مقبولة، موثوقاً بها، على أمن ويقين. ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف. فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة، فقد ضيق رحمة الله الواسعة.. ولما سئل رسول الله ﷺ، عن «الشرح» ومعناه في قوله تعالى: ﴿**فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام**﴾[٤٦]. قال: «هو نور يقذفه الله تعالى في القلب»، فقيل: «وما علامته؟» قال: «التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، فمن ذلك النور ينبغي أن يطلب الكشف». وقد رد الفيلسوف الأندلسي الكبير أبو الوليد بن رشد (٥٢٠ ـ ٥٩٥) على **تهافت الفلاسفة** للغزالي بكتابه: **تهافت التهافت**. ولكنه جاء متأخراً. ولعل تأثيره في فلسفة أوروبا في العصور الوسطى كان أكثر من تأثيره في الفلسفة الإسلامية. وعلى كل حال، فقد كان نمو هذه الفلسفة الإسلامية قد تباطأ، وتوقف، قبل وقت طويل، وسلكت سبيل التصوف، وامتزجت قضاياها بقضاياه.

أما كتاب الإمام تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني، المتوفى سنة ٧٢٧ هـ، المعنون **نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان**[٤٧]، فبحث ضخم جدي في المنطق، فريد في بابه، وهو بالإضافة إلى رده على المنطق من وجهة نظر إسلامية، تقدم إيجاز أفكارها الرئيسية في الفقرة عن الشافعي والغزالي، يبحث في علم المنطق من حيث دعواه بأنه قواعد تنظم التفكير السليم، ويستعان بها على كشف حقائق جديدة لم تكن معروفة، أو إثبات حقائق معروفة، وينقض قواعد المنطق الأرسطوطاليسي، قاعدة قاعدة، بأسلوب منطقي رفيع المستوى، ويرد قول المناطقة: «إن التصورات لا تنال إلا بالحد» و «إن الحد يفيد العلم بالتصورات»، «وإن التصديقات لا تنال إلا بالقياس»، و «إن القياس يفيد العلم بالتصديقات». وضمن عناوين ردوده هذه، يتناول ابن تيمية بالشرح والنقد والنقض مجمل قواعد المنطق اليوناني الأرسطوطاليسي. وهذا الكتاب مجلد ضخم، يزيد على خمسمئة صفحة كبيرة، ولا مجال لبحثه هنا، ولا الاقتباس منه. وهو يستحق الكثير من البحث والدراسة، والمقارنة المعمقة مع موقف مدارس المنطق الغربية الحديثة من منطق أرسطوطاليس. وتتفق هذه المدارس مع ابن تيمية في أن منطق أرسطو، والقياس منه بصورة خاصة، تحصيل حاصل ومضيعة للوقت. يقول ابن تيمية، في أول عبارة من كتابه: «أما بعد، فإني كنت دائماً أعلم أن «المنطق اليوناني» لا يحتاج إليه الذكي، ولا ينتفع به البليد»..

---

(٤٦) القرآن الكريم، «سورة الأنعام،» الآية ١٢٥.

(٤٧) نشر الكتاب في مدينة بومباي في الهند تحت عنوان **الرد على المنطقيين** سنة ١٣٦٨ هـ/ ١٩٤٨م. ونشر علي النشار مختصر السيوطي للكتاب وعنوانه: كتاب **جهد القريحة في تجريد النصيحة** مع كتاب السيوطي، **صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام** في مجلد واحد في القاهرة سنة ١٩٤٧.

كانت الثقافة العربية الإسلامية ثقافة أصيلة عالمية الآفاق، انتفعت بها أمم عديدة في المشرق، ونقلت إلى أوروبا المسيحية في أواخر العصور الوسطى، بالاتصال المباشر، في الأندلس وصقلية، وبالترجمة إلى اللغة اللاتينية، ومنها إلى العديد من لغات أوروبا القومية. لقد ترجم من كتب العرب إلى اللاتينية أكثر من ثلاثمئة كتاب في الفلسفة والعلوم. أما دراسة انتقال التراث العلمي والفلسفي العربي إلى أوروبا المسيحية في العصور الوسطى، ومن هم مترجموه ونقلته، وكيف انتفعوا به، فكان من أسس نهضتهم الحديثة، فهي دراسة ممتعة، ولكنها تخرج عن نطاق بحثي هنا عن الترجمة إلى اللغة العربية، وتستحق أن يخصص لها دراسات وأبحاث معمقة.

الفصل الثالث

ملاحظات حول الاستشراق ودارسيه

حسام محيي الدين الآلوسي(*)

يعرف المطلع على موضوع «الاستشراق» أن الموضوع قد أشبع درساً وتقييماً ونقداً من كل جوانبه الممكنة، لذلك عندما أسند إلي المجمع العلمي العراقي المشاركة في هذه الندوة ببحث عن الاستشراق، فكرت ملياً، خصوصاً أنني كنت قد شاركت ببحث مطول في سلسلة «الاستشراق» التي خصصتها دار الشؤون الثقافية، والتي صدرت في خمسة أجزاء كبيرة متنوعة التناول والأبعاد بين العامين ١٩٨٧ و١٩٩١[١].

كان علي أن أعيد قراءاتي حول «الاستشراق»، وهي كثيرة وواسعة ومتشعبة جداً، وأن أضيف إليها كتباً أخرى ودراسات لم أرجع إليها أو أنها صدرت منذ صدور بحثي في عام ١٩٨٩، لكي أجد منفذاً لكتابة موضوع جديد له مبرراته وعندي في كتابته قناعة، فلم أجد من المفيد أن أخوض في تاريخ الاستشراق، وظهرت على سطح مراجعاتي أمور عدة، وملاحظات كثيرة، ووجدت أن تركيزها في نقاط قليلة جامعة هو أحسن ما يمكن ان أشارك فيه حول الاستشراق، الأمر الذي يلائم هذه الندوة. وهذه الملاحظات هي:

١ ـ ملاحظة حول التعريف.

٢ ـ ملاحظة حول: هل تبدل الاستشراق؟ وهو ما يدعيه أنصاره ورجاله منذ أن اشتد النقد على الاستشراق. ويتضمن هذا عرضاً لمقومين جدد للاستشراق سلباً وايجاباً وحول مقياس واضح للتصنيف.

(*) رئيس قسم الفلسفة في كلية الآداب، جامعة بغداد.

(١) حسام محيي الدين الآلوسي، «صور نقدية للاستشراق التقليدي والجديد، أو تطور الاستشراق وتطور النظرة إليه،» الاستشراق، العدد ٣ (١٩٨٩)، ص ٣٢ ـ ٧٦.

٣ ـ تركيز دعوى إدوارد سعيد، وتركيز نقاده؛ حيث اطلعت على نقاد جدد ومهمين، يغنون جداً ما قدمته من نقود على إدوارد في بحثي السابق، وخصوصاً نقد صادق جلال العظم وبرنارد لويس، ورودنسون من مقابلات لاحقة معه، ويانوش وجيراير ومحمد أركون وآخرين.

٤ ـ ملاحظة حول الدعوة المقابلة للاستشراق وهي «الاستغراب»، خصوصاً عند حسن حنفي، ومحمد الصادق وآخرين، ومسبقاً نوضح أن «المقصود هنا شيء آخر غير الاغتراب».

٥ ـ ملاحظة حول من أسميتهم منذ خططت لبحثي الأول في عام ١٩٨٧، بـ «مستشرقين عرب» ووعدت مراراً بالكتابة فيه ولم أفعل حتى الآن. وهذه الملاحظة تملك أهمية خاصة، حيث إنها توضح انه سواء كف الاستشراق عن تقديم «خدماته» إلى جهات ودوائر معينة أو لم يكف، وسواء تراجع عن تقويماته الدونية للشرق وللعرب بوجه خاص، أو لم يتراجع، فإن عديدين من العرب يحملون دعاويه بأشكال ولأسباب شتى، وهي تنطلي أحياناً على غير الخبير.

أولاً: ملاحظات حول التعريف

١ ـ الملاحظة الاولى: حول التعريف

يميل معظم الدراسات إلى تعريف الاستشراق بأنه دراسة كل شيء عن الشرق، لغاته القديمة، ولهجاته الحديثة، وتأريخه وأساطيره، وطباعه، وعاداته، وأديانه، ومعادنه، وكل ما يتصل به من الناس والحيوان والنبات والمناخ والتربة، ومكونات الشخصية.. وعوامل الفرقة. وأما المستشرق فهو من له اهتمامات جادة بهذه الدراسات[٢].

ويكرر هذا التعريف مع إضافات تفصح احياناً عن إدانة، مثل التعريف التالي: «الاستشراق هو تخصص الغربي الصليبي في دراسة الشرق شمولياً لإضعاف نقاط قوته وإبراز ضعف وتشويه الاسلام لدى الغربي»[٣].

ويلاحظ بعضهم أن كلمة «استشراق» تشمل الشرق كله حتى حدود اليابان والصين[٤]، ولذلك يفضل بعضهم كلمة «استعراب» و«مستعرب» لأن كلمة «الاستشراق»

---

(٢) عبد المتعال محمد الجبري، **السيرة النبوية وأوهام المستشرقين** (القاهرة: [د.ن.]، ١٩٨٨)، ص ٩.

(٣) محمد الصادق عبد اللطيف، «الاستشراق.. الواقع والاتجاهات والمواجهة،» ورقة قدّمت إلى: وحدة الثقافة العربية: **أبحاث ندوة عمان، الأردن، ١٠ ـ ١٢ كانون الاول/ ديسمبر ١٩٩٣** (عمان: الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب، ١٩٩٥)، ص ٢٣٠.

(٤) صبحي ناصر حسين، «موقف المشارقة من المتشرقين،» **الاستشراق**، العدد ١(١٩٨٧)، ص ٤٧.

تشمل كل الشرق[٥]، بينما يسوي آخرون بين «المستشرق» و«المستعرب» لأن المستشرق أو المستعرب هو هذا الأوروبي المعني بحضارة الشرق العربي وتشعباته وصوره المختلفة منذ ظهور الاسلام في القرن السابع الى اليوم. وإن مصطلح الاستشراق استقر في المؤتمر الأول للمستشرقين في باريس سنة ١٨٧٣، ثم تحول لأسباب عدة إلى تخصص في موضوعات في مؤتمرهم الثاني والثلاثين في ٢٠ آب/أغسطس ١٩٨٦[٦]، بل إن كلمة مستشرق واستشراق تختفي من المعجم الاكاديمي الامريكي ليحل محلها كلمة مستعرب أو مختص بالدراسات العربية[٧].

هذه التعاريف تكاد تقتصر على التفسير الجغرافي، وتكاد تقف محايدة في عدم الاشارة إلى مهمة الاستشراق أو آلياته كجزء من التعريف.

ولذلك نجد آخرين يتلافون هذا، فشخص مثل عزيز العظمة ـ متابعاً إدوارد سعيد كما سنوضح ـ يقول إن إفصاح الاستشراق هو إفصاح عن التباين بين شرق وغرب، وهو شامل حتى لما هو ليس مكتوباً[٨].

ويشير عمر فروخ إلى معنى عام للاستشراق، وهو: اشتغال نفر من العلماء بأحوال الشرق، وإلى معنى للاستشراق حقيقي هو: الاهتمام باللغات الشرقية وبجمع المخطوطات ونشرها، والكتابة في موضوعات شرقية: فلسفية، ولغوية، وأدبية[٩].

يقدم ادوارد سعيد ثلاثة معان للاستشراق تستغرق كل ما تقدم مع أبعاد جديدة. فبعد أن يسأل عما نعني بالاستشراق يجيب: هناك ثلاثة أمور:

أ ـ الدلالة الجامعية الاكاديمية: المستشرق كل من يدرّس أو يكتب أو يبحث عن الشرق في جانب محدد أو عام وفي كل ميدان من علم الانسان إلى فقه اللغة.

ب ـ هناك معنى أعم: الاستشراق أسلوب من الفكر قائم على تمييز وجودي (انطولوجي) ومعرفي (ابيستمولوجي) بين الشرق والغرب، وهذا التمييز قبله شعراء وفنانون وفلاسفة وروائيون ومنظرون وسياسيون واقتصاديون وإداريون.

---

(٥) ميشال جحا، «موقف العرب من المستعربين،» **الاستشراق**، العدد ١ (١٩٨٧)، ص ٤٥.

(٦) عبد الأمير الأعسم، «الاستشراق من منظور عربي معاصر،» **الاستشراق**، العدد ١ (١٩٨٧)، ص ١٦ و٢٣.

(٧) حسام الخطيب، «الاستعراب في امريكا ومحاذير العودة إلى الشرنقة الاستشراقية،» **الاستشراق**، العدد ٥ (١٩٩١)، ص ٢٥٧ ـ ٢٦٠، وأوليفيه كاريه، «للاستشراق إيجابيات ومزايا ولكن...!،» **الاستشراق**، العدد ٥ (١٩٩١)، ص ٢٩٦.

(٨) عزيز العظمة، «إفصاح الاستشراق،» **المستقبل العربي**، السنة ٤، العدد ٣٢ (تشرين الاول/ اكتوبر ١٩٨١)، ص ٤٣.

(٩) عمر فروخ، «المتشرقون: ما لهم وما عليهم،» **الاستشراق**، العدد ١ (١٩٨٧)، ص ٥٥.

ج ـ الحركة النشطة المنضبطة الدائرة بين المعنيين الجامعي والعام منذ أواخر القرن الثامن عشر: وهو هنا بمعنى المؤسسة المشتركة للتعامل مع الشرق باصدار تقريرات حوله وإجازة آراء فيه وتدريسه والاستقرار فيه وحكمه، أي كأسلوب للسيطرة على الشرق واستبنائه وامتلاك السيادة عليه[١٠].

ويحاول برنارد لويس في نقده كتاب ادوارد سعيد أن يبعد هذه المعاني عن كلمة «استشراق» ليربط بين أصل الكلمة ومعناها الأول، وآخر ما وصلت إليه بعد أن ارتأى مؤتمر المستشرقين في عام ١٩٧٣، استبدالها، كما سنوضح في ملاحظة حول هذه النقطة، أي التخصص في حقل معين عن الشرق أو الوطن العربي. يقول لويس: كان اصطلاح الاستشراق يستخدم في الماضي اساساً بمعنيين: **أحدهما** هو مدرسة في فن التصوير تضم فنانين ينتمون في الغالب إلى أوروبا الغربية زاروا الشرق الأوسط وشمال افريقيا وصوروا ما شاهدوه أو تمثلوه بطريقة مغرقة في الرومانسية والاشراق. أما المعنى **الثاني** والأكثر شيوعاً، والذي لا يرتبط بالمعنى الأول، فهو فرع من فروع التراث البحثي.

وترجع الكلمة والفرع التعليمي الاكاديمي الذي تشير إليه إلى التوسع العظيم للبحث في أوروبا الغربية منذ عصر النهضة وما أعقبه، فقد كان هناك هيلينيون يدرسون اليونانية، ولاتينيون يدرسون اللاتينية، وعبريون يدرسون العبرية. وكان افراد المجموعتين الأولى والثانية يطلق عليهم في بعض الاحيان اسم الكلاسيكيين. أما أفراد المجموعة الثالثة فيطلق عليهم اسم المستشرقين. وفي تاريخ لاحق اتجهوا باهتمامهم إلى لغات أخرى. وكان هؤلاء الباحثون الأوائل فقهاء في اللغات اساساً يهتمون باحياء النصوص ودراستها ونشرها وتفسيرها، وكانت تلك هي المهمة الأولى والأكثر جوهرية التي تعين القيام بها قبل أن تصبح الدراسة الجادة لموضوعات أخرى، مثل الفلسفة واللاهوت والأدب، شيئاً ممكناً، ولم يكن اصطلاح «مستشرق» غامضاً وغير دقيق كما يبدو الآن. كان هناك فرع واحد هو فقه اللغة، وفي المراحل الباكرة كان هناك اقليم واحد هو الذي ندعوه الآن بالشرق الاوسط، وهو الجزء الوحيد من الشرق الذي كان بمقدور الأوروبيين الزعم بأنهم على معرفة حقيقية به. ومع تقدم كل من الاستكشاف والبحث أصبح اصطلاح «مستشرق» شيئاً لا يبعث بصورة متزايدة على الرضا، فلم يعد دارسو الشرق عاكفين على التعمق في فرع معرفي واحد، واتسعت الرقعة لتشمل الهند والصين.

واستخدم اسم «مستعرب» قياساً على صينوي وهندوي، ولما اختلط اصطلاح مستشرق الآن على نحو لا أمل معه في انقاذه، ولأن الكلمة فقدت قيمتها بالفعل، فقد

(١٠) إدوارد سعيد، **الاستشراق: المعرفة، السلطة، الانشاء**، ترجمة كمال أبو ديب (بيروت: مؤسسة الابحاث العربية، ١٩٨١)، ص ٣٨ ـ ٣٩، والآلوسي، «صور نقدية للاستشراق التقليدي والجديد، أو تطور الاستشراق وتطور النظرة إليه،» ص ٣٦.

تخلى عنها أولئك نفسهم الذين كانت تطلق عليهم، وتم اضفاء تعبير رسمي على هذا التخلي في المؤتمر التاسع والعشرين للمستشرقين في باريس صيف ١٩٧٣، وهي الذكرى المئوية للمؤتمر الأول للمستشرقين في باريس أيضاً. واتخذ المؤتمر اسماً آخر هو «المؤتمر الدولي للعلوم الانسانية في آسيا وافريقيا الشمالية»، لكن سرعان ما استعيدت كلمتا مستشرق واستشراق لغرض آخر مخالف باعتبارهما اصطلاحين من اصطلاحات السباب في غمار الخلافات المحتدمة[١١].

٢ ـ الملاحظة الثانية: حول تبدل الاستشراق

تتعلق بتقديم الاستشراق، وهل تبدل الاستشراق حقاً هدفاً ومنهجاً؟؟

لا زلت أعتقد، كما فعلت في بحثي السابق، ان مقياس التقسيم للمتعاملين مع الاستشراق على تعدد مواقفهم يمكن أن يفي به تقسيم الدارسين إلى قسمين كبيرين:

أ ـ من يرى أنه يملك جوهراً أو طبيعة جوهرية ماهوية لا تتبدل، وهؤلاء دائماً مع الموقف السلبي الخالص، والرفض.

ب ـ من يرى أنه ظاهرة لها ظروفها وأنه قابل للتبدل، أو أنه فعلاً تبدل. وهؤلاء يمكن تقسيمهم إلى من يقف من الاستشراق موقفاً إيجابياً، ومن يقف منه موقفاً ايجابياً وسلبياً معاً، إما على أساس استثناء بعض ما قاموا به من تحقيق ونشر وتوثيق وما يشبه ذلك، وإما على أساس الكلام على انواع من «الاستشراق»، قديم وجديد، فيمدحون الأخير، أو على أساس استثناء بعض المستشرقين من الذم أو بعض أعمال المستشرق الواقد نفسه.

أ ـ من يرى أنه جوهر ماهوي لا يتبدل

في بحثنا السابق أعطينا أمثلة مع تفصيل آراء الدارسين المعبّرين عن هذا الموقف[١٢]، وهم محمد البهي وادوارد سعيد واحمد بن عبود ومحمد وقيدي. وليس من المفيد هنا إعادة ما قلناه هناك، لكننا سنقدم ممثلين آخرين لهذا الموقف في هذا البحث، وسنركز في ملاحظة لاحقة على ادوارد سعيد ونقاده.

---

(١١) برنارد لويس، «مسألة الاستشراق،» ترجمة وإعداد كامل يوسف حسين، الاستشراق، العدد ٢ (١٩٨٨)، ص ١١٦ ـ ١١٨.

(١٢) عرضنا آراءهم في: الآلوسي، المصدر نفسه، ص ٣٢ ـ ٤٤، ونذكر هنا كتبهم: محمد البهي، الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ط ٥ (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٠)؛ احمد بن عبود، «الاستشراق والنخبة العربية،» المجلة التاريخية المغربية (تونس)، السنة ٩، العددان ٢٧ ـ ٢٨ (١٩٨٢)، ومحمد وقيدي، «تطور الايديولوجية في الاستشراق،» دراسات عربية (مصورة والعدد مفقود وكذلك المجلة).

(١) يتابع عزيز العظمة تحليلات ادوارد سعيد عن طبيعة الاستشراق الماهوية ومنهجه الاستحواذي الاختلاقي أو الابتداعي المشرقي لشرق لا علاقة له بالواقع الشرقي نفسه، أي يستعمل منهج ادوارد وليس الأمثلة ومن يحللهم. يرى عزيز العظمة أن الاستشراق نمط تصور وادراك، وليس ضرباً من المعرفة او المعاينة، يخلقه اعتقاد جازم بالتضاد بين الغرب والشرق، ويفصح عن التباين بين شرق وغرب، لا على اساس ان الشرق والغرب مفهومان جغرافيان حضاريان وسياسيان، بل هما مفهومان خياليان، دخلا في صياغة تلك الوحدة الثقافية والتأريخية والسياسية التي وسمت نفسها غرباً، والتي من خلال ما أعطته من مواصفات ومقولات لتلك الوحدة الغربية صاغت على نقيضها وبالضد منها تصورات وخصائص ومواصفات للشرق[١٣]. لنضرب مثلاً: إذا ما تعرض المستشرق لدراسة الشرع الاسلامي فهو يقوم بعمليتين: فهو أولاً يقوم بتثبيت ما يراه الجوهر الاسلامي لموضوع بحثه عن طريق صوغه وفق مفاهيم هي عكس لمعنى القانون كما يفهمه الغربي بصيغته الرومانية والغربية، كالتفكير الفقهي الذرائعي والتجريد المتحجر الذي يكرر إعادة أصول عامة، أي اللاواقعية، ثم يربط هذه الخصائص التفصيلية ضمناً أو صراحة بالخصائص العامة لمدلول مصطلح «الاسلام» (والذي ستظهر عناصره الحقيقية لاحقاً)، وهو، أي المستشرق، يقوم، وهذا ثانياً، بالإكثار من المعلومات الفيلولوجية والتأريخية التي تمت بموضوعها لميزان التشريع بمعناه وتقسيماته الغربية، مثلاً عن «شاخت» لا يصار إلا إلى استخدام الموضوعات والمقولات المتفقة مع المقولات التشريعية الرومانية ـ الغربية.

إن فصل الجزئيات عن سياقات التأريخ، سوسيولوجية أو ثقافية أو غيرها، هو شرط ضروري لتثبيت اسلاميتها وتحويل اتجاهها المفاهيمي عما يتطلبه العالم الحقيقي إلى ما تقتضيه أوهام الشرق المفترض[١٤]. ويضرب العظمة مثالاً بموقف هيغل من الاسلام، أن اصل الاسلام، لهيغل، وكذلك للمستشرقين، هو عبادة الواحد الأحد حصراً. وكذلك يخضع الوجود الدنيوي للواحد الأحد، ونتيجة لهذا الانتماء إلى الواحد، يتفرع عنه التعالي على المحسوس والحماس لشيء مجرد، أي التعصب. وحين ضعف هذا الحماس للواحد الأحد غرق الشرق في الرذيلة. هنا هذه النظرة لدى هيغل وفي الاستشراق ترتبط بالافتراض المسبق، الذي تسلسل عنه مواضيع أضيق عن أخرى أعم. فأصل الاسلام هو الألوهية، الواحد الذي لا شريك له، وأي شيء لا يرتبط به، وبغيابه يعود إلى الفوضى. فهنا ثنائية: الواحد، السلطة، في مقابله الفوضى، الفوضى للعالم الدنيوي، فكل ما ليس متعلقاً مباشرة بالإله لا يخضع لقوانين ولا لمبادئ تنظيم. مثل ذلك في الفقه والتشريع وكل ما يتصل بالحياة؛ إن وحدة الالوهية المنظمة لكل شيء تقرر الجمود اللاهوتي

---

(١٣) العظمة، «إفصاح الاستشراق،» ص ٤٣ ـ ٤٤.

(١٤) المصدر نفسه، ص ٤٥ ـ ٤٧.

الخانق، حيث يمتد الدين إلى كل شيء، وهكذا لا يوجد تشريع حر، فالفقه يتخذ شكل الورع، والتدين يستوعب الشريعة، والشريعة ضرب من ضروب ممارسة التدين (وليس ممارسة التشريع، ومثل ذلك كل العلوم الاسلامية)، فمع تمايزها في ما بينها، فهي كلها تعمل لتثبيت الفكرة الدينية التي كل ما عداها ثانوي. كل هذه العلوم تتعلق بقدسية النصوص، وليس غايتها سوى تثبيت واسترجاع المواقف الدينية الاساسية بشكل مستمر، فهي عند المستشرق مهما تنوعت كتلة واحدة متجانسة من «التعاليم الاسلامية»(١٥).

كذلك فان نظم الحكم، باستنساخها علاقة الله بالعالم تجعل علاقة الدولة الاسلامية برعاياها علاقة زجهم في نظامها الاستبدادي، مع الاستناد إلى الجبرية أو القدرية الالهية، وهكذا الحال إذا درس المستشرق المدينة الاسلامية، فان اهتمامه بها ينصب لا على طبيعتها ونمط تشكلها، بل على أساس واحد هو لاشكلها، ولاشكلها هذا هو ما يجعلها مدينة اسلامية.

قال آخر: إرث الاسلام وتوسعه الخارق اللامعقول والسريع من الصحراء لا يمكن ان تجد موازياً له إلا في انهياره السريع، وفي ما بعد الانحطاط(١٦).

والخلاصة، يرى العظمة أن فهم الاستشراق يقوم على خصوصية الغرب واختلافه عن الشرق، وهذا الاختلاف هو العنصر الأساسي في تكوين الشرق ذاته أو في تصور الغرب للشرق. فالغرب هو (تبعاً للغرب) المسيرة الطبيعية القويمة للتأريخ بدءاً من العصور القديمة مروراً بالعصور الوسطى حتى الوقت الحاضر. واللاتأريخية والخواء التأريخي هما النصيب الطبيعي لكل ما لا يتجه نحو الغاية ذاتها، وإن ضيق الأفق والاقليمية الساذجة هذه ميزة كل الحضارات، وإن الغرب، مفتتناً بهذه الفرادة له، كما كان مفتتناً بفكرة السيطرة والتوسع، لم يستطع تقبل فكرة اختلاف الآخرين عنه، ولا فهمهم من خلال مقولات خاصة بهم، وليس به، لذلك طبق عليهم تصنيفاته هو ومفاهيمه، وتعامل معهم من خلال مفاهيمه المطلقة تلك. مثال على ذلك، فهم هيغل ومستشرقون كثيرون الاسلام على نمط المسيحية، فسموه «المحمدية» على أساس ان المسيحية هي تأليه للمسيح، وبذلك يعتبر هيغل ألوهية الاسلام ناقصة مقارنة بألوهية المسيح. ومن ثم فان الاخلاقية المسيحية الغربية تأملية عقلية، بينما هي في الاسلام امتثالية ونمطية، وبالتالي سمح الأول ـ المسيحي ـ بظهور مجتمع مدني (نظام الحاجات)، بينما التدين الاسلامي وما يلازمه من اختلاط واضطراب اجتماعيين يصير شكلاً ناقصاً قياساً على النظام المسيحي الجرماني، هو قداسة ناقصة، وأخلاقية خارجية محضة، وإسراف في الأهواء المادية. هكذا فإن هيغل يفترض روح العالم الجرماني المسيحي غاية، ومن ثم

(١٥) المصدر نفسه، ص ٥٤ ـ ٥٦.

(١٦) المصدر نفسه، ص ٥٥ ـ ٥٧.

ايجاد فروق عنها في الشرق وما يتبع هذا التفريق في تعاليم عديدة، وجاء من بعده، فجذروا هذه التفرقة إلى حد أن أصبحت الفروق تضاداً عكسياً ماهوياً، كما فعل رينان وماكس ويبر وآخرون[١٧].

وهكذا وبعد أن يحدد الاستشراق طبيعة الاسلام والموضوعات الاسلامية، وفقاً لتحديدات رسمها عن الاسلام، يعود فيخرج ما لا يتفق مع هذه الطبيعة ويسميها «اللاشرقيات» مثل الفلسفة. إنها حكر على الغرب، ولذلك فإن فيلسوفاً مثل ابن رشد او ابن سينا لا يرتبط فكره الفلسفي بأي شكل بموقفه من الفقه أو الكلام، لأن للفلسفة طبيعة وجوهراً مناقضين للشرع، فلا يمكن جمعهما في شخص واحد، ومثل ذلك التصوف، فهو عندهم لا إسلامي، من خارج الاسلام جاء، وكذلك الفلسفة. ولذلك يجري الاهتمام بطرق انتقالها عن اليونان عند فالي مثلاً، بينما ينسب هنري كوبان وسيد حسين نصر، مدفوعين برومانسية فارسية ميتافيزيقا بطرق العرفان الروحي واشياء اخرى إلى فارس (كآريين) أو كجنس آري أيضاً[١٨]. ويصل العظمة إلى قائمة بالمتضادات بين شرق ـ غرب، غ= غرب، ش = شرق هكذا:

الانسان ↔ الله، الوجود ↔ الغيب، الديمقراطية ↔ الطغيان، الفردية ↔ الامتثال، التقدم ↔ الركود، التطور ↔ الانحطاط، العلم ↔ اللاهوت، سياسة المصالح ↔ سياسة الاهواء أو التعصب، القومية ↔ العرقية أو الطائفية، الجوانية ↔ البرانية، العقلانية ↔ التقليد، الطبيعة ↔ اللاطبيعة، (ص ٦٠).

ويختم العظمة كلامه على الاستشراق ومنهجه وآلياته، وهي بلا شك مستمدة في اساسها من تحليلات ادوارد سعيد؛ يختتم كلامه بمثل ما ينطبع به كتاب ادوارد كله: «يبدو أن الاستشراق قد انتهى إلى نهاية مطافه، مع ان هذا لا يعني أنه على وشك ان يغادرنا، فهو لم يتقدم على المفاهيم التي طرحها منذ قرن أو ما قاربه ـ هو لا يزال يستخدم عين النماذج في تطور التأريخ والفكر العربيين التي دونت من قبل أوائل المستشرقين الكبار أمثال غولدتسيهر وفيلهاوزن، رغم أنف تطور العلوم الاجتماعية الكبير في القرن الحالي والتطورات العظيمة التي شهدتها الدراسات الفيلولوجية في مجال اللغات الرومانية والجرمانية والهندو ـ أوروبية. وحتى أعظم المستشرقين المهتمين بالاسلام لا يحتلون إلا مكانة صغيرة في علوم الديانات.

لقد أشرنا في الصفحات السابقة إلى مواطن الخلل داخل الخطاب الاستشراقي، وفي أصوله، ومن غير المتوقع أن تقوم حركة اصلاح داخل الاطار الاستشراقي، بل على

---

(١٧) المصدر نفسه، ص ٥٧ ـ ٥٨.

(١٨) المصدر نفسه، ص ٦١. فماذا يقول محمد عابد الجابري في رفضه لما يسميه «العرفان»؟ وسنوضح رأيه لاحقاً في هذا البحث.

العكس، فإننا نشهد اليوم تقوقعاً اكبر في بعض الأوساط الاستشراقية، ربما لم يكن بعيداً عن التحدي الذي يجابه به الاستشراق. ولكن في النهاية لن يكون بالمستطاع دحر الفكر الاستشراقي بنقده فقط. فإن اسسه ليست في الكتب اساساً، بل هي في ثنايا الثقافة، وهي في مؤسسات الاستشراق»[19].

(٢) يقدم دارس آخر هو **نذير حمدان** صورة سلبية كاملة عن الاستشراق، وهذه الصورة لا تختلف جوهرياً عن مثيلتها التي قدمناها في بحثنا السابق عن محمد البهي، والآخرين هناك. فهو يبدأ كتابه بآيات قرآنية[20] عمن افترى على الله كذباً، ثم يقول: إن تشويه الحقيقة الفكرية: دينية أو تأريخية أو لغوية أو عملية ظاهرة عادية في العمل الاستشراقي المبطن والسافر، المباشر وغير المباشر. فالصليبية من جهة، والعلمانية بعد الثورة الفرنسية تآزرا في هذا التشويه، على اساس العقلانية أو على اساس الحماية الدينية، ويرى أن «التنصير» رصد اموالاً بلغت مليار دولار عام ١٩٥٨ في مجال الارساليات والمستشرقين[21]. وينعي على المستشرقين انحرافهم ولااخلاقياتهم قديماً ومتوسطاً وحديثاً، وكيف يكون للمستشرق خلق، وهو يخطط لاستعمار بلد أو فكر إسلامي؟ وهل يغني جهده الفكري ودأبه البحثي مهما ارتقى في سلم الدقة والعمق إذا كان يرفد الاستعمار بمعلوماته الجغرافية ومعارفه الانسانية والاجتماعية؟ ومن الصعب استثناء واحد من المستشرقين السياسيين في طهارة النفس ونقاء الفكر وصفاء الدافع، طالما ان تشويه الحقيقة تكاد تصبح ظاهرة عند المستشرقين جميعاً. والاستعمار لم يكن في خدمة الاستشراق، وهو ما كان يجب ان يكون، بل إن الاستشراق صار في خدمة الاستعمار. ويضرب حمدان أمثلة على مستشرقين عديدين يشتغلون في وزارة الخارجية لدولهم وقدموا خدمات «علمية» وخرائط وغير ذلك. ويقسم المستشرقين الى سياسيين وجامعيين ومجمعيين (نسبة إلى المجامع العلمية العربية)، وإذا كان نقده للسياسيين واضحاً[22]، فإنه لا يستثني الأقلية منهم من كونهم يدورون في فلك استعماري ويضرب أمثلة[23]. وهكذا يفعل مع المستشرقين المجمعيين[24].

ويشن حمدان في خاتمة كتابه حملة شعواء عليهم جميعاً، ويقارن بين شبهاتهم حول

---

(١٩) المصدر نفسه، ص ٦٠ ـ ٦٢.

(٢٠) ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذّب بالحق لما جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين﴾، القرآن الكريم، «سورة العنكبوت،» الآية ٦٨.

(٢١) نذير حمدان، **مستشرقون: سياسيون ـ جامعيون ـ مجمعيون** (الطائف: [د.ن.]، ١٩٨٨)، ص ٣ ـ ٤.

(٢٢) المصدر نفسه، ص ٤٧ وما بعدها.

(٢٣) انظر التفاصيل في: المصدر نفسه، ص ٧٩ وما بعدها وص ١١.

(٢٤) المصدر نفسه، ص ٨٢، والتفاصيل ص ١٣٧ وما بعدها.

الرسول والقرآن والاسلام والفرق والفرقة والفقه وربطه بالقانون الروماني، وقضية الانتحال والأدب العربي، والشبهات حول الخلافة والعلمانية، وغير هذا وذلك؛ أقول: يقارن بين هذه الشبهات وبين ما يزعم أنهم قدموه في منهج البحث والتحقيق، بل ولا يراهم في ذلك مبتكرين. هذه صورة قاتمة ذات بعد واحد في النظر الى الاستشراق ونتائجه، وكنا وجدنا صوراً مقارنة لها في بحثنا الاول[٢٥].

(٣) عبد الأمير الاعسم: على الرغم من اعطاء تقويمات ايجابية لانجازات المستشرقين في فروع خمسة تتصل بالدراسات الاسلامية، والدين الاسلامي كعقيدة، والاسلام كشريعة، والتاريخ العربي الاسلامي، واللغة العربية وآدابها وعلوم الحضارة العربية الاسلامية، من دون أن يدخل في تفاصيل انجازاتهم في اي منها، لأنه أمر يحتاج إلى كتب، وليس ضمن بحث محدد في مجلة، إلا أن النظرة العامة الغالبة على البحث هي نظرة سلبية[٢٦].

وابتداء ينبه إلى أنه ليس من مهماته أن يفعل مع الاستشراق ما فعله الذين مجدوا المستشرقين، مثل نجيب العقيقي، ولا التعرض لهم بالتسفيه بالاستناد إلى مواقف غامضة، كما فعل قاسم السامرائي، أو عرض الاستشراق من منظور ديني بحت يقوم على أساس اتصاله بالتبشير والاستعمار في كل ما أنجزه، كما فعل عمر فروخ ومصطفى الخالدي، أو كما فعل اخيراً من درس الاستشراق باعتباره حركة تطوير للدراسات العربية في التراث، كما فعل عبد الجبار ناجي، لأن هذه النماذج لا تؤدي ـ كما يقول عبد الأمير الأعسم ـ الغرض في اعادة قراءة «الاستشراق» كما هو مطلوب، ولأن كتاب ادوارد سعيد شمل الصورة كلها في هذا المجال.

ويشير بعد ذلك إلى انه جرت محاولات لكشف دور الاستشراق في المنهج والتأريخ والصورة في محاولتين كبيرتين، هي ما فعلته مجلة **الفكر العربي**، بيروت ١٩٨٣ في مجلدين، تناولت التأريخ والمنهج وقضايا أخرى مع عرض كتب وندوات، ومثله ما أصدره مكتب التربية العربي لدول الخليج في إصداره **مناهج المستشرقين** في جزءين.

ويتساءل الباحث بعد ذلك: إلى اين نصل في هذه القراءات؟ هنا نصل إلى جوهر القضية التي نحن في سبيل التصدي لها عنوة واقتحامها اقتحاماً من دون خوف او تردد، لا في قول الحق في ما يتوجب علينا قوله في «الاستشراق»، وهو غريب عنا كل الغرابة في التكوين والبنية والطريقة، ولا في الافصاح عن الخلل الذي تركه «الاستشراق» في

---

(٢٥) الآلوسي، «صور نقدية للاستشراق التقليدي والجديد، أو تطور الاستشراق وتطور النظرة اليه،» حيث وجدنا أمثلة لهذا في: قاسم السامرائي، **الاستشراق بين الموضوعية والانفعالية** (الرياض: [د.ن.]، ١٩٨٣)، وعرفان عبد الحميد، «المتشرقون والاسلام،» (بحث) (بغداد، ١٩٦٩).

(٢٦) الاعسم، «الاستشراق من منظور عربي معاصر،» ص ١٦ ـ ١٨.

أكثر من موضوع في ثقافتنا العربية المعاصرة، فهذا بحق الهدف الذي ينبغي الوصول إليه في بحثنا هذا[٢٧].

ثم يقول بعد عرض انجازات المستشرقين في حقول ستة عرضاً عاماً، ان هذا العرض «لا يبيح لنا دائماً القول بان كل ما كتبه المستشرقون في هذه المجالات مغلوط مردود، لكن الأمر يختلف عند إعادة فحص هذه الانجازات في مراكزنا الثقافية اليوم. سنجد عدداً كبيراً جداً من أعمال المستشرقين لا يخلو من أضرار مصدرها التعسف، وفي الوجه الآخر، سنجد عدداً كبيراً، هو الآخر، قد تناول الموضوعات العربية الاسلامية بروح الألفة والسماحة والموضوعية والصدق في التعبير عن الاحساس الذي يخلقه دائماً تصور المستشرق المستند إلى خلفية تقع في طرف التضاد من روح الشرق عموماً، والشرق العربي (بمشرقه ومغربه) على وجه الخصوص»[٢٨].

لكن الباحث سرعان ما يتراجع عن هذه المعادلة للمحاسن والمساوئ عندما يتبين ان كل الدوائر الثقافية العربية تقرن الاستشراق بالاستعمار والتبشير والصهيونية، وبعد أن يشرح كل واحدة من هذه بسطور يقول: «إن هذه الاتهامات الموجهة إلى الاستشراق، تقوم على ثوابت وحقائق لا يرفضها غير المكابر أو الجاهل، ذلك أنهم خدموا الاستعمار والتبشير والصهيونية بشكل مباشر كما فعل الموظفون الرسميون من المستشرقين، في دوائر الاستعمار، وكذلك المستشرقون المستشارون رسمياً للدوائر الاستعمارية. وهذان فريقان، أما الفريق الثالث فأكاديميون، لكن معظمهم وضع معلوماته في خدمة أغراض غامضة حققت الكثير من رغبات الدوائر الاستعمارية، بما في ذلك تشجيع الدراسات الطائفية، وبلورة القوميات المندثرة، وعمل معاجم للغات الميتة، وإثارة الشعور لدى طوائف بأصولهم بعد أن انحلوا إلى أمم أخرى. وكذلك تبنّي الطرق الصوفية والمذهبية والدينية والعنصرية بحجة العلم، والانحياز إلى أنواع الحكم في بلدان الشرق والوطن العربي. وكذلك، وهو المهم، فقد تصدى الاستشراق لـ «اعادة صياغة التراث» في القرآن والسنة والسيرة والادب والفن والشعر والاقتصاد، وفي خصائص الانسان العربي نفسه. وهكذا انحرف الاستشراق وراح يبشر بأن الفكر اليوناني أصيل، وهو انجاز العنصر الاوروبي فقط، وأن الحضارة العربية الاسلامية[٢٩] لم تؤثر في أوروبا، بل هي أداة نقل فقط للعلم اليوناني، وأن الحضارة الأوروبية الحديثة متفوقة ومن صنع الاوروبي وحده.

ثم يتناول الباحث مسألة من آل إليه الاستشراق، وهل تبدل جلده ومحتواه، فيرى أنه بعد الحرب العالمية الثانية وبانحسار الاستعمار عن أقطار الشرق العربي، وبسبب تنوع

(٢٧) المصدر نفسه، ص ١٥.

(٢٨) المصدر نفسه، ص ١٨.

(٢٩) المصدر نفسه، ص ١٩ ـ ٢٠.

أنشطة دوائر المستشرقين التي امتدت إلى كل تراث آسيا وافريقيا، أعاد الاستشراق النظر في نفسه وهويته. وهنا ظهر المستعربون، وهم المعنيون بالدراسات العربية وليس معرفة كل شيء عن الشرق، وأكد مؤتمرهم الثاني والثلاثون في هامبورغ عام ١٩٨٦ على اتجاه التخصص في الدراسات الآسيوية والافريقية الشمالية، وحسبت هذه التخصصات في المؤتمر بثلاثة عشر تخصصاً تشمل كل فروع المناطق الجغرافية الثقافية، مثل الدراسات البوذية والشرق المسيحي، وشرق آسيا، والدراسات الاسلامية، والدراسات الايرانية. . . .الخ. هكذا توسعت الدراسات، بحيث أصبحت العناية بالتراث العربي الاسلامي محصورة ضمن الدراسات الاسلامية، ودراسات الشرق الادنى وشمال افريقيا، أي ضمن فصلين من ثلاثة عشر فصلاً. وأكثر من هذا لم يعد أمام الأوروبيين من جديد في دراستهم الشرق العربي تراثياً وتأريخياً، وعلى هذا الاساس يلاحظ الباحث ان الاوروبيين (المستشرقين) صاروا يعتمدون ليس على المصادر العربية، بل على انجازات سابقة. ولم يعد الشرق سراً بعد تحولهم إلى دراسة الأدب العربي الحديث والقيام بترجمته. ثم يقول: إن الاستشراق بمفهومه الجديد هو استشراق سياسي يرتبط بدوائر المخابرات الغربية، أوروبية وامريكية وغيرها. ثم يعود إلى التحذير من الحكم على جميع المستشرقين بأنهم كانوا محرفين أو مشبوهين، كما لا يمكن القول إن كل ما قام به المستشرق الواحد هو تحريف، فهذا تعسف. إلى جانب أن هؤلاء لهم عوامل تكوين ثقافي مختلف، ومهمتنا اليوم لا تقوم في الرد على تحريفات استشراق عصر الاستعمار، ولا في محاولة «تحوير» استشراق العصر الحديث، بل الدخول في صميم مشاكل الاستشراق نفسه بعد انحساره عالمياً واتجاهه سياسياً وانحسار الدراسات بعد انحسار تموين مراكز الدراسة حولنا في الجامعات الغربية لأسباب مالية، وانحسار الحوار العلمي الرصين بيننا وبينهم. ويحذر من «الاستغراب»، بمعنى التبعية الفكرية للغرب وأطروحاته[٣٠].

(٤) **كامل يوسف حسين**: في توسطه بين برنارد لويس وادوارد سعيد، وذلك عندما هاجم برنارد لويس كتاب **الاستشراق** لادوارد سعيد، ورد عليه ادوارد[٣١]، يلاحظ المترجم أن لحوار كامل يوسف حسين خمس خصائص للنص الاستشراقي، وهي خصائص سلبية، وفي ما يلي ملخص لها:

(أ) اللجوء إلى كافة الوسائل والمناهج والمسالك، بما فيها الكذب في تفنيد الخصم.

(ب) النص الاستشراقي من الناحية السيميولوجية، لا يفضي إلا إلى ذاته، وإلى عالمه المغلق، ولا يؤشر إلى عالم رحب، يأخذ ويعطي، ويتأثر ويؤثر، يتجلى ذلك في اتجاه

---

(٣٠) المصدر نفسه، ص ٢٣ ـ ٢٥.

(٣١) مقدمة كامل يوسف حسين النقدية قبل ترجمته لنصّي السجال بين برنارد لويس وإدوارد سعيد في: **الاستشراق**، العدد ٢ (١٩٨٨)، ص ١١٤ ـ ١١٦.

المشروعات الاستشراقية الى جعل الشرق والشرقيين «موضوعاً» للمعرفة والدراسة والتحليل للوصول إلى قواعد عامة تسهل التحكم بها والتلاعب بمقوماتها، ولم يكن قط حواراً مع الآخر. وهكذا فالاستشراق لا يمكن ان يفضي سيميولوجياً إلى خارج الاستشراق. ونقطة أخرى، فان الفكر الاستشراقي يجعل النقطة المحورية ما قاله المستشرقون وفكروا فيه لا ما قاله اصحاب الفكر والمجتمعات المدروسة.

(ج) يعلن النص الاستشراقي في تحاوره مع الآخر انتصاره لا من خلال المقارعة العقلية، بل من خلال سلب وجود الآخر (في حالة برنارد سلب ادوارد حق الكلام في الاستشراق لانه غير محصل كما قال) وان المستشرق وحده هو القادر على نقد الاستشراق.

(د) يحرص النص الاستشراقي على فصل المعطى الفكري عن سياقه التأريخي، ونسيجه السياسي والاجتماعي.

(هـ) يدّعي النص الاستشراقي الموضوعية والحياد والعلمية، وأنه معرفة فقط، بينما واقع الحال غير ذلك، فهو إرادة بدلاً من كونه تعبيراً عن محاولة لفهم الآخر، وبالتالي محاولة للتلاعب به واستحواذه(٣٢).

(٥) **محمد وقيدي**: إن جلبنا آراء عديدين ينظرون نظرة سلبية ماهوية إلى الاستشراق لا يفيد، لكننا بصدد موضوع: هل تبدل الاستشراق يفيد ملخصاً لما يراه محمد وقيدي عن هذه المسألة اكمالاً للموضوع؟ بدران يردد: محمد وقيدي ربط الاستشراق بالتبشير والاستعمار والصهيونية ويتساءل: هل هذه الصورة الاستشراقية تمثل مرحلة انتهت؟ وجوابه هو النفي، لأن التجاوز الحقيقي هو الذي يقتلع الرؤية الايديولوجية بكل عناصرها. إن ما يحصل في الاستشراق الجديد هو مجرد تقدم في التقنيات كشكل، بينما لم تتغير الرؤية الايديولوجية، ويرى أنه لا توجد ظروف تسمح بالتحدث عن حدوث تطور في حركة الاستشراق، فاذا كان الاستشراق نما في فترة تطور البرجوازية الاوروبية، فترة الاستعمار المباشر، فان الهيمنة ما تزال غير مباشرة، وكذلك خفت صورة التقسيم السابقة للناس إلى أجناس راقية ومنحطة، لكن المركزية الاوروبية مستمرة، بل زادت من خلال نمو العلوم الانسانية في المائة سنة الأخيرة. ويرى محمد وقيدي أن شخصاً واحداً مثل بيرك لا يصح قاعدة على الحكم بتبدل الاستشراق، بل انه يشكك في بيرك نفسه، وكان بيرك يعلن اهدافاً اربعة للاستعراب جديدة(٣٣):

(٣٢) المصدر نفسه، ص ١١٤ ـ ١١٦.

(٣٣) الآلوسي، «صور نقدية للاستشراق التقليدي والجديد، أو تطور الاستشراق وتطور النظرة إليه،» حيث عرضنا لآراء وقيدي ص ٤٢ ـ ٢٤.

(أ) تجاوز الظاهرة الاستعمارية ومنطلقاتها الايديولوجية.

(ب) الاستفادة من العلوم الانسانية لدراسة لا تخلط بين الاسلام في افريقيا والاسلام التركي، اي دراسة تقوم على العلاقات الكامنة والزمانية والبنيوية للمدروس، لا التعميمات.

(ج) يعلن بيرك نهاية الاستشراق مع ماسينيون، الذي كان يبحث عن الشاذ والاتجاهات اللاعقلانية، بينما ما يريده الاستشراق الجديد هو العام والجماهيري أو المكرر أو القاعدة لا الشاذ.

(د) إن بيرك يرى أنه وزملاءه لا يندرج ضمن الاستشراق، بل ضمن اهتمام العلوم الانسانية، بحيث تكون جناحاً أو حقلاً شرقياً للعلوم الانسانية والاجتماعية أو بمساهمة الباحثين من كل صوب، ويستنكر بيرك على عبد الكبير الخطيبي المغربي انتقاد الاخير له على مساهمته في دراسة الشرق لا لشيء غير أنه «أجنبي». ماذا يفعل وقيدي: يردد التهمة التي بدأها عبد الكريم الخطيبي وأنور عبد الملك في مدى جدية محاولة بيرك وزملائه، فبعد ان يقر بظهور اتجاه استشراقي غربي اكثر انصافاً وفهماً موضوعياً للظواهر الثقافية الشرقية، ويختفي فيه الكثير من عناصر البنية الايديولوجية السابقة، يتراجع معلناً من دون أدلة أنه لا ينبغي التفاؤل بتجاوزهم للمركزية الاوروبية، أو للقاعدة الميتافيزيقية لرؤيتهم الايديولوجية، وهي الضدية والمركزية الاوروبية.

وبدلاً من الرجاء بأي تبدل من الدارس الغربي يرى وقيدي ان الحل الاوحد هو ان يقوم بالبحث عرب، لكن الأخطر من ذلك ذهابه ليس إلى استبعاد مشاركة غربية في دراسة الشرق، بل استبعاد العلوم الاجتماعية والانسانية الغربية ومناهجها، وإقامته علوم عربية. ويبدو أن هذه الدعوى هي أيضاً دعوى مرجعه الخطيبي، فهما يريدان رمي الطفل مع ماء الغسيل.

ب ـ الموقف الايجابي

ليس كثيرون الذين يقيّمون الاستشراق تقويماً ايجابياً خالصاً، وربما وجدنا:

(١) أن رواد النهضة العربية، بمن فيهم الاتجاه الاصلاحي الديني، ممثلاً في محمد عبده، ورشيد رضا، وآخرين، يميلون إلى التعامل مع الاستشراق من دون عقدة» الاستشراق، بل إنهم حتى في التسمية يسمونهم غربيين، وقلما يستعملون كلمة «مستشرق»، وهم يميلون إلى الحوار الهادىء وليس الاتهام المسبق، وسوء الظن الجاهز. ويمكن الرجوع إلى محاوراتهم معهم، ودعوتهم إلى المناهج الغربية، وموقفهم الدفاعي لا الهجومي. ومثل ذلك يقال عن مرحلة الثلاثينيات، وأيضاً ما بعدها بعقد أو أكثر. ونجد هنا إشادات بالدارسين الغربين وبمناهجهم، كما نجد عند مصطفى عبد الرازق وابراهيم

مذكور[٣٤] ومحمد كرد علي وعدد آخر. وقد أسماها محسن الموسوي مرحلة التآلف والاختلاف، وعدد متمكنيها كثيرون، وحلل مواقفهم، وبيّن أسباب هذا الموقف العاطفي والنقدي والدفاعي من الغربيين بشكل ممتاز في سلسلة بحوث في أعداء الاستشراق الخمسة، مع ذكر نصوص لهؤلاء المفكرين العرب من كل الاتجاهات الدينية والعلمانية والقومية، تقوم على ضرورة تبين مناهج الغربيين وعلومهم مع عدم نسيان أنها ذات أصل اسلامي أو أنها تتفق مع الاسلام أو مع الطموح الغربي، مع الدفاع عما رشح منه من عدم فهم بسبب جهل أو ما اشبه، فالحوار هنا عقلاني، ولا يوجد رفض كامل، كما يوجد تعاطف مع حضارة الغرب ومنطلقاتها المنهجية، وفروعها العلمية، ومضامينها الديمقراطية، بل والاشتراكية احياناً.

(٢) **نجيب العقيقي**: لم أجد في كتابه الكبير بأجزائه الثلاثة، والذي يقع في ١٤١٤ صفحة مع الفهارس، إدانة واحدة للاستشراق، بل هو لا يعني من قريب أو بعيد، تبيان ما يشوه صورة مستشرق، كأن يربطه بالاستعمار عمداً أو بالتنبيه أن الكاتب يعدد ما فعله المستشرق المدروس مع نبذة عن حياته، بعد أن يصنفه ضمن بلده، وحقله الخاص. إن هذا الكتاب سجل هائل بأعمال المستشرقين يذهل المطلع عليه، يذهله بما سيجد أمامه من انجازات، تعتبر في الحقيقة عملاً إعجازياً. ولو عددنا أرقام ما ترجمه هؤلاء من العربية الى لغاتهم، والعدد يتجاوز آلاف الكتب، ولو عددنا ما كتبوه في أي حقل حول القرآن أو السيرة أو الآثار أو الفنون أو الفلسفة أو نظام الحكم أو التأريخ أو الأحداث أو المدن أو غير ذلك، لما ملكنا، على رغم كل السلبيات، وأحياناً التشويه، إلا أن نشارك المؤلف تقييمه الايجابي لما قدمه المستشرقون.

ويبدو أن المشكلة عندما نتدبر الامر تتعلق بجانبين: **جانب الانجازات العلمية** الحقلية البحتة من مخطوطات، ونشر وثائق، ومعاجم، وفهارس، وتحقيق نصوص... الخ. وهذا لا يمكن لمثقف إنكاره، **وجانب الايديولوجيا**، خصوصاً في موضوعات حساسة مثل القرآن و«المحمدية» كما يسمونه، والسيرة، والشريعة، والحديث النبوي، وبعض الشخصيات والأحداث الاسلامية. فهذه يمكن بسهولة تبين جوانبها السلبية والتعسفية الواضحة، بالاضافة إلى ان المستشرق ينطلق من أرضية ثقافته الخاصة وعصره،

---

(٣٤) انظر أبحاث محسن جاسم الموسوي المتسلسلة في **الاستشراق** كما يلي: محسن جاسم الموسوي: «مداخل المثقفين العرب للاستشراق: نقطة التحول،» **الاستشراق** العدد ١ (١٩٨٧)، ص ٨ وما بعدها؛ «نهاية القرن التاسع عشر: يقظة أو مواجهة،» **الاستشراق**، العدد ٢ (١٩٨٨)، ص ٧ وما بعدها، و«التآلف والاختلاف في الثلاثينيات،» **الاستشراق**، العدد ٥ (١٩٩١) ص ٢ وما بعدها، وانظر أيضاً: محمد عابد الجابري، «الرؤية الاستشراقية في الفلسفة الاسلامية: طبيعتها ومكوناتها الايديولوجية والمنهجية،» في: **مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الاسلامية** (الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٩٨٥)، ج ١، ص ٣٠٨ وما بعدها.

ومنطلقات الفكر الاوروبي في مراحل تفوقه الى القرن العشرين، وهي مرحلة البرجوازية فالامبريالية. وهكذا يبدو أن التقييم يعتمد على الزاوية التي ينطلق منها المقيّم لأعمال الاستشراق والمستشرقين.

يعدد العقيقي على سبيل الاختصار إنجازات الغربيين في الحقول التالية، وذلك في «الخاتمة» بعد أن فصّلها جيداً في اجزاء الكتاب الثلاثة، وهي:

(أ) **كراسي اللغات الشرقية**: انشأوا كراسي منذ العصر الوسيط، وتضاعفت بعد ذلك، ووضعت اللغات الشرقية ولا سيما العربية في مصاف اليونانية واللاتينية.

(ب) **المخطوطات الشرقية**: جمعوها بالاسفار الطويلة والنفقات الباهظة، ومن ثم قاموا بفهرستها ونشرها.

(ج) **المتاحف الشرقية**: جمعوها من رمال الصحراء ووهادها، ثم صفوها في متاحف ومطابع ومجلات، وفكوا رموز لغات قديمة، ووضعوا معاجم لها، وأنشأوا معاهد لها في بلدانهم، وفي بلدان الشرق الأوسط، وكشفوا عن مدن كاملة مطمورة. ومن المكتبات والمتاحف صنف المستشرقون مصنفات عالمية وفيرة، منها في قراءة الخطوط، وفي علم الكتابات العربية والسامية، وفي الفنون الاسلامية، والنقود الشرقية، وتراجم وأسماء التقاويم ومطابقاتها، وفي تخطيط المدن ووضع الفهارس والجداول لهذه الوثائق، ولو أراد المستشرقون بتراثنا شراً لما استنفدوا أحجاره وأوراقه من الضياع ولما فعلوا كل ما فعلوه.

(د) **تحقيق المخطوطات**: والمنهج العلمي في التحقيق، بحيث اثنى كل مصنف على تحقيقاتهم وسلامتها اللغوية، بما لا يقارن بما فعلنا حينما اعدنا ما حققوا أو حققنا الجديد.

(هـ) **ترجمة تراثنا بشتى اللغات**: يكفي القول إن المستشرقين ترجموا ٢٤٦٦ مؤلفاً إلى الفرنسية وحدها لإرساء النهضة الأوروبية عليها إلى سنة ١٩٥٩ فقط، بل ترجموا بعض مخطوطاتنا شعراً كالمعلقات وتائية ابن الفارض وبعض أشعار المحدثين.

(و) **دراسة التراث والتأليف فيه**، أو تقاسموا تراثنا: هذا كتاباً، وذلك عصراً، وآخر بلداً... الخ، وجمعوا مصادره من كل اللغات ورتبوها زمنياً.

ومن تصانيفهم:

(أ) المعاجم.

(ب) دراسات حول الاسلام، النبي والسيرة، والخلفاء، وعن فرقه، وتعاليمه، وعن علومه وآدابه، وعن اللغة العربية وآدابها، وفي علوم العرب.

(ج) الفتح الاسلامي.

(د) السلالات الحاكمة.

(هـ) الفنون والآداب والعلوم.

(و) المجموعات، مثل مكتبة باريس والمكتبة الشرقية الالمانية، وغيرها كثير لا يمكن تعدادها هنا. ثم المعاهد الشرقية والجمعيات والمجلات الآسيوية والمجامع العلمية والمراكز الثقافية.

وساعدهم على كل هذا:

(أ) المنهج العلمي، وهو منهج أوروبي لم يبتدعه المستشرقون، بل أترابهم مثل مونبتن، وسترافرمون، ومونتسكيو، وديكارت، ولاهاري، وبرونتيير، وغيرهم.

(ب) المميزات الخاصة، مثل معرفتهم للغات السامية، فيتقن بعضهم مثل بيتنركين احدى وخمسين لغة ولهجة. وتخصصهم في حقل بعينه يمضون فيه عمرهم واموالهم، ثم جلدهم على العمل، وربما ينقضي العمر في تحقيق احدهم لمخطوط أو فك رموز.

(ج) احياؤهم لمنسيين أو مهملين من رجالات الفكر والعلم العربي.

(د) المطابع الشرقية حينما لم تكن في المشرق كله مطبعة واحدة، واستوعبت مطبعة ليدن وحدها عشرين لغة شرقية.

(هـ) المجلات الشرقية، فقد نيفت على ثلاثمئة مجلة متنوعة خاصة بالاستشراق، ما عدا مئات تتعرض له في موضوعاتها العامة.

(و) المؤتمرات الدولية، وقد بلغت منذ ١٨٧٣ إلى ١٩٦٤ ٢٦ مؤتمراً[٣٥].

بعد ذلك يبين نجيب العقيقي موقفه من بعض المطاعن في الاستشراق والمستشرقين، فيقول عن تهمة ارتباطهم بالاستعمار أن من يراجع تراجم هؤلاء في هذا الكتاب، يجدهم أقلية، وهي، وإن لم تندثر حتى اليوم، فإنها لا تسلك في عداد غالبية المستشرقين التي اتخذت الاستشراق علماً وهوى. ويذكر أسماء عديدين تعرضوا للايذاء في دولهم بسبب مواقفهم، بدلاً من مجازاتهم وتقريبهم، بل إن بعضهم صرف أمواله الخاصة من أجل أهدافه البحثية او التحقيقية، ويرى ان جوانبهم الريبية ضئيلة بالنسبة إلى ما قدموا من تراثنا، إبرازاً ونشراً وتحقيقاً وترجمة... الخ ويقول: لو تركوا الينا أمره لاستنفد منا ثروات هائلة، ولو سبقنا إلى تحقيق تراثنا وترجمته والتصنيف فيه ونشره بشتى

---

(٣٥) نجيب العقيقي، المستشرقون، ٣ج (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٤)، ج ٣، ص ١١٢٢ - ١١٤٨.

اللغات منذ ألف عام، وفي كل مكان، لاحتجنا إلى استئجار مواهب مئات العلماء ومناهجم ومعارفهم وجلدهم.

ثم يرد على ارتباطهم بالتبشير، فيقول: «وبالرجوع إلى المترجمين ومكاتب الترجمة في طليطلة وبلنسية وصقلية والمؤلفين فيها، نجد أن الاستشراق لم يستهدف في نشأته خدمة الكنيسة، فرجال الدين اتباع الفاتيكان (لئلا يختلطوا بالاورثوذكس والبروتستانت ومن زاحمهم من ارساليات علمانية في ما بعد)، هم الذين نظروا إلى الحضارة الاسلامية ـ لا أوروبا ولم يكن فيها متعلم سواهم ـ نظرة إكبار وتهافتوا على إرساء النهضة الأوروبية على أساس التراث الانساني التي تمثله الثقافة العربية، وتعاونوا مع المسلمين واليهود على نقل امهات كتب: الرياضيات والفلك والطب والطبيعة والميكانيكا والكيمياء والفلسفة والمنطق والأدب. . . الخ. فالنظر إلى الرهبان من زاوية واحدة قضية تبعدنا عن الصواب، وتبيّن أن بعضهم سجن بسبب هذه الدراسات. . . ولو استهدف الرهبان الجدل والتبشير فحسب، لاكتفوا بتعليم العربية وأهملوا ما عداها من اللغات التي قل أو انقرض المتكلمون بها، كاليونانية القديمة، والعبرية والسريانية والكلدانية، وما كلفوا أنفسهم انشاء بواكير مكاتب الترجمة والمعاهد والمكتبات والمطابع والمجلات لحفظ تراثها ونشر ذخائره وترجمة أم لغات العالم، ولم يؤثر أن أحدهم منع مسيحياً من أن يسلم». ثم يقول: لو قورن أثر المرسلين الديني على أي مذهب كانوا بأثرهم العلمي من حفظ للتراث ونشره، ومن نشر المدارس واللغة العربية في البلدان الأجنبية(٣٦)، فانتشر الأدب العربي، وكذلك في بقية فروع العلم، لرجح العلمي على الديني رجحاناً كبيراً.

ويلاحظ العقيقي أن بعض الملوك والامراء دائماً استجاب إلى اتباع الفاتيكان، فأعانوهم على مآربهم ببعض الوسائل، إلا أنهم لم ينقادوا لهم تمام الانقياد، فلهم اغراض غير أغراضهم، فمثلاً شارل مارتل ولويس التاسع صادرا أموال الكنيسة للانفاق على حروبهما، وروجه الأول اضاف اشارة محمد إلى اشارة المسيح في ضرب نقوده، والحملات الصليبية لم تكن كلها خالصة للدين.

ثم جاء عهد الاصلاح الديني الذي قسم أوروبا إلى معسكرين داميين، وتبعه عصر المفكرين الأمراء، والثورة الفرنسية، والمذاهب المستحدثة في العلوم والفنون والآداب، وانفصال الدين عن الدولة، وامتلاء عصرنا بالأفكار العلمية الحرة. جميع ذلك يدل دلالة واضحة على أن الغرب لم يكن أو لم يبق على حال واحدة من التفكير الديني والتعصب له مقروناً بالاستعمار، وأن ملوكه وأمراءه ووزراءه وحكامه استهدفوا التجارة والسياسة والفتح اكثر من أي شيء آخر.

ويتناول العقيقي موقف المستشرقين العلمانيين، والملحدين، فلاحظ خمس فئات:

---

(٣٦) المصدر نفسه، ص ١١٥٠ و١١٥٨ ـ ١١٥٩.

(أ) فئة من طلاب الاساطير والغرائب والاحاجي، لم تكن من العلم في شيء فانقرضت بانقراض العصور الوسطى.

(ب) فئة من المرتزقة وضعوا أقلامهم في خدمة مصالح بلدانهم الاقتصادية والسياسية والاستعمارية، وقد المعنا إليها في تراجم اصحابها وآثارهم وألفيناها تعجز عن أن تحجب المنصفين ومن حارب الاستعمار مثل بلنت.

(ج) وفئة ثالثة من المتغطرسين الذين أعمتهم الضلالة عن الموضوعية، فغلب على نظرتهم الاعتقاد بأن الاسلام دين قليل شأنه، وجميع مصنفات هذه الفئة لا قيمة علمية لها. ثم أضيفت إليها تواليف الملحدين الذين ينالون من الاسلام نيلهم من النصرانية لأن الأديان في عرفهم عقبة تعترض الرقي البشري.

(د) وفئة رابعة تعرضت للاسلام من دون أن تقصد الطعن فيه، وإنما درسته كما درست كتبها الدينية، من نقد كتبهم المقدسة وإيمانهم مثل رابمورروس وليبنج وبوبر ورينان ولوازي، وكتبت في ذلك ألوف المجلدات، وترك أصحابها وشأنهم في بلدانهم احتراماً لحرية الفكر أو ازدراء بشأنهم.

(هـ) وفئة خامسة أنصفت الاسلام، وإن لم تدن به، قولاً وعملاً وكتابة، فلم يؤخذ عليها هفوة على كل ما دبجته[٣٧]، ومنهم من اعتنق الاسلام. ويعدّد العقيقي بعضهم.

وهكذا ـ يقول العقيقي ـ نرى أن الذين تعصبوا على الاسلام قلة لا تساوي الذين تعصبوا له على النصرانية، ولا تذكر بالنسبة إلى الذين أنصفوه، ومئات المستشرقين تبرأ من هؤلاء.

ويختم العقيقي دعواه بالإشارة إلى استعانة الأزهر الشريف بالمستشرقين وإرسال بعوث من طلبته للدراسة عليهم، مثل رصده عام ١٩٣٦ ثلاثة آلاف جنيه لبعثه ١٢ طالباً إلى جامعات فرنسا والمانيا وانكلترا، ثم قررت مشيخة الازهر عام ١٩٦١ تكليف أعلام المستشرقين الذين اسلموا بالقاء محاضرات، وتعاقبت البعثات، كما فعلت ذلك الجامعات العربية، وأدخلت المجامع العلمية عدداً من المستشرقين كأعضاء فيها.

(٣) ويلاحظ **ميشال جحا** أن الاستشراق الالماني لا علاقة بالاستعمار والتبشير[٣٨]. ويرى ميشال جحا أن الاستعمار غير الاستشراق، ومن الخطأ إقحام الاستشراق كله وجميع المستشرقين، ومنهم كثيرون خدموا العرب والتراث العربي والحضارة العربية، واعتنق بعضهم الاسلام. ويقسم موقف الدارسين العرب من الاستشراق إلى ثلاثة أقسام:

---

(٣٧) المصدر نفسه، ص ١١٣٣.

(٣٨) ميشال جحا: «الدراسات العربية الاسلامية في ألمانيا في القرن العشرين،» **الاستشراق**، العدد ٣ (١٩٨٩)، ص ١٠١، و«موقف العرب من المستعربين،» ص ٣٥ وما بعدها.

فئة من ربطه بالاستعمار، وفئة من تألقت في مدحه، وهم قليلون، وفئة ثالثة نظرت إليه نظرة علمية جادة، وقيمت جهدهم العلمي بشكل دقيق. ويذكر اسماء وممثلين لكل هذا الاتجاهات، مثل أحمد فارس الشدياق، وشكيب أرسلان، ومحمد أسد، وعبد القادر حاتم، وعبد القادر يوسف، ومحسن جمال الدين، ومالك بن نبي، وحسين الهراوي ضد دفاع زكي مبارك عنهم، وكذلك محمد عزت اسماعيل الطهطاوي. كل هؤلاء يمثلون الفريق الرافض المهاجم للاستشراق كله بلا استثناء، يضاف إليهم انور الجندي حديثاً.

أما من فريق المنصفين، فهو يذكر بنت الشاطىء، ومحمد غلاب، وزكي مبارك. . .الخ. ونجد محمد كرد علي يبالغ في مدحهم[٣٩]، وكذلك يوسف أسعد داغر في الطليعة، وصلاح الدين المنجد. ويقف محمد يوسف موسى موقف المنصف، بينما يقف عبد الرحمن بدوي موقف المنحاز إلى المستشرقين ومناهجهم، وكذلك فيليب حتي. ويلخص أسعد داغر انجازاتهم وفعلهم في ثمانية انجازات[٤٠]، وقد أتى عليها تلخصينا السابق للعقيقي وزيادة.

كذلك يمكن اضافة المستشرق يانوش، ويحيى الجبوري، وبيرك. وسوف نأتي على آراء يانوش وبيرك إما في نقد ادوارد سعيد، أو في الكلام عن مدى تبدل الاستشراق.

ج ـ الذين يقفون موقفاً نقدياً متوازناً أو متذبذباً أحياناً

كنا أتينا على تلخيص موسع لموقف ادوارد سعيد المهاجم للاستشراق بأحسن ما يكون الهجوم والموضوعية، وأتينا على رأي رودنسون في كتابه **جاذبية الاسلام** كموقف ناقد لادوارد سعيد ومدافع عن الاستشراق، ليس بشكل اعمى، بل من خلال متابعة حركة الاستشراق في مراحل عديدة، من العداء السافر، إلى مفارقة الاستشراق نحو دراسات متخصصة، عبوراً بمراحل التصارع والاعجاب من الغربي بالشرقي والشرق.

ان رودنسون ينتقد ادوارد سعيد على تصوره الاستشراق كماهية وجوهر لا يتبدل. لكن يجب العودة إلى بحثنا السابق، وسنعود إلى موقفه من تبدل الاستشراق لاحقاً. إنه يعدّد أكثر من ثمانية عشر حقلاً وإيجابية قدمها الاستشراق، حتى التقليدي، ومع كل مآخذه هو علة للعرب والشرق والثقافة العربية والشرقية. كذلك يمكن التذكير بمواقف منصفة متوسطة ذكرنا آراء أصحابها، مثل نديم البيطار الذي ينتقد ادوارد بشدة متناهية، وكذلك ابراهيم مدكور، وماجد فخري، وطيب تيزيني، واحمد محمود صبحي، والياس فرح[٤١].

---

(٣٩) نشر في: **الاستشراق**، العدد ٢ (١٩٨٨)، ص ١٥٠ وما بعدها.

(٤٠) حول هؤلاء وكتبهم ومواضع الاستشارة لها انظر: جحا، «موقف العرب من المستعربين،» وكذلك الهوامش.

(٤١) انظر التفاصيل عن آرائهم في: الآلوسي، «صور نقدية للاستشراق التقليدي والجديد، أو تطور الاستشراق وتطور النظرة إليه».

لن نقدم الآن آراء مفصلة عن عدد آخر اطلعنا على آرائهم بعد بحثنا السابق، لكننا سنقتصر على موقف بعضهم من مسألة: هل تجدد الاستشراق وكيف؟ وقبل ذلك نشير إلى أننا نقصد بهذا الفريق الأسماء التالية التي اطلعنا على آرائهم، وهم: محمد الصادق، وعبد المتعال الصعيدي، ومحسن الموسوي، وصبحي ناصر، وعمر فروخ، وفاروق عمر فوزي[٤٢]، كما أن معظم الدراسات في مجلدي **مناهج المستشرقين** يقوم على المناقشة العلمية الدقيقة، بدلاً من الهجوم الشامل. وهذه الدراسات أو معظمها في هذين المجلدين هي من نوع ما ينبغي التعامل بموجبه مع الاستشراق والمستشرقين وانجازاتهم ونقدهم.

إن هؤلاء الذين حسبناهم من المتصفين، ينظرون إلى الاستشراق بمنظارين: منظار المهاجمين للاستشراق على اسس ايديولوجية كتبشير واستعمار أو صهيونية أحياناً، وفي خدمة هذه، فيبينون سلبيات الاستشراق وينظرون إلى انجازاته العلمية الخالصة، كما نظر العقيقي أو رودنسون أو أسعد داغر فيقيمونهم ايجابياً من هذه الناحية، لكن الملاحظ أن معظم هؤلاء ينبه إلى ضرورة الابتعاد عن الأحكام المسبقة، وأن ينظر إلى كل مستشرق على حدة، وأن يقيّم أعمال كل مستشرق على حدة، وليس بحكم واحد على كل أعمال المستشرق من خلال انجاز واحد له. وهذا كله منهج سليم، كما أن بعضهم يحاول أن يعتذر لبعض آراء المستشرقين الجارحة للأديان أو للدين الاسلامي بأنهم يمثلون حركة زندقة وإلحاد ماوي كان موجوداً عند أوروبا منذ عصورها الحديثة، وأنهم نقدوا أديانهم أيضاً بالجرأة نفسها[٤٣]، كما أن بعض هؤلاء الدارسين يقدم عذراً آخر عما بدر عن بعض المستشرقين من جرأة بحق تاريخنا أو عقيدتنا بأنهم لهم بنيتهم الثقافية، وأنهم يتعاملون مع أمورنا تعاملاً تاريخياً، لا من منطلق نقف فيه نحن، وهو أن لهم عقيدتهم وأفكارهم وبنيتهم الثقافية وقيمهم وهكذا.

والآن نعود إلى ما يراه بعضهم من تبدل الاستشراق أو عدم تبدله:

يرى عبد المتعال الصعيدي بعد أن يقدم نقدات سلبية للاستشراق على اساس ارتباطه بالتبشير وخوف الكنيسة من استهواء علوم المسلمين للشباب، وبعد أن يذكر مطاعنهم وشبهاتهم حول تجاهل الرسول والرسالة والطعن في النبوات وغيرها، وبعد ان يقيّم جهودهم العلمية في الترجمة والنشر والبحوث، حول القرآن وموسيقى القرآن وعلوم القرآن، تقييما إيجابياً، ويتكلم على مثقفين وإن لم يسلموا وآخرين اسلموا، ويعذر من شط منهم لأنهم ليسوا من ديننا، يقول: إنهم في القرن العشرين تحولوا إلى كتابة فيها

(٤٢) فاروق عمر فوزي، «الاستشراق وتاريخ العصر العباسي،» **الاستشراق**، العدد ١ (١٩٨٧)، ص ١٢٠ وما بعدها. أما الاسماء الاخرى فقد ذكرنا مصادرها في ما تقدم.

(٤٣) انظر على سبيل المثال: العقيقي، **المستشرقون**، ج ٣، ص ١١٦٠.

حقائق بعد ابتعادهم عن أسباب وقوع من قبلهم في القرون السالفة، وهذه الأسباب التي ابتعدوا عنها فكان تحولهم، هي: قلة ما لديهم من مصادر وجهلهم باللغة العربية، وسوء الترجمة القديمة ودخول اسباب بحكم اختلاف الدين أو المصلحة أو اختلاف الجنس، لكن الصعيدي يرى أنه حتى في القرن العشرين لا يزال بعض كتاباتهم غير خالٍ من الدس والتشويه عن سوء نية حينا، وعن سوء فهم للحقائق التاريخية حيناً آخر.

ونجد محسن الموسوي، يتعامل مطولاً مع امكانية تبدل الاستشراق، فهو يرى أن مقالة عبد الملك «الاستشراق في أزمة» عام ١٨٦٣ كانت فاتحة انحدار الاستشراق والتنبؤ بمصيره، وهو ما أعلنه مؤتمر المستشرقين التاسع والعشرين في باريس ١٩٧٣ عن موت الاستشراق وحلول «العلوم الانسانية» المعنية بالشرق بديلاً منه. وعلى رغم ان هذا الموت يعني ضمناً ولادة نمط جديد يولي ظهره للنصوص التراثية بعد ان قبل ما قيل بشأن الثقافة العربية الاسلامية، فأصبحت بعض مقولات الدارسين الغربيين وكأنها ثوابت لا محيص عنها، إلا ان ما حصل هو أن البحوث الجديدة تأتي منطلقة منها لا خارجة عليها، كما يعني موت الاستشراق تزايد الاهتمام بكل آسيا وافريقيا بما في ذلك الشرق الاوسط أو الادنى؛ ويلاحظ الموسوي أن الشذوذ الذي لاحظه ادوارد سعيد ونديم البيطار من المستشرقين والكتّاب الغربيين ذوي النزعة الانسانية، اصبح ليس شذوذاً، حيث إن واقع الحال منذ عقود يؤكد عودة الاتجاه الانساني ثانية في الفكر العالمي في مواجهة النزعات النفعية التي حولت الفكر في خدمة المصالح الاحتكارية، وعلى متعاملينا مع كتّاب الغرب أن يدركوا هذا، وأن الاتهام المطلق ضد المستشرقين بأنهم في خدمة الاستعمار ليس صائباً لأنه ينهي المجادلة أو يمنعها، كما أنه يحيلها إلى اداة قمع[٤٤].

ويعود الموسوي بعد أن يتكلم في الحلقة الثانية على نوع المواجهة ويسميها الاختلاف والمؤالفة بين رواد عصر النهضة العربية والغربيين، ونادراً ما يسمونهم مستشرقين، وهي مواجهة تتميز بعدم رفض الذي للغير، بل بالاعتذار له وتبرير قبوله من خلال أنه هو ما عندنا أو أنه انتاج الفكر الانساني كله، وهو أمر يخالف المواجهة مع الاستشراق اليوم، حيث هي اليوم تتميز عند كثيرين بالرفض المطلق والهدم الكامل؛ أقول يعود في حلقة ثالثة من «الاستشراق» العدد (٣١)، فيقول إن الاستشراق لم يمت، فعلى الرغم من التغيرات الطارئة على حركة الاستشراق، قبل المؤتمر الأول في عام ١٨٧٣ وبعده، إلا أن مراحله التاريخية لا تعني موت هذه الحركة، بل تلونها واتساعها في منظومات معرفية وعملياتية جديدة لها علاقة وطيدة بما يجري في عالم اليوم. ويأخذ الموسوي بتقسيم انور عبد الملك وادوارد سعيد الاستشراق إلى دورين أو مرحلتين تفكيراً وإدارة تشغل أفكار رينان في أولاهما مكانة متميزة، بينما تشغل النزعة الامريكية للدراسة

(٤٤) الموسوي، «مداخل المثقفين العرب للاستشراق: نقطة التحول،» ص ٧ ـ ٩.

الميدانية حيزاً واضحاً في ثانيتهما، أي أن افكار رينان المطمئنة إلى التوزيع العرقي للحضارة وصراعها تشكل اساسيات المرحلة الأولى، وأثرت في الكتابات عن الشرق العربي وأسقطت نفسها بقوة على اتجاهات السياسة الاستعمارية، سواء عند نابليون أو كرومر، بينما يفترض أن نقود الاهتمامات الجديدة بالدراسات الحقلية أو الميدانية في الخمسينيات إلى وضوح أكبر في الرؤية، لكن صعوبة خلاصها من ذلك الخزين المتراكم في الذاكرة يجعل مثل هذا الخلاص أمراً مستحيلاً. ويرى الموسوي أن الجهد الاكاديمي (الاستشراق الاكاديمي تمييزاً له من الاستشراق المؤسسي، وهو تقسيم ادوارد) قد يكون بريئاً، لكن السياسة لها طرقها في استخدامه، ويستشهد بقول كرسون إن الدراسات الشرقية هي الاثاث اللازم للامبراطورية. ويمهد الموسوي لدعواه في صعوبة تخلص الاتجاهات الجديدة من رواسب الاستشراق الأول، بان يذكر تميز الاستشراق التقليدي حول العرب والعربي، على ان الفكرة القومية غريبة على الوجود العربي على اساس أن النظام السياسي كما يراه غب وماكدونالد وآخرون مولود في الشريعة، اي كتكوين ديني، ثم غرابة الوحدة لأن الفرق والفرقة هي الحالة المستمرة، اما التوحد والتجاور فهو الطارىء (برنارد لويس). وهكذا كونت لديها القناعات التالية من ان العربي يمتلك نزعة للتناحر والاغتراب وأنه فرداني وأناني، وأنه رهين أنانيته، إذ كما يقول بيرك إنه يتصف بالحنين والرجاء والاحساس بقصر العمر، وانه ينمو ويتنفس في غير محيطه، أي عندما يكون في اجواء على اتصال بأجواء «آرية» تقليلاً من خصائصه في الابداع ذاتياً[٤٥].

ويرى الموسوي أنه سواء كان عهد الاستشراق السياسي قد انتهى عندما حصل الانعطاف المعروف في الدراسات الميدانية، أم لم ينته، فإن واقع الحال عكس استمرار الروح الاستشراقية في التكوينات الحقلية الجديدة، إذ لم تكن الأخيرة غير اعتراف متزايد بأهمية دراسة المنطقة في ضوء تزايد المصالح الامريكية، وهكذا تستمر بعض الكتابات السياسية التي لا يشك في سلامة نية أصحابها، مثل بيرغر (**العالم العربي** ١٩٦٢)، وانتوني نتنغ ١٨٦٤، وروفايل بتاي (**العقل العربي** ١٩٧٣)، وتوماس كيرنان (**العرب** ١٩٧٥)، أقول تستمر متأثرة بنظرات الاستشراق السياسي الدارجة والتي تؤكد ما يلي:

(١) الذهن الاوروبي (بدلاً من الآري) مختلف عن الشرقي، ومع أن لهما إرثاً يونانياً مشتركاً، إلا أن العقل العربي صاغه من خلال العواطف، بينما صاغه الغرب من خلال العقل.

(٢) العقل العربي يميل إلى الشورى لكنه يميل أيضاً إلى الوساطة، كما أنه مجبول على النزاع والاقتتال.

(٣) الشخصية العربية مليئة بالتفاخر والمباهاة.

(٤٥) الموسوي، «نهاية القرن التاسع عشر: يقظة او مواجهة،» ص ٥ - ٩.

(٤) المجتمع العربي لا يمكن ان يتطور لأنه مكبل بتقليدية خاصة به، ولهذا يرى عظمته في بواكيره؛ انه مجتمع ثابت لا يتغير.

(٥) إن العربي (وهذا ما يراه بيرك أيضاً) متقلب كالصحراء يصعب أن تقيم العواطف والافكار في داخله طويلاً، وهو لا يتعامل لذلك مع الآخرين بقوة، بينما الاوروبي يبصر الواقع على أنه ما يقع خارجه، ويبقى الواقع بالنسبة إلى العربي «داخلياً خاصاً به»[٤٦].

(٦) يتوزع التأريخ العربي فترات جمود طويلة، وفترات صحوة قصيرة انفعالية.

ويوضح المستشرق البولندي يانوش دانيتسكي أزمة الاستشراق والحلول لها، ويرى ان الاستشراق يعيش منذ سنوات في أزمة أسبابها مختلفة وتشخيصها ليس بالأمر الهين، إلا أنه يمكن تمييز مجموعتين أساسيتين من هذه الأسباب: **الأولى** متصلة بالهيكل الداخلي لهذا الحقل من المعرفة، **والثانية** اسباب تنبع من التورطات العامة التي نشأت إثر فصل علوم الاستشراق عن بقية العلوم بما ادى إلى تقسيم عمل مفتعل لا مبرر له. وتنبع الأزمة الداخلية لعلم الاستشراق من تردد المستشرقين وحيرتهم في ما يخص علمهم هذا. فالاستشراق الكلاسيكي في القرن التاسع عشر كان قد تفرغ وبالدرجة الرئيسة لثقافات العالم التي لا تختلف عن اوروبا والغرب فحسب، بل العالم الآخر البعيد والمجهول والغريب (Exotic). ومثل هذا اللاتحديد لمادة البحث في الاستشراق كان مبرراً آنذاك ولم يثر أية شكوك طرائقية، إلا انه بعد الحرب العالمية الثانية اصبح الشرق غير بعيد ولا غريب، وقبل كل شيء لم يعد خاضعاً لكولونيالية الغرب، وشيئاً فشيئاً أخذ يصير شريكاً، لكن في المرتبة الثانية[٤٧]. وبذلك لم يعد مجرد مادة بحث، بل قائم بالبحث أيضاً، وفي بلدان الشرق ظهر الناس الذين يبحثون عن ذواتهم ويقومون بما كان المستشرقون يفعلونه، ونشأ سؤال: هل هؤلاء الناس هم مستشرقون أيضاً؟

يصعب أن نسمي مؤرخ الادب العراقي مستشرقاً، كما لا يوجد مبرر لان نسمي الفرنسي أو الانكليزي مستشرقاً إذا درس الادب العراقي، انما هو مؤرخ الادب العراقي فقط. وكذلك لا مبرر لأن نقول عن عالم رياضيات هندي انه عالم غربي، بل هو عالم رياضيات فحسب. باختصار لا مبرر لتقسيم ميادين المعرفة إلى استشراقي واستغرابي. أما الاسباب الخارجية المتعلقة بكون الاستشراق اصبح حقلاً مستقلاً للمعرفة، فهي اخطر من احوال القلق الداخلي. فوجود الاستشراق لا يقود إلى تقسيم العلوم فقط، بل والعالم، الى

---

(٤٦) المصدر نفسه، ص ٩ ـ ١١، لاحظ ترداد محمد عابد الجابري لهذه الاطروحات خصوصاً أرقام ١، ٤، ٥ و٦.

(٤٧) يانوش دانيتسكي، «الاستشراق بين الشرق والغرب،» ترجمة عدنان المبارك، **الاستشراق**، العدد ١ (١٩٨٧)، ص ٥١ ـ ٥٢. وانظر المقابلة مع شوفاليه في: **الاستشراق**، العدد ٢ (١٩٨٨)، ص ١٩٠.

منطقتين منفصلتين، إن لم نقل متعارضتين: الشرق والغرب، بيد أن الشرق لا يتعدى كونه مادة غير مستقلة، أي أن المستشرق ينظر إلى العالم الشرقي من خلال ثقافته وميراثه وقيمه ومقاييسه، وبذلك يعرضه للتشويه والأضواء الزائفة، ولهذا هوجم الاستشراق نهاية السبعينيات (ادوارد سعيد مثلاً، الذي رأى ان الاستشراق يقسم العالم ويشرنق الشرق). وينتقد يانوش ادوارد عدة انتقادات سنأتي عليها لاحقاً، ثم يضيف ان حلّ مشكلة الاستشراق هذه قدمها ـ ليس ادوارد سعيد ـ بل بول شارني، من جامعة السوربون في كتابه **اللاشرقيات أو كيف وصف الآخرين** الصادر عام ١٩٨٠، اي بعد عامين من كتاب ادوارد سعيد.

يقول شارني: الاوهام المتبادلة: الغربية عن الشرق والشرقية عن الغرب، تطرح على مستويين متباينين: **الأول** هو اللجوء إلى المداورة وخلق هيكل غير فعلي وتسلية ادبية وعلم اجتماع وهمي، فهذا العالم الثاني القائم في المخيلة لا رابط له بالواقع. فهو مجرد حلم ولربما كابوس مدرك بهذه الدرجة او تلك. وعلى المستوى **الثاني** نلقى التعايش والاطلاع، وكلاهما منغمر بالسياسة والايديولوجيا. ومن هنا صعوبات الايضاح. ازاء ذلك، على الاستشراق ان «يتعلم»، وعليه ان يدرك ان المجتمعات العربية الاسلامية تحيا، وهي قادرة على التفكير الذاتي وبالآخرين. وإذا تعلق الأمر بالاستشراق ذاته، فعليه أن يكون بالدرجة الاولى مجموعة تقنيات واحوال مراقبة متعمقة على الدوام. وهذا كله يمكن من وصف ما هو واقع. ومثل هذا الحل تقدمه المدرسة الفرنسية(٤٨).

ونجد رودنسون يوضح ما حدث من تبدل في الاستشراق، وكنا قد لخصنا باسهاب رأيه في هذا الصدد في بحثنا السابق، وتحذيره من ان تغري مناهضته الاستعمار وايديولوجيته برفض كل المحرز، كل المكتسب الحضاري الاوروبي، بوصفه ملطخاً بالتمركز الأوروبي والذهنية الاستعمارية، ويقدم جوانب ايجابية ومكتسبات غربية في المنهج والفكر والرؤيا ضد مثل هذا الاغراء، كما يذكر احد عشر حقلاً وانجازاً كبيراً حققته الدراسات الاستشراقية(٤٩).

ونكتفي هنا بايراد ملخص لاطروحات رودنسون، وسنجد بعضها عند بيرك، وهي:

(١) لا يوجد استشراق، انما توجد ميادين علمية مثل علم الاجتماع، والديموغرافيا،... الخ. مطبقة على شعوب او مناطق، أو عصر، مع حساب خصائص هذه الشعوب والمناطق والعصور.

---

(٤٨) انظر الحوار مع اندريه ميكل في: **الاستشراق**، العدد ٢ (١٩٨٨)، ص ١٩٤.

(٤٩) انظر التلخيص لآراء رودنسون في: الآلوسي، «صور نقدية للاستشراق التقليدي والجديد، أو تطور الاستشراق وتطور النظرة إليه،» ص ٥٦ ـ ٥٨.

(٢) لا يوجد شرق، بل توجد شعوب، وبلدان، ومناطق، ومجتمعات، وثقافات، لبعضها ميزات مشتركة (ذات ديمومة او عابرة).

(٣ ـ ٤)، ما زال العديد من المستشرقين اسير الاستشراق يفرضه عليهم التخصص ومفاتن الاحتراف.

(٥) يزيد هذا الخطر الخوف من التغير، والماهوية، ماهوية العرق، والشعب والطبقة والدولة.

(٦) يحذر رودنسون من خطر الايديولوجيا على البحث بما فيه الاستشراق، سواء كانت ايديولوجيا المجتمع البرجوازي الليبرالي، أو الماركسي أو القومي.

(٧) ويحذر من أن الدراسات الجديدة على اساس الشعوب والموضوعات كما اعلاه، والتي تشمل تحت اسم «الاستشراق» في الماضي، ستستمر على يد اختصاصيين من كل صوب، فان احداً[٥٠] من الدارسين يكون محرراً بمعجزة من القيود التي تحملها ايديولوجياتهم وشروطهم الاجتماعية في ادراكهم للأشياء. ويعيد رودنسون في مقابلة خاصة بـ **آفاق عربية** الدعوة إلى ضرورة استبدال «الاستشراق» بتعبير «دراسات شرقية»، حيث لاحظ أن الصحف العربية تتكلم على الاستشراق وكأنه حركة مثل البروتستانتية أو الماركسية، أو كأنه علم مثل الفيزياء. ويرى أن الدراسات الشرقية المعاصرة استفادت من الأساليب الجديدة في البحث العلمي ومن النظريات الحديثة لعلم الاجتماع[٥١].

نكتفي بهذه المعالجة لموضوع تبدل الاستشراق، وكنا عرضنا موقف الأعسم ومحمد وقيدي في ما تقدم، وكذلك بيرك.

٣ ـ الملاحظة الثالثة: حول ادوارد سعيد ونقاده

يحتل كتاب **الاستشراق** لادوارد سعيد مكانة خاصة، وكنا اشرنا في هذا البحث إليه عرضاً من خلال ذكر من درسناهم له. وليس في نيتي هنا عرض آراء ادوارد سعيد، ذلك اننا عرضنا آراءه بتفصيل مطول وواضح وشامل في بحثنا السابق، كما ليس في نيتي أن اقدم انتقادات قديمة ألحقناها بعرضنا لآرائه هناك، خصوصاً نقد رودنسون، ونديم البيطار وآخرين.

إن ما سأفعله هنا هو جلب انتقادات جديدة على ادوارد سعيد اكمالاً للصورة القديمة، ولبلوغ اقصى ما يمكن من الدقة والفائدة.

---

(٥٠) المصدر نفسه، ص ٥٨ ـ ٥٩.

(٥١) انظر المقابلة مع رودنسون في: **الاستشراق**، العدد ٢ (١٩٨٨)، ص ١٩٥.

أ ـ **نقد ابراهيم السعافين**: سابدأ بمجلة الجديد التي خصصت محوراً خاصاً بادوارد سعيد، خصوصاً مقال ابراهيم السعافين، الذي عرض ملخصاً موسعاً لكتاب **الاستشراق**، ولا يهمنا، لأننا عرضنا ملخصاً موسعاً للكتاب في بحثنا السابق، ثم يقدم ملخصاً بسطور لنقد كل من صادق جلال العظم، وبرنارد لويس، وردونسون، حيث لاحظ العظم أن مد ادوارد للاستشراق إلى هوميروس وحتى الوقت الحاضر يجعل ادوارد قائلاً باسطورة الطبيعة الجوهرية للعقل الأوروبي، ومقابله الشرقي.

ويدافع ابراهيم السعافين أن العظم يبسط اقوال ادوارد تبسيطاً مخلاً وغير صحيح لأن ادوارد يكرس كتابه للقضاء على مقولتي الشرق والغرب، وطبيعتهما المزعومة[٥٢].

ويلخص السعافين نقد برنارد لويس لادوارد سعيد بأن ادوارد يقصر الاستشراق والشرق على الغرب ويهمل الشرق كله (آسيا وافريقيا)، وان ادوارد لا يملك المؤهلية للتصدي للاستشراق لأنه ليس من أهله. ويتهم السعافين برنارد بإظهار ميوله الصهيونية وتجريد الخصم من وسائله. ويطري السعافين نقد رودنسون، ويرى ان الاخير يؤيد بعض آراء ادوارد سعيد حول الاستشراق، وان كتابه حرك قلق المستشرقين واهتمامهم بموضوع المشروطية الاجتماعية والعرقية والثقافية لعلمهم.

ولكن رودنسون يرى أن ادوارد سعيد ربما جر كتابه إلى العقيدة القائلة بوجود عالمين، لا عالم واحد. اننا نعتقد أن هذا التناول من السعافين لهذه الدراسات النقدية الثلاث لا يغني ولا يشبع من جوع، وتعاطفه مع سعيد واضح. لذلك سأقدم عرضاً مناسباً لنقد العظم وبرنارد لويس وآخرين، غير معيدين لنقد رودنسون المطول ونديم البيطار، حيث عرضناهما في بحثنا السابق.

ب ـ **نقد صادق جلال العظم**: في كتابه **الاستشراق والاستشراق معكوساً**[٥٣]، يلخص العظم اطروحات ادوارد سعيد بأن الاخير يميز بين الاستشراق الاكاديمي ومؤسسة الاستشراق كجهاز مرتبط بمصالح اقتصادية واستراتيجية وايديولوجية، ويرى ادوارد ان الاستشراق الاكاديمي هو المسؤول عن تقديم الصورة الشمولية عن الشرق، اي شرقنة الشرق، والتعامل معه على اساس عنصري، وعلى تفسيرات اختزالية لواقعه، وعلى احكام تقييمية لا انسانية بحق شعوبه ومجتمعاته من اجل اخضاعه واستغلاله (بعد دراسته)، وأن ثمة فارقاً جوهرياً ماهوياً بين الطبيعة الشرقية من ناحية، والطبيعة الغربية من ناحية اخرى، لصالح التفوق للأخيرة، والدونية للاولى.

---

(٥٢) ابراهيم السعافين، «الاستشراق، الموقف وردود الفعل،» **الاستشراق**، العدد ٤ (١٩٩٤)، ص ١٠ وما بعدها.

(٥٣) صادق جلال العظم، **الاستشراق والاستشراق معكوساً**، الفكر العربي (بيروت: دار الحداثة، ١٩٨١)، ص ٦ ـ ٧.

هنا يأتي نقد صادق العظم:

(١) يقول العظم: هذا الذي لخصناه يؤدي إلى أن الاستشراق ما كان يمكن ان يوجد بالمعنى الدقيق للعبارة، قبل صعود اوروبا البرجوازية وتوسيع سلطانها وتوسيع حدودها، لذلك يحدد ادوارد بداية الاستشراق عند عصر النهضة، لكنه سرعان ما يتراجع عن هذا التفسير لصالح بداية اخرى للاستشراق تتعارض تماماً مع الأولى، حيث يرجع الاستشراق عبر اسقاط تأريخي هائل إلى الخلف، إلى هوميروس ولسكيلوس ويوريبديس ودانتي بدلاً من عصر النهضة، فهو ليس ظاهرة أوروبية حديثة، بل هو قديم في نظرة الغربي منذ هوميروس، وإلى هاملتون ومروراً بماركس. هنا يقول صادق العظم: إن النتيجة المنطقية لهذا التفسير لظاهرة الاستشراق هي العودة بنا من الباب الخلفي إلى اسطورة الطبائع الثابتة (التي يريد ادوارد تدميرها). وهكذا يعمل مثل هذا المنحى مع نتائجه على إحباط الأهداف الأساسية لمشروع ادوارد كله لسببين: **الأول** لأنه يرجعنا إلى اسطورة الطبائع الثابتة الدائمة، **وثانياً** لأنه يعطي ميتافيزيقا الاستشراق مصداقيتها، أي ضدين شرق وغرب، بينما هو يريد القضاء عليها. ويرى العظم ان الصحيح هو أن الاستشراق ظاهرة حديثة أفرزتها القوى الحية لتأريخ أوروبا البرجوازية في العصر الحديث، وأنه لجأ كعادة كل جديد إلى منح أصول وسند له بالاستناد إلى العصور القديمة الكلاسيكية، ولكن هذا شيء، والقول مع ادوارد بأن الاستشراق والضدية مع الشرق ملازم للعقل الأوروبي شيء آخر.

(٢) يرفض العظم قول ادوارد بأن الاستشراق الأكاديمي هو المنع الذي صدرت منه مؤسسة الاستشراق، والصحيح بحسب العظم هو العكس، أي أن مؤسسة الاستشراق، من حيث هي أداة توسع أوروبي نحو الشرق وعلى حسابه، من حيث هي قوة مادية تتحرك وتتحرك، تشكل الاساس الذي قام عليه الاستشراق الثقافي ـ الاكاديمي، وهكذا بالنسبة إلى تفسير ادوارد لمنبع الاهتمام السياسي الامريكي المتأخر بالشرق[٥٤].

ونتيجة لهذا التفسير المقلوب عند ادوارد سعيد، لا غرابه في أن نجد آراء واحكاماً وتحليلات في صلب كتاب ادوارد سعيد تؤدي إلى تعليلات من النوع التالي:

(أ) كي نفهم مصدر الاخضاع اللاحق للشرق فهماً سليماً ونفسره تفسيراً صحيحاً، يحيلنا ادوارد سعيد باستمرار إلى ازمنة ماضية بعيدة لم يكن الشرق فيها حاضراً بالنسبة إلى الغرب الا على مستوى الوعي والكلمات والنصوص وتعاليم الحكماء.

(ب) تشكل «فكرة قناة السويس» نتيجة منطقية لفكر الاستشراق اكثر من كونها نتيجة طبيعية للتنافس الفرنسي ـ الانكليزي على بناء الامبراطورية والهيمنة «على الشرق الادنى».

---

(٥٤) المصدر نفسه، ص ٩ ـ ١٠.

(ج) الاستشراق الثقافي ـ الاكاديمي هو المسؤول الاساسي عن ظاهرة بروز شخصيات شهيرة في الغرب، مثل نابليون وكرومر وبلفور ولورنس العرب، ولكي نفهم هؤلاء والطموحات الشخصية السياسية لهؤلاء يقترح ادوارد سعيد العودة إلى المستشرقين الغربيين ديربيلو ودانتي اكثر من التمعن بالمصالح الحيوية التي تدافع عنها هذه الشخصيات.

(٣) يرفض العظم الفهم الابستمولوجي الذي يعتمده ادوارد سعيد لتفسير استحواذ الغرب على الشرق فعلياً، أي ما خلفه الاستشراق الاكاديمي من صورة خاطئة عن الشرق. هنا يسأل العظم: لو قدم الاستشراق فهماً دقيقاً واقعياً عن الشرق، هل كانت الدول الاوروبية المعنية تسلك سلوكاً مغايراً واكثر رحمة بالشرق وبمصيره؟ وهكذا يعطي ادوارد اهمية عظمى وأولوية حاسمة لكل ما هو ذهني وخيالي ومثالي وانفعالي وتطوري في مقومات الفاعلية البشرية، بحيث تحل هذه محل الواقع الخام العيني. لذلك يقف ادوارد سعيد مواقف مناهضة للعلم والتفكير العلمي المنظم عند هجومه مثلاً على الاستشراق الثقافي الأكاديمي وتنديده به لأنه قام بالتصنيف، تصنيف الشرق وتبويبه وجدولته وتدوينه وفهرسته وتخطيطه وتشريحه، وكأن هذه العلميات (التي لا يستقيم من دونها اي تفكير منظم) شريرة بحد ذاتها، وكأنها تشوه المجتمعات وثقافاتها وتأريخها، وفي الوقت نفسه يرى ادوارد سعيد ان دراسة أي مجتمع لآخر أو لثقافة مغايرة لا تتم إلا بهذه العمليات، لكن هذا يجري من خلال عملية تدجين كل ما هو غريب ومغاير ومألوف من خلال عناصر مألوفة وشائعة، أي من خلال تصورات الدارس ومألوفاته، وبالتالي يعني هذا بحسب ادوارد سعيد عملية تحريفه وتحويله وتشويهه، أي تشويه الموضوع أو المجتمع الغريب المدروس (وليتذكر القارىء ما قلناه عن عزيز العظمة من انه يتابع ادوارد سعيد في حديثه عن آليات ومناهج الاستشراق)، وهكذا يقترب، أي ادوارد سعيد، إلى مواقع قريبة جداً من الذاتية النسبية في نظرية المعرفة، فينكر من حيث المبدأ امكان تحصيل أية حقيقة «موضوعية» أو «علمية» عن الثقافات الاخرى، بخاصة إذا بدت غريبة وبعيدة ومغايرة (ص٣)، فلا يبقى امام استقبال ثقافة لاخرى سوى التصور والاختزال والتحريف والتدجين أو صياغاتها على أسسها.

والنتيجة المنطقية ان ما صاغه الغرب عن الشرق هو أمر مبرر وخاضع للقانون العام الذي صاغه ادوارد سعيد[٥٥].

(٤) وكل ما تقدم، يقول العظم، يفسر بعض المواقف التي وقفها ادوارد سعيد من بعض الأمور، وهو على خطأ فيها، ومنها:

---

(٥٥) المصدر نفسه، ص ١١ ـ ١٤.

(أ) قسوته على محاولات ماركس النظرية لفهم المجتمعات الآسيوية والشرقية عموماً.

(ب) رفق ادوارد سعيد عند تناوله لكل من المستشرقين هارولد غب وماكدونالد في دراستهم للاسلام.

(ج) تعاطفه الكبير ومديحه الشديد للتأويلات الروحانية الصوفية للاسلام ومجتمعه وثقافته التي اشتهر بها لويس ماسينيون ومدرسته الاستشراقية.

وسوف لن أطيل في توضيح النقاط أ، وب، وج، ويكفي أن أبين ان العظم يرى أن ادوارد سعيد لم يستطع فهم ما أراده غب وماكدونالد من جهة، ولم يكن مصيباً في الاعتذار عن آرائهما. كيف؟ لقد لخص ادوارد نظرات استشراقية عامة ممثلة في ماكدونالد وغب تقول:

(أ) ان تصور الغيب هو أكثر حضوراً بالنسبة إلى الشرقي مما هو بالنسبة إلى الشعوب الغربية.

(ب) فضلاً على ذلك، ان العقل الشرقي يعجز عن بناء نظام للأشياء المشهورة.

(ج) غياب احساس الشرقي بوجود نظام تحكمه القوانين، إذ لا وجود بالنسبة إليه لنظام طبيعي صلب وراسخ.

(د) سيطرة القوى الغيبية واللجوء إليها.

(هـ) المواطن المسلم أو الفلاح المسلم ينظر إلى كل شيء من خلال الدين، فلا اهتمام له سياسي، وهو يرى العالم الخارجي من خلال منظار ديني.

هذه الاحكام، يقول ادوارد سعيد في نقدها، إنها ذات طابع تجريدي وتعميمي، وهو يعزو مثل هذه الاحكام الخاطئة ـ بحسبه ـ إلى تأثرها الشديد بتقاليد الاستشراق المتراكمة، أو أنه يعزوها بأسلوب آخر، إلى «الحجاب الابستمولوجي» الاستشراقي.

إن العظم يرى بخلاف ذلك أن هذه الأحكام تملك ـ في تلك الفترة وإلى حد كبير إلى الآن ـ مصداقية محدودة، أي أنها لو كانت فاقدة لكل سند في الواقع القائم، لما كان لأي مفكر كبير من طراز غب أو ماكدونالد أن يطلقها، ففعلاً الغيب حاضر عند سكان دمشق والقاهرة أكبر مما هو في سكان باريس، وهكذا بالنسبة إلى الدين مع الفلاح الجزائري او الايراني، اكثر مما هو عند عضو الكولخوز السوفياتي. ولكن ما فات ادوارد سعيد فوق هذا كله هو النتائج العملية التي وراء هذه الأقوال لغب وماكدونالد، مثلاً: الدين عند الشرقي أو الفلاح، كأنه يقول لصانعي السياسة الغربية أنه سيذهب إلى الشرق وأنه يستفيد من هذه المسألة الواقعية عند التعامل مع الفلاح المصري مثلاً، وهكذا.

والذي فات ماكدونالد، أن يناقش هذين المستشرقين، على أساس أن هذه خصالاً مؤقتة وأنه يمكن ـ وهذا ما لم يفعله ادوارد سعيد ـ أن يستحضر المناقش لهما حال الانسان الاوروبي في القرون الوسطى؛ ألم يكن هو الآخر عنده مثل هذه الاعتقادات والانماط الفكرية؟! فليس في المسألة جوهر ثابت؛ بل حالة مؤقتة مرحلية، تطبق على أي شعب يمر بمراحل[٥٦].

وينعي العظم على ادوارد سعيد تعاطفه مع ماسينيون، وهو حامل بضاعة الاستشراق التقليدية الفاسدة: انقسام العالم إلى شطرين غير متكافئين، ولكل منهما طبيعة جوهرية خاصة، والفارق بين الشرق والغرب هو الفارق بين التقليد القديم والحداثة، فالشرق روحاني، سام، قبلي، غير آري وجذري في توحيده، وقضية فلسطين عند الشرقي لا تتجاوز النزاع بين اسحاق واسماعيل وهكذا. كما أن ماسينيون كان مطلوباً كمقدم خبرات للحكومات الاستعمارية، وهو الابن البار لجهاز الاستشراق المعروف بكل أحكامه العنصرية وصلاته الاستعمارية. لذلك يبدو غير مبرر مدح ادوارد سعيد له على اي اساس موضوعي.

ونأتي الآن إلى النقطة (أ) الخاصة بقسوة ادوارد سعيد على ماركس، فيرى ادوارد سعيد ان ماركس واقع تدريجياً تحت مقولات الاستشراق، إذ قال بأن بريطانيا تلعب دور أداة التأريخ اللاواعية الدفع باتجاه قيام ثورة اجتماعية حقيقية في الهند، ويرى العظم أن هذه صورة كاريكاتورية يقدمها ادوارد سعيد عن حقيقة فكرة ماركس وما وراءها. وحتى لا نطيل نكتفي بمقولة ماركس إن الرأسمالية الاوروبية تحفر قبرها بيدها، وكذلك فان الحكم الانكليزي في الهند يحفر قبره بيده، فما علاقة هذا بالاستشراق واطروحاته، ولا يوجد دارس لفكر ماركس نسب قول ماركس هذا إلى الاستشراق وأطروحاته؟ ويقدم العظم مثالين آخرين من أقوال ماركس تشهد على أن هذا جزء من منظور عام لماركس لا تعلّق له بالاستشراق، فهو، أي ماركس، يطرح في «البيان الشيوعي» في فقرات فكرة أن البرجوازية الاوروبية الحديثة لها دور مزدوج: دور الأداة التاريخية التي تدمر اوروبا الاقطاعية الماضية لصنع اوروبا الليبرالية الحاضرة تمهيداً لأوروبا البروليتارية المستقبلية. مثال آخر: كلام ماركس عن الدور المزدوج الذي لعبه الرأسمال الربوي في تأريخ أوروبا الحديثة كأداة لتدمير الانتاج الفلاحي والحضري الصغير، وفي الوقت نفسه كأداة إحيائية على طريق بناء أوروبا الصناعية الحديثة.

ومن جهة اخرى، إن إقرار أي اسناد بتفوق اوروبا آنذاك، سواء ماركس أو سواه، هو حقيقة واقعة ولا يكون داخلاً في تبعية فهم استشراقي إلا إذا اعتبر هذا التفوق طبيعة ووضعاً أبدياً لن يتبدل، وماركس لم يقل هذا (ص٢١ ـ ٢٥).

---

(٥٦) المصدر نفسه، ص ١٦ ـ ١٩.

(٥) ونقد أخير: يلوم العظم، بل ينتقد بشدة ادوارد سعيد لدعوة الاخير إلى التبعية لامريكا، ومحاولته رفع كل ما يسيء إلى أن تمارس بشكل كامل، بما يخدم الجانب التابع، وليس في الدعوة إلى التخلص من هذه التبعية[٥٧]. ونحب أن نشير إلى أن نديم البيطار قدم نقداً مماثلاً لادوارد سعيد على هذا[٥٨].

ج ـ **نقد يانوش**: يرى يانوش ـ وسبق أن أوردنا رأيه في الاستشراق الجديد وأزمته وكيف تحل ـ أن ادوارد سعيد يقصر بحثه على مقطع صغير من الابحاث الاستشراقية، أي الانكلوساكسونية والفرنسية المتخصصة بالعالم العربي والاسلامي، إلا أن اطروحاته تشمل الاستشراق الغربي كاملاً، علماً بأن الاستشراق في البلدان الاشتراكية له مبادىء مغايرة تماماً للآخر الاوروبي الغربي أو الامريكي. والنقد الآخر أن ادوارد سعيد لا يقدم حلاً لأزمة الاستشراق، وهو أمر اعترف به ادوارد سعيد نفسه، على عكس شارقي الذي قدم هذا الحل، وكنا أوردناه في ما تقدم[٥٩].

د ـ **نقد جيفولسكي**، مستشرق بولندي، يرى أن أدوارد سعيد يحرم الاستشراق من فرص التطور لأنه أرسي على اسطورة خاطئة تقول بتحجر كل ثقافات الشرق. كما ان للكتاب طبيعة الاحتجاج الذي لا يقترح حلولاً ايجابية، كما ان لغة الكتاب صعبة، وهي لغة ايحاءات ومختصرات تفكيرية. ويقول: هناك افكار يعود إليها المؤلف لأنها تسلطت على ذهنه، كما تثيره ـ أي ادوارد سعيد ـ بصورة واضحة فرضيته الرئيسية حول الاستشراق كأداة قهر. والقارىء البولندي غير المطلع عامة قد تضجره هذه القضايا (يقصد المستشرق أنه ليس لبولندا مع الشرق والعرب علاقة استحواذ وقهر)، كما يلاحظ المستشرق أن للاستشراق البولندي طابعه الخاص[٦٠].

هـ ـ **نقد برنارد لويس**: يضم كتاب ادوارد سعيد قضية اساسية قوامها ان «الاستشراق مستمد من تقارب معين بين بريطانيا وفرنسا وبين الشرق الذي عني حقاً حتى القرن التاسع عشر بالهند والاراضي التي اتى الكتاب المقدس على ذكرها» (ص٤). وللبرهنة على هذه النقطة يتخذ سعيد عدداً من القرارات البالغة التعسف. فشرقه يتم قصره على الشرق الاوسط، وشرقه الاوسط لا يتجاوز جزءاً من الوطن العربي. وبتنحية الدراسات الشرقية الاخرى جانباً من ناحية، والدراسات السامية من ناحية اخرى، يعزل

(٥٧) المصدر نفسه، ص ٢٥ وما بعدها.

(٥٨) الآلوسي، «صور نقدية للاستشراق التقليدي والجديد، أو تطور الاستشراق وتطور النظرة إليه،» ص ٦٤.

(٥٩) دانيتسكي، «الاستشراق بين الشرق والغرب،» ص ٥١ ـ ٥٣.

(٦٠) انظر رأي جيفولسكي في: عدنان المبارك، «آراء بولندية في كتاب إدوارد سعيد «الاستشراق»،» الاستشراق، العدد ٢ (١٩٨٨)، ص ١١٢ ـ ١١٣.

الدراسات العربية عن كل من سياقها التأريخي والمتعلق بفقه اللغة، والمدى الأمني والنطاق الجغرافي للاستشراق يتم تقييدهما بطريقة مماثلة. وللبرهنة على صحة قضيته، يجد سعيد أنه من الضروري تأريخ نشأة الاستشراق من أواخر القرن الثامن عشر، وجعل مراكزه الرئيسية في بريطانيا وفرنسا. وفي الحقيقة ـ يقول برنارد ـ إن الاستشراق كان راسخ القدم في القرن السابع عشر، فعلى سبيل المثال أسس كرسي اللغة العربية في جامعة كمبردج في عام ١٦٣٣، وكانت مراكزه الأساسية في المانيا والدول المجاورة لها، بل إن تاريخاً للدراسات العربية في أوروبا دون الالمان يغدو حقاً شيئاً لا معنى له.

ولا يرضى لويس عن استخدام ادوارد سعيد لوصف علاقة نمو المعرفة بالشرق في الغرب بألفاظ مثل «نهب» و«انتزاع» و«مصادرة» و«اغتصاب»، وكأن الثقافة والعلم هما بالنسبة إلى سعيد سلعتان تتوافران بكميات متناهية، وقد انتزع الغرب نصيباً غير عادل منهما تاركاً الشرق مجرداً منهما، كما أن سعيد يعرب عن احتقار للانجاز العربي في مجال الثقافة والبحث هو اسوأ مما ينسبه إلى مستشرقيه الشياطين.

ويلاحظ لويس أنه حتى داخل الاستشراق الانكليزي والفرنسي يحذف العديد من الشخصيات البارزة، فلا يوردها أو يذكرها عرضاً، أو أنه يشير إلى انجازات غير مهمة قياساً على انجازات اهم.

كما يتهم لويس ادوارد سعيد بانه يفعل اكثر من هذا ليحقق أغراض كتابه ودعاويه، بأن يخرج النصوص بتفسيرها المكرر عن مقاصد أصحابها، كما انه للغرض نفسه يدرج تحت فئة «مستشرق» سلاسل بأسرها من الكتاب، ومن الحكام الامبراطوريين مثل كرومر، مع أنهم لا علاقة لهم بالتقليد الاكاديمي الاستشراقي. كما أنه يلجأ إلى ألفاظ وتهم طائشة مثل اتهام سلفستر دي سايس بنهب سجلات المحفوظات الشرقية والتلاعب بنصوصها.

كما يتهم المستشرقين بأن أفكارهم الاقتصادية لم تمتد قط إلى ما يتجاوز تأكيد العجز الشرقي الجوهري عن التجارة والتبادل والعقلانية الاقتصادية، وظلت هذه الكليشهات سائدة حتى ظهرت دراسة مكسيم رودنسون عن الاسلام والرأسمالية في عام ١٩٦٦. ويرى لويس ان هذا ما لا يقبله رودنسون نفسه، وأن ادوارد سعيد يبدو غير ملمّ بأعمال مستشرقين كثيرين غطوا الانشطة الاقتصادية الاسلامية، ويكرر اشارة رودنسون إلى أن طروحات ادوارد سعيد تؤدي إلى ما يشبه نظرية جدانوف عن العلمين. كما يغمز لويس بجهل سعيد في فقه اللغة ودارسيه من المستشرقين، بل وحتى قلة قدرته في العربية. كذلك انه يحذف المثقفين الالمان والروس، وللأخيرين احكام أشد حول اطروحاته تؤيدها، فلماذا اهملهم هنا غمزاً وشهد حول آراء ادوارد سعيد اليسارية؟

كما أن المدهش هو ـ يقول برنارد ـ ان سعيداً يقف من الشرق عربياً أو غير عربي على نحو هو أكثر سلبية بكثير من موقف الكتّاب المتصلفين الأوروبيين الامبرياليين الذين

يدينهم، كما أنه يفصح عن احتكار وجهل بالجهد الثقافي العربي، عندما يقول، أي ادوارد سعيد، بانه لا توجد مجلة رئيسية واحدة مخصصة للدراسات العربية تصدر في الوطن العربي اليوم. كما أنه لا يعرف الكيان الهائل الذي قدمه المؤلفون العرب حول الاستشراق، أو هو على الاقل لا يأتي على ذكرهم.

ويرد برنارد على ربط الاستشراق بخدمة الامبريالية، وهو هنا يرد على انور عبد الملك وادوارد سعيد معاً وعلى آخرين، ويرى أن هذا عبث لا مكان له كتفسير للمشروع الاستشراقي ككل، فاذا كان البحث عن القوة والسيطرة من خلال معرفة الغرب للشرق هو الدافع الوحيد أو الأكثر بروزاً، فلماذا بدأت دراسة اللغة العربية والاسلام في اوروبا قبل قرون من خروج العرب من ارض اوروبا الغربية والشرقية وشروع الاوروبيين في هجومهم المضاد؟ ولماذا ازدهرت هذه الدراسات في دول اوروبية لم تحصل قط على نصيب في السيطرة على الوطن العربي، ومع ذلك قامت بإسهام يضارع اسهام الانكليز والفرنسيين، بل ويفوقه؟ ولماذا بذل الباحثون الغربيون كل هذا الجهد[٦١] لفتح مغاليق واكتشاف آثار حضارة الشرق الأوسط القديمة التي طواها النسيان منذ أمد بعيد؟

والآن لا بد من تقديم نقود على برنارد، وقد قدم مترجم نص لويس وادوارد ملاحظات جيدة على برنارد وطبيعة رده ولخصها في خمسة انتقادات اعتبر كامل يوسف حسين (المترجم) انها ميزة للنص الاستشراقي، الذي استعمله لويس. وكنا قد أتينا عليها في صفحات سابقة من هذا البحث.

وقبل أن أخوض في تلخيص رد ادوارد سعيد على لويس ألاحظ ان ردود برنارد اضعف بكثير من ردود من تناول ادوارد سعيد، أو رودنسون، أو البيطار، أو العظم، أو يانوش، أو غيرهم، ممن سبق، وذكرنا آراءهم في كتاب سعيد، ذلك أن برنارد ينصرف إلى الأمور الجزئية والمعلوماتية الجزئية، فيتلفظ خطأً هنا أو مصدراً فات سعيداً هناك، أو أن سعيداً لا يحسن ميدان الاستشراق، أو أنه لم يبحث الاستشراق في كل بقاعه وامتداداته، أو أنه لا يتقن حتى العربية ولا يتقن فقه اللغة، واكثر من هذا أنه أشد نجساً للعرب وخطراً عليهم حتى من المستشرقين.

ويستعمل لويس لغة الاستعداء على ادوارد سعيد، مرة بفلسطينيته، ومرة بيساريته، ومرة باهماله للمنتوج الفكري العربي حول الاستشراق. وفي كل هذا يبدو أن لويس، إما عامداً أو غير عامد، ينصرف عن القضية الكلية لكتاب **الاستشراق** لسعيد، وهي قضية ليست جزئية ولا قضية معلوماتية، بل هي قضية ايديولوجية التوجه الاستشراقي ودوره الأساسي في خلق صورة وهمية عن الشرق ساعدت قصداً أو بشكل غير مباشر على

---

(٦١) لويس، «مسألة الاستشراق،» ص ١١٦ ـ ١٢٤، انظر ايضاً في ما سبق الهامش رقم (٣١).

إخضاع الشرق، وتشويه صورته وتشكيكه في نفسه، وخدمت بشكل أو بآخر المؤسسة السياسية والمؤسسة الاستشراقية معاً.

لقد لاحظ هذا الشيء المهم احد المعقبين على المجادلة بين برنارد لويس وادوارد سعيد، وهو غرابر، حيث لاحظ أنه مع اقراره بأن لويس على حق في كل من ردوده على النقاط المحددة التي يثيرها خصوم المستشرقين، وطرحه العام للمنجزات العديدة والمركبة التي قدمها المستشرقون، وكذلك ملاحظة لويس أن هناك قدراً من الانجاز البحثي الاستشراقي لا يعرف تخوماً ايديولوجية أو عرقية أو قومية أو ثقافية، حتى لو كان ممارسوه كأفراد مذنبون على نحو عرضي، من حيث وقوعهم في ضروب من التحامل والولاءات، إلا أن لويس (وهذه هي الملاحظة المهمة من اشارتي إلى غرابر) لا يطرح معاً الاسئلة الجوهرية، وهذا هو السر في أن الحركة المناهضة للاستشراق كللت بالنجاح على رغم كل الدفوعات عن الاستشراق، ولا يمكن أن يغطى بالاشارة إلى الأخطاء في إيراد الحقائق أو ضروب سوء الفهم التي لاحظها لويس على ادوارد سعيد. ويلاحظ غرابر ان لويس في أول مقاله يقدم صورة كاريكاتورية ماكرة، وإن تكن مسلية، عن نوع المواجهة وردود الفعل التي واجه بها الاسلاميون والدارسون العرب الاستشراق، مصوراً الأمر وكأن موقفهم هو مجرد رد فعل سخيف وسطحي لمثقفين ساخطين ضيقي الافق، لغوياً وذهنياً. إن شكوى هؤلاء ان كتابات المستشرقين، بما في ذلك كتاب في. س. نايبول الذي هو كتاب نير يمتدحه برنارد كنموذج جيد، تبقى تصوراً وتحكم على الاشياء من الخارج ولا تتغلغل إلى آمال ومعاناة المسلمين أنفسهم. ويرى غرابر أن من معاني هذه الشكوى والمعاناة وأسبابها أننا ـ كمستشرقين ـ قد فصلنا ماضياً مكتملاً ومتميزاً من الساحة المعاصرة، لكن الكثيرين منا قد جرى اجتذابهم في الغالب إلى القفز من مجال اختصاصنا هذا لتفسير الحاضر.

ويتساءل غرابر: كم من الاختصاصيين الغربيين في شؤون القرون الوسطى يجري استدعاؤهم لتفسير الثقافة المعاصرة؟ إن الهجمات التي يتعرض لها الاستشراق هي في جانب كبير منها نتيجة للاحباط الذي نشأ في اطار من فشل المستشرقين في تقديم ردود على القضايا المعاصرة، وبالطبع فإنه من الخطأ السعي إلى هذه الردود في الاستشراق، لكن المستشرقين أعلنوا بصورة اكثر توتراً مما هو مبرر أن لديهم هذه الردود.

ويرى غرابر، اختصاراً، أن لويس، فيما هو محق تماماً في الاشارة إلى المنجزات البحثية والأمانة الفكرية والسخاء الذي يتميز به ما نسميه الاستشراق، ربما كان قد أفسح مجالاً محدداً فحسب للاعتراف بقلق ومخاوف وتوقعات العالم الاسلامي المعاصر(٦٢). ويمكن تلخيص المسألة من وجهة نظر ادوارد سعيد بما ذكره رودنسون عندما سئل عن

---

(٦٢) انظر جرابر في: **الاستشراق**، العدد ٢ (١٩٨٨)، ص ١٣٠.

رأيه بنظرية ادوارد سعيد ونقده للاستشراق. قال رودنسون: «اذكر جملة قالها مرة ادوارد سعيد «انا (سعيد) وورودنسون لا تتكلم عن الشيء نفسه (يقصد رد رودنسون عليه). رودنسون يتحدث عن دراسات شرقية وأنا أتحدث عن ايديولوجيات تدعم هذه الدراسات». يوجد شيء من الصحة في ما قاله ادوارد سعيد. فالايديولوجيا التي سادت من عام ١٨٨٠ حتى عام ١٩١٠ كانت مشروطة بالشهادة للاستعمار الاوروبي، والامر لا مجال لرده، ولكن ان نعتبر كل الدراسات الشرقية وقعت في هذه المصيدة فيه شيء من التجني على الحقيقة[٦٣].

ولسنا بحاجة بعد هذا وذاك إلى تلخيص ردود ادوارد سعيد على لويس، فهي في ما عدا ما اوضحنا من ردود على لويس تتعلق بأمور جزئية معلوماتية بين الطرفين لا تؤخر ولا تقدم شيئاً.

و ـ **نقد محمد اركون**: في حوار مع محمد اركون طرح سؤال: أين وصل النقاش حول الاستشراق في الوطن العربي؟ فأجاب أركون: «علينا التحلي بالدقة، فالنقاش الدائر في الوطن العربي حول قضايا الاستشراق مهم للغاية، وآخرها المؤتمر التاسع عشر للفكر الاسلامي، ومعظم المناقشات هاجمت الاستشراق ونتائجه ودوره، وكان حرياً بالمفكرين العرب تناول هذه المسائل المهمة بعيداً عن سطوة الايديولوجيات، وبالاستناد إلى قاعدة معرفية علمية. إن ادوارد سعيد بدوره هاجم الاستشراق، «وادوارد سعيد صديق حميم أعرفه جيداً وأشاركه في بعض ملاحظاته القيمة من دون ان أقاسمه افكاره حول الاستشراق. فسعيد تناول في دراساته كتّاباً قدماء صاروا جزءاً من التأريخ انكب على دراسة انتاجهم مهملاً الظرف التأريخي الذي كتب هؤلاء مؤلفاتهم في ظله، فأغرق ابحاثه في بحر من الايديولوجيا أشك بقدرتها على إيصال النقاش إلى الهدف المنشود منه. فلقد تجادلت مع العديد من المستشرقين، منهم برنار لويس، جدلاً علمياً بعيداً عن الايديولوجيا وعن الاتهامات المسبقة، وأظن أن هذا هو سبب الاحترام المتبادل بيننا، فهم يدركون الدواعي الحقيقية للحجج التي أسوقها».

ويرى محمد اركون ان الاستشراق متهم بما يلي: إن موضوعات جديدة طرأت على المجتمعات العربية، ومواضيع تطورت بسرعة خلال السنوات الاخيرة، لكن لاسباب شتى لا يبذل الاستشراق الغربي الجهد اللازم لدراستها، فقد جدت أمور في الجزائر بلدي، من حرب التحرير والاستقلال، وبعدها الاصلاح، لكن الاستشراق الذي درس الجزائر بعناية فائقة كف عن إيلاء هذه المستجدات العناية التي تستحق. في المقابل، علينا الاعتراف بأن الغربيين قد حققوا دراسات مهمة حول الاسلام منذ القرن التاسع عشر وحتى الخمسينيات، وتلك المرحلة متوافقة مع الحقبة الاستعمارية، حيث كانت ايديولوجية

(٦٣) انظر المقابلة مع رودنسون في: الاستشراق، العدد ٢ (١٩٨٨)، ص ١٩٦.

التفوق الحضاري الاوروبي مسيطرة، وعلوم الاثنولوجيا وقتها كانت تصنف العرب في عداد الشعوب المتخلفة. بعد الخمسينيات دخلت المجتمعات العربية مرحلة الاستقلال من دون أن يعني ذلك استقلالها استقلالاً ناجزاً، على الصعد الاقتصادية والثقافية والفكرية، لكن يبقى انها مرحلة جديدة مطلوب مراجعتها. وإذا كان بعض اصدقائي المستشرقين عاجزاً بسبب العمر عن القيام بهذه المهمة فلا بد من أن يتناولها أحد ذات يوم(٦٤).

٤ ـ الملاحظة الرابعة: حول الاستغراب

ليس المقصود هنا «الاغتراب» بل الاستغراب، فخلال تجوالنا في المراجع، لاحظنا وجود دعوة معاكسة، ويسميها صادق جلال العظم: «الاستشراق معكوساً»، ويسميها حسن حنفي «الاستغراب» ويؤلف كتاباً يقع في ٨٧٩ صفحة كبيرة لتوضيحه ورسم أبعاده.

إن هذه الملاحظة لا يمكنها أن تعالج «الاستغراب» بأكثر من اشارات ذات دلالة من دون الخوض في مشروع «الاستغراب»، كما يقدم حسن حنفي مثلاً. ولذلك سنتابع حسن حنفي ليطلعنا على مفهوم الاستغراب وما يريده منه.

علم «الاستغراب» هو المقابل لـ «الاستشراق» وبيان دوافعه والرد على المركزية الاوروبية، وضرورة التحول من النقل إلى الابداع. وقد نشأ «علم الاستغراب» (Occidentalism) في مواجهة التغريب (Westernisation).

وإذا كان الغرب ينتقد ذاته ويعبّر عن فلسفة كنوع من النقد الذاتي من منظوره هو لنفسه، فإن علم الاستغراب يختلف عن ذلك؛ إنها رؤية الغرب من منظور اللاغرب، ورؤية «الآخر» من منظور الأنا، وهو منظور من جهة الانا وابداعه وليس من افراز الآخر ورؤيته(٦٥).

في الاستغراب انقلبت الموازين والادوار، فأصبح الأنا الآخر يرى الدارس بالأمس هو الموضوع المدروس، فتحول جدل الأنا والآخر في جدل الغرب واللاغرب إلى جدل اللاغرب والغرب.

ويقدم المؤلف عدة فروق بين الاستشراق والاستغراب، فالأول ظهر إبان المد الاستعماري الأوروبي، بينما يظهر الاستغراب الآن في عصر الردة وحركات تحرر الشعوب المدافعة، وخير دفاع هو الهجوم. كما ظهر الاستشراق محملاً بالايديولوجيا السياسية للقرن التاسع عشر والثقافة السائدة من عنصرية وسواها، أما الاستغراب فيظهر

(٦٤) انظر المقابلة مع محمد أركون في: **الاستشراق**، العدد ٢ (١٩٨٨)، ص ١٨١.

(٦٥) حسن حنفي، **مقدمة في علم الاستغراب** (القاهرة: [د.ن.]، ١٩٩١)، ص ١٩ ـ ٢٢.

في ايديولوجية مناهج علمية مخالفة. وإذا كان الاستشراق تغير شكله وورثته العصور الانسانية، فان الاستغراب ما زال بادئاً. وإذا كان الاستشراق غير محايد، فان الاستغراب اقرب إلى المحايدة نظراً إلى أنه لا يبغي السيطرة كالآخر(٦٦).

ثم يتكلم عما سيقوم به الاستغراب من دور لفضح المركزية الاوروبية، كما يعقد صفحات للكلام عما سيحققه الاستغراب من «ابداع». ثم يتكلم على نتائج الاستغراب، فيقول: إذا ما تم تأسيس علم الاستغراب ستحدث النتائج الآتية، ويعددها:

أ ـ السيطرة على الوعي الاوروبي واحتواؤه بداية ونهاية، وبالتالي يقل ارهابه.

ب ـ دراسة الوعي الأوروبي على أنه تأريخ لا خارج التأريخ.

ج ـ رد الغرب إلى حدوده الطبيعية وانهاء الغزو الثقافي.

د ـ القضاء على اسطورة الثقافة العالمية واكتشاف خصوصيات الشعوب.

هـ ـ افساح المجال للابداع الذاتي للشعوب غير الأوروبية.

و ـ القضاء على عقدة النقص لهذه الشعوب اللاأوروبية.

ز ـ اعادة كتابة التأريخ بروح المساواة.

ح ـ بداية فلسفة تأريخ جديدة تبدأ من الشرق.

ط ـ انهاء الاستشراق.

ي ـ انشاء علم «الاستغراب» كعلم وثقافة.. الخ.

إن وقفة جادة مع ما لخصناه من مشروع حسن حنفي، وتأمل ما وضعنا تحته خطاً في مقارناته بين الاستشراق والاستغراب، تبين أن حسن حنفي يضع العربة قبل الحصان، فمثلاً يتحدث عما سيحدث من نتائج «الاستغراب»، ومن نشوء علم الاستغراب الدقيق!! إن النقطة القاتلة في كل مشروع عند حنفي، أنه عندما يتحدث عن الاستشراق وانجازاته وعيوبه وحسناته وتأريخه، يتحدث عن شيء حدث، وعن عصور هي تأريخية، بينما كل حديث عند حنفي عن علم الاستغراب هو من باب المخطط الذي يراد بناؤه، وليس له وجود الآن إلا ما أسماه «جذور علم الاستغراب»، من قبيل المواجهة بين فكر عصر النهضة العربية والفكر والمجتمع والعلم الاوروبي، ومن قبيل الشكوى المستمرة من الاستشراق ونقده. وفعلاً فإن حنفي عندما يعدد نقاد هذا المشروع ومهاجميه يذكر من بينها النقد التالي: قد يقال إن «علم الاستغراب» هو مجرد أمنيات الشعوب المتحررة، وكرد فعل

(٦٦) المصدر نفسه، ص ٢٩ ـ ٣١.

ضد مرحلة الاستعمار، وكنوع من ايجاد دور لها في التأريخ؛ إنها احلام مضطهد. ويجيب حنفي: وما المانع في أن يكون ذلك صحيحاً؟ لطالما كان التحرر شوقاً عند القادة والجماهير ولم يمنع ذلك من التحرر بالفعل[٦٧].

ولكن إذا كان المشروع كله أملاً، فكيف يتسنى لنا أن نصفه في مقابل الاستشراق بكل الصفات الايجابية، من الحياد، والمنهج العلمي، والخلاص من الانغلاق والوان العمى، وكيف يمكن ان نتكلم على دوزنته نتائج هائلة كما عددناها؟

هناك اعتراضات أخرى يسوقها حنفي على نفسه، مثل صعوبة تناول التراث الغربي ككل. كما أن هذا التراث متلون متعدد، وله أشكال مختلفة، وليست واحدة، فكيف سنحكم عليه (وواضح أن حكمنا عليه هو حكم مسبق، كما سأبين). وهناك اعتراض آخر هو أن هذا العلم هو رجعة إلى الوراء هي بالنسبة إلى موقفنا من الغرب تنم عن جهل وأخذ بالشبهات، وكل ذلك خارج عن البحث العلمي. وهناك نقد آخر هو أن هذا العلم اقرب إلى الايديولوجيات منه إلى العلم. كما أن هذا العلم سيناقض نفسه لأنه يدعي الاستقلال الفكري والعلمي للاطراف عن المركز (أي لغير الغرب بالنسبة إلى الغرب الذي هو المركز) لكنه سيظل باستمرار في دائرته لأنه سيستعمل علم المركز ومناهجه وانجازاته وموضوعاته[٦٨].

لقد حذر صادق جلال العظم من الاستشراق المعكوس، أي التعامل مع الغرب من خلال ميتافيزيقا الاستشراق الزاعمة بوجود نظام معرفي خاص متميز وجوهري لكل من الغرب والشرق. ويبدو أن مشروع «الاستغراب» في لغته غير المكتوبة ولا المنطوقة يحمل مثل هذا التوجه، ويريد معاملة الآخر، بما عامل به «النحن» أو الأنا نفسهما، أي أن دور الرد والهجوم المعاكس قد بدأ، وكأننا في حرب أو كأنه لزاماً أن تستمر الحروب الصليبية، والاستشراقية، والعنصرية التي تضع فروقاً للشعوب وعقلياتها وممارساتها. وسوف نتكلم في الملاحظة الاخيرة من بحثنا هذا على الاستشراق المعكوس أو من اسميهم مستشرقين عرباً بوضوح.

إن ما أريد قوله: إنه لا داعي لهذا العلم على الاطلاق، أعني للتسمية، فطالما ان «الاستشراق» نفسه بدّل نفسه، ويدعي أنه، وبالفعل، حاول دراسة الشرق والغرب كحقول معرفية وليس كأجناس وخصائص عقليات وأصناف، فإنه لا داعي إلى أن نعيد الخطأ، بل كل ما علينا هو أن ندرس ما لنا، وأن ندرس ما يقوله الغير عنا وأن نرد الشبهة، وأن نصل ونهيىء انفسنا للابداع، من دون أن نسمي هذا أو ذاك «استغراباً»، ومن دون أن نصرخ عالياً: إننا قادمون ايها الغرب للاستحواذ عليك ولإفهامك من

(٦٧) المصدر نفسه، ص ٩٥.
(٦٨) المصدر نفسه، ص ٩٠ ـ ١٠٥.

أنت. . . وإلى ما شحن به حنفي كتابه من آمال عراض. ليس لي اعتراض على مشروعية كل هذه الآمال التي يريدها حنفي، من استقلالية، وفهم لأنفسنا من خلال الاستقلال لا التبعية. . . وإلى ما هنالك، لكنني لا أرى ضرورة للحديث عن علم هو علم «الاستغراب». كما أنه لم يعد هناك من داع للحديث عن استشراق بعد أن أحس المستشرقون أنفسهم بما آل إليه من نتائج سلبية.

ما أجدر بنا أن نعيد مستخلصات رودنسون عندما تكلم على أنه لا يوجد استشراق الآن، بل دراسات عن الشرق، ولا يوجد شرق، بل مجتمعات. . . إلى ما سبق، هناك مشاريع أصغر حجماً واهدافاً للاغتراب، في صوره الخام الأولى، على يد آخرين وإن لم يسموه الاسم نفسه. ألخص مشروع أحدهم، وهو محمد الصادق، يقول في مواجهة الاستشراق والاستغراب (وهو غير الاغتراب)، إنه علينا:

أ ـ دراسة الغرب: تأريخه، واقعه، مستقبله، تجارته من وجهة نظر عربية بحتة وفقاً لمصالح الوحدة العربية ككل.

ب ـ تقليل البعثات التعليمية إلى الخارج والاكتفاء بالمجهود الوطني.

ج ـ تغيير العلوم عربياً، بحيث لا تخالف تصورات العرب للعلم ولا للحقائق التي أقروها في العلوم الطبيعية والانسانية.

د ـ طرح المفاهيم الاسلامية بروح العصر وتقنياته وتعزيز مكانة العربية.

هـ ـ إيجاد مؤسسات علمية متحررة من سيطرة الثقافة العربية[٦٩].

وقد رد جبرييلي على انور عبد الملك عندما دعا إلى كتابة تاريخ الشرق من منظور الشرق، فقال إنها دعوة إلى ضرب من العدالة غير المبررة، وذلك لأنه من الواضح أنه ليس بمستطاع الغرب أن يقبل طلباً كهذا من دون ان ينفي نفسه ووعيه لذاته ومبرر وجوده. وواضح ان الدعوة هنا دعوة إلى الغرب لكي يكتب تأريخ الشرق من منظور الشرق[٧٠]؛ ولا اعتقد أن مثل هذا الرد يصلح باتجاه مشروع عربي لكتابة تاريخ الشرق والغرب من منظورهم هم كعرب وكشرقيين. ولكن هذا شيء و«الاستغراب» شيء آخر، لأن الأخير هو دراسة الغرب من خلال الشرق، فوجه الاستحالة هنا هي كوجه الاستحالة في طلبنا من الغرب أن يكتب عنا، عن الشرق من منظورنا.

٥ ـ الملاحظة الخامسة: حول «مستشرقين عرب» أو الاستشراق المعكوس

كما قلت في أول هذا البحث هناك خطة مهيأة لهذا الموضوع تنتظر التنفيذ، لذلك فان كل ما سأفعله هنا هو ليس التدقيق حول اطروحات هؤلاء واسمائهم، وانما الاشارة

---

(٦٩) عبد اللطيف، «الاستشراق. . . الواقع والاتجاهات والمواجهة،» ص ٢٤٢.

(٧٠) العظمة، «إفصاح الاستشراق،» حواشي ص ٤٥.

إلى ما يلي: إن اطروحات الاستشراق، التي هي معروفة في معظم الكتب التي تناولته، وأخص الدراسات التي كتبها عرب، وأتينا في هذا البحث والذي قبله على قسم كبير منها، من تقسيم الشعوب إلى شرق وغرب، والحكم على ماهية لكل ثابتة لا تتغير، واعطاء مواصفات دونية للعقل العربي أو الشرقي في مقابل مواصفات متفوقة للغربي، وغير ذلك، تسربت إلى كتّابنا ومفكرينا وتقاد الاستشراق أنفسهم، عن وعي أو عن عدم وعي. وإن الوان هذا التسرب وأشكاله متعددة بحسب كل موضوع، فهناك اطروحات حول الاسلام والعقلانية، والعرب والفلسفة، والعرب والعلم، والعقل العربي أسير التقليد والمرجعية. إن المجتمع العربي لا يقبل التعامل مع روح العصر، لأنه يملك ماهوية «اسلامية» أو «عربية» ثابتة، فالعقل العربي فوضوي يرفض النظام، وأن يرى القوانين في الطبيعة؛ إنه عقل ذري، يفرق ولا يستطيع لَمّ الجزئيات في منظور عام علمي أو فلسفي. لذلك لا توجد عنده فلسفة ولا ملاحم ولا سمفونيات، وإلى ما هنالك. إنه عقل حتى في الفن نمطي يكرر وحدات منفصلة، ولذلك كانت القصيدة العربية فاقدة لوحدة الموضوع ووحدة البناء (نظام البيت المستقل في الشعر العمودي)، وكان الفن كتابات مكررة، وكذلك الغناء لازمة تعاد، وهكذا. إن الشخصية العربية عاطفية، ترفض الوحدة وتتصف بالامتثال والفوضى وغير هذا وذاك. وهي تنكفىء على نفسها وذاتها لا إلى الخارج، وتميل إلى الاوهام والغيب. .الخ.

لقد اشرت سابقاً إلى خطر استخدام الميتافيزيقا الاستشراقية والابستمولوجيا الاستشراقية التمييزية على النمط الذي لا بد من انه صار واضحاً حتى الآن(٧١).

ولكن ما حصل هو وللأسف العكس، فإن جهات متعددة الانتماءات الثقافية تردد مقولات استشراقية مرفوضة. وفي ما يلي مخطط من دون تفاصيل كثيرة لها:

أ ـ الاهتمام الكبير وتقديس لغات الشعوب وعلوم الاشتقاق والدراسة اللغوية المقارنة والفيلولوجيا بصفتها المفتاح السحري لفهم الواقع الاجتماعي والتأريخي والثقافي لتلك الشعوب، فاللغة عند المستشرق مساوية للعقل وللمجتمع وللتأريخ والطبيعة. وهذا ما فعله بعض الدراسات العربية الحديثة، وعلى سبيل المثال ما لخصه العظم عن محاولات جورج صدقني في هذا الطريق الاستشراقي المعكوس نفسه. وكذلك عند حسن عباس الذي يستخلص من دراسته لخصائص صورة كل حرف من الحروف العربية، جوهر وخصائص الأنا العربي، ومثل هذا كثير من المحاولات لرسم حدود ماهوية ثابتة قاطعة

(٧١) العظم، الاستشراق والاستشراق معكوساً، ص ٢٩؛ العرض لكتاب الاستشراق في: الآلوسي، «صور نقدية للاستشراق التقليدي والجديد، أو تطور الاستشراق وتطور النظرة إليه،» وسعيد، الاستشراق: المعرفة، السلطة، الانشاء، ص ٣١٨.

للأمة العربية، خصائص جوهرية مطلقة، وليس مجرد خصائص مؤقتة مبتذلة(٧٢).

ب ـ النموذج أو الاتجاه الديني السلفي، وخصوصاً الذي لقي انتشاراً بعد حدوث بعض الثورات ذات المظهر الاسلامي حديثاً، حيث نجد الاستشراق معكوساً، فها هنا تتجه الكتب والدراسات إلى تصور ماهوية جوهرية ثابتة للمجتمع الاسلامي، أو للدين الاسلامي تجعله خارج الزمان والمكان، لا كمبادىء، بل من حيث إنه مجتمع معاشر، بمعنى أن المجتمع الاسلامي غير قابل للتغير، وأنه يحافظ على روحانيته ضد الميول المادية. وهذه طروح استشراقية، ولذلك يستعيض هؤلاء الذين يسميهم العظم الاسلامانيين في تفكيرهم السياسي عن التعارف المألوف بين حركات التحرر من جهة، والسيطرة الاستعمارية من جهة أخرى، بالتعارض بين الشرق والغرب، كما يفعل أنور عبد الملك(٧٣).

ويقول العظم إن جورج قرم لاحظ هذه العلاقة الوثيقة والمقلوبة في وقت واحد، والتي تربط الاتجاه الاسلاماني بالاستشراق، وعبّر عنها أحسن تعبير عندما قال جورج قرم: «وقد دهشت خلال قراءاتي للمستشرقين وللأدب الاسلامي السلفي الحديث بالتقاء الرؤية لدى الجانبين المتعاديين في كل المجالات حول نقطة واحدة هي الادعاء بأن الدين الاسلامي له خصوصية لا يشاركه فيها أي دين لكون الدين الاسلامي لا يمكن أن ينفصل عن الحياة الاجتماعية والقومية والسياسية على اعتبار أنه دين شامل المدى يحتوي كافة الأمور الروحية والزمنية في آن معاً. طبعاً هذا الادعاء لدى المستشرقين ينم عن روح سلبية وازدراء تجاه المجتمعات الاسلامية. ففي نظرهم يستحيل على المجتمع الذي يسيطر عليه الدين الاسلامي مؤسسياً أن يتقدم ويواكب العصر. أما الادعاء نفسه لدى السلفيين فينم عن شعور بالتفوق التام تجاه الاديان الاخرى»(٧٤). وفي الحالتين عنصرية، وعنصرية مضادة.

والآن لنتذكر ما يقوله ادوارد سعيد. يقول إن النظرة العامة الثابتة للاستشراق إلى الاسلام، نرى فيه فرادة متكاملة في التركيب والاكتمال مع نفسه واجزائه، وإنه يتميز جذرياً وجوهرياً عن كل ما عداه، وبخاصة عن الغرب، وإنه يهيمن على كل ما يندرج تحته من نشاطات بشرية، اجتماعية، اقتصادية، حياتية، ثقافية... الخ. كما يتمتع بدرجة عالية من الثبات والاستمرارية والوحدة مع ذاته. واثناء مهاجمة ادوارد سعيد لهذا التصور الاستشراقي للاسلام يشير إلى نقد عبدالله العروي والقائل: إذا حملنا هذا التطور الاستشراقي على محمل الجد التام كما يفعل اصحابه طبعاً، علينا أن نلغي كل تمييز فعلي

(٧٢) العظم، المصدر نفسه، ص ٣١ ـ ٣٣ وما بعدها، وانظر مصادر وكتب هؤلاء هناك.

(٧٣) حول تحليل هذه الموجزات كلها، انظر: المصدر نفسه، ص ٣٥ ـ ٣٨.

(٧٤) المصدر نفسه، ص ٣٥ ـ ٣٦.

بين المراحل التأريخية التي مر بها الاسلام، فلا نتكلم الا مجازاً على الاسلام الأول، مثلاً، واسلام العصور الوسطى والاسلام الحديث، لأن الاسلام هو الاسلام، أي مهما حدث داخل هذا الكل الاسلامي المغلق من تطورات، فان الكل يبقى غير خاضع لأي تطور تأريخي حقيقي، على عكس ما جرى في اوروبا، أي أنه في الاسلام، وبحسب وصف إدوارد سعيد، هناك تركيب ثقافي تمكن دراسته بمعزل عن سوسيولوجيا الشعوب الاسلامية واقتصادها وسياستها.

وإضافة إلى هذا، فان هذا الكل الموحد الجوهري لا يقبل الاقتران من الخارج، حتى عندما يتصل بحضارات أخرى، أو يتعرض لهزات مصيرية أعلى عكس المجتمعات الأخرى غير الاسلامية. إنه يتمتع بخصوصيته ومنطقه الداخلي وقانون نموه الذاتي وأطره المرجعية النظرية والمنهجية التي تتحدد من داخل النسق نفسه، وليس بأية مقارنة أو مقاربة مع النسق أو الانساق الأخرى. وهكذا فنحن امام نسقين وحضارتين وثقافتين، غرب وشرق، مستعيدين كل اطروحات الاستشراق حول الشرق شرق والغرب غرب، أو اطروحات اشبنغلر عن الدوائر الحضارية المغلقة، وهكذا فان فكرة الانساق هذه عند الاسلامانيين تعني موت وحدة التأريخ البشري، وموت التقدم التراكمي للانسانية، وموت التعاون المتعدد للشعوب في بناء الثقافات وصنع التأريخ؛ ويستمر العظم في شرح هذا الاستشراق المعكوس عند الاسلامانيين، ويضرب أمثلة تمثله من وجيه كوثراني، وأدونيس، وشارل مالك، وأنور عبد الملك (ص ٤٥)، وعدد من المؤيدين المتحمسين للثورة الايرانية التي لا عين رأت ولا أذن سمعت، والتي لا يمكن تفسيرها الا تفسيراً ماورائياً معجزاً، على حد قول هؤلاء[٧٥].

ج ـ من مثل هذا خصائص العقل العربي، ومدى اسهاماته في مجالات الفلسفة والفن. . . الخ. إن الأطروحات الاستشراقية واضحة حول هذا: منذ رينان، عقل مفرق، لا يدرك العلاقات وبسيط، مجزأ، وصحراوي، وذري، لا يؤمن بالقانون وراء الأحداث الطبيعية، قدري أو جبري، يميل إلى الاوهام، وإلى ما هنالك. والعجيب أننا نستطيع أن نضع تحت هذا الخط اتجاهات متعددة تتابع الاستشراق مع تضادها في المنطلق.

فمثلاً يمثل عبد الرحمن بدوي في عدة[٧٦] من كتبه القائلين بأن العقل العربي لا

(٧٥) المصدر نفسه، ص ٣٨ ـ ٤٦، مع أقوالهم ومصادر أقوالهم.

(٧٦) عبد الرحمن بدوي: «المقدمة،» في: عبد الرحمن بدوي، **التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية: دراسات لكبار المستشرقين**، ط ٤ (بيروت: وكالة المطبوعات، ١٩٨٠)، في صفحات عدة، من **تاريخ الإلحاد في الاسلام** ([د.م.: د.ن.]، ١٩٤٥)، التصدير العام والفصل ١: «خصائص الحضارة العربية،» ص ٣ ـ ١٩.

ينتج فلسفة بسبب سيطرة روح الحضارة الاسلامية عليه، وهي روح تمتاز بجمله خصال: انكار الذاتية، أي إنكار الشعور بالفردية وبالكيان الفردي المستقل، كما عند اليونان، بينما تدين الروح الإسلامية الذات في الكل، وانكار الذاتية يتنافى مع اتجاه المذاهب الفلسفية، فالفلسفة منافية لطبيعة الروح الاسلامية، وكذلك الفن يقوم على الذاتية، لذلك لا يوجد فن حقيقي كما عند اليونان، فالفن مناف لطبيعة الروح الاسلامية. وهكذا بالنسبة إلى موقف هذه الروح من المكان والزمان، ومن القانون والسياسة والعلوم، وسمات الشخصية العربية؛ ونلاحظ أنه يسميها احياناً روح الحضارة العربية. وهناك طرف آخر، لكنه هذه المرة اسلامي الاتجاه، يمثله علي سامي النشار، وآخرون يقولون انه لا توجد فلسفة عند المسلمين بالمعنى المعروف، للأسباب نفسها التي يتحدث فيها «رينان» عن حدود ومعوقات العقل العربي، وعن التفلسف لأسباب بيولوجية جوهرية[٧٧].

وكذلك نجد محمد عابد الجابري، وعلى الأساس الاستشراقي الماهوي نفسه، يرفض أية فلسفة حقة في تراث العرب القديم، وفي منتوجهم الفكري الحديث، فكلاهما إعادة قراءة للغير، ولفلسفة اليونان عند مفكرينا القدامى، ولفلسفات الغرب عند مفكرينا المحدثين[٧٨].

وأكثر من هذا، فان محمد عابد الجابري يستخدم مواصفات للعقل العربي، سمعناها وترددت في هذا البحث، وفي كتب مستشرقين مثل ماكدونالد وغب ورينان وآخرين (انظر ما نقلناه من مواصفات عن العقل العربي عند هؤلاء، وعن الموسوي في ما تقدم)، وكذلك عند بيكر وآخرين[٧٩].

أما الذين يقولون إن الدين لا يسمح بالفلسفة، بل وبالمنطق، أو على الأقل المنطق اليوناني، ينطلقون من منطلق مادح للدين قادح للفلسفة، والذين يقولون ان الروح الاسلامية او العقل الاسلامي لا يستطيع التفلسف، يقفون مادحين للتفلسف ذامين للدين وللعقل العربي، والنتيجة واحدة، لا فلسفة، ولا فن، ولا تقدم في فهم الطبيعة وعلومها؛ فاذا عدنا إلى الجابري، فماذا نجد؟ نجده في كل كتبه لا يرى في كل ما قدمه العقل العربي في الأمور العملية، كالتشريع والفقه واللغة والبيان، وكذلك في الأمور النظرية كالفلسفة والكلام، لا يجد إلا عقلاً مقلداً، يقيس الغائب على الشاهد، وينشد إلى

---

(٧٧) حول آرائه انظر: حسام محيي الدين الآلوسي، **دراسات في الفكر الفلسفي الاسلامي** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠)، الفصل ١.

(٧٨) محمد عابد الجابري: **نحن والتراث: قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي** (بيروت: دار الطليعة، ١٩٨٠)، المقدمة، و**الخطاب العربي المعاصر: دراسة تحليلية نقدية**، ط ٢ (بيروت: دار الطليعة، ١٩٨٥)، ص ١٣٧ وما بعدها.

(٧٩) كارل هينرش بكر، «تراث الاوائل من الشرق والغرب،» في: بدوي، **التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية: دراسات لكبار المستشرقين**، ص ٣ وما بعدها.

الماضي وإلى النص، والانحباس في سجن اللغة، والنظرة القائمة على مبدأ التفريق بين المعنى واللفظ من جهة، ومبدأ «التجويز» والرؤية الذرية من جهة اخرى. فإن شذ بعضهم شذ إلى طريق العرفان أو الباطنية، وهي مواقف لا عقلية أصلاً.

إن الجابري يردد في كل هذا ــ درى أو لم يدر ــ اطروحات استشراقية عنصرية مشبوهة وخاطئة، وهو في كل كتبه ابتداء بـ **نحن والتراث والخطاب العربي**، وصولاً إلى **تكوين العقل العربي**، وأخيراً **بنية العقل العربي** يخطط، أو لنقل يعمل، لاعدام «العقل العربي» ووضعه في قفص المرجعية الكلية والاتباعية السلفية، ليس لمسلمات النص الديني الأول بالدرجة الأولى، بل ــ وهذا هو الأدهى ــ لآليات العقل العربي وبنيته الثابتة في كل زمان ومكان، وهي آلية تعود إلى اللغة ــ وليتذكر القارىء أن التأكيد على حاسمية اللغة اتجاه استشراقي جرى التنويه به قبل صفحات ــ أو إلى طبيعة الفكر العربي، وهي طبيعة تعود إلى الصحراء وترتسم في أهم صفاتها: بالتفريق بين اللفظ والمعنى أو النظرة الذرية، المفرقة لا الموحدة للجزئيات، والاعتماد على فكرة «الجواز» أو التجويز، لا الحتمية والوجوب، وبالتالي فإن رؤيا العقل العربي هي رؤية «ذرية» في تصورها للعالم وللأشياء، وهي تنكر قانونية الطبيعة والسببية الطبيعية في الأشياء، وتعيد كل شيء إلى الله. أما ما يظهر من فلسفات في الماضي عريقة، مخالفة لهذا الخط ويسميه خط «البيان» ويسميها، أي المخالفة، «العرفان»، فهي اتجاهات خارجية لا تنتمي الينا، ولا تنتمي إلى «خط البيان»، وهي طارئة وافدة هدامة، ويقصد كل ما يتعلق بالتصوف والمعرفة الباطنية والحدسية.. الخ. وحتى حينما يظهر خط ثالث يسميه «البرهان» ويقصد فلسفة فلاسفة الاسهام مثل ابن سينا، فسرعان ما ينطوي في خدمة البيان والعرفان (أي الاتجاه الفلسفي الاشراقي الجامع بين الفلسفة البرهانية المنطقية العقلية وطريق التصوف الباطني السلوكي).
ان الجابري يخطىء حينما يعتبر المدرسة الاشعرية التي تنفي السببية الطبيعية وتقول بالاقتران و«العادة» و«الذرية»، وتقول بـ «الخلق المتجدد»، وتباعد بين اللفظ والمعنى (نظرية الأشاعرة حول القرآن وتفريقهم فيه بين كلام نفسي للرازي وكلام حرفي منطوق مخلوق)، أقول إنه يخطىء عندما يعتبر المدرسة الاشعرية تمثل كل الفكر العربي القديم، فكر البيان، ولا يستثني المعتزلة، مع أن مخالفتهم لكل هذه الأفكار الأشعرية واضح، لم ينكره باحث، ولم يلحقه بالاشاعرة الا الجابري. كما أن كلام الجابري عن تعارض والغاء خط العرفان لخط البرهان، هو ليس كذلك دائماً إلا في «التصوف الخالص» وربما السلوكي. أما التصوف الاشراقي، كما عند الغزالي وابن سينا وابن عربي والماوردي، فهما لا يتعارضان، بل يتكاملان، وهذا ما يؤكد عليه ابن سينا وابن طفيل، حيث تكمل المعرفة اللدنية الصوفية، المعرفة الفلسفية المنطقية والاستدلالية.

إن الجابري يصنع سريراً لكل العقل العربي بكل تنوعه هو فكر الأشاعرة، وما لا يتطابق معه يطرده، ويقطعه. إن إحدى مقولات الاستشراق الريناني وما بعده هي انكار تنوع العطاء الفكري للعقل العربي، وقصره على علم الكلام، وقصره الجابري على فكر

الأشاعرة، وضيق الدائرة. إن محاربة الجابري للعناصر العرفانية والغنوصية الشرقية، بوضوح تكرار رفضه وإخراجه للتصوف من دائرة الفكر العربي الأصيل واعتباره طارئاً وخطراً، هو مجمل ما قاله بيكر، الذي رأى أنه يحارب الاسلام، وأن المأمون استعان بالعقل والمعتزلة ضد هذا العرفان أو الغنوص[٨٠].

إن تنوعية العطاء العربي الاسلامي لا يمكن أن تقبل بهذا البتر والطرد والتضييق، وانه لأفكار العطاء أن تزعم أن فرقة بعينها أو اتجاهاً فكرياً فلسفياً بعينه أو اجتهاداً بعينه هو الذي يمثله فقط.

لقد اشار منذ أمد بعيد طيب تيزيني[٨١] إلى متابعة عربية لمناهج واطروحات استشراقية وعدد روادها.

---

(٨٠) محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، نقد العقل العربي؛ ٢ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٦)، القسمان ١ ـ ٢، ص ١٧٥ وما بعدها، ص ٢٣٩ من الخاتمة وص ٢٤١. وقد اقتبسنا معظم هذا الرأي عنه في محاضرة لنا في ندوة المجمع الاخيرة وعنوان المحاضرة: «مظاهر ونماذج من العقل والعقلانية في الفكر العربي الاسلامي فترة ازدهاره في المشرق والمغرب.» كما أن كلام الجابري عن مناهج استشراقية ثلاثة للمستشرقين حول الفلسفة العربية نجدها مستخدمة عنده، في: الجابري، «الرؤية الاستشراقية في الفلسفة الإسلامية: طبيعتها ومكوناتها الايديولوجية والمنهجية».

(٨١) طيب تيزيني، من التراث إلى الثورة: حول نظرية مقترحة في قضية التراث العربي، ط ٢ (بيروت: دار ابن خلدون، ١٩٧٨)، الفصل ٥، ص ١٩١ وما بعدها، وقد عرضنا مفصلاً آراءه في: الآلوسي، «صور نقدية للاستشراق التقليدي والجديد، أو تطور الاستشراق وتطور النظرة إليه،» ص ٧٩ وما بعدها.

الفصل الرابع

التنمية الاقتصادية العربية: الإمكانات والتحديات

عبد الرحمن الحبيب(*)

تقتصر هذه الدراسة على:

أولاً: مناقشة مفهوم التنمية الاقتصادية.

ثانياً: مناقشة أهم التحديات التي تواجه التنمية الاقتصادية في الوطن العربي.

١ ـ عدم الاستقرار.

٢ ـ الفجوة الغذائية والأمن الغذائي.

٣ ـ استنزاف الطاقة.

٤ ـ تلوث البيئة.

٥ ـ هجرة العقول والخبرات.

ثالثاً: خلاصة واستنتاجات.

أولاً: التنمية(١)

لسلامة منهجية الدراسة لزام التركيز على وجوب تعريف «مفهوم التنمية» لأن مناقشة وقياس الإنجازات الإنمائية وتحديد أبعاد المعوقات والصعوبات التي تواجهها

(*) أستاذ الاقتصاد في جامعة بغداد سابقاً.

(١) يوسف صايغ، «التنمية العربية: إنجازاتها وقضاياها وتطلعاتها،» **النفط والتعاون العربي**، السنة ١، العدد ١ (صيف ١٩٧٥)، ص ٥٤.

عمليات التنمية في الوطن العربي (والبلدان النامية) لا يمكن أن يتما أو يكونا مرضيين إذا لم يسبقهما اتفاق على مدلول التنمية التي نحن في صدد مناقشتها بعلاقتها بإشكالية العلاقة الثقافية مع الغرب. وانطلاقاً من ذلك، فإن مفهوم التنمية يتخطى المعايير والمقاييس الاقتصادية المحضة لتزايد الدخل القومي الحقيقي وتحسن مستوى العيش[٢]. ولزام النظر إلى التنمية على أنها عملية تعني حدوث ارتفاع في الدخل الفردي بالأثمان الثابتة بشكل متصل ومستمر ضمن مجهود المجتمع ذاته، وحدوث تبدلات اجتماعية وثقافية، بالإضافة إلى التبدلات الاقتصادية أو قبلها، تسمح باستمرار هذا التبدل الكبير واستمرار النمو. إذاً إننا لا نعتبر مظاهر التنمية السطحية كارتفاع الدخل ارتفاعاً كبيراً في بعض البلدان العربية دليلاً كافياً على تحقيق تنمية في هذه البلدان. وإن المعيار الدخلي ليس كافياً وضرورياً معاً لتعريف التنمية، مما يجعلنا ندخل في التعريف محتوى اجتماعياً. فإذا كان الدخل الفردي الوسط قد ارتفع ارتفاعاً كبيراً وباطراد ورافقه في الوقت ذاته توزيع سيئ - ونستعمل مصطلح «سيئ» لأننا ندخل النواحي القيمية في تعبيرنا وتعريفنا - نرى أننا لا نكون قد بلغنا حالة مرضية من التنمية لأن التنمية تعني كذلك أن يوزع الانتاج القومي بشكل يتيح للذين يسهمون في صنعه مستوىً مقبولاً ومستمراً من الدخل يوفر لهم حياة كريمة وراحة بال.

وثمة مسألة أخرى يجب أخذها في الاعتبار تتصل بمحتوى التنمية السياسي. فلا يمكن للتبدلات الاقتصادية والاجتماعية العميقة أن تتم من دون تبدلات سياسية ترافقها بصورة خاصة درجة مرتفعة من المشاركة الشعبية (الجماهيرية) والمؤسسية الواسعة في صنع القرارات الاقتصادية والاجتماعية وفي الانتفاع من هذه القرارات. ويتضمن فهمنا موضوع التنمية شيئاً من الذاتية ومن المعايير القيمية التي طالما أنكرها معظم الاقتصاديين ورفضوا إدخالها في تعريفاتهم الاقتصادية. وفي الوقت ذاته، نود توكيد هذه الاعتبارات القيمية في مفهوم التنمية. ويجعل هذا النهج إدراك مفهوم التنمية وقياسها في الوطن العربي أكثر صعوبة لأن الاعتبارات الاجتماعية والسياسية التي ينبغي اعتبارها ليست مما يسهل تقويمه أو إعطاءه قيماً رقمية.

ويضيف بعض الثقات أن «التنمية تتضمن الإنجاز الاقتصادي الحيوي، مؤسسات حديثة، سلعاً وخدمات وفيرة وتحقيقاً تاماً للقدرات البشرية: يصبح الرجال والنساء قادرين على صنع تاريخهم ذاتياً واجتماعياً، يحررون أنفسهم من كل عبودية واستغلال تفرض عليهم من الطبيعة أو الأنظمة الجائرة، ويحققون حكمة في السيطرة على الطبيعة

---

(٢) عبد الرحمن الحبيب، «التكنولوجيا والتنمية،» ورقة قدّمت إلى: البرنامج التدريبي، «تنمية وتطوير كفاية القوى البشرية في الكويت،» الذي نظمته جامعة الكويت، كلية التجارة والعلوم السياسية، لجنة البحوث والتأليف والتدريب في الفترة من ٢٨/ ١١/ ١٩٨٧ وحتى ٩/ ١٢/ ١٩٨٧.

وعلى حاجاتهم، ويخلقون أوشاج اتحاد لا تقوم على السيطرة، بل على المنافع المتبادلة في ما بينهم، ويحققون تعايشاً بين التأمل والعمل الخلاّق، وبين الكفاية وحرية التعبير الذاتي. التنمية هي الصعود الإنساني، ارتفاع الناس كافة في إنسانيتهم الموحدة، والذي يتضمن الأبعاد الاقتصادية والحيوية والنفسية والاجتماعية والثقافية والفكرية والدينية والروحية»[٣].

إن التنمية تشمل النمو في الانتاج القومي وعقلانية المؤسسات العامة والتخصيص الكافي للموارد الاقتصادية النادرة ذات الاستخدامات البديلة واختيار صور الحياة الجيدة والمبادىء التي تنشر العدالة التي يفضلها الناس. وهذا الأمر تستوجب توضيح العلاقة بين القيم الإنسانية والسياسة التقانية[٤].

وتتمثل التنمية الاقتصادية في عمليات عقلانية ونشاطات بشرية واجتماعية تتم في خليط اجتماعي وتتأثر بالبيئة الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية. وتستمد التنمية بعض زخمها من الموروث التاريخي الاجتماعي والحرفي والفني وتتأثر بالقيم وبأنماط العيش والعادات والتقاليد السائدة. فبعضها يعجّل التنمية والبعض الآخر يعوقها، والمحصلة هي نتيجة تفاعل هذه العوامل.

وهنالك معايير معينة أصبحت مؤشرات عامة لقياس أبعاد التنمية الاقتصادية والاجتماعية أفقياً ورأسياً منها:

١ ـ النمو العام في معدل دخل الفرد المادي.

٢ ـ التغيرات الهيكلية المادية والوظيفية في الاقتصادات.

٣ ـ التغيرات في الأنساق الاجتماعية:

أ ـ بحسب مستوى العيش المادي.

ب ـ بحسب الفئات والجماعات المهنية والحرفية.

٤ ـ التغيرات في المؤشرات الرئيسية:

أ ـ استهلاك السعرات الغذائية، كمّاً ونوعاً (من الغذاء والماء الصالح للشرب والاستهلاك البشري).

ب ـ وفرة المسكن والأثاث والمرافق الصحية الأساسية.

---

(٣) Denis Goulet, «Can Values Shape Third World Technology Policy?,» in: Pradip K. Ghosh, ed., *Technology Policy and Development: A Third World Perspective* (Westport, CT: Greenwood Press, 1984), p. 52

(٤) أسامة أمين الخولي، «نظرة في إمكانيات تكامل دول مجلس التعاون في المجال التكنولوجي،» **المال والصناعة** (بنك الكويت الصناعي)، العدد ٥ (١٩٨٤)، ص ٨.

ج ـ استهلاك الوحدات الكهربائية.

د ـ التمتع بالنشاطات الترفيهية.

هـ ـ التشكيلة التربوية والتعليمية والثقافية.

(١) نسبة الأمية.

(٢) نسبة المتمتعين بالدراسة الأساسية الإلزامية.

٥ ـ التشكيلة السكانية:

أ ـ الكثافة السكانية: هنالك علاقة مباشرة بين مستويات العيش المادية المختلفة (معدل دخل الفرد المادي) والكثافة السكانية.

ب ـ نسبة الزيادة السكانية.

ج ـ نسبة المواليد، ومعدل عدد أفراد العائلة الواحدة.

د ـ معدل الوفيات بين أقل من سنة من المواليد وبين أقل من خمس سنوات.

هـ ـ نسبة مشاركة الإناث في النشاطات الاجتماعية والاقتصادية.

و ـ نسب حالات الافتراق والطلاق بين المتزوجين.

ز ـ نسب حالات الجنوح والعوق والإدمان.

ح ـ نسب حالات الإصابة المرضية إلى عدد السكان.

٦: أ ـ نسب البطالة بأصنافها المختلفة.

ب ـ نسب التضخم وطبيعة حركته.

ج ـ معدل دوران العمال.

٧ ـ تطور عدد المراكز والمؤسسات الاجتماعية والتعليمية والثقافية والصحية.

٨ ـ درجة مشاركة المواطنين أفقياً ورأسياً في إصدار القرارات ورسم السياسات العامة:

أ ـ المجالس التشريعية.

ب ـ التمثيل السياسي.

ج ـ التنظيم الحزبي.

د ـ الصحافة وحرية التعبير وإبداء الرأي.

وتأخذ التنمية الاقتصادية طريقها نحو الأفضل عندما يتحسن مستوى رفاه الناس مع مرور الزمن، أي عندما يشهدون تحسناً في أكثر المؤشرات التي وردت أعلاه. وإن المختصين والمعنيين بالتنمية الاقتصادية اعتادوا، ولا يزالون، يولون أهمية خاصة للتغيرات التي تحدث في بعض المؤشرات الأساسية ومنها: معدل نصيب الفرد من الناتج القومي الإجمالي الحقيقي (وليس الاسمي) والمؤشرات الصحية والتعليم ومعدل تعمير الأفراد ومؤشرات البطالة والتضخم(٥).

تقيس حصة الفرد من الإنتاج القومي الإجمالي الحقيقي مستوى المعيشة المادي. وإن الفرق بين معدل نمو مجموع الإنتاج القومي الإجمالي الحقيقي ينجم عن النمو في عدد السكان. فكلما ازدادت نسبة النمو في السكان انخفضت حصة الفرد من الإنتاج القومي الإجمالي، فينخفض مستوى معيشته.

إن زيادة الإنتاج القومي الإجمالي الحقيقي بنسبة ٣,٢ بالمائة سنوياً، مثلاً، يؤدي إلى مضاعفة الإنتاج القومي الإجمالي الحقيقي خلال ٢٢ سنة، أما إذا كانت الزيادة ١,٨ بالمائة في السنة في معدل دخل الفرد من الإنتاج القومي الإجمالي الحقيقي، فإن مضاعفة حصة الفرد من الإنتاج القومي الإجمالي الحقيقي تتم في ٣٩ سنة(٦). وتوجد فوارق كبيرة في الدخل الحقيقي في الأقطار كافة، فهنالك من يعيش في مستويات عالية جداً، وآخرون في مستويات دون المستوى الذي قد يمثل المستوى الأدنى للدخل.

وإن معدل نمو في حصة الفرد بمقدار ٢ بالمائة في السنة يتطلب ٣٥ سنة لحصة الفرد من الإنتاج القومي الإجمالي الحقيقي لتتضاعف. وإن معدل نمو بمقدار ١ بالمائة يتطلب ٧٠ سنة لحصة الفرد من الإنتاج القومي الإجمالي الحقيقي لتتضاعف. ومهما تكن المآخذ على مؤشر الإنتاج القومي الإجمالي الحقيقي مقياساً للرفاه الاجتماعي، فإن سكان القطر الذي ينمو أسرع يكونون مادياً في وضع أفضل مع مرور الزمن.

ولما كان الإنتاج القومي الإجمالي الحقيقي يمثل قيم السلع النهائية المنتجة والخدمات الموفرة في الاقتصاد في مدة معطاة من الزمن (فصل أو ستة أشهر أو سنة) فقد أصبح مقياساً أساسياً للنشاط الاقتصادي الوطني. ولزام أن نميز الإنتاج القومي الإجمالي الاسمي (النقدي) من الإنتاج القومي الإجمالي الحقيقي، وأن نفرق مستويات الإنتاج القومي الإجمالي الاسمية (النقدية) والحقيقية عن معدل الإنتاج القومي الإجمالي.

ويعزى نمو الإنتاج القومي الإجمالي الحقيقي إلى الزيادة في وفرة كميات الموارد

---

(٥) Rudiger Dornbusch and Stanley Fischer, *Macroeconomics*, 5th ed. (New York: McGraw - Hill Publishing Company, 1990), p. 738.

(٦) المصدر نفسه، ص ٧١١.

الإنتاجية التي تسبب تغيرات في الإنتاج القومي الإجمالي الحقيقي، وكذلك إلى الارتفاع في إنتاجية هذه الموارد. والموارد هي العمل ورأس المال والتنظيم. ويقصد بالعمل أولئك الذين يعملون فعلاً والذين يفتشون عن عمل. ويشمل رأس المال المباني والماكنات والأدوات التي تستخدم في عملية الإنتاج. ولزام أن نبين أن مستويات العلوم والمعارف وفنون الإنتاج والتقانة تؤثر تأثيراً مباشراً وغير مباشر في الإنتاج كماً ونوعاً. وينجم حسن الأداء والكفاية الإنتاجية لعوامل الإنتاج من التغيرات في آفاق المعرفة والعلوم وفنون الإنتاج ومن درجات التعليم في خلال العمل والدربة والإخلاص الذاتي في العمل. وتؤثر كذلك السياسات الاقتصادية في نسب النمو خلال مديات زمنية طويلة. وعلى رغم ذلك يتخذ معدل النمو في الإنتاج القومي الإجمالي الحقيقي أهم مؤشر لمستوى العيش المادي، والذي بوساطته قد يحكم على سلوك الاقتصاد الوطني في المدى البعيد.

وعندما يكون معدل النمو عالياً يكون إنتاج السلع والخدمات متنامياً، مما يجعل مستويات العيش تتصاعد. ومع زيادة النمو تنخفض عادة نسبة البطالة وتتوفر الوظائف والأعمال. ونسبة البطالة يمثلها الجزء من قوة العمل في رقعة جغرافية معينة الذين لا يقدرون الحصول على عمل. وهكذا نجد أن معدل النمو هو الهدف وأمل أكثر الأقطار فرادى ومجموعات. وتمثل نسبة البطالة مشكلة اجتماعية رئيسية. فالأعمال صعبة المنال، ويعاني العاطل[٧] خسارة في مستويات عيشه وضيق نفسي ذاتي وعائلي، وفي بعض الأحيان تدهوراً طويل الأمد في مهنته. وعندما تبلغ نسبة البطالة قيمة تتألف من عددين حسابيين، وحتى لو كانت ذات عدد واحد، تصبح البطالة القضية الأولى اجتماعياً وسياسياً[٨].

ولزام أن تنطلق التنمية من منظور وطني ينسجم ويتسق داخلياً مع المنظور القومي، حيث تعطى الأولوية للمصالح من وطنية (قطرية) وقومية، إذ يعمل على تعزيز التعامل والتكامل الصادقين بين الأقطار في عملية تراكمية متصلة ومستديمة[٩]. وعلينا أن نستهدف في التنمية بشكل بارز تلبية الحاجات الأساسية للمواطنين مع رعاية خاصة للشرائح الشعبية من المحرومين والمعوزين على رغم سعيهم للعمل وقدرتهم على أدائه.

وتستطيع المنطقة العربية أن تعجل وقع تنميتها أقطار ومنطقة جامعة هذه الأقطار بفضل التعاون والتكامل في مجالات التجارة والسياحة والاستثمار والعمل وفنون الإنتاج

---

(٧) العاطل هو الفرد الذي يكون من دون عمل والذي قد فتش جاداً عن عمل خلال الأسابيع الأربعة الماضية، أو الذي ينتظر الدعوة إلى العمل بعد فصله من عمله، أو الذي ينتظر المباشرة في عمل جديد في غضون أربعة أسابيع.

(٨) المصدر نفسه، ص ١٣.

(٩) يوسف صايغ، «منظور الشرق الأوسط ودلالاته بالنسبة إلى العرب،» **المستقبل العربي**، السنة ١٧، العدد ١٩٢ (شباط/ فبراير ١٩٩٥)، ص ١٩.

والتقانة، ضمن منظور قومي بعيد المدى لأجل المصالح القطرية والقومية[١٠]. فلا يعقل أن يستمر إغفال، بل إهمال، هذا المنطق على رغم ما يشهده العالم من تطورات بارزة في مجال قيام تكتلات اقتصادية كبيرة، علماً بأن ما يجمعها لا يستوي مع ما يجمع الأقطار العربية كافة من وشائج بشرية ومنافع ومصالح اجتماعية واقتصادية آنية ومستقبلية[١١].

ويجب مع الاحتفاظ بالأهداف القطرية للتنمية والسعي لتحقيقها عدم إغفال الأهداف القومية التنموية، بل لزام الالتفات إليها لتحقيق تفاعل وتشابك في ما بين مجموعتي الأهداف. وتستفيد كل من التنمية القطرية والتنمية القومية، وكذلك ينتفع الاقتصاد الوطني والاقتصاد المجموعي من التغذية العكسية بينهما.

ولزام أن تكون التنمية العربية في الوقت ذاته منفتحة على محيطها، وعلى العالم كله في علاقة تعامل منفعي متبادل وتفاعلات مؤثرة ومتأثرة، تعاملات أخذ وعطاء من دون استغلال للمصالح العربية القطرية أو القومية، وللانتفاع من ذلك في مجالات التجارة والاستثمار والسياحة والتقدم العلمي والثقافي والتقني، بما في ذلك البحث والتطوير.

ويجب التشديد على أهمية وضرورة تشجيع الصادرات بعد تلبية حاجات المواطنين الأساسية أولاً لأن التصدير يعد بمردود مالي ينشط الاقتصاد الوطني في دورة لاحقة بتأثير ما يتوفر بفضله من مردود مالي يسخر للاستثمار والاستهلاك بفعل مضاعف التجارة الدولية. ونؤكد تشجيع التصدير غير المبتور، أي التصدير النقدي (هروب رأس المال) الذي تنتهي دورته بإيداعه في المصارف والمؤسسات المالية المعنية. فسرعان ما تودع الأموال وتجنب عن الدورة الاستثمارية الوطنية حتى تفقد تأثيرها في مضاعفة الإنتاج الأهلي الإجمالي بفعل مبدأ مضاعف التجارة الخارجية، بل إنه على النقيض تدخل الدورة النقدية في الدولة المستضيفة لهذه الأموال وتستغل في مضاعفة الاستثمار فيها.

ثانياً: أهم التحديات التي تواجه التنمية الاقتصادية في الوطن العربي

١ ـ عدم الاستقرار

لا يسمع عن أقطار الوطن العربي ولا عن موارده البشرية أو الطبيعية، ولا عما يجري في أنحائه المترامية الأطراف والتي تبلغ مساحتها ١٤٢٥٧,٨ ألف كيلو متر مربع والتي يقطنها ما يربو على مائتين وثلاثين مليون نسمة بحسب آخر تاريخ (١٩٩١/

(١٠) المصدر نفسه.

(١١) للتوسع في مفهوم التكتلات الاقتصادية ومنافعها، انظر: عبد الرحمن الحبيب، **نظرية التجارة الدولية والتكتلات الاقتصادية** (القاهرة: جامعة الدول العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٤).

١٩٩٢)[١٢]، ولا تذكر وسائل الإعلام الدولية كافة ما يجري فيها من أحداث إلا إذا حدثت فيها ما يسمى بالهزات الطبيعية العنيفة أو الأحداث السياسية أو الاجتماعية، أو ما يسببه للعالم (وخاصة العربي) من هزات أو صدمات اقتصادية (كصدمات النفط) أو عمليات عسكرية (كأحداث الأرض المحتلة المستمرة) وأحداث قناة السويس والاعتداء الغاشم على بورسعيد، وأحداث لبنان المفجعة، وأحداث الاعتداء على أرض وسيادة ليبيا وتونس، وحربي الخليج، وما جرى على أرض الصومال وأرض اليمن السعيد، وحتى أعنف الأحداث وأشدها فقليلاً، بل نادراً، ما تحتل الصدارة لدى وسائل الإعلام الأجنبية المسموعة أو المرئية أو المقروءة. وإذا حظيت ببعض الاهتمام والالتفات إلى بعض شؤونها، فغالباً لا تتعدى حدود الإعلام الخبري غير الموضوعي. وكثيراً ما يذاع عنها باقتضاب شديد وبتشويه للحقائق.

ولسنوات عديدة مضت دأب الغربيون ينظرون إلى أنحاء هذه الرقعة الجغرافية الواسعة الغنية ذات الموقع الجغرافي والسياسي الحيوي كبؤر وميض باعثة الأضواء الساطعة ومراكز حيوية مثيرة للمنازعات والمجابهات بين القوى الكبرى ومسببة رسم منظورات مستقبلية علنية وخفية عديدة ومختلفة من قبل هذه القوى للتصرف طويل الأمد تجاه مجريات الأمور لضمان الإبقاء على نفوذهم وتوسيع وتثبيت مصالحهم الاقتصادية والاجتماعية والسوقية المدنية والعسكرية فيها وفي ما حول أطرافها.

ومن مخططات الغرب ووسائله إبقاء عدم الاستقرار وخلق الفوضى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لتغذية الحروب والمواجهات بين إسرائيل والعرب والحؤول دون وصول روسيا الاتحادية حاضراً (الاتحاد السوفياتي سابقاً) إلى المياه الدافئة العربية وتهديد نفط الخليج العربي والجزيرة العربية ومصالحها.

ويلعب التوتر وعدم الاستقرار في الوطن العربي دوراً مهماً وفاعلاً في إعاقة التنمية الاقتصادية والاجتماعية. وقد تعزى هذه العوائق إلى العوامل الآتية:

أ ـ الخلافات العربية البينية

وأهم هذه الخلافات والتي تلعب القوى الغربية المختلفة دوراً نشطاً سافراً وخفياً في إثارتها وتأجيجها وفي عدم الوصول إلى حلها، تدور حول تثبيت الحدود بين دولتين أو أكثر من الدول العربية، وهي الحدود التي رسمها المحتل الأوروبي (البريطاني والفرنسي والإيطالي والأسباني) إبان فترة الانتداب والاستعمار البغيضة. ومن هذه الخلافات والمنازعات:

---

(١٢) David Bradshaw, «The Middle East in 1991/92: A Smaller Place in the World?,» *Middle East Review*, and *The Economic and Business Report, 1992*, 18th ed. (Saffron Walden, Essex, England: Walden Publishing Ltd., [1992]), p. 13.

(١) الخلافات بين العربية السعودية واليمن.

(٢) الخلافات بين العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة.

(٣) الخلافات بين قطر والبحرين.

(٤) الخلافات بين اليمن وعمان.

(٥) الخلافات بين عمان والإمارات العربية المتحدة.

(٦) الخلافات بين العربية السعودية والكويت.

(٧) الخلافات المغاربية بين المغرب والجزائر.

(٨) الخلافات بين مصر والسودان.

ب ـ الخلافات بين الدول العربية والدول الأخرى

(١) الخلافات بين موريتانيا والسنغال ومالي.

(٢) الخلافات في القرن الإفريقي، بين الصومال والحبشة.

ج ـ غياب الوئام والانسجام بين الدول العربية وجيرانها

(١) خلافات إيران مع كل من العراق ودول الخليج العربي (احتلال جزر الخليج العربي: طمب الكبرى وطمب الصغرى، وجزيرة أبو موسى).

(٢) خلافات إيران والبحرين، ولا يزال التوتر قائماً ومتصاعداً.

(٣) تجاوزات تركيا على الأراضي والمصالح العربية، ومنها التجاوزات على الأراضي العراقية وعلى مياه الفرات التي تؤثر سلباً في مصالح العراق وسوريا، مما يؤثر في نشاطات التنمية وأبعادها.

(٤) اعتداءات إسبانيا على الأراضي المغربية (في سبتة ومليلة).

(٥) اعتداءات اثيوبيا على السودان والصومال وأريتريا.

(٦) الخلافات بين ليبيا وتشاد.

(٧) الخلافات بين السودان وأوغندا وجاراتها الأخريات.

د ـ وجود ما يسمى «إسرائيل»

إن زرع هذا السرطان القتال في قلب الوطن العربي هو العامل الرئيسي في غياب السلام والاستقرار في الوطن العربي وانعدام الوئام بين البلدان العربية وجيرانها، وإثارة الخلافات والمجابهات بين الدول العربية ودول العالم الأخرى، ولا سيما الولايات المتحدة

الأمريكية وبريطانيا والدول الأوروبية.

٢ ـ الفجوة الغذائية والأمن الغذائي(١٣)

أ ـ القاعدة الموردية الزراعية في الوطن العربي

تزخر المنطقة العربية بكميات هائلة من الموارد الزراعية، إذ تبلغ الرقعة الجغرافية الكلية للدول العربية نحو ١٤١١ مليون هكتار أو ما يعادل تقريباً عشر اليابسة على المستوى العالمي(١٤). وتتوزع هذه الرقعة الأرضية بين العديد من الاستخدامات، حيث تبلغ المساحة القابلة للزراعة نحو ١٣٣ مليون هكتار، أو ما يعادل نحو ٩,٤ بالمائة من الرقعة الأرضية الكلية، إلا أن المساحة المزروعة بالفعل عام ١٩٨٥ تقدر بنحو ٤٢ مليون هكتار، أو ما يعادل نحو ٣٢ بالمائة من المساحة القابلة للزراعة، منها نحو ٨ ملايين هكتار أراض مروية، والباقي يزرع زراعة بعلية. وبالإضافة إلى المساحة القابلة للزراعة تقدر مساحة الغابات بنحو ١٣٨ مليون هكتار والمراعي بنحو ١٩٨ مليون هكتار.

ويوجد تفاوت واضح بين الدول العربية في نصيب الفرد من الرقعة الزراعية، إذ ينخفض هذا النصيب بوضوح في العديد من الدول والمناطق، ومنها على سبيل المثال جيبوتي التي تملك ٠,٠٠١ هكتار، والكويت والبحرين ٠,٠١ هكتار، والإمارات العربية المتحدة فيها ٠,٠٢ هكتار، ويرتفع هذا النصيب من الأرض الزراعية ليصل إلى ٣,٥٦ هكتار للفرد في السودان.

وفي ما يتعلق بالموارد المائية، فقد قدر المستثمر منها لأغراض الزراعة والصناعة والاستهلاك البشري بنحو ١٦٣ مليار متر مكعب في العام، منها ١٤٠ مليار متر مكعب من المياه السطحية و ٢٣ مليار متر مكعب من المياه الجوفية. وكان يستخدم في عام ١٩٨٥ حوالى ٩,٧ مليار متر مكعب من مصادر غير تقليدية، كإعادة استخدام مياه الصرف وتحلية مياه البحر. وبذلك تكون جملة الموارد المائية المستثمرة ١٧٣ مليار متر مكعب سنوياً للأغراض كافة. وذلك يؤمن فقط ٥٠ بالمائة من الاكتفاء الغذائي العربي. ولتأمين الاكتفاء الذاتي يتطلب توفير ٣٠٥ مليارات متر مكعب من المياه سنوياً عام ٢٠٠٠، علماً بأن الموارد المائية المتاحة تقدر بنحو ٣٥٣ مليار متر مكعب في السنة.

وتقدر الإمكانات المتاحة من الموارد المائية السطحية بنحو ٢٥٠ مليار متر مكعب يستغل منها ما يعادل نحو ٥٦ بالمائة. وإن كفاية الري في معظم المساحات المروية في

---

(١٣) حسن فهمي جمعة، «القطاع الزراعي وقضايا التنمية في الوطن العربي،» ورقة قدّمت إلى: المؤتمر العاشر لاتحاد الاقتصاديين العرب الذي نظمته الجمعية الاقتصادية الكويتية حول «المشاكل الاقتصادية المعاصرة ومستقبل التنمية العربية»، الكويت، ٦ ـ ٨ شباط/ فبراير ١٩٨٨.

(١٤) المصدر نفسه، ص ٦ ـ ٧.

المنطقة العربية تعد بحسب المقاييس الدولية دون المستوى. وبناء على ذلك، فإنه إذا أمكن ترشيد استخدام هذه المياه واستكمال المنشآت الخاصة بالسيطرة والتحكم في مياه الري، فإنه يمكن زيادة المساحة المروية من حوالى ٨ مليارات هكتار إلى نحو ١٧ مليون هكتار، أي إلى أكثر من الضعفين.

وتشير الدراسات إلى أنه من الممكن مستقبلاً تدبير كميات كبيرة من مياه الري بوساطة تشييد مشروعات التخزين وتنظيم مياه الري على أنهار النيل ودجلة والفرات وجوبا وفي أماكن أخرى، إلى جانب المشروعات الخاصة بتقليل الفاقد من المياه. وتقدر الموارد المائية السطحية الممكن تدبيرها مستقبلاً بوساطة هذه المشروعات مجتمعة بنحو ٢٩٦ مليار متر مكعب. وهذا يوضح الآفاق الواسعة للتنمية الزراعية في الوطن العربي.

أما عن موارد الثروة الحيوانية، فإن رقعة المراعي الطبيعية تمتد لتغطي وحدها ما يعادل تقريباً خمس الرقعة الأرضية العربية. ويحوز الوطن العربي على نحو ٢٢٣ مليون رأس من الحيوانات المنتجة بأنواعها المختلفة، منها نحو ٣٨,٩ مليون رأس من الأبقار و٢,٦ مليون رأس من الجاموس و ١٠٩,٦ مليون رأس من الأغنام و٦٠,٢ مليون رأس من الماعز و ١١,٢ مليون رأس من الجمال، وذلك في عام ١٩٨٥[١٥].

ويمثل إنتاج الدول العربية من اللحوم الحمراء نحو ١,٨ بالمائة فقط من الإنتاج العالمي خلال المدة ١٩٨٠ ـ ١٩٨٥. وهذا الأمر يعكس انخفاض إنتاجية الحيوانات في الوطن العربي مقيساً بمناطق العالم الأخرى.

وبالنسبة إلى موارد الإنتاج السمكي، فتقدر أطوال الشواطىء البحرية المحيطة بالدول العربية بنحو ٢٢٢,٧ ألف كيلومتر.

ب ـ الإمكانات والفجوة الغذائية خلال الفترة (١٩٨٣ ـ ١٩٨٧)

تبلغ مساحة الجرف القاري للدول العربية نحو ٦٠٨ آلاف كيلومتر مربع، إلى جانب المياه الداخلية من الأنهار والبحيرات، مما يجعل من هذه الموارد، إذا أحسن استغلالها، مصدراً، بل رصيداً كبيراً من الأسماك والأحياء البحرية يمكن أن يسهم في سد الحاجة المتنامية إلى مصادر البروتين الحيواني في الدول العربية. وقدر الإنتاج السمكي في عام ١٩٨٨ بنحو ٢,٢ مليون طن سنوياً من المخزون القائم آنذاك، والذي قدر بـ ٧,٧ مليون طن، أي أن المستغل لا يتعدى ٢٨,٥٧ بالمائة من الإمكانات المتاحة من هذه المادة الغذائية الأساسية.

---

(١٥) المصدر نفسه.

ج ـ الفجوة الغذائية

على رغم الاتساع الكبير للإمكانات الموردية الزراعية والبشرية للدول العربية، فإن طاقة هذه القاعدة الموردية على الإنتاج تعد ضعيفة، وبخاصة بمقارنتها بمثيلتها على المستوى العالمي. ونتيجة لتخلف قطاعات الإنتاج من جانب، والنمو المتسارع في استهلاك الغذاء من جانب آخر، تأثراً بالزيادة السريعة في عدد السكان وبالتحسن النسبي الذي طرأ على الدخل الحقيقي، فقد نشأت مشكلة العجز الغذائي أو الفجوة الغذائية، تلك المشكلة التي شاهدت تفاقماً مستمراً سنة بعد أخرى. ويمكن استخلاص مجموعة من الحقائق، ولعل أبرزها:

١ ـ إن القيمة النقدية للفجوة الغذائية قد تصاعدت من نحو ٢,٤ مليار دولار سنوياً خلال الفترة (١٩٧٠ ـ ١٩٧٢) لتصل إلى ١٣,٤ مليار دولار سنوياً خلال الفترة (١٩٨٣ ـ ١٩٨٥)، وإن جزءاً كبيراً من المبالغ يوجه لتغطية العجز في أخطر سلع الغذاء وأكثرها حيوية، وهي الحبوب والقمح خاصة.

٢ ـ إن القيمة التراكمية للفجوة الغذائية خلال الفترة (١٩٨١ ـ ١٩٨٥) قد بلغت نحو ٦٨,٤ مليار دولار أمريكي، منها نحو ٣٠,٦ مليار دولار أنفقت ثمناً للحبوب، و٦,١ مليار دولار للسكر، و٥,٤ مليار دولار للزيوت النباتية، و١٢,٦ مليار دولار للحوم، و٨,٧ مليار دولار للألبان. وتقدر قيمة صافي الواردات الغذائية للدول العربية كافة بنحو ١٩ مليار دولار في عام ١٩٨٦ فقط، وفي ذلك دلالة بينة إلى تزايد تفاقم قيمة الفجوة الغذائية العربية.

٣ ـ إن التضخم في حجم الفجوة الغذائية من الحبوب، سواء من حيث الكم أو القيمة، لم يصاحبه تحسن في الأوضاع المشابهة بالنسبة إلى السلع الغذائية الأخرى، بل ازداد حجم الفجوة الغذائية لهذه السلع بنسب متفاوتة حتى انخفضت نسب الاكتفاء الذاتي إلى مستويات شديدة الانخفاض.

٤ ـ أصبح المواطن العربي يعتمد على العالم الخارجي في تأمين نصف قوته من الخبز، وأكثر من ذلك لكل من السكر والشحوم والزيوت النباتية، وحوالى ثلث استهلاكه من اللحوم ومنتجات الألبان. وهذا الأمر يؤكد أن مقدرات الغذاء في المنطقة العربية أصبحت خارج نطاق الإمكانات العربية، وبخاصة إذا علم أن الواردات العربية من الغذاء تشكل نسبة لا يستهان بها في المعروض من الغذاء في السوق الدولية.

٥ ـ تمثل الفجوة الغذائية دعماً لاقتصادات الدول الأجنبية، وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية وكندا وأستراليا، ونفعاً لمنتجي الغذاء فيها. وفي الوقت نفسه، تمثل سلاحاً ماضياً في يد السلطات السياسية في تلك الدول يبقى مشرعاً فوق رقابنا. وتستخدم دول الفائض الغذائي باستمرار وبقسوة سلاح توفير المواد الغذائية ضد كثير من

الدول التي قد تكون أشد قوة وبأساً منا، مثل استخدام سلاح القمح تجاه دول الاتحاد السوفياتي سابقاً.

٦ ـ تتعرض الأسواق العربية لسياسات إغراقية تحت ستار المعونات والقروض الميسرة من مؤسسات دولية وشركات عملاقة (عابرة القارات) وشركات خاصة أخرى، مما يؤثر سلباً في الحوافز الاستثمارية في القطاعات الإنتاجية، ويخلق المبررات لتخطيط سياسات سعرية غير مناسبة لتنمية القطاعات الإنتاجية، وبخاصة القطاع الزراعي، بالإضافة إلى إدخال أنماط استهلاكية غريبة عن الريف العربي يترتب عليها زيادة تضخم الطلب الاستهلاكي على السلع المستوردة.

وهنا يبرز للعيان تحد كبير على رغم وجود الموارد المتاحة وتلك الممكن توفيرها. فإن المرحلة الراهنة المتسمة بانحسار الموارد المالية المتاحة نتيجة تدهور أسعار النفط وتفاقم الركود الاقتصادي تشهد تزايد الفجوة الغذائية (أو انخفاضاً في درجات الاكتفاء الذاتي) وتزايد الأعباء الناجمة عن استيراد المواد الغذائية الأساسية مما يستلزم مضاعفة الجهود القطرية والقومية الهادفة إلى إعادة الاعتبار إلى القطاع الزراعي وتمكينه من القيام بدوره في تقليص الفجوة الغذائية، والحد من تزايد أعباء استيراد المواد الغذائية، ومن الاعتماد على أسواق دول الفائض الغذائي، والحد من شروطهم المجحفة وغاياتهم المشبوهة، لإبقائنا بحاجة إلى نتاجاتهم التي لزام علينا تناولها لنبقى أحياء نشطين قادرين على ممارسة نشاطاتنا الحياتية، ولو بمستويات غير كافية.

٣ ـ استنزاف الطاقة

إن الوطن العربي منتج رئيسي للطاقة الأحفورية، وقد قدرت دراسة أعدتها منظمة الأقطار العربية المصدرة للنفط (أوابك) حجم احتياط الدول العربية من النفط مع نهاية العام الماضي بنحو ٦٣٠٠ مليار برميل، إلى جانب ٣٠ ألف مليار قدم مكعب من الغاز[١٦]. وأشارت الدراسة إلى أن الاحتياط العربي من النفط يشكل نسبة ٦٢ بالمائة من احتياط العالم، ونسبة ٢١ بالمائة من احتياط الغاز.

وتبلغ نسبة الصادرات العربية السنوية من النفط ٣٨ بالمائة من حجم الصادرات العالمية. وقدرت الدراسة مستوى الطلب على النفط خلال العام الجاري (١٩٩٥) بنحو ٦٩,٤ مليون برميل.

لقد دأبت شركات النفط على سرقة هذه الثروة القابلة للنضوب واستنزافها. وقد تولت شركات النفط، ومنها شركة نفط العراق وغيرها، منذ سنوات التنقيب

(١٦) القدس: ٢٥ ـ ٢٦/٢/١٩٩٥، ص ٩.

والاستكشاف بعقد (أو فرض) اتفاقات مجحفة بحقوق الدول التي يتم فيها وجود النفط بكميات تجارية، وذلك بدفع ضريبة أو إتاوة ضئيلة جداً، بالإضافة إلى دفع ريع ثابت منخفض جداً، أو بالحصول على امتياز الإنتاج على أساس مبدأ المشاركة التي تراوحت بين المناصفة وال ٤٠ ـ ٦٠ بالمائة الذي اتبع في أوائل الخمسينيات.

وعلى رغم تدني هذه النسب من العوائد التي يتسلمها البلد المنتج، فإن الشركات لجأت إلى الحصول على إعفاء تام لحصتها من الأرباح من ضريبة الدخل، مما يجعلها لا تؤدي أي ضريبة للبلد المنتج في الوقت الذي تدفع فيه هذه الشركات ضرائب عالية جداً للدول التي يكون مقر تأسيسها فيها. وقد تصل هذه الضرائب والرسوم إلى أكثر من ٨٠ بالمائة من سعر النفط الخام المنتج المبيع. والدول المنتجة كانت لا تحصل إلا على نصيبها من الأرباح الضئيلة بعد حسم التكاليف التي كانت الشركات العاملة هي التي تحددها بحسب هواها.

وفي العام نفسه، فإن تلك الشركات باشرت عمليات التنقيب والاستكشاف، وتم الإنتاج باستخدام خبراء فنيين وعمال أجانب، واقتصر استخدام العمال المحليين على الأعمال غير الفنية وعلى الأعمال الخدمية. وبمرور الزمن ازداد استخدام رأس المال المنتج (الآلات وفنون الإنتاج الحديثة)، مما قلل من استخدام العمال المحليين وغيرهم. وكان الخبراء والعمال الأجانب يقبضون أجوراً أعلى ويتمتعون بامتيازات وخدمات اجتماعية أفضل من العمال الأهليين، فكانت سرقة تليها سرقة للبلد المنتج وللمواطنين الذين يعملون في إنتاج النفط، إضافة إلى تحمل البلد المنتج أعباء ومخاطر تلوث البيئة الناجمة عن عمليات الإنتاج والتخزين والشحن. وفي الوقت ذاته، لم تشجع الشركات الأقطار المنتجة على إنتاج مشتقات نتاجات النفط، بل استمرت في إنتاج النفط الخام، ويقوم البلد المنتج باستيراد المشتقات النفطية من بلدان تلك الشركات، التي يقال لها «البلدان الأم»؛ يا لها من مفارقة فلجاء!

وبعد تأسيس منظمة الدول المصدرة للنفط[١٧] بموجب ميثاق بغداد في أيلول/ سبتمبر ١٩٦٠ حاولت الشركات بضغوط شديدة على الدول المنتجة زيادة الإنتاج وإغراق السوق العالمي لخفض سعر برميل النفط الخام وزيادة عوائد الدول الأم من الضرائب التي تعود إلى خزائنها. وأخيراً عندما زاد إنتاج النفط في المملكة المتحدة والنرويج ودول أخرى قامت شركات هذه الدول بزيادة الإنتاج منافسة دول المنظمة في السوق الدولية وغير راغبة في التنسيق معها في حصص الإنتاج أو في تحديد الأسعار، مما قلل من مركز المنظمة وجعلها تضطر إلى قبول تصريف نفطها بأثمان أقل في الوقت الذي قلت حصتها

(١٧) للتوسع، انظر: أيان سيمور، **الأوبك: أداة تغيير**، ترجمة عبد الوهاب الأمين (الكويت: منظمة الأقطار المصدرة للبترول، ١٩٨٣)، ص ٣٧ ـ ٦٧.

في السوق الدولية، فخسرت من الوجهتين: الحصص والأسعار. وعندما يقوى مركز المنظمة لسبب من الأسباب الاقتصادية أو السياسية، تلجأ الدول الغربية الصناعية إلى الضغط على بعض الدول الأعضاء في المنظمة لزيادة الإنتاج متذرعة كذباً ونفاقاً بأن قلة الإنتاج مع زيادة الطلب قد يؤدي إلى ارتفاع فاحش في الأسعار، مما يضر صناعات الدول المتقدمة، إما بإبطاء وقع النمو الاقتصادي فيها، أو قد يؤدي إلى ركود اقتصادي، مما قد يؤدي إلى انخفاض في الطلب على النفط، فيؤدي إلى تدهور سعره وخسارة الدول المنتجة العوائد النقدية.

وإن ما يحز في الكبد أن بعض البلدان العربية بإيحاء وتحت ضغوط سياسية من الولايات المتحدة وحلفائها قد تعلن ذلك في عدة مناسبات حرجة لأسعار النفط الخام. ومما زاد الطين بلة أن دولاً أخرى غير عربية قد تحالفت في أوقات أخرى مع هذه الدول العربية، مثل إيران وفنزويلا ونيجيريا من أعضاء المنظمة، ودول من خارج المنظمة، مثل النرويج والمملكة المتحدة والمكسيك، مما أدى إلى تدهور أسعار النفط إلى مستويات دنيا وسبب انخفاض العوائد المالية للأعضاء العرب الآخرين، وفي الوقت ذاته نجم عنه استنزاف الثروة النفطية العربية القابلة للنضوب.

وإن نضوب النفط والغاز، الثروة غير المتجددة، سيجعل البلدان العربية النفطية في محنة عندما ترث مصادر الطاقة الجديدة والمستحدثة النفط، فلا تجد مصدر طاقة يخلف النفط الناضب للاستخدامات الذاتية، إلا الطاقة الشمسية، فماذا يفعلون؟

٤ ـ تلوث البيئة[١٨]

تحتل البلدان العربية موقع المركز من العالم. وهي تطل على بحار تتعرض شواطئها للتلوث على الدوام، وإنها محاطة بصحارى تزداد اتساعاً بسبب ما يسود من أحوال مناخية غير ملائمة، فضلاً عن القلق الذي تثيره أخطار بيئية متعددة تهدد هذا الجزء من العالم باستمرار بسبب حروب ونزاعات مسلحة لا تكاد تضع أوزارها. وترجع بالدرجة الأولى إلى استمرار التوتر الناجم عن عدم التوصل إلى حل عادل وشامل للقضية الفلسطينية، وإلى عدم انسحاب إسرائيل من الأراضي العربية المحتلة كافة.

وتتطلب المحافظة على البيئة مكافحة العوائق الأساسية التي تحول دون ذلك، وهي الفقر والجهل والمرض. وهنالك ضرورة لاتخاذ إجراءات على المستوى الوطني والإقليمي لحماية البيئة وتعزيزها بانتهاج تنمية مستديمة وسليمة بيئياً في إطار عمليات التنمية

---

(١٨) انظر: اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا (الاسكوا)، تقرير اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا (الاسكوا) عن المؤتمر العربي الوزاري عن البيئة والتنمية، القاهرة، ١٠ ـ ١٢ أيلول/ سبتمبر ١٩٩١ (عمّان: الاسكوا، شعبة البيئة والمستوطنات البشرية، ١٩٩٢).

الاقتصادية والاجتماعية والثقافية الشاملة في الوطن العربي.

تراكمت المشكلات البيئية الراهنة بسبب النشاطات الصناعية، والنفطية بخاصة، وأنماط الاستهلاك في الدول الصناعية. ولزام إدراك الأخطار التي تحيق بالبيئة من الملوثات وتغير المناخ، ومن النفايات السامة واستخدامات الطاقة الذرية وتوسع العمران على حساب الغطاء النباتي. ولزام التصدي إلى المشكلات التي تحيط بتوفير المياه في المنطقة العربية التي لا تتعدى فيها مساحة الأرض الصالحة للزراعة نسبة ٤ بالمائة من المساحة الكلية. وتعتبر وفرة المياه هي الطريق الملائم لتحقيق الأمن الغذائي. ويجب معالجة مشكلات التصحر والتلوث البحري الناجم عن عمليات استخراج النفط وضخه وشحنه، وعن مياه الصرف والمجاري، وكذلك لمعالجة الكوارث الطبيعية والسعي إلى تجنيب وقوعها. وتبرز آثار تزايد السكان وعجز الخدمات البيئية في تردي البيئة.

ولزام بذل الجهود لتشجيع الهجرة المعاكسة من المدن إلى الريف وتغيير أنماط الاستهلاك لتتناسب مع الحاجات الحقيقية والموارد المتاحة، والاهتمام بشبكات المعلومات البيئية القومية وربطها ببنك عربي للمعلومات يرتبط بدوره ببنوك المعلومات الإقليمية والدولية لتحقيق الاستفادة القصوى من المعلومات وتوظيفها في دراسات تقويم الآثار البيئية[١٩].

وللمشكلات البيئية في الوطن العربي خصوصياتها. ومن أبرزها النزاعات الإقليمية والقيود المفروضة من قبل الدول الصناعية على نقل التقانة، وهجرة العقول والخبرات العربية إلى الدول المتقدمة.

ومن عوائق التقدم نحو استمرارية التنمية في الدول العربية تدهور حالة المصادر الطبيعية وعدم مراعاة البيئة في السياسات القومية في خطط التنمية الوطنية (القطرية)، وضعف النظم الإدارية للبيئة، وعدم كفاية الوعي بمشكلات البيئة، ونقص المشاركة الجماهيرية، والاعتماد على العلاج، من دون الاهتمام الكافي بالوقاية، وضعف معاهد الأبحاث، وعدم الاستقرار السياسي، وكثرة النزاعات المسلحة، مما يستنزف قسطاً هائلاً من الموارد المالية بعيداً عن حماية البيئة[٢٠].

إن برنامج العمل اللازم لتحقيق التنمية الملائمة بيئياً والمستديمة يتطلب أموالاً طائلة وتعاوناً وثيقاً بين البلدان العربية، لأن المشكلات في هذا المجال كبيرة ولا يستطيع بلد واحدة حلها بمفرده. لذلك يلزم دعم التعاون الإقليمي والدولي وتشجيع الدول الدائنة على تحويل جزء واف من ديونها المستحقة إلى بعض البلدان العربية لأغراض تحسين البيئة وحمايتها.

---

(١٩) المصدر نفسه، ص ٨.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ٩.

ولزام تثبيت مبادئ التنمية المستديمة والسليمة بيئياً للحفاظ على رفاه الأجيال القادمة. ويجب الالتزام بالعمل على مستوى الأفراد والجماعات ومن خلاله برامج التعاون البيئي العربي والداعي إلى تشجيع المشاركة العادلة في التنمية المستديمة والمأمونة بيئياً، وإلى التقليل من التأثيرات البيئية الضارة بالتنمية الاقتصادية إلى الحد الأدنى بدمج الاعتبارات البيئية في عمليات التخطيط والسياسات الاقتصادية والقطاعية، إضافة إلى وضع سياسات لاستخدام الموارد والتخطيط الإنمائي تقوم على المبدأ الوقائي والإسهام في المساعي الإقليمية والدولية الرامية إلى إيجاد حلول للمشكلات البيئية الملحة على الصعد المختلفة.

وفي ما له علاقة بتطوير المستوطنات البشرية، لزام أن يتم الارتقاء بالبيئة الحضرية والريفية بتشجيع برامج خدمات البيئة ذات الكلفة الأقل والفاعلية الأكثر، والاهتمام باستخدام المواد المحلية والتقنيات المناسبة، بما فيها الموروثة، في أساليب البناء وتشجيع مشروعات تدوير النفايات.

وفي مجال تنمية الموارد المائية والزراعية، نحن بحاجة إلى وضع خطة عربية متكاملة للرصد البيئي، بما فيها رصد المياه ومتابعة التنبؤ بمستوى التصريف واحتمال الفيضانات والسيول، وتعزيز الدراسات لاستكمال المعلومات عن الأحواض المائية ومعرفة كمية مياهها ونوعيتها، ووضع خطط بيئية متكاملة لاستخدامها، وتنمية موارد المياه للوفاء بمختلف الحاجات المتزايدة للتنمية الزراعية والصناعية والعمرانية، واستخدام الأساليب الحديثة في الري، وإعادة تصميم الدورات الزراعية وتنفيذ برامج معالجة مياه الصرف الصحي والصناعي.

أ ـ استخدامات الطاقة(٢١)

بما أن الوطن العربي منتج رئيسي للطاقة الأحفورية ومتفهم مشروعية تزايد الطلب على استهلاك هذا الصنف من الطاقة على رغم ما يسببه ذلك من استنزاف لثروة قابلة للنضوب، فإنه يدعو الدول المتقدمة، باعتبارها مستهلكاً رئيسياً لهذه الطاقة، إلى تفهم أبعاد هذه القضية، وإلى مزيد من الإسهام في توفير التقنيات المناسبة والموارد المالية الكافية لاحتواء سلبياتها والسعي إلى تحقيق الاستخدام الأمثل للطاقة، وبذلك تتحقق الطموحات التنموية للدول العربية النفطية وغير النفطية، وتتمكن من الاستجابة للمتطلبات البيئية والتوسع في الاستثمار لتنويع جميع مصادر الطاقة وتنفيذ البرامج والسياسات التي تثبت فاعليتها في زيادة كفاية التشغيل في مواقع الإنتاج وتوزيع الطاقة واستعمالها والتعجيل في إنجاز المشروعات الجاري تنفيذها في مجال ربط الشبكات الكهربائية واستكمال دراسات المشروعات العربية الأخرى للربط الكهربائي مع دراسة التأثيرات والتكلفة البيئية والصحية.

---

(٢١) المصدر نفسه، ص ١٤.

ب ـ إدارة البيئة الصناعية والمواد الخطرة

ينبغي الاستمرار في التنمية الصناعية ومحاولة التوسع في إدخال التقنيات النظيفة والمأمونة والاهتمام بمشروعات تدوير المواد الثانوية والنفايات، وتعزيز جهود الأجهزة البيئية التشريعية والتنفيذية لتطوير نظم إدارة البيئة الصناعية ودراسات تقويم التأثيرات البيئية للمشروعات ضماناً لاستمرار التنمية وتعزيز الإدارة السليمة بيئياً للمواد الكيميائية الخطرة، والعمل على إيجاد سجل لهذه النفايات والمواد، وبناء قواعد معلومات وطنية في الدول ترتبط بالشبكة العالمية ضمن بنك المعلومات الدولي، وتوكيد ضرورة إقامة تعاون دولي بناء في إطار اتفاقية بازل وتطويرها لتراعي وجهات نظر الدول النامية ومتطلباتها لدرء خطر نقل النفايات والتخلص منها.

ج ـ حماية البيئة البحرية[٢٢]

لزام إعداد البرامج والوسائل الملائمة بيئياً لتطوير المناطق الساحلية وتنمية النشاطات البحرية، ودعم جهود حماية البيئة وصونها في برامج تنمية المناطق البحرية والساحلية، وبخاصة ذات الحساسية البيئية، ومناشدة دول العالم التوقيع على الاتفاقات الدولية، والاشتراك في تنفيذ المخططات للقضاء على مصادر التلوث في البحار وعلى الشواطئ، وحث العالم على إعداد المخططات لتجنب الكوارث التي تهدد الحياة البحرية والتعامل معها فور حدوثها.

وفي مجال تعزيز التعاون العربي تبرز ضرورة دعم المؤسسات والأجهزة والتنظيمات البيئية العربية، ومنها مجلس الوزراء العرب المسؤولون عن شؤون البيئة واللجان المتفرعة منه، والأجهزة البيئية في المنظمات العربية ومجالس التعاون والاتحادات الإقليمية، وتنسيق التعاون مع الهيئات المعنية في مجال تمويل المشروعات البيئية، ودعم الخطط الإقليمية لحماية البيئة البحرية، ومنها برنامج عمل الكويت، وخطة البحر الأحمر وخليج عدن، وخطة البحر الأبيض المتوسط، وخطط الطوارئ لحوادث انسكاب النفط، والخطط المماثلة، وحصر شبكات المعلومات البيئية العربية وإعداد برنامج عربي لربط هذه الشبكات بعضها ببعض وبالشبكات العالمية.

وفي مجال تعزيز التعاون الدولي يجب تكثيف التعاون وتعزيزه مع منظمات الأمم المتحدة المهتمة بقضايا البيئة، وبخاصة مركز البيئة والتنمية للبلدان العربية وأوروبا كنموذج لإقامة مراكز مماثلة، في أقاليم أخرى من العالم، والإسهام الفاعل في النشاطات الدولية البيئية، والمشاركة في الاتفاقات الدولية المعنية بالقضايا البيئية، والمشاركة في الاتفاقات الدولية المتعلقة باستخدام الموارد، والحد من التلوث عبر الدول، والحفاظ على نوعية

---

(٢٢) المصدر نفسه.

البيئة، والتعاون مع البرامج العالمية للرصد البيئي.

د ـ حماية موارد المياه العذبة وجودة مصادرها[٢٣]

يعاني معظم الدول العربية تناقصاً مستمراً في متوفر المياه العذبة، إذ لا يتعدى المتوفر لاستهلاك الفرد ألف متر مكعب في العام، أي نصف المعدل العالمي. لذلك فإن استمرار قلة المياه يؤدي إلى عرقلة برامج التوسع الزراعي والصناعي والعمراني. ولزام أن تهتم الدول العربية بمشروعات بناء السدود وخزانات المياه لتأمين حاجات الري والصناعة مع ضبط الفاقد، وأن يولى اهتمام كاف للآثار السلبية لهذه المشروعات مثل التغيرات النباتية وخاصيات التربة والتأثير في الصحة العامة. لذلك يجب دعم الجهود المشتركة لمراقبة نوعية المياه ودعم مشروعات تنقية المياه العذبة.

هـ ـ حماية المحيطات والمناطق الساحلية

تمثل المحيطات ثروة إقليمية هائلة ومصادر غذائية حيوية لزام استغلالها استغلالاً أمثل. وتعتبر المدن الساحلية في العديد من الأقطار العربية مورداً اقتصادياً في مجال السياحة، وفي مجال استخراج النفط والغاز من بعضها كسواحل دول الخليج العربي.

وتعاني سواحل الخليج العربي تبعات مصدرين رئيسين للتلوث: مصدر طبيعي يمثل العوامل الجيولوجية والحياتية، ومصدر اصطناعي يمثل مشكلات التعمير وتصريف مياه المجاري والملوثات الصناعية. وتبذل الجهود حالياً لمعالجة النفايات الآدمية والنفايات الصناعية السائلة. وقد شاركت الدول العربية في عدة برامج إقليمية لحماية مياه البحار، مثل خطة البحر الأبيض المتوسط وخطة البحر الأحمر وخليج عدن، وخطة منطقة الخليج العربي (برنامج عمل الكويت).

و ـ مشكلات النفايات الصناعية والمواد الخطرة

تتزايد الملوثات جراء تنوع النشاطات الصناعية وتوسعها. ونظراً إلى أن معظم هذه الملوثات مجهولة التركيب، فإن التنبؤ بآثارها البيئية والصحية أمر في غاية الصعوبة. وعلى رغم الاهتمام، فمكافحة التلوث الصناعي لم تحقق الأهداف المرجوة للسيطرة على مصادرها.

ز ـ تطوير الظروف المعيشية في المجتمعات الحضرية الهامشية والريف

باتساع رقعة المدن وتزايد الكثافة السكانية في العديد من البلدان العربية أصبحت مرافق الخدمات العامة تتحمل ضغوطاً متزايدة. وإن التوسع في شبكات تجهيز المياه لم تقابله زيادة مناسبة في شبكات الصرف الصحي، مما أضحى يشكل مخاطر جسيمة. وإنه

---

(٢٣) المصدر نفسه، ص ١٨.

متوقع أن يبلغ معدل النمو الحضري في الدول العربية ثلاثة أضعاف معدله في الدول المتقدمة بحلول عام ٢٠٠٠، لذلك وجب التركيز على معالجة المشكلات الناجمة عن هذا التوسع الهائل، مثل قصور وسائل النقل وزيادة التلوث داخل المدن وعدم توفر وسائل الترويح والترفيه. ولا بد من رسم سياسة عقلانية عامة للنمو الحضري وتحقيق اللامركزية في البلدان الواسعة.

ح ـ حماية موارد الأرض ومكافحة التصحر(٢٤)

يتسم التصحر والجفاف بالخطورة في المنطقة العربية. وعلى رغم أن الأمم المتحدة قد وضعت في عام ١٩٧٧ خطة لمكافحة التصحر، فإن الصعوبات المالية والفنية قد حالت دون تنفيذها. ويعاني أغلب البلدان العربية زيادة ملوحة التربة وسوء تصريف مياه الري أو انعدامه. وتتفاقم مشكلة توفر الأراضي الزراعية بسبب التوسع العشوائي في المناطق الحضرية على حساب الرقعة الزراعية. ويؤدي كذلك استمرار الضغط على الأراضي الزراعية بسبب تكثيف الإنتاج إلى الإسراف في استخدام المبيدات والأسمدة الكيماوية، مما يتسبب في تراكم المواد السامة في المياه والتربة.

وبالنسبة إلى المراعي، فيقدر أن حوالى عشرين بالمائة منها قد فقد غطاءه النباتي، وأن أكثر من نصف المراعي يعاني التدهور. وتتعرض المراعي بدورها لمشكلات التصحر. ويؤدي تناقص مصادر الطاقة إلى الزيادة في استهلاك الغابات، مما يزيد تفاقم مشكلات التصحر. وتستدعي هذه المؤثرات السلبية اتخاذ إجراءات عقلانية فاعلة لحماية الأراضي الزراعية والمراعي والغابات.

٥ ـ هجرة العقول والخبرات(٢٥)

إن هذا العامل من أخطر العوامل الفاعلة سلباً في سبيل التنمية الاقتصادية والثقافية والاجتماعية. ولا يسمح المجال لمناقشة العوامل الفاعلة والمؤثرة في هجرة ذوي العقول والخبرات، أي العوامل التي قد تسمى بالعوامل الطاردة والعوامل الجاذبة لذوي العقول والخبرات. وتكمن الخطورة في استنزاف ذوي العقول السليمة وذوي الخبرات والمهارات والذين في أغلب الحالات تنفق الدولة على إعدادهم وتدريبهم، سواء في الداخل أو في الخارج (وأولئك الذين ينفق عليهم ذووهم).

ولما كانت هجرة العقول والخبرات من الأقطار العربية إلى الدول المتقدمة تعرقل

---

(٢٤) المصدر نفسه، ص ١٩.

(٢٥) United Nations, «The Reverse Transfer of Technology: Its Dimensions, Economic Effects and Policy Implications,» a study by the UNCTAD secretariat (New York, 13 October 1975) TD/B/C, 6/7.

بشدة التنمية في الوطن العربي، أصبح لزاماً أن ترسم سياسات إقليمية عربية لإبطال الاستنزاف الذي يصل إلى حد السرقة وتحاشي آثاره السلبية.

تبين هجرة العقول والخبرة إلى الدول المتقدمة في أوائل السبعينيات، أن أهم هؤلاء المهاجرين هم المهندسون، ويؤلفون ٢٥ بالمائة من عدد المهاجرين الإجمالي، ثم الأطباء والجراحون ويؤلفون ٢٠ بالمائة، وعلماء الطبيعة ويؤلفون ١٠ بالمائة، وان أهم الأقطار المستقبلة هؤلاء هي: الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة المتحدة وكندا، وان أكثر من الحصة الوسط للمهاجرين في أكثر أصناف المهن العمالية الماهرة يأتي من الدول النامية، وان ٣٠ بالمائة من المهاجرين كافة يأتون من الدول النامية (٤٢ بالمائة مهندسون وعلماء و٥٨ بالمائة أطباء وجراحون)[٢٦].

وتتضح خطورة الهجرة بانتقال الدخل في الفترة (١٩٦١ ـ ١٩٧٢) من البلدان النامية إلى الدول المتقدمة الثلاث، والذي بلغ آنذاك ٤٤ مليار دولار. ومن الظاهرات التي لم يذكرها إلا القليل ممن يهتم بالتنمية في مجالاتها العديدة هي ظاهرة انتقال المعرفة والفنون والتقانة من البلدان النامية إلى البلدان المتقدمة، أو ما يسمى بهجرة العقول أو استنزاف «الأدمغة». والبلدان العربية ليست مستثناة من هذه الهجرة، والخسارة التي تتمثل مما يأتي:

أ ـ خسارة المواطنين الذين هم جزء من المجموعة السكانية، وإني أؤمن بأنه كلما ازداد عدد السكان وصلحت تنميتهم ازداد البلد منعة وهيبة. وإن خسارة ذوي العقول والخبرات تعني خسارة أعضاء ذوي منزلة رفيعة علمياً وفنياً، وأنهم يمثلون الصفوة المختارة. فخسارتهم تكون أفدح من خسارة غيرهم من فئات المجتمع.

ب ـ خسارة المهارات والخبرات التي اكتسبوها خلال حياتهم في وطنهم قبل أن ينزحوا أو يهاجروا، وأن بلدهم في المقام الأول والبلدان العربية الشقيقة المجاورة أو البعيدة أولى أن تنتفع بهم بدلاً من الأجانب، وخاصة عند قيام الحاجة الماسة إليهم بشراً ومستودع معرفة وخبرة ومهارة.

ج ـ خسارة ما أنفق عليهم من موارد مالية وخدمات تربوية وصحية وعلمية وفنية طول المدة التي تسبق هجرتهم. وليس نفلاً أن نذكر في هذا الصدد النفع الذي تحصل عليه الدول المستقبلة من هؤلاء المهاجرين. فإنهم يحصلون على خبرتهم ومردودها، وفي الوقت ذاته يحصلون على الضرائب التي تجنى من هؤلاء المهرة، وخصوصاً الأطباء والجراحين والمهندسين وعلماء الطبيعة والمتعلمين وعلماء الاجتماع. وقد قدرت، مثلاً، منافع الولايات المتحدة الأمريكية وكندا والمملكة المتحدة في الفترة (١٩٦١ ـ ١٩٧٢)

(٢٦) المصدر نفسه، ص ٣.

بـ ٤٤ مليار دولار أمريكي[٢٧]، بينما بلغت المساعدات التي قدمتها هذه الدول الثلاث بـ ٤٦ مليار دولار أمريكي[٢٨].

إن هذا الاستنزاف الدماغي يمثل انتقالاً معاكساً للعلوم والمعارف والتقانة، وبوساطة هذه العملية تحول الأقطار النامية الفقيرة جزءاً كبيراً من أرصدتها التقنية كل عام إلى أقطار أغنى تملك قدرات علمية وفنية وتقنية أحدث وأكبر بدرجة لا تخضع للمقارنة. وغرض هذه الملاحظات هو تحليل بعض الوجوه الاقتصادية لهذا الانتقال المعاكس وتقدير التكاليف والمنافع الناجمة عن ذلك الربح والخسارة الدخلية التي تنجم عن هجرة الأفراد المدربين في الأقطار الفقيرة إلى الأقطار الأغنى[٢٩].

لزام أن نميز أربعة وجوه للربح والخسارة في سبيل تقويم الآثار الاقتصادية لهجرة العقول في الأقطار المتقدمة والنامية:

أ ـ منافع تفقد في الأقطار النامية نتيجة خسارة الأفراد المهرة بهجرة العقول.

ب ـ المنافع المكتسبة في الأقطار المتقدمة نتيجة زيادة الأفراد المهرة بهجرة العقول.

ج ـ التكاليف التي تتحملها الدول النامية في إعداد وتدريب الأفراد المهرة الذين يهاجرون إلى الأقطار المتقدمة، أو التكاليف التي تفقد.

د ـ التكاليف التي على الدول المتقدمة تحملها لو أن هؤلاء المهاجرين المهرة قد أعدوا وتدربوا في البلد المستقبل بدلاً من استلامهم مدربين.

إذاً، فإن الدول النامية خاسرة في الحالتين: المنافع والتكاليف، والدول المتقدمة تكون رابحة في الحالتين: المنافع والتكاليف.

وقد قدر الدخل الذي يكون قد انتقل بهجرة العقول، الانتقال المعاكس للتقانة من الدول النامية إلى الولايات المتحدة وحدها، بنحو ٣,٧ مليار دولار. وبالمقارنة، إن قيمة المساعدات الأمريكية الرسمية للتنمية للدول النامية في السنة ذاتها كان ٣,١ مليار دولار، أي أن الولايات المتحدة كانت رابحة أكثر من نصف مليار دولار.

وقد تحررت سياسة الهجرة إلى الولايات المتحدة وكندا في السنوات التي أعقبت سنة ١٩٧٠. ولما كان النصيب الأكبر من هذه الهجرة يتكون من العمل العالي المهارة، فإن

---

(٢٧) حسب ٣٠ ملياراً منها للولايات المتحدة الأمريكية و ١٠ مليارات دولار لكندا.

(٢٨) المصدر نفسه.

(٢٩) للتوسع، انظر: United Nations, «The Reverse Transfer of Technology, Economic Effects of the Outflow of Trained Personnel from Developing Countries,» a study by the UNCTAD secretariat (New York, 1975), TD/B/A.C. 11/25 Rev. 1.

قيم الانتقال التي نجمت عن ذلك كانت عالية للغاية.

ثالثاً: خلاصة واستنتاجات

نتكلم في التنمية الاقتصادية العربية في الوقت الذي يعيش الملايين من العرب في مشارق أرضنا ومغاربها في حالة بؤس وشقاء همهم اليومي هو البقاء على قيد الحياة على رغم الفقر والجهل والمرض، هذا في الوقت الذي يحتم التضامن والتكافل بين الشعوب العربية الإسلامية عدم تجاهل الدولة الثرية أحوال مواطني الدول الفقيرة والضعيفة الأقل حظوة.

وعلى رغم كثرة سكان الوطن العربي الذين يزيدون على مائتين وثلاثين مليون نسمة ويقطنون في رقعة جغرافية مترامية الأطراف تبلغ مساحتها أكثر من أربعة عشر مليوناً وربع المليون من الكيلومترات المربعة، ومساحتها أكثر من مرة ونصف من مساحة الولايات المتحدة الأمريكية[30]. فإن العالم الغربي لا يولي العرب الأهمية التي يستحقونها بفضل موقعهم الجغرافي السوقي وكثرة عددهم ووفرة مواردهم الاقتصادية الطبيعية كالنفط والغاز والثروات الأخرى.

ومن مخططات الولايات المتحدة والدول الغربية ووسائلها، أن يستمر عدم الاستقرار، وأن تسود الفوضى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لتغذية الحروب والمواجهات بين إسرائيل والعرب. ويلعب التوتر وعدم الاستقرار في الوطن العربي دوراً مهماً وفاعلاً في منع تأمين بيئة سياسية وقانونية واقتصادية واجتماعية وثقافية مستقرة من شأنها تعزيز عملية التنمية. والدول الغربية تسعى دائماً إلى إعاقة التنمية الاقتصادية والاجتماعية. وقد تعزى الإعاقة إلى العوامل الآتية: الخلافات العربية البينية، والخلافات بين الدول العربية ودول أخرى، وإلى غياب الوئام والانسجام بين الدول العربية وجيرانها، والعائق الأكبر هو زرع إسرائيل السرطان الفتاك في قلب الوطن العربي.

ولم تكتف الدول الكبرى بهذا القدر من عدم الاكتراث إلى عروبة العرب، بل إنها حاولت في مناسبات عديدة نكران الهوية العربية وطمسها. فمن مشروع حلف بغداد (الحلف المركزي)[31] إلى بيان مؤتمر الدار البيضاء في خريف عام ١٩٩٤ يتأكد سعي الأمريكيين وحلفائهم الحثيث إلى محو الهوية العربية. وها نحن الآن نشهد المخطط أو المشروع الجديد، مشروع الشرق الأوسط الذي يفرز تحديات جديدة ويؤكد إصرار الغرب

---

(٣٠) تبلغ مساحة الولايات المتحدة الأمريكية ٩,٣٦٣,٣٥٣ كلم².

(٣١) يشار إلى حلف بغداد بـ «الحلف المركزي» ويمثل ميثاق تعاون عسكري، عقد عام ١٩٥٥ بين بريطانيا وإيران وتركيا وباكستان والعراق، وسقط بفضل ثورة ١٤ تموز/ يوليو ١٩٥٨ في العراق.

والأمريكيين على طمس الهوية العربية نهائياً[٣٢]. إن المسميات التي تحوي كلمات «عرب» أو «عربي» أو «المنطقة العربية» أو «العالم العربي» أو «الوطن العربي» تفزعهم وتزعجهم.

وجاء موعد تجسيد منظور الشرق الأوسط عملياً في اتفاقية غزة ـ أريحا، وما تضمنته ملاحقها الاقتصادية من اشتراطات تحمل الفريق الفلسطيني على جعله جسراً تعبره إسرائيل إلى الاقتصادات العربية. وتكللت الانطلاقة بمؤتمر الدار البيضاء في خريف عام ١٩٩٤.

ومفهوم الشرق الأوسط غير واضح المعالم مقابل المنطقة العربية أو الوطن العربي، فالأول تعبير جغرافي في عائم لم تتضح حدوده بعد، فهو يستثني الأقطار العربية في شمال افريقيا، لكنه يضم الأقطار العربية من مصر والسودان والصومال غرباً، والعراق شرقاً، واليمن جنوباً. وإلى ذلك المدى، فهو يجزئ المنطقة العربية الواحدة بعملية افترائية تعسفية متعمدة. وإن المصطلح يضم إلى جانب البلدان العربية المشرقية وإسرائيل القائمة على التراب الفلسطيني بالاغتصاب والاقتلاع والاستلاب، كلاً من قبرص وتركيا وإيران، وهي غير عربية. ثم إن بعضهم يوسع المنظور على هواه ليشمل أفغانستان. ويشكل العرب في منظور الشرق الأوسط ٦٦ بالمائة من مجموع سكانه، وتمثل الأرض العربية ٨٤ بالمائة من مساحته.

وتواجه البلدان العربية تحديات عديدة أهمها عدم الاستقرار والتوتر المستمر، والذي يلعب الغرب فيه دور المثير والمؤجج للخلافات والمنازعات ودور المشارك الفعلي في الحروب في هذه المنطقة. وإن عدم الاستقرار والتنمية ضدان لا يتعايشان أبداً.

ويعاني العرب مشكلات عدم كفاية الانتاج الزراعي، ونمو الفجوة الغذائية وزيادة الاستيرادات من الغذاء، وتسلط الدول الغربية ذات الفائض من الغذاء، مثل الولايات المتحدة الأمريكية وكندا وأستراليا، واستخدام توفير الغذاء سلاحاً ماضياً تبغي بشهره إذلالنا وتعطيل عمليات التنمية السليمة اقتصادياً واجتماعياً.

وإن السياسات الاستثمارية الزراعية العربية توضع في إطار منظور قطري بحت من دون النظر إلى الأبعاد التخطيطية القومية، مما يترتب عليه ظهور ما يمكن تسميته بالانفصام من الموارد الاقتصادية العربية، الأمر الذي يؤدي إلى انخفاض كفاية استغلال هذه الموارد الزراعية. وتعد المنطقة العربية من أكثر مناطق العالم نقصاً في المواد الغذائية. ومن المتوقع أن تستورد البلدان العربية أكثر من نصف ما تحتاج إليه من المواد الغذائية بحلول عام ٢٠٠٠.

ثم يأتي التحدي الكبير، وهو التعجيل في نضوب النفط والغاز، الثروة غير

---

(٣٢) صايغ، «منظور الشرق الأوسط ودلالاته بالنسبة إلى العرب،» ص ٥ ـ ٦.

المتجددة، والذي سيجعل البلدان العربية النفطية في محنة عندما ترث مصادر الطاقة الجديدة والمستحدثة النفط، فلا تجد هذه الدول مصدر طاقة يخلف النفط إلا الطاقة الشمسية. وإن ذلك لا يمثل تحدياً فقط، بل إنه يجسد محنة، بل يمثل مأزقاً حرجاً.

وإن نصف الاحتياطات المؤكدة من النفط موجودة في خمس من البلدان العربية: العربية السعودية والكويت والعراق والإمارات العربية المتحدة والجماهيرية الليبية. وتملك الجزائر إضافة إلى ذلك الاحتياط ٨ مليارات برميل من النفط.

ويثير تلوث البيئة اهتمامنا وقلقنا، مثل عدم اطمئناننا على مستقبل الأمن الغذائي أو على مستقبل قد يشهد نفاد احتياطيات الطاقة، فالبلدان العربية تطل على بحار تتعرض سواحلها للتلوث المستمر، وانها محاطة بصحارى تزداد اتساعاً بسبب ما يسود فيها من أحوال مناخية غير ملائمة، فضلاً عن القلق الذي تثيره أخطار بيئية متعددة تهدد عالمنا باستمرار بسبب حروب ونزاعات مسلحة لا تكاد تضع أوزارها. وتراكمت المشكلات البيئية الراهنة بسبب النشاطات الصناعية النفطية وأنماط الاستهلاك في الدول الصناعية. ولزام إدراك الأخطار التي تحيق بالبيئة من الملوثات البشرية والصناعية وتغير المناخ، ومن النفايات السامة واستخدامات الطاقة الذرية وتوسع العمران على حساب الغطاء النباتي، ومن اكتساح العمران الحضري الريف الزراعي.

وتظهر للعيان خطورة هجرة العقول والخبرات العربية إلى الخارج. وإن هذا العامل هو من أخطر العوامل الفاعلة سلباً في سبيل التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعلمية والتقنية. فالبلدان العربية في حاجة ماسة إلى هؤلاء المواطنين المهاجرين، وإلى خبراتهم، وكذلك بنا حاجة إلى المعين العلمي والفني والتقني الذي يحملونه معهم إلى بلاد المهجر التي تملك فائضاً أكبر وأحدث من العلوم والفنون والتقانة.

وهنالك تحديات أخرى لم نناقشها لزام التصدي لها، مثل النمو السكاني السريع في بعض بقاع الوطن العربي، مثل مصر واليمن وبلدان المغرب العربي. ومن المؤكد أن الزيادة في السكان في الوطن العربي ستؤدي إلى تزايد الضغط على برامج التنمية وأمن المواطنين. وكذلك ظاهرة الاستهلاك السرفي. وهذه ظاهرة واضحة للعيان استكملت أبعادها خلال السبعينيات، وظهرت آثارها السلبية في أواخر الثمانينيات والتسعينيات ولا تزال متصاعدة. وهذه الآثار واضحة في أنماط ومكونات الملبس والمأكل والمسكن، وحتى في وسائل الخدمات التي لا مبرر لها. والعوامل الحافزة والمؤثرة في ولادة هذه الظاهرات والأساليب ونموها بالدرجة الأولى هو ارتفاع مستويات الدخل النقدي بصورة عامة، وبنسب عالية جداً، عند فئات مسرفة يعوزها الوازع الديني والأخلاقي ومسؤولية المواطنة الصالحة، وفي الدرجة الثانية هو عامل المحاكاة والتقليد والتباهي والتباري وعقدة الشعور بالكبر (نتيجة ارتفاع الدخل النقدي من دون رفعة النفس). ويأتي التحدي الضار بالتنمية القطرية والقومية على سواء، وهو هروب الأموال الخاصة والرسمية وتدفقها إلى المصارف

والمؤسسات المالية في الدول المتقدمة. ويؤثر تدفق رأس المال (تحويلات نقدية) إلى الخارج سلباً في ميزان المدفوعات لأنه يمثل هروب رأس المال. وإن ما يلفت النظر أن ودائع ثلاث من بلدان الخليج العربي في الخارج تقدر بـ ٧٥٠ مليار دولار أمريكي في عام ١٩٩٣ في الوقت الذي بلغت فيه ديون البلدان العربية كافة ٢٥٠ مليار دولار[٣٣].

ولزام ذكر خطورة استخدام الخبرة والعمالة الأجنبية في كثير من البلدان العربية بعامة، وفي الخليج العربي بخاصة. وإن استخدام الخبرة والعمالة الأجنبية يحرم المواطنين الأصليين من اكتساب الخبرة، ومن استخدامهم في عمليات التنمية مما يكسبهم خبرة أفضل أثناء العمل، وفي الوقت ذاته يوفر لهم سبل كسب عيش ويرفع مستويات دخلهم ويحسن أحوالهم المعاشية. وفي الوقت نفسه، فإن استخدام الأجنبي يعطل أو يقلل من نمو الخبرات المحلية. وإن استخدام الخبرة الأجنبية أيضاً يحرم المواطنين العرب من الاستخدام في البلدان القريبة الأخرى ويحول دون كسب قوت عيالهم، ويحرمهم في الوقت ذاته من اكتساب خبرة أفضل أثناء العمل، مما يرفع مستويات أدائهم، وقد يؤدي إلى زيادة مكافآتهم، مما يحسن أحوالهم المعاشية. وإن استخدام الأجانب بكثرة يخلق خلخلة في التشكيلة السكانية ويرهق البلد المستخدم بمشاكل هو بغنى عنها. وفي أغلب الأحيان، إن ذلك يترك آثاراً ضاغطة من قبل سلطات دول هذه العمالة الأجنبية للتدخل في شؤون الدول المستخدمة، كما حدث، ولا يزال يحدث، من قبل السلطات الهندية والباكستانية والفيليبينية والكورية وغيرها من الدول المصدرة للخبرة والعمالة في منطقة الخليج العربي. فلزام أن نقلل من استخدام هؤلاء العمال الأجانب، وأن ننمي قوانا العاملة المحلية ونزودها بالخبرة والدربة قبل الاستخدام وأثناء العمل، فنحافظ على أموالنا في الداخل ونستبعد ما قد ينجم عن استضافتهم واستخدامهم وإقامتهم من مصاعب ومشكلات كثيرة.

(٣٣) جاء في حديث وزير الثقافة والإعلام مساء ١٨ نيسان/ ابريل ١٩٩٥.

الفصل الخامس

المحتوى الاقتصادي للنظام العربي وتحديات القرن الحادي والعشرين

حميد الجميلي(*)

مقدمة

يواجه المحتوى الاقتصادي للنظام العربي (الأساس القومي للاقتصاد) نهاية أزمنة الألفية الثانية وبداية الألفية الثالثة، وهو مكبل بأثقال الماضي وأعبائه وتبعاته، وآلام الحاضر وانعكاساته، وضغوط المستقبل ومخاطره ومتاهاته.

فالاقتصاد العربي، وهو على أعتاب القرن الحادي والعشرين يواجه حاضراً تكتنفه الضغوط من كل الاتجاهات، والرؤية الضبابية تحجب عنه رؤية المستقبل القريب، ناهيك عن المستقبل البعيد.

وفي مرحلة الانتقال من أزمنة الألفية الثانية الى أزمنة الألفية الثالثة تتسارع التطورات الاقتصادية المعاصرة وتأخذ شكل التغيرات الجذرية. ومع تزايد هذه التطورات الاقتصادية المعاصرة تتعمق آثارها الاقتصادية ـ السياسية تاركة بصماتها على مختلف جوانب الاقتصاد العالمي بحركته الشمولية والإقليمية.

ومع تعمق هذه الآثار واتساعها وشموليتها بدأت خارطة العالم الاقتصادية تتغير في إطار عملية إعادة هندسة الاقتصاد العالمي لاستقبال اقتصاد القرن الحادي والعشرين.

كذلك تجري عملية إعادة هيكلة الاقتصادات القومية والاقتصادات الإقليمية

(*) كلية الإدارة والاقتصاد، جامعة بغداد.

واقتصادات الفضاءات الاقتصادية القارية، كما تجري عملية اللبرلة المعولمة المؤدلجة (أدلجة التحررية الاقتصادية)، وتجري عملية تعميق العولمة، أي تكثيف اندماج المجتمعات الطرفية في السوق العالمية اندماجاً تبعياً من موقع متخلف.

ويعد المسرح الاقتصادي العالمي للانتقال من الاقتصاد الدولي الذي تتكون خلاياه القاعدية من اقتصادات متنافسة ومتمحورة على الذات إلى الاقتصاد الذي أصبح عالمياً. وضمن هذا الإعداد تأخذ إدارة الاقتصاد العالمي شكل الإدارة الاقتصادية الشديدة المركزية، بحيث يكون هناك أشبه بالحكومة الاقتصادية العالمية، حيث تستلب سلطة القرار الاقتصادي القومي ليحل محلها سلطة القرار الاقتصادي الإقليمي (الاقتصاد الإقليمي ضمن موجة الأقلمة)، وسلطة القرار الاقتصادي العالمي (اقتصاد العولمة).

ولم يكن العالم الثالث، ومنه وطننا العربي، بعيداً عن هذه التطورات، إن لم يكن في مركز هذه التطورات.

وهكذا يتأكد لنا أن القرن العشرين يوشك أن ينتهي وقد انقلبت نهاياته على بداياته، مما يهدد بتأكيد الفروقات بين الشمال والجنوب، وتأكيد توجيه الشمال نحو مزيد من تهميش اقتصادات الجنوب، وتحجيم دوره في إدارة اقتصاد القرن الحادي والعشرين وتسييره.

وبالإضافة الى محاولات الشمال الهيمنة على ثروات الجنوب واقتصاده، فإن المسرح الاقتصادي العالمي يعد بشكل جديد لكي يحل الصراع بين القوى الاقتصادية الكبرى محل الصراع بين القوى العسكرية. وهكذا تصبح ثروات الجنوب عرضة لذلك الصراع الجديد.

وباختصار شديد، فإن أزمنة نهاية القرن العشرين تشهد عملية إعادة هندسة الاقتصاد العالمي ضمن توجه الشمال لاحكام هيمنته وسيطرته على موارد الكوكب بصورة عامة، وموارد الجنوب ومنه وطننا العربي بصورة خاصة، وإدارة هذه الموارد إدارة اقتصادية شديدة المركزية.

وضمن عملية إعادة الهندسة هذه تجري عملية منع الجنوب من تحقيق تنميته المستقلة، ودفعه لكي يبحث عن بيئة خارجية لهذه التنمية «تغريب التنمية». كما أن برنامج الشمال وتوجهات إعادة هندسة الاقتصاد العالمي تهدف في نهاية المطاف الى منع الجنوب من احتلال مكانة مرموقة في حركة العلم والتقانة والدخول في ثروات العصر فاعلاً فيها ومنتجاً لا مستهلكاً.

لا شك في أن هذا التحليل هو قراءة للتأريخ، وهو ليس نظرة تشاؤمية، بل هو تحليل واقعي لحركة الاقتصاد العالمي في منظور اليوم والغد.

إن المنظومة الرأسمالية، وهي تخطط لإعادة هندسة الاقتصاد العالمي تخفي وراءها أزمتها التأريخية. وإذا كانت هذه المنظومة تزهو بنفسها على ضجيج سقوط وتفكك الاتحاد

السوفياتي وسقوط آلية التخطيط المركزي في شرق أوروبا. . . فإن هذا الزهو يحمل معه خفايا تأجيل الأزمة التأريخية للنظام الرأسمالي، تلك الأزمة القادمة لا مجال مهما حاولت الرأسمالية تأجيلها. وفيما يتحرك الاقتصاد نحو القرن الحادي والعشرين يزداد غي الشمال في نهب ثروات الجنوب واستنزاف خبراتهم والتحكم في مصيرهم الاقتصادي، والسيطرة على اقتصاد أنماط تنميتهم وتفكيرهم الاقتصادي، وربطهم بالسوق العالمية ربطاً تبعياً من موقع متخلف.

وعشية القرن الحادي والعشرين يمر عالم الجنوب ومنه وطننا العربي بمأزق تنموي بالغ الخطورة. وهذا المأزق ليس مجرد أرقام ضخمة ومخيفة، وإنما هو حالات أساسية تعبر عن بؤس الجنوب ومعاناة شعوبه بسبب الاختلالات الواسعة النطاق في هيكل العلاقات الاقتصادية الدولية، وبسبب محاباة منظومة العلاقات الاقتصادية الدولية القائمة لدول الشمال التي أوجدت وأسست تلك المنظومة في وقت لم يكن فيه الكثير من بلدان الجنوب قد حصل على استقلاله السياسي بعد.

وبالإضافة الى المأزق التنموي الذي يمر به عالم الجنوب، فإن الشمال يمضي قدما ـ بعد تفكك الاتحاد السوفياتي ـ لجعل الجنوب العدو المختلق. ولا شك في أن محاولة اكتشاف عدو جديد في العالم الثالث يضاهي في خطورته الاتحاد السوفياتي السابق هي محاولة مفتعلة ومتعسفة لتحقيق أهداف الهيمنة على الجنوب، ولخلق بؤر توتر في الجنوب لتبرير استمرار عملية التسلح وإدامة عملية الصناعات العسكرية في دول الشمال، وبالتالي إعادة تدوير عجلة الإنتاج الصناعي المرتبط بعجلة الإنتاج العسكري.

أولاً: تحليلات شمولية

وفي مرحلة الانتقال من أزمنة الألفية الثانية الى أزمنة الألفية الثالثة يشهد المحتوى الاقتصادي للنظام العربي تفككاً في مؤسساته، وتنافراً بين عناصر مكوناته الداخلية، وتكاملاً بين أنشطته الداخلية والخارجية «العالمية»، وتصدعاً في قاعدته الاقتصادية، واختراقاً لأمنه الغذائي والتجاري والاستثماري والمالي والمائي والصناعي والتقاني والثقافي والمعلوماتي. . . وتزداد عولمة الاقتصادات العربية من خلال تعميق اندماجها في السوق العالمية اندماجاً تبعياً من موقع متخلف، ويزداد استخدام المال العربي للإمساك بخناق الاقتصاد العربي، بل وتوجيهه لضرب مرتكزات الاقتصاد العربي، وتسخر الثروات العربية لخدمة مصالح مراكز الرأسمالية العالمية بعيداً عن المصالح الاقتصادية العربية، وتسخير أمراء النفط وكلاء على الثروة النفطية خدمة لبرابرة العالم الجدد ومصالح اقتصاداتهم.

وهكذا يواجه المحتوى الاقتصادي للنظام العربي المرحلة القادمة وهياكله الإنتاجية أكثر اعوجاجاً، وأمنه الاقتصادي أكثر اختراقاً، واقتصادات وحداته القطرية أكثر اندماجاً في السوق العالمية، ومنهجه الاقتصادي أكثر خضوعاً لشروط اللبرلة المؤدلجة (شروط

مؤسسات بريتون وودز والمنظمة العالمية للتجارة)، واقتصاده أكثر انكشافاً.

ولا شك في أن الأساس القومي للاقتصاد العربي بات مستهدفاً من قبل مراكز الرأسمالية العالمية في محاولة لتوجيه ضربة قاضية لقضية النهوض العربي ككل والنهوض الاقتصادي العربي بصورة خاصة. وفي إطار توجه الغرب الرأسمالي هذا، نجد قضية الدمج الاستراتيجي لإسرائيل في المنطقة العربية، وقضية الحاق المشرق العربي والمغرب العربي بالفضاءات الاقتصادية الإقليمية، وقضية عولمة الاقتصادات العربية ودمجها في السوق العالمية دمجاً تبعياً، وقضية تكريس اقتصاد التنافر في ما بين الاقتصادات القطرية واقتصاد التكامل في الإطار العالمي، وقضية تصفية مؤسسات العمل الاقتصادي العربي وضرب مرتكزات التضامن العربي، وقضية إدارة الاقتصاد العربي إدارة مركزية من الخارج، وقضية الدعوة المحمومة لتصفية وتفكيك القطاع العام، وقضية تصفية الفكر الاقتصادي للتنمية المستقلة وإخراج التبعية من اللغة الاقتصادية الدارجة... وقضايا لبرلة الاقتصادات العربية وأدلجتها وفقاً لآلية السوق الرأسمالية... وقضايا عديدة أخرى يطول البحث في تعدادها... كلها تأتي ضمن توجهات إعادة هندسة الاقتصاد العالمي لاستقبال اقتصاد القرن الحادي والعشرين بما تتطلبه إعادة الهندسة هذه من اقتصاد عالمي وإقليمي جديد في مؤسساته وآلياته ومفاهيمه، وكلها على النقيض من مؤسسات وآليات ومفاهيم الأساس القومي للاقتصاد العربي أو المحتوى الاقتصادي للنظام العربي.

وفي ظل هذه القضية وتلك، ظهر تيار من أولئك المبشرين باللبرلة الاقتصادية يدعو الى ما يسمى بالمرونة الواقعية، وتحت هذه الشعار المزيف راح هؤلاء المبشّرون يدعون إلى الاستسلام للواقع ويؤكدون على أنه من العبث التصدي لعربة التطورات المعاصرة بجبروتها وقوتها، في محاولة من هؤلاء لفرض الواقع المزور على الأمة العربية وترويجاً لأفكار ومفاهيم اقتصاد القرن الحادي والعشرين كما تهندسها مراكز الرأسمالية المتقدمة. ولا شك في أن مدرسة الوقوعية أو «الواقعية الجديدة» هي مدرسة تروج لأفكارها وتبثها من أجل الاستسلام لهذا الواقع والإعلان عن العجز الكامل عن ممارسة تقرير المصير العربي بصورة عامة، والمصير الاقتصادي بصورة خاصة.

ولقد فات من يدعو الى أفكار هذه المدرسة أن تشكيل صورة المستقبل وقواه الفاعلة وتوازناته الجديدة هي عملية ديناميكية ومستمرة، وليس لها صورة نهائية وحاسمة يتم الارتكان إليها لفهم تطورات وتجليات المستقبل على الصعيدين العالمي والإقليمي[1]، كما

---

(١) محمود عبد الفضيل، «السياسة والفكر العربي بين الواقعية والوقوعية أو «مدرسة الواقعية العربية الجديدة»،» محاضرة ألقيت في مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، أيار/مايو ١٩٩٣، ص ٤ ـ ١٢، وقد نشرت لاحقاً في مجلة **المستقبل العربي** في: محمود عبد الفضيل، «السياسة والفكر العربي بين «الواقعية» و«الوقوعية» أو مدرسة الواقعية الجديدة: حدودها وآفاقها،» **المستقبل العربي**، السنة ١٦، العدد ١٧٣ (تموز/يوليو ١٩٩٣)، ص ٤ ـ ١٨.

فاتهم التمييز بين الراهنية والظرفية من جهة، وبين ما هو آت وما هو مستقبلي من جهة أخرى.

ونحن نبحث في موضوع يتعلق بحاضر الأساس القومي للاقتصاد العربي الذي تكتنفه الضغوط من كل الاتجاهات... نقول إن الأمة العربية لها من الإمكانات والمقومات ما يجعلها قادرة على صيانة أمنها القومي وبناء تنميتها العربية وفك اشتباكها الاستراتيجي التبعي الخارجي... وقادرة على إعادة بناء اقتصادها منطلقة من الثوابت القومية التي لا يجوز التنازل عنها في كل الأحوال وفي كل الظروف، وبخاصة التمسك بمتطلبات الحد الأدنى من الوجود والنهوض العربي المشترك(٢).

لذلك نقول إن مصير العالم لم يحسم بعد، وإن فكرة حسم مصير العالم على ضجيج تفكك الاتحاد السوفياتي السابق واقتصاد الرأسمالية الغربية يخفي وراءه الكثير من حقائق التأريخ الاقتصادي، وفي مقدمتها الحقيقة الكبرى المتمثلة بأزمة النظام الرأسمالي بصورة عامة، وأزمة الاقتصاد الأمريكي بصورة خاصة. فالغرب ومختبراته ودوائره منشغلون في إعادة هندسة الاقتصاد العالمي على أمل تأجيل أزمة النظام الرأسمالي ونقل أعباء هذه الأزمة الى الأطراف الأضعف في العالم (المجتمعات الطرفية).

ولما يئست تلك الدوائر والمختبرات من تأجيل هذه الأزمة الآتية لا محال، راحت تخطط لإدارة الأزمة بدلاً من تأجيلها، وفي إدارة الأزمة تأتي مسألة العولمة، بحيث يكون الاقتصاد العالمي ككل جزءاً من هذه الأزمة(٣).

ونحن نتحدث عن مستقبل الأساس القومي للاقتصاد وحاضره المؤلم إنما نتكلم على ذلك الحاضر في أزمنة الألفية الثانية، وذلك المستقبل في أزمنة الألفية الثالثة، ولا شك في أن هناك عوامل حاكمة في التطور الاقتصادي في أزمنة الألفية الثانية لا يمكن تكرارها في أزمنة الألفية الثالثة. وأقصد هنا أن ما يحكم مسار الأساس القومي للاقتصاد في أزمنة المستقبل ستخضع من دون أدنى شك لتطورات ومتغيرات الاقتصاد العالمي ولموجة طوفان هذه التطورات. فما هي المصدات الاقتصادية التي أعدها العرب لصيانة الأساس القومي للاقتصاد من ذلك الطوفان؟ خصوصاً ان بعضهم يرى في التطورات المعاصرة ظهور مقولات جديدة، مثل مقولة أن تطور التقنية قد أسقط الجغرافية، وأن العالمية قد أضعفت الدولة القومية.

يا ترى هل ينسحب ذلك على سقوط الأساس القومي للاقتصاد؟ أي هل يسقط

---

(٢) حميد الجميلي، «الاقتصادات العربية من هاجس التنمية العصية إلى هاجس الشرق أوسطية،» **مجلة أم المعارك** (مركز أبحاث أم المعارك، بغداد)، العدد ١ (كانون الثاني/يناير ١٩٩٥)، ص ٧٦ ـ ٧٧.

(٣) محمد حسنين هيكل، «العرب على أعتاب القرن الـ ٢١،» **المستقبل العربي**، السنة ١٧، العدد ١٩٠ (كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٤)، ص ١٠ ـ ١٤.

الأساس القومي للاقتصاد أمام الأساس الإقليمي والأساس العالمي؟ وتسقط المصالح الاقتصادية القومية أمام المصالح الاقتصادية القطرية؟

لا شك في أن هذه الطروحات فيها الكثير من التسطيح لقضية الايديولوجيا، وتجنٍّ على الأمم التي تريد صياغة رؤاها ومواقفها ضمن صياغات ووسائل ملائمة لطموحاتها[٤]. والأمة العربية كواحدة من هذه الأمم مطالبة بالحفاظ على الأساس القومي للاقتصاد وصياغة رؤاها ووسائل تحقيق تلك الرؤى بما يحقق طموحاتها[٥].

إن التأريخ ما زال يجري، ولا بد للأمة العربية من أن تحتل موقعاً متقدماً فيه انطلاقاً من كل مقومات وجودها.

إن صورة المحتوى الاقتصادي للنظام العربي والذي تداهمه التطورات الاقتصادية المعاصرة من كل الاتجاهات يحتاج الى الإجابة عن الأسئلة التالية:

١ ـ كيف النجاة من طوفان هذه التطورات، وهل أن هذا الطوفان قد أغرق كل شيء؟

٢ ـ ما هو شكل التضاريس الاقتصادية العربية التي سيتركها ذلك الطوفان بعد انحساره؟

٣ ـ كيف ستتعامل الاقتصادات العربية مع هذه التضاريس؟ وهل ستبني مشاريع اقتصادية قومية كفيلة باستيعاب الواقع الجديد بتضاريسه؟ أم أنها ستبني مشاريع اقتصادية جديدة تتجاوز الواقع الى الطموح المثالي؟

إن الإجابة عن هذه التساؤلات تشكل محور الاقتصاد العربي في مستقبله وحاضره.

وإذا كان طرح هذه الأسئلة بواقعها المرير يثير انزعاج بعضهم رغبة منهم في عدم مواجهة الحقائق والإبقاء متعلقين بآمال موهمة. . . نقول إن صنع القرار الاقتصادي العربي الصحيح يحتاج الى الإجابة عن تلك الأسئلة، خصوصاً أن هناك خريطة سياسية واقتصادية ترسم من جديد للمنطقة، وقد تكون أخطر من خريطة سايكس ـ بيكو القديمة. فتلك الخريطة كانت عملية توزيع إرث الامبراطورية العثمانية، أما الخريطة الجديدة، فهي بمثابة شهادة ميلاد جديد لما يسمى بالمشروع الشرق أوسطي والمشروع المتوسطي، في إطار تقسيم العرب الى عرب شرقيين مرتبطين بالمشروع الشرق أوسطي وعرب مغربيين مرتبطين بالمشروع المتوسطي، بمعنى تفتيت النظام العربي وظهور نظام اقليمي جديد (ميلاد جديد) على رفات النظام العربي القديم.

---

(٤) المصدر نفسه، ص ٨ ـ ٩.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٢.

وهكذا يتم تقسيم النظام العربي الى أنظمة فرعية مرتبطة بأنظمة إقليمية. ومما يزيد من أهمية الإجابة عن تلك التساؤلات هو وجود اختراق خارجي للاقتصادات العربية لم يسبق له مثيل في حجمه، وهو اختراق من كل الاتجاهات من داخل كل دولة غير اللبرلة والتخصيصية والاستثمار الأجنبي، ومن الخارج غير الأقلمة والعولمة والإدارة الاقتصادية المركزية.

إن الصورة التي نرسمها لمسار الاقتصاد العربي في حاضره ومستقبله... هي الطريق السليم لتشخيص مشاكل الأساس القومي للاقتصاد، وبما يمكن التوصل الى علاج يرتقي الى مستوى التحديات.

وإذا كنا في تحليلاتنا الاقتصادية مولعين بالمثاليات والينبغيات والوجوبيات، وإذا كنا مولعين ببحث ما يفرقنا أكثر مما يجمعنا... فقد أصبح هذا الاتجاه مكلفاً في أعبائه النفسية والمادية. فالمنجزات التي تحققت خلال مسيرة العمل الاقتصادي العربي المشترك منذ نشأة الجامعة العربية عام ١٩٤٤، وهو البدء الرسمي لهذا العمل وحتى الوقت الحاضر، ظلت منجزات محدودة الوزن والأثر ولا تشكل نقلة نوعية تجسد الارتباط العضوي بين الاقتصادات العربية، ولا سيما الإنتاجي من هذا الارتباط، كما ظلت تلك المنجزات هامشية لا تتلاءم والطموحات القومية، ولا تتناسب والإمكانات المادية والبشرية للأمة العربية، كما لم تتمكن من تصحيح موقع الاقتصاد العربي عالمياً.

وفي هذا الإطار نقول: إذا كنا نعيش حالة تعتيم معلوماتي يصعب قبولها في عصر المعلوماتية، فلا بد من أن تتناسب المعلومات التي نستلمها عن العالم الخارجي مع تلك المعلومات الخاصة بحركة اقتصادنا العربي، لأن مثل هذا التعتيم عما يجري في اقتصادنا العربي لا يساعد في شيء سوى في استكمال إعادة هندسة الخريطة الجديدة للمنطقة، ولكي ندع غيرنا يصنع مستقبلنا بوعي أو بغير وعي. وهنا أقصد أن ما يجري في إطار الشرق أوسطية والمتوسطية لا يزال من قبيل التعتيم المعلوماتي، وما يتسرب الينا يأتينا من الخارج، مع أن هذه المشاريع تمس بشكل مباشر الأساس القومي للاقتصاد وتؤثر في عملية صنع القرار القومي.

وإذا كان بعضهم ينظر الى هذه المشاريع بمنظار «الشراكة العالمية»... فلا بد من توضح انعكاس تلك الشراكة على حركة الاقتصاد العربي، ويمكننا القول من دون تردد إن المشاريع التي يجري التعتيم المعلوماتي عليها تهدف في نهاية المطاف الى محاصرة المشروع الاقتصادي القومي وضرب مرتكزات التضامن الاقتصادي العربي وتعطيل الأساس القومي للاقتصاد.

علينا أن نفك الأسر من الشراك التي نصبها لنا الآخرون ووقعنا فيها بوعي أو من دون وعي، والشراك التي نقصدها هي شراك المشاريع الإقليمية المتوسطية والشرق أوسطية التي ترمي الى الحاق بعض الاقتصادات العربية بهذه المشاريع من موقع التبعية، تلك

الاقتصادات العربية التي باتت تهرول للارتباط بمشاريع الشرق أوسطية أو المتوسطية بوعي أو من دون وعي.

ونحن نحلل واقع ومستقبل الأساس القومي للاقتصاد ننطلق من الاعتبارات التالية:

١ ـ عدم تجاوز الثوابت القومية والمحافظة على الخيط العربي المتصل الذي يقوم على تلك الثوابت.

٢ ـ إن الأمة العربية تمتلك القدرة والإرادة لإزالة الآثار الناجمة عن تدهور منجزات العمل العربي المشترك في هذه الأزمنة وتعظيم تلك المنجزات لو توفرت الإرادة السياسية الحقيقية.

٣ ـ إن تحليل مكامن الضعف في مسيرة الأساس القومي للاقتصاد بصراحة وموضوعية يجب ألا يشكل نظرة تشاؤمية، بل على النقيض من ذلك، فإن مثل هذا التحليل يشكل ركيزة من ركائز بناء المشروع النهضوي العربي الشامل على أسس من العقلانية والموضوعية والعلمية.

٤ ـ لا بد من تجاوز مرحلة الطموح الطوبائي والقفز فوق تضاريس الواقع ونحن نستشرف مستقبل الاقتصاد العربي.

٥ ـ يجب ألا ندع غيرنا يصنع مستقبلنا وألا ننساق وراء مشاريع التهافت وفرض الواقع المزور.

٦ ـ إن العقل الاقتصادي العربي مطالب اليوم بعدم الانسياق وراء ضغوط العقل السياسي العربي المنفذ لما يجري في مختبرات الشمال من مشاريع وترتيبات اقتصادية.

٧ ـ إننا نرفض النهاية المحزنة لمؤسسات الأساس القومي للاقتصاد بتحولها الى منتديات ثقافية ودبلوماسية مسلوبة أو فاقدة الإرادة السياسية. وإن الترتيبات والمؤسسات الإقليمية الجديدة التي تقوم على أنقاض مؤسسات النظام الاقتصادي العربي إنما تأتي ضمن التوجهات الرامية الى إعادة هندسة الخارطة الاقتصادية للمنطقة في إطار منظومة جديدة من المشاريع والمؤسسات والترتيبات والمفاهيم.

٨ ـ إن طوفان التطورات المعاصرة لن، ولم يغرق كل شيء، وإن مقومات البقاء في الأمة العربية قادرة على صد هذا الطوفان.

٩ ـ إن المخاطر التي تحدق بالأساس القومي للاقتصاد لا يمكن التصدي لها من خلال ردود الفعل الآنية والإجراءات العشوائية، ومن خلال تحقيق المصالح الضيقة، أو من خلال البحث عن حلول خارجية والتوجه نحو البيئة الإقليمية. ولابد من معالجة هذه المخاطر في إطار البيت العربي بعد إزالة ما يمكن إزالته من العوامل التي أضعفت قدرة الاقتصاد العربي على استئناف حيويته وقدرته على النمو والتكيف الإيجابي مع الصدمات الخارجية.

١٠ ـ إن عدم التصدي للمخاطر التي تحدق بالأساس القومي للاقتصاد سيدفع النظام الاقتصادي العربي برمته الى حافة الانهيار والتلاشي وتوقف وظيفته وتعطيل آلياته ومؤسساته في مقابل تشكيل إطار إقليمي مؤسسي جديد بديل من الإطار الذي يرتكز عليه النظام العربي.

ثانياً: تعطيل الأساس القومي للاقتصاد

ظل نشاط العمل الاقتصادي العربي المشترك الذي يعاني أزمة حادة منذ النصف الأول من عقد الثمانينيات بعد أن عطل فقدان الإرادة السياسية الصادقة تنفيذ قرارات قمة عمان، وعلى رأسها قرارات استراتيجية العمل الاقتصادي العربي المشترك وميثاق العمل الاقتصادي القومي(٦). وجراء تلك الأزمة أصيب هذا النشاط بقدر كبير من الشلل والجمود والتراجع والانكماش. ولم تتمكن منجزات هذا العمل الذي كرس له الكثير من المال والجهد والوقت العربي من بناء القاعدة الاقتصادية العربية الصلبة التي تشكل السياج الواقي للأمن الاقتصادي العربي. والمفارقة الكبرى أن هذا العمل الذي كان يهدف الى تجسيد الارتباط العضوي بين الاقتصادات العربية... أدى في نهاية المطاف الى تفكيك هذا الارتباط في مقابل تجسيد الارتباط العضوي العربي الخارجي، فتكامل الاقتصاد العربي دولياً وتنافرت وحداته الاقتصادية القطرية عربياً.

وهكذا لم تتمكن منجزات هذا العمل من تصحيح الاختلالات في هياكل الإنتاج العربية، ولم تتمكن من تحقيق الأمن الاقتصادي العربي، ولم تتمكن هذه المنجزات من بناء الحد الأدنى من البناء الصناعي العربي اللازم لبناء القاعدة الصناعية التقانية.

ويمكن القول إن منجزات العمل الاقتصادي العربي المشترك لم تحقق الحد الأدنى من الاعتماد الجماعي على الذات. وساعد، هذا الفشل والتباطؤ في مسيرة العمل الاقتصادي العربي المشترك، في تهيئة الأجواء لشن هجوم واسع النطاق من قبل أعداء القومية على تلك المؤسسات مطالبين بإيجاد بديل منها ضمن المشاريع الشرق أوسطية والمتوسطية. ولهذا بدأ المحتوى الاقتصادي للنظام العربي يتعرض لمخاطر واسعة النطاق من أبرزها تعطيل مؤسساته وظهور مؤسسات إقليمية بديلة. وبذلك تصبح هذه المؤسسات مجرد واجهات ثقافية(٧).

---

(٦) الأمانة العامة لمجلس الوحدة الاقتصادية العربية، «المناحي والاتجاهات في جهود العمل الاقتصادي العربي المشترك نحو الوحدة الاقتصادية حاضراً ومستقبلاً،» (عمان، ١٩٨١).

(٧) محمود عبد الفضيل، «مشاريع الترتيبات الاقتصادية «الشرق أوسطية»: التصورات ـ المحاذير ـ أشكال المواجهة،» ورقة قدّمت إلى: **التحديات «الشرق أوسطية» الجديدة والوطن العربي: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية** (بيروت: المركز، ١٩٩٤)، ص ١٢٧ ـ ١٦٦.

ومع استمرار الشلل في المحتوى الاقتصادي للنظام العربي أصيب الأساس القومي للاقتصاد بتشوهات واختلالات جديدة عززت من توجه تدويل الاقتصادات العربية وربطها بفضاءات اقتصادية اقليمية تمهيداً لعولمتها. ولا نبالغ في القول بأن ضخامة التحديات التي تواجه الأساس القومي للاقتصاد، جراء شلل مؤسساته ونحن على أعتاب القرن الحادي والعشرين، سيعني دخول العمل الاقتصادي العربي المشترك النفق المظلم. وفي هذا النفق المظلم سيجري:

١ ـ تفكيك بنيان التضامن العربي وتفكيك النظام العربي.

٢ ـ تعطيل مفهوم الأمن القومي في مقابل الأمن الإقليمي.

٣ ـ خلق سلسلة من التناقضات القطرية في المصالح الاقتصادية.

٤ ـ تذويب مؤسسات العمل الإقتصادي العربي المشترك في مؤسسات وترتيبات إقليمية جديدة.

٥ ـ تفكيك الأساس القومي للاقتصاد، وجعل الصورة القادمة للوطن العربي مجموعة دوائر متعددة ومستقلة ومرتبطة بأطر إقليمية يمكن أن تتقاطع مصالحها الاقتصادية والسياسية على المستوى القومي وتتكامل على المستوى الإقليمي.

٦ ـ اختراق الاقتصادات العربية والقضاء على الخيط العربي المتصل، وإعادة هيكلة هذه الاقتصادات بعد اختراقها (ربطها بالمشاريع الإقليمية) في إطار نمط جديد من تقسيم العمل يعمق قانون النمو غير المتكافئ ويزيد من عمليات الأقلمة، فالتدويل، فالعولمة من موقع متخلف في حالة غياب رؤية عربية استراتيجية لهذه المخاطر[٨].

وهكذا تظهر الى السطح في الوقت الحاضر ترتيبات اقتصادية لتحل محل مؤسسات العمل الاقتصادي العربي المشترك. وهذه الترتيبات والمؤسسات تساعد على قولبة الاقتصادات العربية في الإطار الجديد لتقسيم العمل الإقليمي والعالمي. والمؤسسات والترتيبات الاقتصادية التي ستقام على رفات مؤسسات العمل الاقتصادي العربي المشترك هي منظومة متكاملة تهدف الى السيطرة على مجريات الأمور الاقتصادية والتقانة في إقليم الشرق الأوسط وإقليم البحر الأبيض المتوسط، أي في الفضاء الاقتصادي الشرق أوسطي والفضاء الاقتصادي المتوسطي.

وهكذا نصل الى نهاية القصة، حيث تخضع الاقتصادات العربية لشبكة الروابط والمؤسسات الإقليمية الجديدة التي سوف يتم نسجها في ظل النظام الإقليمي الجديد، حيث سيكون للاقتصادات العربية المرتبطة بالفضاء الاقتصادي الشرق أوسطي والمتوسطي وظائف محددة.

---

(٨) المصدر نفسه.

لذلك فإن منظومة الروابط الإقليمية الجديدة ستقضي على ما تبقى من مؤسسات العمل الاقتصادي العربي المشترك بعد مرحلة الشلل. وهذه المنظومة ستفضي الى إطار مؤسسي جديد يتجاوز النظام العربي ومؤسساته وآلياته، ويخضعه لشبكة من المؤسسات الجديدة والروابط والنظم الوظيفية الغربية الجديدة. وبذلك تتحول مؤسسات العمل الاقتصادي العربي المشترك من طبيعتها المبنية على الأساس القومي للاقتصاد الى جماعة ثقافية أو منتدى ثقافي يتسمان بالتنافر والتناقض[٩].

ومن شأن هذا التحول في طبيعة مؤسسات العمل الاقتصادي العربي المشترك أن يؤدي الى:

١ ـ التشتت والتدهور في مرتكزات الأساس القومي للاقتصاد.

٢ ـ إنهاء المحتوى الاقتصادي للنظام العربي في شكله الحالي وتفككه الى أنظمة فرعية مندمجة في أنظمة اقتصادية إقليمية تتضمن دولاً في المحيط العربي والمحيط غير العربي.

٣ ـ تحول شكل التنمية العربية من تنمية قائمة على الأساس القومي للاقتصاد الى تنمية اقليمية قائمة على أساس المصالح والروابط التنموية الإقليمية.

٤ ـ انشقاق الجسم العربي الى شظايا غير متآخية بعد تطويق النظام العربي وتمزيقه واختراقه.

٥ ـ تعريض الثروات العربية لأخطر تحدياتها المتمثلة برهن الإرادة العربية تجاه استغلالها من جهة، وتسخيرها لخدمة مصالح مراكز المنظومة الرأسمالية من جهة أخرى.

٦ ـ استخدام الثروات العربية، ومنها المال العربي والنفط العربي، للإمساك برقاب الاقتصادات العربية بدلاً من استخدامها كأداة للتحرر ولتطوير الإنتاج ولتعريب التنمية.

٧ ـ عولمة وحدات الإنتاج العربية بعد ربطها بالفضاءات الاقتصادية الإقليمية، ثم إدارتها إدارة اقتصادية مركزية ودفع الاقتصادات العربية لتبني منهج تنموي يقوم على أدلجة التنمية، أي اتباع إجراءات اللبرلة الاقتصادية المؤدلجة وفق ايديولوجية صندوق النقد الدولي والبنك الدولي ومنظمة التجارة الدولية.

٨ ـ تعريض الاقتصاد العربي لمجموعة من المقايضات المستقبلية تفرضها طبيعة التطورات المعاصرة، ومنها:

ـ المقايضة بين المؤسسات العربية والمؤسسات الإقليمية.

---

(٩) المصدر نفسه.

ـ المقايضة بين المياه والنفط.

ـ مقايضة أمن الحدود بأمن الأعماق والأمن القومي بالأمن الإقليمي.

ـ المقايضة بين المال والتقانة.

ـ المقايضة بين التراكم الإنتاجي والتكاثر المالي.

ـ المقايضة بين السوق العربية والسوق الإقليمية.

ـ المقايضة بين التكامل الداخلي والتكامل الخارجي.

ـ المقايضة بين الأساس القومي للاقتصاد والأساس الإقليمي للاقتصاد.

لا شك في أن عدم التصدي لهذه المخاطر بشكل عربي جماعي سيؤدي الى أن تتحول الى نسيج يؤدي في نهاية الأمر الى تقويض الأساس القومي للاقتصاد، وسيظهر اقتصاد إقليمي جديد ذو محتوى اقتصادي إقليمي غير المحتوى الاقتصادي القومي.

وعلينا أن ندرك أن تنامي هذه المخاطر والمقايضات ستعطل الأساس القومي للاقتصاد، وستؤدي الى عملية استقطاب إقليمي واسع النطاق يدخل منها العرب فرادى في ترتيبات إقليمية بديلة من ترتيبات النظام العربي.

لا شك في أن تواضع منجزات العمل الاقتصادي العربي المشترك لم يكن وليد حالة طارئة، وإنما يعود الى أسباب كثيرة يأتي في **مقدمتها** سيادة الأنماط التنموية القطرية التي هي نتائج ضعف الإرادة السياسية للتوجه القومي للاقتصاد، والتي أدت بدورها إلى اندماج الاقتصادات العربية في النظام الرأسمالي العالمي وما نتج منه من تكامل تبعي فتراجع في التكامل الداخلي العربي. والسبب **الثاني** في تراجع المسيرة السابقة للعمل الاقتصادي العربي المشترك يكمن في عدم حسم التناقض بين مهمات التنمية القطرية ومهمات التنمية القومية، وعدم حسم التناقض بين مهمات التكامل العربي المستقل ومهمات التكامل التبعي غير المستقل.

إن هاجس الفشل على جبهة النشاط التكاملي يؤشر لنا حدود الإمكانات العربية وحيز الحركة ومدى فاعلية المداخل التي روجنا لها كثيراً. كما أن هاجس الفشل على جبهة التكامل العربي يؤشر لنا نقاط الضعف الأساسية في هذه المسيرة بشكل علمي وموضوعي بعيداً عن الحماس والطموح المثالي(١٠).

---

(١٠) الأمانة العامة لمجلس الوحدة الاقتصادية العربية، «دراسة تقويمية لما تم حتى الآن والوسائل التي يرى أنها تحقق أهداف اتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية وقرارات مجلس الوحدة على نحو أفضل،» (عمان، ١٩٨٢)، ص ٣٣ ـ ٦٩.

بل يمكن القول إن البناء الصحيح للأساس القومي للاقتصاد وتعميق المحتوى الاقتصادي للنظام العربي يستوجب تأشير أسباب الفشل ونتائج ذلك الفشل، بل إن غياب البحث العلمي الموضوعي في هذا الموضوع سيؤدي الى مزيد من مخاطر الهيمنة على مقدرات الاقتصاد العربي، مما يسهل عملية الاختراق والافتراق والانشقاق والانسحاق[١١].

لذلك فإن البوح بما يعتري النظام العربي من مثالب وتسليط الأضواء على ما ينتاب المحتوى الاقتصادي للنظام من مخاطر يشكل نقطة الانطلاق الأولى[١٢].

وفي زحمة التطورات الاقتصادية الدولية والإقليمية المعاصرة، فإن مثل هذه الوقفة التحليلية تؤشر لنا حدود الإمكانية وهامش المناورة وحيز الحركة التأريخية المتاحة لنا ونحن على أعتاب القرن الحادي والعشرين.

ولعل مثل هذه الرؤية تزيل بعض السحب الداكنة التي تحيط بها والضغوط التي تحاصرنا من كل الاتجاهات. ولعل هذه الرؤية تنير الطريق لنا في زحمة الأزقة الضيقة التي نسلكها حيث تضيق حدود الحركة.

وهكذا تتم قراءة الأساس القومي للاقتصاد في ضوء الأخطار المحدقة به قراءة علمية ضمن حركة التطورات الإقليمية والقارية، وبخاصة حركة هندسة الفضاءات الاقتصادية القارية والإقليمية[١٣]، وضمن حركة العولمة[١٤]، حركة الأقلمة[١٥].

إن تنامي هذه الحركات التي تأخذ شكل التطورات الجذرية ستفضي في نهاية المطاف الى تقويض الأساس القومي للاقتصاد وتعطيل المحتوى الاقتصادي للنظام العربي.

وأخيراً نقول إن المخاطر المحدقة بالأساس القومي للاقتصاد من الضخامة بمكان بحيث تحتاج الى مشروع حضاري تنموي يرتقي الى مستوى التحديات، ولعل أبرز

---

(١١) غسان سلامة، «أفكار أولية عن السوق الشرق أوسطية،» ورقة قدّمت إلى: **التحديات الشرق أوسطية الجديدة والوطن العربي: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية**، ص ٣٢ ـ ٥٨.

(١٢) الجميلي، «الاقتصادات العربية من هاجس التنمية العصية إلى هاجس الشرق أوسطية،» ص ٥٦ ـ ٧٤.

(١٣) لمزيد من التفاصيل حول الفضاءات الاقتصادية، انظر: حميد الجميلي، «هندسة الفضاءات الاقتصادية،» **شؤون سياسية**، السنة ١، العدد ٣ (١٩٩٤)، ص ١٢٣ ـ ١٤٣.

(١٤) لمزيد من التفاصيل حول العولمة، انظر: سمير أمين، «ملاحظات حول العولمة،» **الفكر العربي** (١٩٩١)، ص ٣٦ ـ ٥٣.

(١٥) لمزيد من التفاصيل حول الأقلمة، انظر: سمير أمين، «شروط إنعاش التنمية،» **المستقبل العربي**، السنة ١٧، العدد ١٩١ (كانون الثاني/يناير ١٩٩٥)، ص ٦ ـ ١٦.

مقومات هذا المشروع، هي:

١ ـ رفض الإعلان عن العجز الكامل عن ممارسة تغيير الواقع.

٢ ـ رفض الانصياع أو التخلي عن سلطة القرار الاقتصادي القومي لصالح القرار الاقتصادي العالمي أو الإقليمي.

٣ ـ رفض فكرة أن النظام العربي بات مهترئاً ويجب تبديله أو احتواؤه بنظام إقليمي أوسع يقوم على العصرنة والحداثة.

٤ ـ عدم الانحناء لعاصفة التطورات الاقتصادية المعاصرة والانبطاح على الأرض لكي تدوسنا عربة تلك التطورات[١٦].

٥ ـ تجاوز أزمة الطموح الطوبائي ووضع سقوف متحركة لطموحاتنا المشروعة، والالتزام بالحد الأدنى من المرونة الواقعية التي تؤكد على الثوابت القومية[١٧].

٦ ـ الانطلاق من مبدأ دعنا نصنع مستقبلنا ولا ندع غيرنا يصنع لنا مستقبلنا.

٧ ـ الابتعاد عن الترتيبات الاقتصادية الخاصة بالفك والتركيب وإعادة التركيب وتشكيل الأحزمة الأمنية... حيث إن هذه الترتيبات هي جزء من الخريطة الاقتصادية ـ السياسية الجديدة للمنطقة[١٨].

٨ ـ رفض البناء الداعي الى أدلجة التنمية وفق ايديولوجيا أحادية هي ايديولوجية مؤسسات بريتون وودز ومنظمة التجارة الدولية، أي رفض اللبرلة المؤدلجة والتيار الداعي الى تفكيك القطاع العام وإبعاد سلطة الدولة عن قيادة الأنشطة الاقتصادية، وبذلك ندعو الى رفض الدعوة المحمومة للتخصيصية بلا قيود وشروط كما تريدها تلك المؤسسات ومراكز الرأسمالية العالمية خدمة لشروط الأقلمة والعولمة.

ويرى بعض المحللين بحق أن عمليات التخصيصية إنما تشكل التمهيد والمدخل الضروري لإقامة السوق الشرق أوسطية[١٩]. فالدعوة والتحركات المحمومة لدفع عمليات الخصخصة إلى أبعد مدى في الاقتصادات العربية وفق منهج مؤسسات بريتون وودز في هذا

---

(١٦) عبد الفضيل، «مشاريع الترتيبات الاقتصادية «الشرق أوسطية»: التصورات ـ المحاذير ـ أشكال المواجهة».

(١٧) عبد الفضيل، «السياسة والفكر العربي بين «الواقعية» و«الوقوعية» أو مدرسة الواقعية العربية الجديدة: حدودها وآفاقها،» ص ٧.

(١٨) المصدر نفسه.

(١٩) فوزي منصور، «مشروع السوق الشرق أوسطية،» ورقة قدّمت الى: المؤتمر القومي العربي الرابع، ١٩٩٣.

التوقيت بالذات، هي بمثابة التحضير للإطار المؤسسي اللازم لعولمة الوحدات الإنتاجية والخدمية وتدويلها وأقلمتها في الاقتصاد العربي وتسهيل عملية الإلحاق بالفضاءات الاقتصادية الإقليمية[٢٠].

٩ ـ رفض فكرة تصفية التراث الايديولوجي والسياسي القائم على رفض الصهيونية على أساس أن النظام الإقليمي الجديد بوحداته وتفاعلاته وتشكيلاته ومؤسساته يقوم على أساس تعدد الثقافات والايديولوجيات والقوميات والتوجهات السياسية والاقتصادية.

١٠ ـ التمسك بالفكر التنموي القائم على التنمية المستقلة ونبذ الدعوات الرامية إلى إخراج التبعية من اللغة الدارجة كجزء من اقتصاد العولمة، بما فيه إعطاء دور متزايد للشركات متعدية الجنسية والاستثمار الأجنبي.

ثالثاً: النرجسية الغربية: التوجه المتزايد نحو تغريب التنمية ولبرلتها لبرلة مؤدلجة

تعرضت التنمية العربية لتيار ايديولوجي كاسح يطالب بتغريب وعاء التنمية وإيجاد حلول خارجية لمشاكلها. وكان من جراء هذا البناء الارتهان لحالة التبعية التي امتصت الحيوية الاقتصادية للاقتصاد العربي وللأساس القومي للتنمية. ولم تتمكن التنمية العربية من التخلص من مقولات النموذج الغربي للاقتصاد القائم على الأحادية والاختزالية، والذي يمثل نموذجاً واحداً للتنمية، هو النموذج الغربي. وفي ظل هذا الارتهان ظلت التنمية العربية حبيسة قيود ذلك النموذج بما فيها قيود التبعية ومخاطرها وامتداداتها. وإزاء ذلك فشل العديد من هذه الاقتصادات في بلورة تصور ذاتي لمعنى التنمية ودلالاتها وأهدافها وسبل العمل من أجل تحقيقها. وقد أدى ذلك الى عدم إمكانية تصحيح الاختلالات الهيكلية وعدم إمكانية رفع القدرة الاقتصادية بالتقانة الذاتية، وعدم إمكانية الإفلات من سيطرة النرجسية الغربية.

ولعل من المفيد إيضاح أن بعض مروجي النرجسية الغربية، ومن المبشرين بتغريب التنمية، يرون أن الدعوة الى التنمية المستقلة هي سباحة حرة ضد التيار. لذلك علينا أن نتبنى النموذج الغربي للتنمية من أجل اللحاق بركب التنمية الرأسمالية.

وبغض النظر عن دعوى هؤلاء الذين لا يعرفون عما يتحدثون، فإن هناك توجهاً متزايداً نحو تبني النموذج الغربي للتنمية. والمحصلة النهائية لهذا التوجه هي مزيد من البعثرة والتفكك للعناصر الداخلية والخارجية، الاقتصادية منها والمؤسسية، وفي إطار

---

(٢٠) عبد الفضيل، «مشاريع الترتيبات الاقتصادية «الشرق أوسطية»: التصورات ـ المحاذير ـ أشكال المواجهة».

منهج تغريب التنمية ووعاء هذا التغريب تصبح التنمية ناتج مجمل مشاريع سلعية وخدمية تتم في الإطار التقاني والنمط التصنيعي والسياسات الاقتصادية المرتبطة بالخارج.

وبفعل تزايد موجة تغريب التنمية، أصبح من غير الممكن تصنيع القطاع الاقتصادي أو تعريبه أو تصنيع الصناعة أو تعريبها. وقد انعكس التوجه المتزايد نحو تغريب التنمية في النتائج التالية:

١ - عدم إمكانية إنشاء القواعد العلمية والتقانية ذات المنشأ الداخلي.

٢ - الاعتماد على استيراد المفردات النهائية والوسيطة بالاعتماد على القواعد العلمية والتقانية الأجنبية.

٣ - فسح المجال للشركات متعدية الجنسية والاستثمار الأجنبي للتغلغل في مفاصل الاقتصادات العربية.

٤ - تداعي سلم الأولويات التنموية، وقد أصبحت الجهود التنموية حصيلة أداء الجهات الأجنبية لا تشكل منهجية وطنية متماسكة للتنمية الاقتصادية.

٥ - تزايد اعوجاج هياكل الإنتاج والانكشاف الاقتصادي وتصدع القاعدة الاقتصادية واختراق الأمن الاقتصادي.

٦ - فتح الباب واسعاً أمام تعميم مفهوم تحقيق التنمية عبر التكامل الدولي التبعي وتراجع مفاهيم التنمية المستقلة والفكر الاقتصادي الداعي الى هذا الفكر.

٧ - تضييق قاعدة اتخاذ القرار الاقتصادي، بل محاصرة هذا القرار وخضوعه لقيود خارجية، مما يعني اختراقاً كبيراً لشرايين الحياة في الاقتصادات العربية.

٨ - تنمية شبكة واسعة ومتنامية من التشابكات الاقتصادية بين الاقتصادات العربية والعالم الخارجي تؤدي في نهاية المطاف الى فقدان شروط التنمية المستقلة والمتوازنة.

٩ - تعميق قانون النمو غير المتكافئ وزيادة عمليات التدويل لوحدات الاقتصاد العربي والحاقه بالاقتصاد العالمي من موقع متخلف.

١٠ - فك الارتباط بين المشروع والاستثمار والأموال الأجنبية من جهة، وبين التركيب الاقتصادي للمجتمع من جهة أخرى.

١١ - جعل السلعة المنتجة معتمدة كلياً في السعر والكلفة، وفي الخامات وفي المواصفات والخصائص والتطور المستقبلي، وفي العلاقات التشابكية. . . على القواعد والسياسات الإنتاجية الأجنبية وليس المحلية.

وهكذا أدت سياسة تغريب التنمية التي انزلق اليها الكثير من السياسات الاقتصادية

العربية الى تبني أنماط تنموية خارجية المنشأ، وجعلت تلك الأقطار تبحث عن حلول خارجية لتنميتها بعيداً عن الحلول العربية. وهكذا أدت سياسة تغريب التنمية الى تعميق الأساس الأجنبي للاقتصاد بدلاً من الأساس القومي للاقتصاد.

وما يعانيه اليوم معظم الاقتصادات العربية من اختلالات في هياكل انتاجها، وفي تجارتها ونمط تصنيعها وزراعتها وخدماتها... ما هو إلا نتيجة مباشرة لأنماط تغريب التنمية (التكامل الدولي).

إننا بحاجة إلى صحوة اقتصادية لتعريب التنمية بدلاً من تغريبها.

أما التوجه نحو **الليبرالية الاقتصادية (اللبرلة المؤدلجة)**، فلقد شهدت الاقتصادات العربية تياراً كاسحاً يدعو الى تفكيك القطاع العام والإزالة المتسرعة للقوانين والتشريعات والإجراءات الإدارية وانسحاب الدولة من إدارة الأنشطة الاقتصادية، وفسح المجال للاستثمار الخاص والأجنبي لممارسة فعالياتهما من دون تدخل حكومي. وأخذ هذا التيار ينتقد مجمل النظريات التي تؤكد على دور القطاع العام، متهماً هذا القطاع بأنه سبب الاختلالات الاقتصادية الداخلية والخارجية. وضمن توجه الليبرالية الاقتصادية، أخذ القطاع العام ينحسر تاركاً المجال للقطاع الخاص والاستثمار الأجنبي ليملي الفراغ بعيداً عن أي اعتبار يتعلق بالكفاءة الاقتصادية في تخصيص الموارد، وبعيداً عن أي اعتبار يتعلق بمشاكل التنمية الطويلة الأجل.

ولقد جاءت الدعوة المحمومة للتخصيصية بلا قيود تحت ذريعة إعادة الهيكلة الاقتصادية والإصلاح الاقتصادي التي تبناها كل من صندوق النقد الدولي والبنك الدولي، وتحت هذه الذريعة راحت هذه المؤسسات تطالب الأقطار العربية التي ساقها سوء حظها اليها بتفكيك القطاع العام، وحتى تحديد اسم شركات القطاع العام التي يجب تصفيتها.

وهكذا انحسر دور الدولة في إدارة الأنشطة تبعاً لإرادة مؤسسات بريتون وودز في تلك الأقطار العربية التي طبقت وتطبق الإصلاحات الاقتصادية وإعادة هيكلتها طبقاً لشروط الصندوق والبنك الدوليين (الرأسمالية بلا قيود). ولم تكتف برامج مؤسسات بريتون وودز بتفكيك القطاع وتقليص سلطة الدولة، فراحت تملي شروط «التحررية المؤدلجة» في مجال أسعار الصرف، وأسعار السلع، وحرية التجارة وإلغاء الدعم، ورفع القيود المفروضة على الاستثمار الأجنبي... الخ.

ولقد تمكنت مراكز الرأسمالية المتقدمة من خلال فرض اللبرلة المؤدلجة ـ أي تطبيق الليبرالية الاقتصادية وفق ايديولوجية مؤسسات بريتون وودز ـ من احتلال مواقع متقدمة في إدارة الأنشطة الاقتصادية لتلك الاقتصادات. وعن طريق هذه المواقع تمكنت من إدارة هذه الاقتصادات إدارة اقتصادية مركزية من الخارج في غياب أو تقلص سلطة الدولة في

الداخل (الإدارة الاقتصادية اللامركزية من الداخل). وهكذا أدت اللبرلة المؤدلجة الى اختراق داخلي وإدارة اقتصادية مركزية من الخارج. وبذلك تحطمت بعض أسوار الأمن الاقتصادي، وأصبحت الأسوار الأخرى منخفضة. واللبرلة المؤدلجة بموجب وصفة الصندوق والبنك الجاهزة لا تعني سوى التخلي عن السيادة وسلطة القرار الاقتصادي، فهي تلزم الدولة التي تلجأ اليها بأن تغير منهجها وتفكيرها ونمط تنميتها وفق ايديولوجيا معينة هي ايديولوجية مؤسسات بريتون وودز التي تعبر عن الفلسفة الاقتصادية للدول الكبرى بعيداً عن مشاكل التنمية الطويلة الأجل للبلدان المعنية، وهي فلسفة رأسمالية للاقتصادات المتقدمة، بل يمكن القول إن هذه الوصفات الجاهزة تعالج مشاكل نقدية ومالية من منظور ايديولوجي غربي ينصب على تقليص العجز في موازين المدفوعات وميزانية الدولة، وإلغاء دعم الأسعار وحرية التجارة، ورفع القيود على الاستثمار الأجنبي وتحرير أسعار الصرف وأسعار الفائدة. وهذه المعالجات وجدت أصلاً لظروف غير ظروف البلدان النامية ولا تتعلق باعتبارات الكفاءة الاقتصادية.

ولا شك في أن تحريك مصادر النمو بتطبيق وصفات مؤسسات بريتون وودز لا يعدو أن يكون استراتيجيا طوبائية بحتة، لأن مثل هذه السياسات لا ينتج منها سوى هياكل طرفية أكثر اندماجاً في المنظومة العالمية، وأن التمسك بهذه السياسات سيؤدي في نهاية المطاف إلى التمسك بأذيال الشركات متعددة الجنسية. والشركات متعددة الجنسية ترفع شعار التخلص من القطاع العام، حيث تتمكن تلك الشركات من الحصول على مواقع إنتاجية بأقل تكلفة، ويتمكن رأس المال متعدي الجنسية من السيطرة على المجتمعات الطرفية[٢١]. وإن اللحاق بركب التنمية العالمية عبر النرجسية الغربية هو الآخر مشروع طوبائي مثله مثل من يركض وراء السراب الأعظم.

ولعل من أبرز مرامي اللبرلة المؤدلجة للاقتصادات العربية هو تسهيل عملية عولمة الوحدات الإنتاجية والخدمية تمهيداً لربطها بالفضاءات الاقتصادية الإقليمية. وهكذا فإن اللبرلة المؤدلجة تشكل التمهيد والمدخل الضروري لربط المشرق العربي بالفضاء الاقتصادي الشرق أوسطي، وربط المغرب العربي بالفضاء الاقتصادي المتوسطي، فالاقتصادات العربية التي تقبل طريق اللبرلة المؤدلجة ترهن مستقبلها الاقتصادي[٢٢].

---

(٢١) اسماعيل صبري عبد الله، «الدعوة المعاصرة إلى التحول من القطاع العام إلى القطاع الخاص،» المستقبل العربي، السنة ١٣، العدد ١٤٢ (كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٠)، ص ٨١ - ٩٨.

(٢٢) لمزيد من التفاصيل حول التخصصية، انظر: حميد الجميلي، «الاتجاهات المعاصرة للتخصصية: الدوافع والنتائج،» ورقة قدّمت إلى: الندوة المشتركة بين جمعية الاقتصاديين العراقيين وبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي، نيسان/ابريل ١٩٩٤، ص ١ - ٤٨.

خاتمة

إذا كان بعضهم يرى أن هناك مبالغة في الأخطار المحدقة بالأساس القومي للاقتصاد. . . فإننا نقول إن هذا التحليل الذي ينظر الى الواقع كما هو من دون تزييف هو تحليل واجب وضروري لأنه التحليل الوحيد الذي يرتقي الى مستوى التحديات. وإن غياب البعد التحليلي الاستراتيجي، يؤدي إلى أخطاء فادحة في النتائج، بل في التحليل ذاته. وإذا كان بعضهم ينظر الى هذه التحديات بمنظار يقلل من أخطارها. . . فإننا على يقين من أن هؤلاء لا يعرفون عما يتحدثون.

ولقد آن الأوان لعودة الوعي للعقل الاقتصادي العربي لكي يعي خطورة هذه التحديات ويعطي صورة للمستقبل في ضوء معطيات الحاضر وبما لا يتجاوز الثوابت الفوقية في كل الأحوال.

الفصل السادس

الغرب والوحدة العربية

سعدون حمادي(*)

ليس من السهل صياغة مفهوم بسيط للعلاقة الثقافية مع الغرب، وذلك بسبب تداخل القضية السياسية مع القضية الثقافية. سياسياً، تتسم العلاقة مع الغرب بالسلبية، فقد كان الوطن العربي من ضمن مناطق العالم التي خرج إليها الغرب مستعمراً امبريالياً. فمطامعه تعود حتى الى ما قبل سايكس - بيكو وبلفور عندما وضعت الدول الغربية الاستعمارية في سياستها هدف الحصول على أكبر نفوذ ممكن في امبراطورية الرجل المريض، وخصوصاً البلدان العربية، فنشطت بريطانيا في سواحل الجزيرة العربية المطلة على البحر العربي والخليج العربي، وكونت المانيا علاقات ثنائية مع الدولة العثمانية. وهكذا حتى أتت سايكس - بيكو ووعد بلفور، حيث اتضحت المطامع الاستعمارية وتجسدت بشكل مشاريع للتنفيذ، فدخلت بريطانيا وفرنسا والصهيونية وإيطاليا وإسبانيا في عملية تقسيم واستعمار الوطن العربي، ولا تزال العلاقة قائمة على هذا الأساس بشكل أو بآخر، تشتد وتفتر بحسب الظروف الدولية وتطورات الأوضاع داخل الوطن العربي. إذاً فالعلاقة تتسم بالعداء. وعلى هذا الأساس السياسي الغرب مرفوض.

ولكن للغرب حضارة وثقافة اتصلنا بها ودخلت محيطنا بشكل أو بآخر. وهنا لا يمكن تكوين موقف بسيط، فالغرب قد حقق نهضة وتقدماً فكرياً وتقنياً، مادياً وثقافياً، لا مجال للإعراض الكامل عنه.

إن ثقافة الغرب فيها عناصر إيجابية التي لولاها لما حصل ذلك التقدم، الى جانب عناصر سلبية لا تراها إلا الأقلية في الغرب التي تستطيع التحرر من المصالح والتأثير

(*) عضو المجمع العلمي العراقي، بغداد.

الفكري وقيود القوالب الاجتماعية والسياسية التي تعيش ضمنها. أما نحن العرب فنراها بصورة أكثر جلاء لوقوع آثارها الضارة على مجمل حياتنا في الحاضر والمستقبل. وبصورة إجمالية يمكن القول إن العناصر الإيجابية في ثقافة الغرب هي العقلانية والكفاءة الإنتاجية، أما محور السلبية في ثقافة الغرب فهو تغليب المصلحة الذاتية على المبادئ الأخلاقية في العلاقة مع الآخرين.

إننا ونحن نبحث عن السبيل الصحيح المجدي للنهضة لا نواجه الغرب سياسياً فقط، بل ثقافياً أيضاً، وعلينا صياغة موقف دقيق يستطيع التمييز بين ما هو سلبي وما هو إيجابي عند عدو يقف أمامنا لا كالمغول أو العثمانيين محتل له قوة عسكرية من دون قوة ثقافية، بل عدو مسلح بثقافة يجتهد في أن يغرقنا فيها، كما يجري الآن. إن ردود الفعل إزاء الغرب لم تكن كلها ترى هذا التعقيد، فهناك موقف الرفض الكلي المتمثل بالأصولية، وهناك موقف الاستغراق الكلي المتمثل بالتبعية التامة للغرب. إن هذه المواقف تتسم بالسهولة والانفعال وإلحاق الضرر بقضية النهضة. لذلك لا بد من موقف يتسم بالثقة بالنفس والموضوعية والرؤيا المستقلة، والذي يمكن التعبير عنه بالقومية التقدمية المنفتحة على العصر. هذا ما تحاول هذه الندوة أن تساهم في إيضاحه من خلال المناقشة.

إن صعوبة البحث في العلاقة الثقافية مع الغرب ترجع الى التناقض السياسي بين الغرب وأكبر قضية تهم الأمة العربية في الوقت الحاضر؛ قضية بناء الكيان العربي الموحد. ويرجع ذلك التناقض أساساً إلى موضع الضعف في ثقافته الذي ذكرناه والذي كان نقطة بداية الاستعمار. وهو نفسه الذي دفع الغرب الى معاداة حركة القومية العربية ومشروع الوحدة.

- ١ -

كيف يقاوم الغرب الوحدة العربية ولماذا؟ المعروف أن الغرب المتمثل بالدول الاستعمارية يقف موقف العداء لتوحيد الأمة العربية في كيان دولي واحد يحقق للأمة القوة والاستقلال. وموقف الغرب هذا موقف ثابت ومستمر منذ نهاية الحرب العالمية الأولى عندما زالت الامبراطورية العثمانية، إذ كانت الدول الغربية الاستعمارية تطمع بممتلكات ما سمي بالرجل المريض قبل قيام الحرب. وأول خطوة عملية لتجزئة الوطن العربي كانت عقد اتفاقية سايكس - بيكو لمواجهة مشروع التوحيد الذي بدأ يظهر من خلال الثورة العربية في سنة ١٩١٦. وبصورة متتابعة تمت السيطرة على المشرق العربي وتجزئته بين بريطانيا وفرنسا، ثم سيطرت إيطاليا على ليبيا، واسبانيا على منطقة الريف والصحراء. وكانت الخطوة العملية الأخرى هي وعد بلفور والمشروع الصهيوني لاستعمار فلسطين. وهكذا ومن خلال مشاريع عملية تمت تجزئة البلدان العربية وقضي على مشروع التوحيد الذي كان قائماً آنذاك. وكانت نتيجة المشروعين قيام الدولة القطرية وظهور

الكيان الصهيوني. وبذلك تكون الدول الغربية قد تدخلت عملياً لمقاومة فكرة الوحدة العربية عندما دعت الحاجة الى ذلك، وأصبح الظرف حرجاً. فالدول الاستعمارية لم تتكلم ضد الوحدة، فمراسلات الشريف حسين مع مكماهون لا تتضمن رفضاً قاطعاً لفكرة الدولة العربية المستقلة التي كانت موضوع المراسلات، بل على العكس كانت هناك وعود وموافقات مهدت لقيام الثورة ضد الدولة العثمانية، ولكن من الناحية العملية كان الوضع مختلفاً، فبعد انتهاء الحرب كان لا بد من مواجهة الوضع الجديد في البلدان العربية المشرقية في الأقل. فقد خرجت البلدان العربية من الحكم العثماني، وهناك حركة من أجل الوحدة. لذلك كان لا بد للدول الاستعمارية من موقف عملي لمواجهتها اتخذ شكل المشروعين المذكورين. وبعدها تحولت السياسة الغربية في مقاومتها لتيار الوحدة العربية الى الأسلوب غير المباشر، فتركت مهمة المقاومة لتطور الدولة القطرية وللدور الذي تقوم به الحركة الصهيونية. فالدولة القطرية أخذت تتبلور وتتكون لها أطر سياسية واقتصادية واجتماعية، ومن خلال تلك الأطر ظهرت الفئات الحاكمة على مختلف المستويات ذات المصلحة المشتركة مع مصلحة تكريس الدولة القطرية. وأدى ظهور المشروع الصهيوني الى خلق تناقض وصراع يستنزف القوة العربية ويهددها ويعادل كفة القومية العربية إذا ما مالت نحو الوحدة والتحرر من نفوذ الاستعمار. وهكذا أصبحت مقاومة الغرب للوحدة العربية مقاومة غير مباشرة، تتولاها أنظمة الدولة القطرية بالنيابة، وبقيت الدول الاستعمارية بمثابة المرجع الأخير والملجأ عند الملمات والظروف الصعبة. وهكذا تولت أنظمة الدولة القطرية مهمة مقاومة الوحدة العربية بمختلف الوسائل، عدا حالات الطوارئ، حيث تضطر الدول الاستعمارية الى الظهور مباشرة في الصورة ودخول الميدان بنفسها. وقد حدثت حالات طوارئ، فنزلت قوات بريطانية في الأردن وقوات أمريكية في لبنان، وأخيراً جاء العدوان على العراق.

إذاً هناك مستويان لمقاومة فكرة الوحدة العربية: المستوى غير المباشر الذي تولته الدولة القطرية في الأوضاع الاعتيادية، والمستوى المباشر الذي تولته الدول الاستعمارية مباشرة في حالات الطوارئ والأوقات الحاسمة. والمتتبع بالدراسة نشوء الدولة القطرية والنخب الحاكمة فيها يلاحظ أن الدولة القطرية قد نشأت على أساس فكرة الاستقلال عن الأجنبي، وفي بعض الحالات كانت نتيجة لصراع دموي وثورة مسلحة ضد الاستعمار الغربي. فالمفروض والحالة هذه أن يكون الاتجاه السائد في هذه الدولة هو تعزيز الاستقلال عن الأجنبي المستعمر، والاتجاه نحو الأفكار الوطنية والقومية، ولكن الذي حصل كان العكس، ولو بدرجات مختلفة وحالات متباينة. فقد كان الاتجاه عموماً نحو التلاؤم مع الاستعمار الأجنبي والتحالف معه، ولا سيما في ما يتعلق بسياسة مقاومة القومية العربية والوحدة العربية. وهنا لا بد من الانتباه لمسألة فكرية مهمة، وهي أن الدول الاستعمارية وريثة ثقافة عقلانية (وإن كانت بعيدة عن المثل العليا)، كما أنها تمتلك خبرة واسعة في شؤون العالم الثالث، وبذلك استطاع واضعو السياسة في تلك الدول أن

يروا أن الدولة القطرية تختزن بطبيعتها وبمرور الوقت الاتجاه نحو تكريس وجودها والسعي المستمر من أجل البقاء. وبذلك فإن تطورها يسير في اتجاه متناقض مع فكرة الوحدة العربية. ويعود ذلك بالدرجة الأولى الى التركيب الثقافي والاجتماعي للنخب الحاكمة. فالنخب الحاكمة تأتي من المجتمع، والمجتمع العربي الخارج من قرون من التخلف قد تكونت فيه بمرور الوقت ميول الانسحاب من العام الى الخاص، أي من الاهتمام بشؤون المجتمع الى الاهتمام بشؤون النفس، ففقدان الاستقلال والدور الحضاري وغياب الدولة القومية، وما رافق ذلك من تخلف في الثقافة والحياة الاقتصادية والاجتماعية، قد أدى بمرور الوقت الى حصول عملية تكيف في الإنسان العربي لوضع التخلف، وكان ذلك التكيف في اتجاه الانسحاب الى الذات الفردية. فضعف الشعور بالذات القومية وبأهمية المجتمع، وضعفت روح المبادئ والمثل العليا، وقويت ميول الدفاع عن النفس والسعي من أجل البقاء الذاتي، وهكذا قويت الأنانية على حساب روح التضحية. لذلك، نلاحظ أن المجتمع المتخلف تقوى فيه ميول الولاء للدوائر الضيقة، ابتداء من الذات الفردية الى العشيرة والمدينة والمحلة والمذهب على حساب الولاء الأوسع للأمة والانفتاح على العالم والتفاعل معه من خلال تأدية دور حضاري إيجابي. فالنخب الحاكمة التي أتت من مجتمع بهذه الصفات سرعان ما عكست ثقافتها وأفكارها ومشاعرها على الدولة، وأدى ذلك الى نظرة الى الحكم تدفع في اتجاه التمسك به والاستمرار فيه عن طريق استمرار بقاء الدولة القطرية. ومن هنا، وفي هذه المسألة بالذات، حصل خطأ في التقييم لا يزال ماثلاً في الذاكرة، فالدولة القطرية تكمن فيها بذور التجزئة، ومرور الزمن بحد ذاته يؤدي الى تكريس وجودها، وليس العكس. لذلك فالمسؤولية لا تقع على الدول الاستعمارية وحدها، بل تشترك فيها النخب الحاكمة أيضاً. وبعبارة أخرى، فالخلل ليس خارجياً فحسب، بل هو داخلي أيضاً. لذلك كان من الخطأ في التشخيص المقولة التي ترددت في الكتابات السياسية عموماً، والقومية بوجه خاص، من أن كل ما أصاب الوطن العربي، ولا سيما تجزئته، إنما يعود سببه (ومسؤوليته) الى الاستعمار وحده. ومن هنا كان لا بد من إعادة النظر في استراتيجية النضال القومي، فالتخلف الذي يطبع حياة المجتمع العربي، وما ينتج منه من آثار سلبية في النخب الحاكمة وعلاقتها بجماهير الشعب، أصبح أمراً لا يقل أهمية عن مفعول الدول الاستعمارية في تكريس التجزئة.

وما حدث في اليمن مثال واضح على دور النخب الحاكمة في مقاومة الوحدة أو أية خطوة في طريقها. فالنخبة الحاكمة في جنوب اليمن تمسكت بتجزئة البلاد وأقامت دولة منفصلة عندما كانت تستطيع ذلك بمعاونة من الخارج. وعندما زالت تلك الإمكانية بزوال الاتحاد السوفياتي دفعتها المصالح الذاتية نفسها الى التفتيش عن وسيلة جديدة للحفاظ عليها، فكانت الوحدة، ولكنها بعد أن لاحت في الأفق إمكانيات جديدة للرجوع الى الدولة القطرية، لم تتأخر عن محاولة الانفصال. كما اتضح من ذلك أيضاً أن الدولة القطرية العربية لم تخرج عن نهجها في تكريس التجزئة، فعملت بشكل شبه علني

على دعم محاولة الانفصال مما أصبح معروفاً. لقد شخصت الدول الاستعمارية هذا الموضوع وبنت عليه سياستها إزاء الوطن العربي، فبعد أن اتخذت الإجراءات العملية في سايكس ـ بيكو ووعد بلفور، وقامت الدولة القطرية، واحتدم الصراع العربي ـ الصهيوني، أصبحت مهمة تكريس التجزئة موكلة الى النخب الحاكمة بدلاً من الدول الاستعمارية بصورة مباشرة. لذلك نلاحظ أن الدول الاستعمارية انسحبت الى الخلف واقتصر نشاطها المعادي على التوجيه غير المباشر والحماية للدولة القطرية بشتى الوسائل وبدرجات متفاوتة بحسب مقتضى الحال. ويلاحظ أن هذه الدول التزمت التقليل من الكلام والتصريحات المعادية للوحدة العربية، ولكن استمرت مراكز البحوث في الجامعات والأفراد والمستشرقون بالنهج القديم نفسه في التنظير المبطن للتجزئة والدولة القطرية وتعميق التحسس الانقسامي عند الأقليات الطائفية والعرقية بهدوء وليس بصيغة هجوم واسع النطاق.

ـ ٢ ـ

ثم حدث تطور في اتجاه الوحدة بقيام الجمهورية العربية المتحدة، وما سبقها، وما تبعها من توسع المد القومي واكتساب حركة الوحدة قوة فعالة. وبذلك أصبحت هناك حالة لم تعد فيها الدولة القطرية وحدها قادرة على مجابهة الموقف من دون دعم خارجي من الدول الاستعمارية. وهنا وفي هذه المرحلة من التطور، قامت الدول الاستعمارية بإجراء عملي منها مباشرة، وكان ذلك قيام حلف بغداد. إن قيام هذا الحلف، وإن كان في أهدافه المعلنة موجهاً الى مقاومة ما سمي بالحركة الشيوعية والاتحاد السوفياتي، إلا أنه أدى عملياً إلى آثار سلبية في تيار الوحدة العربية. فهو قد سلب قطراً عربياً مهماً هو العراق من الجسم العربي وضمه الى دول غير عربية، وأصبحت علاقات هذا القطر بتلك الدول أقوى من علاقته بالأقطار العربية، لا بل أصبح العراق كدولة قطرية معادياً للقومية العربية ولتيار الوحدة، وبدأ الحلف يوجه البناء السياسي والاقتصادي والثقافي في العراق في اتجاه مغاير ومعاد للوحدة العربية في التنسيق العسكري، كما بدأ بإنشاء بنية تحتية ابتدأت بالطرق على أساس أن العراق جزء من منطقة غير المنطقة العربية المعروفة بالوطن العربي.

وبدأت عملية التنسيق في جميع المجالات تسير في هذا الاتجاه نحو أعضاء الحلف، وهي أقطار غير عربية على حساب الاتجاه نحو الأقطار العربية من خلال جامعة الدول العربية. يتضح من ذلك أن الإجراء العملي الذي اتخذته الدول الاستعمارية لم يكن هدفه يقتصر على الحرب الباردة أو حماية استقلال العراق من خطر الاحتلال السوفياتي، كما كان يتكرر على لسان الفئة الحاكمة في العراق آنذاك وشعار نوري السعيد المعروف «دار السيد مأمونة»، بل ترافق ذلك بشكل تلقائي مع مقاومة الاتجاه نحو الوحدة العربية بعزل العراق وبدء حملة مضادة للقومية العربية وقيادة جمال عبد الناصر. أما لماذا قامت الدول

الاستعمارية بهذه الخطوة العملية وكشفت عن حقيقة سياستها إزاء الوحدة، فالسبب يرجع الى حراجة الظرف، فقد قوي التيار القومي واستطاع أن يدخل مجال الإنجاز بتحقيق الوحدة السورية ـ المصرية، وأصبحت له قيادة وقواعد شعبية واسعة وصوت مسموع في كل أرجاء الوطن العربي، أي أن تيار الوحدة أصبح خطراً قائماً وليس مجرد اتجاه ثقافي.

وهنا، وفي ميزان تقييم القوى، بدت الدولة القطرية والنخب الحاكمة أضعف من أن تواجه الموقف وحدها، وأن تدير عملية تعطيل الوحدة بقواها الذاتية وقوة استمراريتها، بل أصبح لا بد من إجراء عملي مباشر يقوم به من هو أقوى منها. وهكذا ظهرت مرة أخرى حقيقة السياسية الغربية، واضطرت تلك القوة الى الإفصاح علناً عن عدائها لمشروع الوحدة العربية. وكان نتيجة ذلك الموقف كما هو معروف.

ومنذ خطوة حلف بغداد عادت الدول الاستعمارية الى المنهج السابق نفسه، حيث تركت مهمة مقاومة الوحدة العربية الى أنظمة الدولة القطرية بالدرجة الأولى وانسحبت الى الخلف. وخلال هذه المرحلة يلاحظ أن الغرب كان يرى في داخله أن التجزئة السياسية القائمة بحد ذاتها ستكرس التجزئة، وأن الواقع الموجود فيه ـ كما كان سابقاً ـ من قوة الاستمرارية وميول المصالح الذاتية للفئات الحاكمة ما يكفي لتكريسه وحمايته من تيار التوحيد. فقد أدرك الغرب وجود مصلحة مشتركة بينه وبين النخب الحاكمة في الأقطار العربية في بقاء التجزئة، وبمرور الوقت استطاعت تلك النخب تكوين الأجهزة التي تحتاج إليها لبقاء الدولة القطرية مستخدمة موارد الدولة والتقنية الحديثة في تكوين تلك الأجهزة العسكرية والإعلامية والاستخبارية والإدارية للدفاع عن بقاء الدولة القطرية. وهكذا أصبحت النخب الحاكمة تتولى المهمة بالنيابة. إن ذلك لا يعني الإطلاق، فلا النخب الحاكمة كلها من هذا النوع، ولا كانت قد اندفعت في هذا الاتجاه منذ البداية. فتاريخ هذه المرحلة يوضح أن موقف الفئات الحاكمة كان نسبياً أفضل من السابق، إلا أنه بمرور الوقت تدهور، إذ فعل الوقت والتفاعل مع سياسات الدول الاستعمارية فعله في قولبة هذه الفئات في هذا الاتجاه.

ـ ٣ ـ

لقد عملت الدول الاستعمارية على إجهاض إمكانية التوحيد العربي من خلال إضعاف القدرات العربية، وبذلك كانت الدول الاستعمارية هي رأس الرمح والدول القطرية هي المساعد.

قال الرئيس الأمريكي جورج بوش في ٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٠ ما نصه «إننا نسعى إلى إزالة خطر القوة العراقية من المنطقة أساساً، وانه فضلاً عن القوة التقليدية، فإننا نريد تصفية الإمكانيات العراقية المتطورة... وإن هذا الهدف لن يتغير حتى إذا قرر الرئيس العراقي سحب قواته من الكويت».

ويلاحظ في هذه الحالة التي تعد متقدمة على الحالات السابقة من حيث العنف واحتدام الصراع والقوى التي زجت في المعركة أن الدول الاستعمارية قامت بما لا تستطيع أن تقوم به عسكرياً وسياسياً، وذلك في مجالين: **الأول** العدوان العسكري، **والثاني** إخراج مشروع التسوية مع العدو الصهيوني الى الوجود. وهنا يلاحظ أن الدول الاستعمارية لم تعد يكفيها إيقاف مشروع الوحدة الآن فحسب، بل نراها تحاول إيقافه في المستقبل عن طريق مشروع ما يسمى بالشرق أوسطية الذي يشبه من حيث الهدف مشروع حلف بغداد، وإن اختلف من حيث الوسائل، فكل مشروع وما يناسبه، بعد أن اختلف الوقت واختلفت طبيعة خطر مشروع الوحدة وحجمه. فالعدوان على العراق هو الإجراء المباشر، ومشروع الشرق الأوسط هو الإجراء الطويل الأمد لمجابهة فكرة الوحدة العربية. وهنا تولى الكيان الصهيوني على أوسع نطاق المهمة، وتقدم ليلعب دور الشريك والقاعدة المتقدمة للسياسة الاستعمارية في المنطقة، كما سبق أن قام بذلك في الهجوم على مصر ومجمل المجهود التعاوني الذي أبداه للدول الاستعمارية لتنفيذ سياستها إزاء الوحدة العربية، وقد شرح شمعون بيريس ذلك في كتابه **الشرق الأوسط الجديد**.

يقول بيريس بصراحة عن هذا المشروع: «هدفنا النهائي هو خلق أسرة إقليمية من الأمم، ذات سوق مشتركة وهيئات مركزية مختارة على غرار الجماعة الأوروبية»[1].

وفي هذا المشروع كما في حلف بغداد الهدف هو إقامة تجمع إقليمي من الكيان الصهيوني وبعض الأقطار العربية وأقطار غير عربية كتركيا وإيران. فكما أن إنشاء الكيان الصهيوني في الأساس قد شطر الوطن العربي جغرافياً، فمشروع الشرق الأوسط يشطره جغرافياً مرة أخرى، ولكن على نطاق أكبر. فبعض الأقطار العربية يخرج من الجسم العربي ويدخل في علاقة متشابكة مع العدو ومع أقطار غير عربية. إن الذي يقرأ كتاب بيريس يلاحظ لغة الإغراء الواضحة في الحديث عن النماء والرخاء والنعيم القادم والمنافع الاقتصادية والمزايا المادية التي تأتي من المشروع الجديد، والحديث يهدف الى تغيير الاتجاه كلياً، أي تحويل الأنظار من القضية القومية الى القضية المادية، ومن السياسة الى الاقتصاد. وكل شيء في هذا المشروع مبني على أساس أنه لا توجد أمة عربية، بل أمم عربية. وعندما يتحدث بيريس عن القومية يكون المقصود ليس القومية العربية، بل القومية القطرية إن صح التعبير، فهو يعد الأقطار العربية أمماً قائمة بذاتها. وحتى هذه القومية القطرية، فالعدو يريدها أن تذوب لأنها تختزن إمكانية الشعور العربي، ويريدها أن تذوب في إطار تنعدم فيه هذه الإمكانية، حيث تجتمع أقطار عربية مع الكيان الصهيوني ومع أقطار غير عربية في جسم جديد، بتفكير جديد، واتجاه جديد، وأهداف جديدة خارج

---

(١) شمعون بيريس، **الشرق الأوسط الجديد**، ترجمة محمد حلمي عبد الحافظ (عمّان: الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٩٤)، ص ٦٤.

تيار القومية العربية. وبذلك يظهر أن بيريس يدعو الى اتجاه فوق القومية هو خلاصة النزعة العالمية التي تدعو اليها الثقافة الغربية الآن في مجال الحديث عن النظام العالمي الجديد.

يقول بيريس، «يزعم البعض أن عصر القومية لم يشارف على نهايته حتى في أوروبا. وأن الشرق الأوسط الذي وصل اليه مفهوم القومية الحديث متأخراً بعض الشيء، ينطوي على تاريخ جبار وقادر على إعاقة قيام جماعة إقليمية». هل يعني ذلك أن علينا التخلي عن خطة واحدة كهذه؟ كلا. فإن لم نستطع تحقيقها بخطوة واحدة فستتقدم على مراحل[٢]. ويتحدث بيريس عن مراحل ثلاث لتنفيذ المشروع تبدأ بمعهد أبحاث مشترك لإدارة الصحراء، ثم تجمعات مالية دولية لتنفيذ المشاريع التي تتطلب رساميل هائلة. أما المرحلة الثالثة فهي «سياسة الجماعة الإقليمية مع التطور التدريجي للمؤسسات الرسمية». ثم يقول: «لقد شهدت حقبتنا نشوء ميلين متناقضين: الانغلاق القومي والتطور فوق القومي للجماعات الإقليمية». ولكن حيث ساد الميل الأول في إقليم من الأقاليم نرى أن النظام الاجتماعي يقوض والعداء والعنف يضربان جذورهما عميقاً. بالمقابل حيثما ساد الميل فوق القومي نما الإحساس بالحاجات والفرص والرغائب الإنسانية المفضية الى نظام دولي أكثر ديمومة يسعى الى الازدهار والنمو وحقوق الإنسان، وإن أوروبا الغربية هي مثال ساطع على ذلك[٣]. إذا كان الحديث عن مزايا التجمع مفهوماً، فالذي هو غير مفهوم: لماذا يضم بعض الأقطار العربية، ولماذا يضم الكيان الصهيوني، ولماذا يضم أقطاراً غير عربية؟ وبعبارة أخرى: لماذا يكون هذا التجمع صحيحاً ومفيداً، ويكون التجمع العربي غير ذلك؟ طبعاً هذا سؤال موجه ليس الى بيريس، بل الى دعاة المشروع من العرب، حكاماً وغير حكام. الجواب عن ذلك يكمن في الغرض السياسي المسبق، ألا وهو منع تحقيق الوحدة العربية الى جانب الأهداف الأخرى، الصهيونية والاستعمار، في حالة يكون التجمع مفيداً ويحمل كل المزايا ويجلب كل النعم التي يتحدث عنها بيريس في كتابه، وفي حالة أخرى لا يكون التجمع كذلك. بالطبع فشمعون بيريس الصهيوني العقيدة أبعد ما يكون عن التفكير العالمي كما هو حال الدول الاستعمارية. فالعالمية الجديدة المتضمنة في حديث النظام الدولي الجديد تعني أن تتخلى دول العالم الثالث عن جزء مهم من استقلالها، وأن تفتح أسواقها لبضائع تلك الدول وعقول أبنائها لثقافته التي تبثها وسائل الإعلام الحديثة، أي خضوع الضعيف للقوي. والكيان الصهيوني كجزء من حركة الاستعمار في منطقتنا يريد أن يحقق هذه الأهداف في الوطن العربي. لقد كان الاستعمار في بدايته ذا توجه عالمي عندما خرج في حملة الاستكشافات واستولى على معظم دول العالم الثالث، وهو الآن يعود الى السياسة نفسها

---

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٧٨.

مع فارق الأسلوب والشكل. فالاستعمار والهيمنة تتطلبان، من جملة ما تتطلبانه، الدعوة الى نوع من العالمية تحت هيمنة القوى، حيث تتحقق حرية انتقال البضائع والأفكار على حد تعبير جورج بوش في خطابه أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في أيلول/سبتمبر ١٩٩١. إن أمريكا والكيان الصهيوني أبعد ما يكونان من العالمية، كما هو الحال مع جورج بوش وشمعون بيريس. الهدف هو محاربة القومية في بلدان العالم الثالث ومحاربة القومية العربية في الوطن العربي على وجه التحديد.

من ذلك يتضح أن الدول الاستعمارية قد نفذت النمط نفسه من التصرف الذي قامت به في مشروع حلف بغداد، فدخلت مباشرة بثقلها وتصدت لمهمة قدرت أنها فوق قدرة الدولة القطرية، وفي هذا الوقت بالذات، ألا وهي العدوان على العراق وتقديم مشروع الشرق الأوسط.

ومع أن الفوارق كثيرة بفعل اختلاف الوقت والظروف، إلا أنه يلاحظ أن الجهد الاستعماري المضاد للوحدة العربية يستعين بأسلحة مساندة هذه المرة. فالهجوم يتصف بالشمول والأمد البعيد، فهو ليس عسكرياً مجرداً، ومن الوسائل المساندة هو الحديث الواسع عن الاقتصاد. فالمشروع الجديد يرسم على أنه سيفتح الأبواب لرخاء لم تعرفه المنطقة من قبل، وأن مرحلة جديدة من التطور والتنمية وارتفاع مستوى المعيشة ستحل بسبب المشروع الجديد، وهو ما عكسته وقائع اجتماع الدار البيضاء الذي انعقد بين ٣٠ تشرين الأول/اكتوبر والأول من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٤ كما عكسته صحافة الأردن خلال تلك المدة ولا تزال. وما كتب وقيل عن هذا الموضوع قد ذهب بعيداً في الخيال حتى تكاد مادته تتحول الى نشوة الشعر. كذلك كان كتاب شمعون بيريس، وهنا كما يبدو كان الأمر مقصوداً بإدخال وهم الى عقول أبناء الأقطار المعنية لا يصعب أبداً معرفة زيفه وبعده عن الحقيقة. إنه سلاح الإغراء بالأوهام التي سرعان ما يبددها الوقت، ولكنها تكون قد أدت مهمتها في عملية الترويض الفكري وتسويق مشروع التسوية.

الفارق الآخر الذي يطبع مشروع الشرق الأوسط هو أن مقاومة القومية العربية ومشروع الوحدة تأتي مدعومة بجهد ثقافي يساند العمل العسكري والإغراء الاقتصادي، وهكذا تأسست مراكز بحوث جديدة وازداد نشاط المراكز القديمة، وتكوّن جهاز ثقافي إعلامي واسع ينشر ثقافة معادية تصب في النهاية في كل ما هو بعيد عن الوحدة العربية وقريب من الغرب والصهيونية. ومما يؤسف له أن بعض المثقفين العرب قد وقعوا في الشرك، فتضافرت عوامل غسل الدماغ والإغراء المادي والهبوط النفسي والعوامل الذاتية في انجرافهم، فظهرت كتابات «عرب نعم وشرق أوسطيون أيضاً»، وتوالت الندوات والمؤتمرات (كمؤتمر الأقليات مثلاً) ومختلف النشاطات في هذا الاتجاه.

- ٤ -

ذلك في ما يتعلق بالسياسات. أما في ما يتعلق بالمفاهيم، فقد طور الفكر الغربي مفاهيم تناسب وتنسجم مع الموقف السياسي المسبق من القومية العربية. فالفكر الأوروبي عرف القومية من خلال تجربة النازية والفاشستية، حيث القومية مقرونة بالعرق والعنف، وهو يعرف القومية الآن من خلال تفكك الاتحاد السوفياتي ويوغسلافيا، حيث تكون القومية مقرونة بضيق المجال والاتجاه نحو الأصغر، وما صاحب ذلك من عنف وحروب أهلية، في حين أن أوروبا الغربية تتجه الى دائرة أوسع من القومية. أما المفهوم الأمريكي للقومية، فيقوم على أساس قانوني هو قيام الدولة، فحدود الدولة هي حدود القومية، والقومية بمفهومهم وضع يمكن أن يخلق ويمكن أن يختفي تبعاً لقيام الدولة أو اختفائها، وهو مفهوم مشتق من وضع أمريكا نفسها. وتجدر الإشارة الى أن المفهوم القانوني هذا منسجم مع السياسة الأمريكية في الوطن العربي القائمة على أساس المحافظة على واقع التجزئة. فالدولة القطرية التي نشأت في الوطن العربي منذ سايكس - بيكو، والدولة الصهيونية التي قامت بفعل وعد بلفور، كلها شرعية، وكل منها يمثل قومية مستقلة. لذلك فدولتها شرعية، ويجب الاعتراف بها والمحافظة عليها. والمفهوم القانوني هذا الذي يقرن القومية بالدولة هو المفهوم الصهيوني أيضاً الذي يناسب وضع الدولة الصهيونية ويناسب السياسة الصهيونية الرامية الى المحافظة على التجزئة العربية ومنع قيام الوحدة، وهو المفهوم الذي يتضح في كتاب بيريس. لذلك فكل دولة عربية هي أمة مستقلة قائمة بذاتها.

فالوطن العربي بحسب هذا المفهوم، يتكون من مجموعة أمم وليس أمة واحدة. ولو قدر للصحراء المغربية أن تقوم فيها دولة، لكانت الصحراء قد شهدت ولادة أمة وهكذا. يتضح من ذلك أن الغرب لم يستطع أن يفهم القومية العربية الحديثة أو أنه لا يناسبه أن يفهم أن العرب أمة واحدة تجمعها روابط مادية ومعنوية تاريخية وحاضرة، وأن تلك الروابط لا تقوم على أساس العرق ولا التعصب، بل على روابط حضارية مشتركة قوامها الثقافة والتاريخ واللغة والمصالح الاقتصادية والتكامل والمصير المشترك، وأن الأمن والتنمية والتقدم والاستقرار والدور الحضاري أهداف لا سبيل الى تحقيقها إلا بقيام وحدة عربية تضم الوطن العربي في دولة واحدة، وأن الدولة العربية تقوم على الروح الإنسانية والنهج التقدمي في سياستها الداخلية والخارجية.

من ذلك يتضح أن الغرب لا يقاوم الوحدة العربية في الجبهة السياسية فحسب، بل في الجبهة الثقافية أيضاً، وهو ما تتسم به المرحلة الحالية من الصراع. والذي يفحص المادة الثقافية التي تخرج من مراكز البحوث ومؤسسات الثقافة المعادية يتعرف الى الكثير من المحاور. فهناك الحديث عن مفهوم الشرعية القائم على أساس الدولة القطرية والعضوية في الأمم المتحدة، وهو الأساس الفكري الذي قام عليه تبرير العدوان على العراق.

وهناك محور تقادم القومية التي أصبحت جزءاً من الماضي والدعوة الى ضرورة إعادة النظر بهذا المفهوم وتجديده، إذ إن عصر القرن الحادي والعشرين هو عصر النظرة العالمية مقابل النظرة القومية بفعل ثورة المعلومات وتقدم وسائل الاتصال التي جعلت العالم على حد تعبير هذه الأطروحة قرية واحدة بدليل الاتجاه نحو التكتلات الإقليمية. لذلك فعلينا نحن العرب أن ننحو المنحى نفسه، فنتجه الى تكتل إقليمي مشرقي ـ شرق أوسطي، لا على أساس قومي، بل على أساس جغرافي. ثم هناك موضوع الاقتصاد مقابل السياسة، فبعد تلاشي الصراع العقائدي بين الماركسية والرأسمالية، أصبح موضوع التنمية الاقتصادية بالطريق الرأسمالي والقائم على حرية التجارة وفتح الأسواق والاندماج بالسوق الغربي وتكوين العلاقات مع اقتصادات الغرب، هو الموضوع المهم مقابل الاهتمام بالوحدة العربية وتكوين كيان قومي مستقل. حتى موضوع الاستقلال والسيادة أصبح يتعرض لمحاولات التغيير في اتجاه يتغاضى عن التدخل الخارجي ويسمح بفرض التجانس في الأنظمة والنمطية في البناء السياسي والاقتصادي. فالتنمية تحصل نتيجة للاندماج في السوق العالمية (أي الغربية)، وليس نتيجة لإرادة قومية تقوم على الاستقلال الوطني. إن كل موضوع التقدم أصبح يرتكز (بحسب مفاهيم الثقافة المعادية) على فتح الأبواب والاندماج بالغرب والتعرض التام لأنماطه الثقافية ومحاكاة الأنظمة السياسية والاقتصادية، وليس على أساس قومي يجعل لكل أمة حق بناء النظام الذي يناسبها. إنه الاندماج بالغير مقابل الإرادة المستقلة. ثم هناك موضوع الديمقراطية وحقوق الإنسان الذي يكون أحسن مثال على مقولة كلمة حق يراد بها باطل، إذ إنه في الوقت الذي تكون فيه الديمقراطية وحقوق الإنسان أهدافاً إنسانية لا يرقى إليها الشك وتقع في صميم التفكير القومي التقدمي، يستخدمها الغرب وسيلة لأهداف سياسية مسبقة، حيث يجري استعمالها الآن لتشجيع الحركات الانفصالية ولتقوية العصبيات الضيقة في داخل الكيان القومي، عصبيات الطائفة والمذهب والقبيلة... الخ.

تلك هي أهم محاور الثقافة المعادية للوحدة العربية التي تمارسها المؤسسات الغربية وتفرعاتها في الوطن العربي التي يجري استخدامها مسانداً للسياسات الرامية الى دعم التجزئة مقابل تيار الوحدة.

لذلك فإن أهم ما يمكن أن يقال في مجال تقييم موقف الغرب هو انه موقف قائم على العداء التاريخي للقومية العربية والوحدة العربية. وبعد زوال الحرب الباردة اتجه الغرب الى منظمة الأمم المتحدة لاستخدامها أداة لتنفيذ هذه السياسة، الأمر الذي أوقع هذه المنظمة في وضع الازدواجية والتناقض بين أهدافها الأخلاقية وقراراتها السياسية، فضعفت مصداقيتها وقل احترامها في عموم بلدان العالم الثالث، حيث أصبحت أداة أكثر منها مؤسسة مستقلة.

بقي أن أقول لتلافي الخطأ في التأويل إن الغرب الذي تتسم سياسته وثقافته عموماً

بالعداء للوحدة العربية لا يعبر عن ذلك بالدرجة نفسها، فهو أقرب الى التباين منه الى التطابق في هذا الموضوع. وبعبارة أخرى، إن موقف العداء للوحدة العربية لا تتساوى فيه الدول الغربية، ويرجع ذلك الى التباين في القدرة وفي المصالح. تاريخياً كانت بريطانيا هي رأس الحربة في مقاومة تيار الوحدة العربية، ولا تزال كذلك، إلا أن تناقص قدراتها وتراجع نفوذها في العالم جعلها أقل مقدرة على العمل في هذا الاتجاه، إذ تولت الولايات المتحدة الآن قيادة المعسكر الاستعماري، وأصبحت في المقدمة، كما يلاحظ أن دولاً غربية أخرى من المعسكر الاستعماري نفسه قد وجدت مصالح جديدة في الوطن العربي، الأمر الذي جعلها أقل اندفاعاً في مجال تنفيذ السياسة الاستعمارية القديمة، كفرنسا وإيطاليا، وحتى المانيا. ولكن ذلك، يجب ألا يؤدي الى سوء فهم خاطئ بالمقابل، فالدول الغربية عموماً، بما فيها اليابان الآسيوية المشرقية، لا تتلاءم مصالحها مع قيام دولة عربية قوية في المنطقة، بل تجد في حالة التجزئة الوضع الملائم لها، ومع ذلك فلا بد من الإشارة الى أن الغرب واقعي عقلاني في الأمد الطويل وذرائعيته يمكن أن تجعله يقبل مشروع الوحدة إذا لم يستطع منع قيامه، أي إذا ما فرض عليه بالقوة الذاتية العربية. وبكلمات أخرى، يعتمد مشروع الوحدة علينا نحن العرب إذا ما ناضلنا من أجله، وأحبطنا السياسة والثقافة المعادية له، وفرضناه على أرض الواقع. فسيأتي الغرب مذعناً ويقبله أمراً واقعاً ويتعامل معه، وسيحصل ذلك في اللحظة التي يصبح فيها التعامل مع الوحدة العربية أرجح في موازنة المصلحة من مقاومته. ليس الغريب أن يقاوم الغرب مشروع الوحدة، بل إن ذلك مشتق من مجمل موقفه في العالم، أي من مجمل تفكيره وثقافته القائمة أساساً على المصلحة الذاتية، بل الغريب هو أن يتقاعس بعض العرب عن تحقيقه، فالمشروع في صميم مصالحهم الحيوية المشروعة، وهو الخيار الوحيد المتاح أمامهم في هذا العصر بكل صفاته المعروفة. إنني أرى أن في صفات هذا العصر أو صفات القرن الحادي والعشرين، على حد التعبير المتداول الذي يستخدمه التنظير العادي، مبررات للعزوف عن القومية العربية والوحدة العربية هي نفسها المبررات التي تدعو الى المزيد من التمسك بهذا المشروع القومي.

وربما لا يكون كل ما قلته عن علاقة الغرب بالوحدة العربية جديداً، ولكن ليس المهم أن يكون جديداً أو معاداً، بل المهم أن يكون صحيحاً. فإذا لم يكن صحيحاً، فلا يستحق أن يقال ولا مرة واحدة، أما إذا كان صحيحاً، فليس كثيراً أن يقال الف مرة.

الفصل السابع

الوحدة العربية: تحديات التجزئة وخطورة النظام الشرق أوسطي

محمود علي الداود(*)

قبل ثلاثة عقود تنبأ أرنولد توينبي بأن الوحدة العربية ستتحقق عام ١٩٧٤، وقد استند في اعتماد هذا التاريخ على أحداث الوحدة الألمانية والوحدة الايطالية، الحدثان الاكثر اهمية في نظره في تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر، وقد استغرقت عملية الوحدة ستاً وخمسين سنة بعد مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ الذي وضع حداً للحروب النابوليونية. وليس عجيباً أنها استطالت حتى هذا القدر إذا تم تقييم العقبات الكثيرة التي جابهت الوحدة. وقال توينبي إنه يتوقع الانتظار لفترة ٥٦ عاماً من نهاية الحرب العالمية الأولى كي تترك للعرب فترة مساوية من الوقت ليقوموا بالانجاز السياسي الصعب نفسه: «على هذا الأساس يكون للعرب من الوقت حتى سنة ١٩٧٤ كيما ينجزوا وحدتهم بنفس سرعة الالمان والايطالين، ولا يمكن حتى لألد اعداء العرب أن يضمن أن وحدتهم لن تكون قد انجزت في ذلك التاريخ»[1]. وقد أشار توينبي إلى مشاكل ايطاليا ووصف مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ بأنه مجرد إنكار حاذق وخبيث لشخصية ايطاليا السياسية. وكان مترنيخ قد وصف ايطاليا في المؤتمر بأنها مجرد «اصطلاح جغرافي» مشيراً إلى التفكك السياسي للأقاليم الايطالية. وكان الاقليمان الرئيسيان فيها وهي لومباردي وفينيسا، تحت سيطرة دولة أجنبية هي النمسا. وأكد توينبي في كتابه **من النيل إلى النيجر** ان نكبة الوطن العربي

(*) مركز دراسات الشرق الاوسط، الجامعة المستنصرية.

(١) أرنولد توينبي، من النيجر إلى النيل، ترجمة عمر الديراوي ابو حجلة، ط ٢ (بيروت: دار الآداب، ١٩٧٩)، ص ١٧٥.

الحاضرة، إذا امكنت المقارنة، على قدر من السوء يشبه نكبة ايطاليا في القرن التاسع عشر. فالوطن العربي على وشك أن يتخلص تماماً من آخر آثار السيطرة الأجنبية على أرجائه. فلقد انتهت المرحلة السيئة من حكم فرنسا للجزائر، ومن غير المحتمل أن يبقى الحكم البريطاني أو «النفوذ البريطاني» في سواحل جنوب الجزيرة العربية وشرقها بعد تصفية الاستعمار من بقية سواحل المحيط الهندي. واعتبر أن الضغوط الاجنبية تؤلف حافزاً مهماً للتوجه نحو الوحدة في الوطن العربي مؤكداً أن الضغوط الفرنسية والبريطانية آخذة في التراخي. أما الضغوط «الاسرائيلية»، فإنها مستمرة. وفي مناسبة أخرى أكد توينبي ايضاً، وقبل ثلاثة عقود، أنه مهما تدخلت القوى الأجنبية، فإن الوحدة العربية ستتحقق إذا كان لدى الشعب العربي رغبة صادقة في تحقيقها. وإذا ما قرر العرب الاتحاد في ما بينهم فسيكون ذلك انجازاً رائعاً لأن الاتحاد قوة، والقوة وحدها هي التي تمكّن أية أمة من إرغام الآخرين على سماع صوتها، وعمل حساب لوجهة نظرها أو مصالحها[٢].

لقد مرت ثلاثة عقود على استشراف توينبي للمستقبل العربي، والوحدة العربية لم تتحقق. ولو كُتب لهذا المؤرخ الكبير أن يكون على قيد الحياة لأصيب بخيبة أمل كبيرة، فإن عقدين من الزمان مضيا على التاريخ الذي حدده لقيام الوحدة العربية من دون أن تتحقق، بل إن الوطن العربي يعيش حالة استثنائية من الضعف اهم ملامحها هذا التناحر والتفتت والتفكك والضغوط الاجنبية وتصاعد الاخطار الصهيونية التي أصبحت اليوم تهدد الوجود العربي من المحيط الاطلسي إلى الخليج العربي وتطمح لكي تكون لها الوصاية العسكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية على كل ارجاء الوطن العربي، وتساندها في تحقيق هذا الطموح حكومات عربية عديدة وأموال عربية طائلة.

من ناحية اخرى، فإن المرء لا يستطيع إلا أن يقدر استنتاجات ومشاعر وآمال توينبي. فهو قبل كل شيء مؤرخ بارز لتاريخ الحضارات ومحلل بارع لانجازات هذه الحضارات وعلاقتها بعضها ببعضها الآخر، وخصوصاً الدور الانساني الذي لا يضاهى للحضارة العربية الاسلامية. ومن المعروف أنه كتب معظم دراساته عن الوطن العربي في النصف الأول من الستينيات، بالاضافة إلى زياراته المتوالية لأقطار عربية عديدة في تلك الحقبة التي كانت مرحلة مهمة ومتقدمة في تاريخ حركة القومية العربية وتاريخ النضال العربي وحركة الثورة والتقدم وعدم الانحياز في العالم. وفي منتصف الستينيات كانت حركة القومية العربية قد تجاوزت نكسة الانفصال بين مصر وسوريا، وتم وضع الأسس لحركة المقاومة الفلسطينية، وأصبحت العلاقات بين أقطار المشرق العربي وأقطار المغرب العربي على اشدها متانة وقوة، واصبح النضال العربي ضد الاستعمار ركناً مهماً في حركة النضال العالمي ضد الاستعمار والعنصرية.

---

(٢) انظر: أرنولد توينبي، محاضرات في القاهرة (١٩٦٤)، المحاضرة الخاصة بالوحدة العربية.

وإذا كانت ايطاليا قد تعرضت إلى الكثير من المشاكل الإقليمية الداخلية وعدو خارجي واحد هو النمسا، فإن الأمة العربية قد تعرضت منذ نهاية القرن التاسع عشر، وحتى الآن، للعديد من الضغوط والمصالح الاجنبية ذات الطابع الاستعماري، بدءاً بالاحتلال الفرنسي للجزائر عام ١٨٣٠، واحتلال بريطانيا لعدن عام ١٨٣٧، والسيطرة البريطانية على منطقة الخليج العربي خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر، ثم الاحتلال الفرنسي لتونس عام ١٨٨١، والاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢، والاحتلال الايطالي لليبيا عام ١٩١١، والسيطرة الفرنسية على المغرب في السنة التالية.

وفي خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر حصلت كل من فرنسا وبريطانيا وإسبانيا على سلسلة من الامتيازات الأجنبية في الاراضي العربية ونظام الامتيازات الأجنبية في الدولة العثمانية (Capitulation) ضمن للدول الأوروبية امتيازات ثقافية ودينية وتجارية. وفي خلال تلك الحقبة، وضعت كافة الموانئ العربية تقريباً، سواء الواقعة على البحر المتوسط، أو المحيط الاطلسي، أو البحر الاحمر، أو المحيط الهندي، أو الخليج العربي تحت النفوذ أو السيطرة الأوروبية. وفي تلك الحقبة أيضاً تمت أكبر عملية نهب أوروبية للآثار والمخطوطات العربية، وحصلت الدول الاستعمارية على بداية الامتيازات والاحتكارات التجارية والنفطية.

أما الدولة العثمانية، فقد كانت تئن من الضربات الأوروبية العسكرية والدبلوماسية، ومن خلال الحرب، أو من خلال المفاوضات ومعاهدات الصلح، تخلت السلطنة عن الأراضي العربية في المشرق والمغرب. ولم يتمكن الباب العالي من صيانة أمن وسيادة الاقطار العربية الواقعة ضمن الامبراطورية. وهذا كان واضحاً بعد معركة نافارينو الشهيرة عام ١٨٢٧ وحرب القرم عام ١٨٥٦ ومؤتمر برلين عام ١٨٧٨.

وما إن أطل القرن العشرون حتى كانت القوى الاستعمارية قد سيطرت على المضايق العربية الاستراتيجية الثلاثة: هرمز، والسويس، وجبل طارق، وعلى طرق المواصلات الرئيسية الداخلية، ووضعت مصير الاقطار العربية على مائدة مفاوضات المنافسات الاستعمارية الأوروبية، كما فعلت بالنسبة إلى السودان والصحراء العربية الافريقية وجيبوتي. وفي نهاية القرن التاسع عشر، بدأت الدوائر الاستعمارية في بريطانيا وفرنسا برعاية مشروع الحركة الصهيونية ودعمه في الاستحواذ على فلسطين. وبدأت فعلاً صفحة مهمة من التعاون الاستعماري ـ الصهيوني الذي لا زال مستمراً على رغم المتغيرات الدولية والمسميات المختلفة.

في ظل هذه الظروف الدولية الصعبة ظهرت حركة القومية العربية تناضل ضد جملة من القوى المضادة، وفي مقدمتها الدولة العثمانية التي حكمت أكثرية الوطن العربي باسم الاسلام، ولكنها في النهاية استسلمت للقوى الأوروبية وتخلت تدريجياً عن الاراضي العربية حرباً أو سلماً. ولم يكن أمام حركة القومية العربية إلا محاولة إشاعة الوعي القومي

والنضال ضد العديد من الجبهات الخارجية والداخلية، ناهيك عن التخلف الذي كانت كافة الاقطار العربية تعانيه في ظل ادارة عثمانية ضعيفة وفاسدة فتحت الأبواب على مصراعيها للاختلاف الثقافي والاقتصادي الأوروبي على حساب المصالح العربية الحقيقية التي كان من المفروض أن تحميها وتُضمنها حكومة الباب العالي، ولكنها كانت أضعف من أن تحقق ذلك.

أولاً: يقظة العرب المعاصرة والتوجه الوحدوي

على رغم الظروف الصعبة التي عاشها الوطن العربي خلال القرن التاسع عشر، فقد ظهرت بوادر نهضة عربية عسكرية وسياسية واقتصادية وفكرية أفرزت نجاحات وطموحات عربية تطلعت نحو مستقبل افضل. وقد اسهمت هذه النهضة في خلق مراكز قوى عديدة ساهمت في إحياء الوعي القومي وإذكاء الروح العربية:

١ ـ دولة محمد علي باشا في مصر (١٨٠٥ ـ ١٨٤٨) التي كانت أول محاولة لتوحيد اقطار المشرق العربي واخضاعها لنظام حديث وموحد[٣]. ومهما كانت الدوافع وراء انشاء تلك الدولة، فان تجربة محمد علي هذه بقيت ماثلة في اذهان المفكرين والقادة السياسيين العرب منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى اليوم. إن نجاح محمد علي ببناء قوة عسكرية كبيرة في البر والبحر ونجاحه بإنشاء نهضة علمية وصناعية واسعة، وفي استحداث اصلاح زراعي مهم، وتأسيس المعاهد الفنية، وادخال الطباعة والصحافة، وتشجيع الترجمة والبعثات العلمية، قد خلق اجواء رحبة من التفاؤل في مصر والمشرق العربي عموماً، وخصوصاً بعد الانتصارات العسكرية التي حققها على السلطان محمود الثاني. إن الجهود الدبلوماسية والعسكرية المضنية التي بذلتها القوى الأوروبية لتطويق تقدم جيوش محمد علي بعد معركة نزيب باتجاه العاصمة اسطنبول، ومن ثم الاسراع بإقامة تحالف دولي شاركت فيه بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية والنمسا للقضاء عليه، لم تكن من أجل انقاذ الدولة العثمانية من الانهيار، بل لعوامل اخرى اكثر اهمية. لقد تمكن محمد علي من خلق قوة ذاتية عربية ضاربة اصبحت مثلاً لشعوب آسيا وافريقيا، بالاضافة إلى اصلاحاته الاقتصادية في حقول الصناعة والزراعة والموانئ وفي حقل التصنيع العسكري. وقد اعتبرت القوى الأوروبية ان النهضة المصرية تمثل خطراً على المصالح الأوروبية، ومن شأن محمد علي اذا ما نجح بتأسيس امبراطورية عربية تضم مصر والمشرق العربي أن يصبح خطراً على الامتيازات والمصالح البريطانية والفرنسية والروسية في المنطقة. وهكذا تدخلت الأساطيل الحليفة للقضاء على الاسطول المصري في معركة حاسمة، وتم في معاهدة لندن

(٣) علي محافظة، **موقف فرنسا وألمانيا وإيطاليا من الوحدة العربية، ١٩١٩ ـ ١٩٤٥**، مواقف الدول الكبرى من الوحدة العربية؛ ١ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥)، ص ٣٠.

عام ١٨٤٠ تدمير القوة العربية الوحيدة التي ارادت ان تملأ الفراغ في المشرق العربي بعد ان عجزت الدولة العثمانية عن حمايته من الأطماع الاجنبية. ولا زالت السياسة الغربية حتى هذا اليوم تتابع هذه السياسة القائمة على ضرورة وقوع المنطقة العربية تحت السيطرة الاجنبية والوقوف ضد أية قوة اقليمية تظهر لمجابهة التحديات والاطماع الاستعمارية. وهكذا كانت فترة محمد علي فترة نهضة وحرية هزت الروح العربية باتجاه الاستقلال والوحدة.

وقد أثار مشروع محمد علي لإنشاء دولة عربية موحدة حفيظة الباب العالي والدول الأوروبية الكبرى، فقد كتب اللورد بالمرستون، وزير خارجية بريطانيا في عام ١٨٣٣، عن محمد علي «أن هدفه الحقيقي هو تكوين مملكة عربية تضم كل الاقطار التي تتكلم العربية»، وأبلغ البارون بوالكونت، الممثل الفرنسي لدى ابراهيم باشا، «أن الاخير لا يخفي مقاصده، فهو يرمي إلى بعث الوعي القومي العربي، وإحياء الأمة العربية، وغرس شعور وطني اصيل عند العرب، والتعاون معهم إلى اقصى حد في ادارة الامبراطورية القادمة»[٤].

ومن الجدير بالذكر أن نظام محمد علي قد أوجد انظمة حماية جمركية للصناعات المحلية في مصر وسوريا، وخصوصاً بالنسبة إلى صناعة المنسوجات الحريرية التي كانت تصدر إلى اوروبا. وبعد انهيار حكم محمد علي تم رفع القيود المفروضة على الاستيرادات الاوروبية، مما أدى إلى اضمحلال الصناعة الوطنية، وعلى الأخص صناعة المنسوجات الحريرية. وقد ازدادت الاستيرادات الفرنسية من الحرير الطبيعي من الاقليم السوري بينما انتشرت المنسوجات الحريرية الفرنسية الأقل جودة، مما أدى إلى إقفال المئات من المصانع السورية. وهكذا لم يكن عصر محمد علي يمثل نهضة عسكرية وثقافية وفنية عربية حديثة فحسب، بل نهضة صناعية واسعة اعتبرتها القوى الأوروبية، وخصوصاً فرنسا، خطراً على احتكاراتها في الشرق.

٢ ـ حركة المقاومة العربية للوجود البريطاني في الخليج العربي والممثلة بالقواسم، والتي خلقت تحديات كبيرة للنفوذ الاستعماري في الخليج في الربع الاول من القرن التاسع عشر. وقد أنشأت بريطانيا في أعقاب القضاء على اساطيل القواسم الكيانات القبلية على ساحل عُمان في اطار اتفاقيات ثنائية مع الشيوخ تضمن حمايتهم مقابل التعاون التام مع الدوائر البريطانية ومن دون رسم أية حدود على الارض لأية مشيخة.

٣ ـ دولة عُمان في عهد السلطان سعيد بن سلطان (١٨٠٥ ـ ١٨٥٦) الذي امتدت ممتلكاته من الساحل الشرقي للخليج العربي إلى زنجبار في شرق افريقيا. وفي

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٠.

عهده كان الاسطول الحربي العثماني ثاني قوة عسكرية في المحيط الهندي، كما كان لعُمان تجارة واسعة مع افريقيا والصين وجنوب آسيا. وفي تلك الحقبة نشر العُمانيون الدين الاسلامي واللغة العربية في جنوب وشرق آسيا وشرق افريقيا. وكانت عمان دولة مستقلة ذات سيادة لها علاقات دبلوماسية وتجارية مع اكثر من اثنتين وعشرين دولة. وكانت لعمان ايضاً علاقات وثيقة مع مصر إبان عهد محمد علي.

٤ ـ تطابق الاسلام والعروبة من خلال حركات عربية ـ اسلامية استهدفت اصلاً مناهضة حق العثمانيين بالخلافة والعودة إلى اختيار الخليفة من العرب، ومن قريش بالذات. ومن هذه الحركات السلفية التي انتشرت في الاقطار العربية، الحركة السلفية في الجزيرة العربية والحركة السنوسية أسسها محمد بن علي السنوسي (١٧٨٧ ـ ١٨٥٩) في ليبيا، وحركة محمد بن احمد المهدي (١٨٤٣ ـ ١٨٨٥) في السودان. وقاد كل من الشيخ جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده توجهات اصلاحية في مصر دعت إلى الحرية ومقاومة الاستبداد. وقد تزعم المصلح العربي الكبير عبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٩ ـ ١٩٠٢) الدعوة إلى رفض مبدأ الخلافة العثمانية والعودة إلى الخلافة العربية القرشية. ودعا الكواكبي إلى حق العرب في الخلافة الاسلامية باعتبارهم أنسب الأقوام.

وكان الشعور بتفوق الاسلام وقيمه قائماً في النصف الأول من القرن التاسع عشر، يرافقه الاعجاب بتفوق الغرب في العلوم والصناعة. وكان هذا اتجاه دعاة الاصلاح الأولين، وقد نشأوا في الثقافة الاسلامية وتعرضوا للمعارف الغربية، مثل الطهطاوي وخير الدين التونسي وحمدان خوجه، إذ أكدوا على سمو الاسلام وتفوق مبادئه وقيمه مع الدعوة إلى الانفتاح بالافادة من مصادر قوة الغرب في العلم والاقتصاد، وربط الحرية والحكم البرلماني بمفاهيم اسلامية كالشورى والاختيار وايضاح مساوئ الاستبداد. إلا أن التغلغل والتوسع الغربيين أديا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وبالتدريج، إلى شيء من القلق وإلى شعور متزايد بالخطر على الكيان والتراث. وأكد ذلك قيام من يؤكد على تفوق الغرب في كل شيء ويدعو إلى الاخذ بكل ما هو غربي وتقليده في بعض البلاد[٥].

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر أكدت انتاجات المفكرين العرب على مفهوم العروبة والوحدة العربية أكثر من أي وقت مضى. وازداد الاهتمام باللغة العربية وعلومها واعتبرت هي الاساس الأول في تحديد القومية، وهي العامل المشترك الموحد للأمة العربية. وكانت افكار وطروحات عبد الرحمن الكواكبي هي الأكثر وضوحاً وصراحة في هذا الاتجاه من خلال كتابيه **طبائع الاستبداد وأم القرى**. ويرى عبد العزيز

---

(٥) عبد العزيز الدوري، **التكوين التاريخي للأمة العربية: دراسة في الهوية والوعي** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٤)، ص ١٤١ ـ ١٤٢.

الدوري ان الكواكبي تمكن من إعطاء فكرة الإحياء العربي محتوى سياسياً. ولعل أبرز تقييمات الدوري عن دور الكواكبي في اليقظة العربية هي:

١ ـ إن الكواكبي أظهر ان دور العرب في التاريخ يقترن بمجد الاسلام، فالعروبة والاسلام متلازمان عنده. ولم يبدأ الانتكاس والخلل إلا بتسلط الاعاجم. وهكذا نراه في دعوته إلى النهضة يتجه إلى العرب.

٢ ـ إن الكواكبي يعتبر العرب امة تشمل أهل الجزيرة والعراق والشام ومصر وشمال افريقيا، وهو يرى في اللغة العربية الرابطة الأولى بين العرب، وبذلك يعيد المفهوم التراثي للأمة العربية.

٣ ـ كان للآراء الحديثة من القومية والوطنية أثر في فكر الكواكبي، ولكن أصوله تراثية، إذ يعرض آراءه في إطار اسلامي، فالعروبة والاسلام متلازمان عنده، وعز الاسلام في الماضي ونهضته الآن يعتمدان على العرب، ومن هنا دعوته إلى خلافة عربية وتوضيحه للأسس التاريخية والفكرية لذلك، والعرب أمة يريد لها وحدة تتخطى الطائفية في نطاق الوطن، ونهضة تعيد لها دورها في الاسلام، بل يرى نهضة العرب بداية لإحياء الاسلام.

وتعتبر كتابات نجيب عازوري في الفكر القومي ذات اهمية خاصة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وقد تأثر بالنشاطات الأدبية والثقافية العربية في بلاد الشام وتأكيدها على الهوية القومية للعرب. وقد أنشأ في باريس جمعية عربية أسماها «جامعة الوطن العربي»، وأصدر عام ١٩٠٥ كتابه السياسي **يقظة الأمة العربية** نادى فيه بالانفصال عن الأتراك وإنشاء دولة عربية تضم شبه الجزيرة العربية والهلال الخصيب، وبقيام خليفة عربي في الحجاز يحكم الحجاز ويتولى الرئاسة الدينية لجميع المسلمين. وشدد عازوري على ضرورة منح الحرية الدينية لجميع المواطنين والمساواة بينهم في الحقوق والواجبات، حتى يستطيع المسيحيون أن يعيشوا حياة لا يشعرون فيها بأي لون من ألوان التفرقة[٦].

وكنتيجة طبيعية لانقلاب ١٩٠٨ الذي أوصل الاتحاديين إلى الحكم في الآستانة، وما اعقبه من قرار بتنحية السلطان عبد الحميد عن الخلافة عام ١٩٠٩، تحركت الجمعيات والأحزاب والقوى العربية تطالب السلطة العثمانية بمنح العرب حقوقهم القومية. وعلى رأس هذه التجمعات السياسية العربية الجمعية العربية الفتاة التي تأسست عام ١٩١١ في باريس والتي طالبت «بتحرير الأمة العربية بحسب الاحوال والظروف خطوة فخطوة بكل

---

(٦) المصدر نفسه، ص ١٧١ ـ ١٧٢، وسليمان موسى، الحركة العربية: سيرة المرحلة الاولى للنهضة العربية الحديثة، ١٩٠٨ ـ ١٩٢٤ (بيروت: دار النهار، ١٩٧٧)، ص ٢٣ ـ ٢٤.

الوسائل الشرعية وغير الشرعية»، وكذلك جمعية العهد التي تأسست في اسطنبول عام ١٩١٣ والتي دعت إلى «الاستقلال الداخلي للاقطار العربية ضمن الامبراطورية العثمانية»(٧).

وقد جرى تنسيق دقيق بين نشاطات هاتين الجمعيتين من جهة، وفروعهما في العراق وسوريا ومصر من جهة اخرى. وتم توسيع حركة المعارضة العربية للنظام العثماني، خصوصاً بعد احتلال ايطاليا لليبيا عام ١٩١١ والاندحارات العثمانية في البلقان. وقد تأثرت الحركة القومية العربية بالأوضاع المتأزمة في أوروبا وظروف المنافسات الدولية التي استهدفت أساساً تقسيم مناطق النفوذ في الدولة العثمانية، الأمر الذي اسرع بانعقاد المؤتمر العربي الأول في باريس في ٨ حزيران/يونيو ١٩١٣، والذي كان أول مؤتمر قومي ينعقد بصورة علنية في اوروبا ويحاول ان ينقل قضية العرب ومطاليبهم في الحرية والاستقلال والوحدة إلى الساحة الدولية. ولعل أبرز قرارات المؤتمر هو تأكيده على المطالبة بالحقوق السياسية العربية، وانشاء ادارات لامركزية في الأقطار العربية، وتأكيده على اعتبار اللغة العربية لغة رسمية في الاقطار العربية.

وقد رافق النشاط السياسي العربي نهضة أدبية وثقافية عربية أكدت على اللغة العربية وآدابها، وبدت اللغة والثقافة العامل الاساسي الذي يجمع الأمة، وكانت اللغة العربية رمزاً للحركة العربية في مواجهة التتريك. وفي محاضرة ألقاها عبد العزيز الدوري في ١١ نيسان/ابريل ١٩٩٤ امام مجمع اللغة العربية الأردني أكد على اقتران الاسلام بالعربية والتعريب في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين من جهة، واقتران الهوية بمواجهة الاستعمار من جهة أخرى، وهذا افضى إلى تنام في التعريب ودلالته في النهضة والوحدة في المشرق العربي، وفي المغرب العربي. ومع ان الخطوط العريضة جاءت متوازية إلى حد ما، إلا ان التعريب في المشرق ركز على الجانب الثقافي، وعلى تثبيت الهوية، بينما كان في المغرب قد أكد على الاسلام والعربية اساس الهوية معاً(٨).

ثانياً: عوامل التجزئة والوحدة في أعقاب الحرب العالمية الاولى

استمرت جهود الدول الاستعمارية الاوروبية بتجزئة الوطن العربي، والتي بدأت منذ بداية القرن التاسع عشر باحتلال الخليج العربي. وقبل اندلاع الحرب العالمية الاولى بأسبوعين، وبالتحديد في ١٥ حزيران/يونيو ١٩١٤، عقدت الدولة العثمانية اتفاقية مع بريطانيا تنازلت فيها عن سيادتها في قطر والبحرين وحضرموت.

---

(٧) موسى، المصدر نفسه، ص ٣٣.

(٨) عبد العزيز الدوري، «حول دور اللغة العربية في توحيد الأمة العربية ونهضتها،» (محاضرة ألقيت في مجمع اللغة العربية في الأردن بتاريخ ١٠ نيسان/ابريل ١٩٩٤).

وبعد اندلاع الحرب مباشرة اعلنت بريطانيا في ١٩ كانون الاول/ديسمبر ١٩١٤ وضع مصر تحت الحماية البريطانية الرسمية والتوجه نحو تركيز النفوذ الاستعماري في المشرق العربي من خلال اربعة اتجاهات متناقضة اتخذ بعضها طابع السرية، ولكن جميعها كان يستهدف استغلال ظروف الحرب للحصول على حصة الأسد من الممتلكات العثمانية في المشرق العربي:

١ ـ التوجه **الأول** هو العمل على إنهاء السيادة العثمانية على منطقة الخليج وخلق كيانات صغيرة في الجزيرة العربية ترتبط مباشرة بالمصالح البريطانية الاستراتيجية والنفط. وقد عمل هذا الاتجاه من خلال سلسلة من الاتفاقيات غير المتكافئة التي ركزت القطرية والاقليمية. ومن هذه الاتفاقيات تلك التي تم عقدها في ٣٠ نيسان/ابريل ١٩١٥ مع السيد محمد بن علي بن احمد بن الإدريسي أمير عسير، واتفاقية ٢٦ كانون الاول/ديسمبر ١٩١٥ مع عبد العزيز بن سعود امير الرياض، واتفاقية ٣ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٦ مع الشيخ عبد الله بن جاسم بن ثاني أمير قطر.

٢ ـ التوجه **الثاني** وقد تمثل بالجهود الدبلوماسية والاستخبارية البريطانية لإقناع الشريف حسين بن علي امير مكة بالثورة على الأتراك بدعم عسكري ومالي بريطاني مقابل الاعتراف به، بعد انتهاء الحرب، ملكاً على دولة عربية مستقلة تضم غالبية أقطار الجزيرة العربية في المشرق العربي. وهذا ما جاء في مراسلات الحسين ـ ماكمهون الشهيرة والتي جرت خلال الفترة من ١٤ تموز/يوليو ١٩١٥ إلى ١٠ آذار/مارس ١٩١٦.

٣ ـ التوجه **الثالث**، وكان يناقض تماماً ما جاء في نصوص المراسلات أعلاه بين الشريف حسين والانكليز. وقد تضمن هذا التوجه مخططاً استعمارياً لتقسيم البلدان العربية إلى مناطق نفوذ بريطانية وفرنسية. وهذا ما عرف باتفاقية سايكس ـ بيكو، وهي اتفاقية سرية عقدت في ٢٣ تشرين الاول/أكتوبر ١٩١٦ لتقسيم الامبراطورية العثمانية بين بريطانيا وفرنسا وايطاليا.

٤ ـ التوجه **الرابع**، وهذا ايضاً يناقض نصوص الوعود البريطانية للشريف حسين، وهو العمل على إقامة كيان يهودي في فلسطين من خلال وعد بلفور الذي صدر في ٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٧ والذي تبنت مضمونه على أوسع نطاق توصيات تقرير الاستخبارات الامريكية إلى الرئيس ولسن في ٢١ كانون الثاني/يناير ١٩١٩ الذي أوصى بمنح فلسطين بأكملها إلى اليهود على رغم ان التقرير نفسه يذكر بأن عدد اليهود في فلسطين لا يتعدى عشر السكان، وهذا الرقم كان مبالغاً فيه ايضاً.

من دراسة هذه التوجهات نتوصل إلى نتيجة مهمة، وهي أن القوى الاوروبية والامريكية المتحالفة كان يهمها استخدام العرب لقضية الحرب ضد العثمانيين، ولم تكن هذه القوى أصلاً تؤمن بكل تعهداتها للشريف حسين أو غيره بإقامة دولة عربية موحدة أو مجموعة من الدول العربية المستقلة. وهذا ما عبرت عنه وثيقة بريطانية مهمة نشرها المؤرخ

الاردني سليمان موسى في كتابه **الحركة العربية**، ١٩٠٨ ـ ١٩٢٤. ففي اوائل عام ١٩١٦ عندما كانت وزارة الهند البريطانية تحذر وزارة الخارجية من الأخطار التي يمكن ان تنجم عن مساعدة العرب على إنشاء دولة كبيرة، كتب جلبرت كلايتون برقية إلى حاكم السودان العام مؤرخة في ٢٨ كانون الثاني/يناير ١٩١٦ تقول: «يبدو ان وزارة الهند تخشى من أننا ننوي تأليف مملكة عربية قوية. إن هذا لم يكن قصدنا مطلقاً، وهو على أية حال غير وارد عملياً. والفكرة كلها هي ان نستبقي صداقة العرب عن طريق الموافقة على الاعتراف مبدئياً بالاستقلال العربي مع الوعد أن نساعدهم على إنشاء عدد من الإدارات تحت إرشاد بريطانيا وفرنسا حسبما يلائم المناطق المختلفة... إن فقدان التلاحم بين العرب هو صمام الأمان الرئيسي لنا ضد إنشاء مملكة عربية متحدة يمكن ان تهدد المصالح البريطانية»[٩].

ومن المعروف أن جلبرت كلايتون كان من أبرز ضباط مركز الشرق الاوسط البريطاني في القاهرة خلال الحرب العالمية الثانية، وقد رشحته الحكومة البريطانية ليعمل مستشاراً لجامعة الدول العربية في الشؤون الاقتصادية عام ١٩٤٥، إلا أن الأمين العام عبد الرحمن عزام اعتذر عن قبوله من حيث المبدأ.

وفي ضوء تصلب الشريف حسين في مطالبه بضرورة إيفاء بريطانيا بوعودها للعرب، فإن الدبلوماسية البريطانية كانت تعمل لتقوية عبد العزيز سعود واعطائه الضوء الأخضر وقت الحاجة لتصفية الحكومة العربية في الحجاز ووضع حد لإصرار الشريف حسين على ضرورة المساعدة في إقامة الدولة العربية الواحدة. وفعلاً نجد ان برسي كوكس يستبعد امكانية التفاهم بين الشريف حسين وابن سعود، ويرى استخدام الأخير لوضع حد لطموحات الأول، ويقول: «إنه سيكون لمصلحتنا إلى حد بعيد ان يكون هناك زعيم في نجد يمكن ان يقف نداً كفياً تجاه الشريف حسين في الحجاز. إن ترتيباً كهذا يسهل بالتأكيد عملنا في العراق ويصحح في الوقت ذاته ما ارغمتنا عليه سياستنا من الاعتراف للشريف سراً بزعامة لا نشعر تجاهها بالارتياح».

ما إن اعلنت الهدنة بين الدولة العثمانية المنهزمة والحلفاء المنتصرين في مودروس (Mudros) في ٣٠ تشرين الاول/اكتوبر ١٩١٨ حتى راحت القوى السياسية العربية التي ساندت ثورة الشريف حسين ضد الاتراك تطالب بتحقيق هدف الثورة في الحرية والاستقلال والوحدة العربية على رغم الغموض الذي كان يكتنف الاتصالات بين فرنسا وبريطانيا حول حقيقة الموقف. وفي ١ كانون الثاني/يناير ١٩١٩ قدم الامير فيصل بن الحسين مذكرته المشهورة إلى مؤتمر الصلح في باريس، وقد ركز فيها على الاهداف التي من أجلها شارك العرب في الحرب ضد الأتراك: «ان هدف حركة القومية العربية، التي أصبح والدي قائدها في الحرب بعد نداءات من فرعي سوريا وبلاد ما بين النهرين، هو

(٩) موسى، المصدر نفسه، ص ٦٥٩ ـ ٦٦٠.

توحيد العرب نهائياً في أمة واحدة، وكعضو قديم في اللجنة السورية، قُدْتُ الثورة السورية، وكان خلفي سوريون وعراقيون وعرب آخرون.. نحن نعتقد بأن فكرة وحدتنا العربية في آسيا مبررة وبعيدة عن الحاجة إلى النقاش. وإذا كان النقاش مطلوباً، فإننا نود أن نشير إلى المبادئ العامة التي ارتضاها الحلفاء عندما انضمت إليهم الولايات المتحدة، وإلى ماضينا العظيم، وإلى التماسك الذي كان عِرقنا يقاوم به على مدى ٦٠٠ عام المحاولات التركية لاستيعابنا، وفي مرتبة أدنى، إلى ما بذلنا قصارى جهدنا للقيام به في هذه الحرب كطرف من الحلفاء»[١٠].

وقدم فيصل ايضاً، في سياق دعم توجهه الوحدوي، مناقشة حول عصرنة تحقيق الوحدة التي سهلها في حينه تطور الاتصالات الحديثة: السكك الحديدية، البرق، الوسائط الجوية. وبدا نجاح الوحدة العربية مؤكداً لو لم تجر محاولات تقسيم المنطقة كغنيمة حرب بين القوى العظمى. وفي الشهر نفسه قدمت بريطانيا بالنيابة عن حلفائها الضمانات لشريف مكة بأن الوحدة العربية ستلقى الاهتمام والرعاية: «إن القوى الحليفة متفقة على وجوب منح العرق العربي الفرصة الكاملة لتكوين وطن قومي في العالم مرة اخرى، وهذا ما يمكن تحقيقه فقط عن طريق توحيد العرب انفسهم، وستتبع بريطانيا العظمى وحلفاؤها سياسة تأخذ بعين الاعتبار هذه الوحدة، كهدف نهائي»[١١].

وقد وجد العرب في نتائج الحرب العالمية الاولى نكسة كبيرة في المشروع الوحدوي، فقد أصبح من المؤكد وحدة وجهة النظر الاوروبية والامريكية في إقامة وطن قومي يهودي في فلسطين لا حدود لأطماعه في التوسع على حساب أقطار عربية أخرى. لقد استبدل العرب احتلالاً عثمانياً باحتلال فرنسي ـ بريطاني، وأصبحت مواقعهم الاستراتيجية المهمة تحت السيطرة الأجنبية، وانتشرت القواعد العسكرية في بلادهم، واقتسم البريطانيون والفرنسيون والامريكيون المناطق النفطية من خلال العديد من الاتفاقيات، وفي مقدمتها اتفاقية «الخط الاحمر» الموقعة في ٣١ تموز/يوليو ١٩٢٨ التي قسمت الامتيازات النفطية في العراق والجزيرة العربية والخليج العربي بين الشركات الاحتكارية. وكانت ردود الفعل العربية مباشرة وقوية، وربطت بين الاستقلال والوحدة واعتبرتهما طلبين لا ينفصلان. وكانت ردود الفعل هذه قوية في العراق وسوريا وفلسطين، وحتى في مصر، وإن كانت على درجة اقل. ويعتبر المؤتمر العربي الذي انعقد في القدس عام ١٩٣١ من أبرز المؤتمرات ذات الأهمية والوضوح. وقد تضمنت قراراته مبادئ قومية بعيدة المدى والتأثير:

---

(١٠) مروان رأفت بحيري، «بريطانيا والجامعة العربية: السنوات التأسيسية،» المستقبل العربي، السنة ٨، العدد ٧٦ (حزيران/يونيو ١٩٨٥)، ص ٥ ـ ٦.

(١١) ذكره مروان بحيري معتمداً على كتاب: Fayez A. Sayegh, *Arab Unity: Hope and Fulfillment* (New York: Devin- Adair, 1958), p. 32.

١ ـ الاراضي العربية هي كلّ واحد لا يتجزأ، وجميع التقسيمات التي كانت قد اخضعت لها مهما كانت طبيعتها غير مقبولة أو معترف بها من الأمة العربية.

٢ ـ توجه جميع الجهود في كل بلد عربي نحو الهدف الأوحد، وهو الاستقلال والتوحيد الكاملان، وتجدر محاربة كل فكرة تتضمن تطلعاً سياسياً اقليمياً وفردياً.

٣ ـ بما ان الاستعمار بكل أشكاله وصوره يتعارض كلياً مع كرامة الأمة العربية وأهدافها العليا، فإن الأمة العربية ترفضه وستقارعه بكل قوتها.

وقد لاقت هذه القرارات القومية استجابة كبيرة لدى الرأي العام العربي، وبصورة خاصة في سوريا ولبنان والعراق، وتأسست جمعيات وأندية قومية ركزت اهتماماتها على الوحدة القومية، من ذلك «جامعة العمل القومي» و«المنتدى العربي» و«المكتب القومي العربي»، واصبحت قضية الوحدة اساسية في برامج العديد من الأحزاب القومية. وقد تأثر المد الوحدوي العربي في الثلاثينيات وبداية الاربعينيات بكتابات عدد من المفكرين القوميين من أمثال ساطع الحصري، ودرويش المقدادي، ومحمد عزة دروزة، وقسطنطين زريق. وفي العراق تمكنت القوى القومية في الاحزاب والقوات المسلحة من التأثير في التوجهات السياسية للملك غازي الذي تولى الحكم بعد وفاة والده الملك فيصل الأول عام ١٩٣٣، وكانت القضية القومية من المشاكل الرئيسية في العلاقة بين الملك والانكليز، مما دفع الاخيرين إلى التفكير جدياً في إزاحته. وفي مصر ظهرت توجهات قومية في كتابات عدد من الكتاب السياسيين من أمثال عبد الرحمن عزام، وعبد القادر المازني، واحمد حسين. وقد كتب الأول مقالاً مهماً عام ١٩٣٢ في مجلة **العرب** الفلسطينية تحت عنوان «العرب شعب المستقبل». ولقد لفت الانتباه إلى التشابه بين حركة القومية والوحدة العربية والحركات الوحدوية في ألمانيا وإيطاليا[١٢]. وتحت عنوان «الوحدة العربية» كتب مقالاً مهماً نشرته لأول مرة مجلة **الهلال** عام ١٩٤٣ دعا فيه انصار الوحدة والقادة المفكرين والسياسيين، على وجه الخصوص، إلى «أن يعملوا لظهور وحدة هذه الأمة عن طريق إزالة العقبات الطارئة والمصطنعة، وأن يجدّوا لتحقيق الوحدة السياسية، وألا يشغلوا الناس بغيرها، وأن يقووا ارادتهم لاكتساح كل عقبة في سبيل هذه الوحدة السياسية مهما كان قدرها أو مصدرها»[١٣].

وكتب عبد القادر المازني مقالة مهمة في مجلة **الرسالة** المصرية تحت عنوان «القومية العربية» عام ١٩٣٥ جاء فيها: «اني أؤمن بما اسميه «القومية العربية»، وأعتقد أن من خطل السياسة وخلل الرأي أن تنفرد كل واحدة من «الامم» العربية بسعيها غير عابئة

(١٢) المصدر نفسه، ص ٧.

(١٣) وقد أعيد نشرها في مجلة **المستقبل العربي**، انظر: عبد الرحمن عزام، «الوحدة العربية،» السنة ٨، العدد ٧٨ (آب/اغسطس ١٩٨٥)، ص ١٤٧ ـ ١٥١.

بشقيقتها، أو ناظرة اليها، ويحنقني ويستفزني أن أرى أحداً ينظر إلى مصر كأنها من اوروبا وليست من الشرق. . . ولو ان القومية العربية لم تكن إلا وهماً لا سند له من حقائق الحياة والتاريخ لوجب أن نخلقها خلقاً، فما للأمم الصغيرة أمل في حياة مأمونة»(١٤).

وقد نشطت دعوة أحمد حسين من خلال جمعية «مصر الفتاة» بين الشباب المصري في تنمية الوعي القومي العربي والدعوة إلى نوع من الاتحاد السياسي العربي. وقد كان لأنصار هذه الجمعية أثر بارز في الحركة الوطنية المصرية، وخصوصاً بين صغار الضباط في القوات المسلحة. وفي الوقت نفسه ظهر الاهتمام بمشروع حسن البنا للتحالف العربي الذي دعا إلى إلغاء العمل بتأشيرات السفر وإلغاء العوائق الجمركية في الوطن العربي، وتوحيد التعليم والقوانين، وربط البلدان العربية بمعاهدات دفاع مشترك وتبادل المعلومات العسكرية، وتوحيد السياسة الخارجية(١٥). وقد تشكل في القاهرة عام ١٩٤٣ نادي الاتحاد العربي، ومن أبرز اعضائه محمد علي علوبة وعبد الرحمن عزام اللذان صاغا وثيقة مهمة آنذاك بعنوان «ميثاق الأمة العربية»(١٦) قدماها إلى الملك فاروق في مطلع نيسان/ ابريل ١٩٤٣.

وتضمن الميثاق المبادئ الاساسية التالية:

١ ـ يؤلف العرب أمة عربية واحدة تعيش في بقعة تمتد من المحيط الاطلسي إلى المحيط الهندي توحدها الأصول الواحدة والتاريخ المشترك والإرادة الواحدة.

٢ ـ ترفض الأمة العربية الاستعمار بجميع أشكاله.

٣ ـ تدين الأمة العربية الاستعمار الصهيوني في فلسطين وتسعى لمقاومته بكل الوسائل.

٤ ـ لا يُسمح لشعب عربي أن يمارس سياسة خاصة تتعارض والمصلحة العامة للأمة العربية، ولا يسمح لأي شعب عربي حق إقامة تعاون مع أي شعب آخر تعاوناً يضر بصالح شعب عربي آخر.

وشمل الميثاق تطلع الأمة العربية نحو الوحدة الاقتصادية والثقافية وتحريم الحروب بين الأقطار العربية.

---

(١٤) المقال نشر لأول مرة في مجلة الرسالة، انظر: ابراهيم عبد القادر المازني، «القومية العربية،» الرسالة، السنة ٣، العدد ١١٢ (آب/اغسطس ١٩٣٥)، ص ١٣٦٣ ـ ١٣٦٤، ثم أعيد نشره في المستقبل العربي، انظر: ابراهيم عبد القادر المازني، «القومية العربية،» المستقبل العربي، السنة ٨، العدد ٧٨ (آب/اغسطس ١٩٨٥)، ص ١٤٤ ـ ١٤٦.

(١٥) بحيري، «بريطانيا والجامعة العربية: السنوات التأسيسية،» ص ٧.

(١٦) محافظة، موقف فرنسا وألمانيا وإيطاليا من الوحدة العربية، ١٩١٩ ـ ١٩٤٥، ص ١٥٢ ـ ١٥٣.

أما على الصعيد الرسمي فقد ظهر في فترة الثلاثينيات والاربعينيات توجهات أربعة:

١ ـ توجه يدعو إلى وحدة سوريا والاردن بدولة سوريا الكبرى بزعامة الملك عبد الله.

٢ ـ توجه يدعو إلى اتحاد يضم العراق والاردن وسوريا وفلسطين (يمنح خلاله اليهود حكماً ذاتياً مع المحافظة على نسبة السكان القائمة بين العرب واليهود). وقد جاء هذا التوجه في اقتراح نوري السعيد الذي اعلن عنه عام ١٩٣٩ وأكد عليه في كتابه **الاستقلال العربي والوحدة** الذي صدر في بغداد عام ١٩٤٣. وكان نوري السعيد يعتقد ان من الصعب إزالة الكيان الصهيوني للمواقف البريطانية (والأوروبية عموماً) والامريكية المؤيدة للوجود اليهودي وتطويره، وكان يرى ان الطريق الأمثل لتحجيم اليهود هو في تحقيق هذا المشروع.

٣ ـ دعوة بعض الاوساط البريطانية والمتمثلة في وزارة الهند البريطانية وحكومة الهند إلى تأييد قيام دولة عربية كبيرة تشمل الهلال الخصيب والخليج العربي تحت زعامة ابن سعود. وكان ونستون تشرشل يؤيد هذا الاتجاه، إلا ان وزارة الخارجية البريطانية لم تكن متحمسة له.

٤ ـ دعوة المفكرين والسياسيين السوريين إلى الوحدة العربية، ولكن ليس تحت تاج هاشمي أو نفوذ سعودي، وتطلع إلى دور مصري اكثر فاعلية في هذا الاتجاه.

ومن المعروف ان الحكومة البريطانية رفضت رسمياً مساندة مشروعي «سوريا الكبرى» و«الهلال الخصيب»، كما ان أحزاب المعارضة العربية رفضتها عموماً باعتبارها مشاريع استعمارية على رغم وجود عناصر ايجابية فيها. وقد اظهرت الوثائق البريطانية ان التعليمات التي قدمت إلى المسؤولين الدبلوماسيين والسياسيين في المنطقة العربية هي تصعيد المعارضة الشعبية ضد المشاريع المطروحة لأنها في الاساس لا تلقى مساندة الحكومة البريطانية، التي كانت تعتقد أن هذه المشاريع تضع قيوداً على الوجود الصهيوني في فلسطين. كما أن مشروع ونستون تشرشل الخاص بإقامة اتحاد عربي تحت زعامة العاهل السعودي فشل هو الآخر بسبب معارضة وزارة الخارجية الذي اعتبرته غير قابل للتطبيق، وخصوصاً انه سيسبب نفرة من الهاشميين ومعارضة من زعماء الحركة القومية العربية.

أما المقترحات السورية لإقامة وحدة أو اتحاد عربي، فقد فشلت هي الأخرى لأنها كانت موجهة اصلاً ضد الهاشميين، ولم تقبل باتحاد مع العراق إلا على اساس الديمقراطية في اتخاذ نوع الحكم الملائم، الأمر الذي لم يكن المناخ السياسي السائد قد وفر له أرضية صلبة.

وعلى رغم الوجود الاستعماري العسكري والسياسي والاقتصادي، فإن الحركة

القومية العربية استمرت بالانتعاش، وخصوصاً في الإطار الثقافي. فقد عكست الصحافة الوطنية وبرامج التربية والتعليم والمؤسسات الدينية والشعبية قدراً كبيراً من الوعي القومي على رغم ان الحكومات العربية كانت تعارض التوجهات الوحدوية، أو على الاقل كانت غير مستعدة للاصطدام مع الاستعمار الاجنبي البريطاني أو الفرنسي أو الايطالي.

ولم تستفد الدول العربية من الأوضاع الاوروبية الاقتصادية بعد عام ١٩٣٠ والخاصة بانكماش الانتاج والدخل وانخفاض معدل نمو التجارة الدولية في المواد الاولية والغذائية. ولما اصاب اوروبا الركود والانكماش عادت الحيوية من جديد إلى الصناعة العربية، وانتعشت الصناعة الوطنية والحركة المصرفية، وحققت مصر درجة عالية من الاكتفاء الذاتي في العديد من الصناعات الاستهلاكية، وشهدت العراق وفلسطين وسوريا ولبنان آنذاك ازدهاراً مماثلاً في الصناعات ذاتها. وقد وصف جلال احمد امين في كتابه **المشرق العربي والمغرب: بحث في دور المؤثرات الخارجية في تطور النظام الاقتصادي العربي والعلاقات الاقتصادية العربية** فترة الثلاثينيات بأنها الفترة التي شهدت بزوغ مبدأ «القومية الاقتصادية» وفي كل بلد على حدة، إذ بينما سادت القومية الاقتصادية في أوروبا ودخلت دولها في حرب تجارية في ما بينها، فرضت كل دولة عربية الحماية لمنتجاتها الصناعية ضد منتجات الدول العربية الاخرى، خصوصاً تلك الخاضعة لدولة اجنبية مختلفة، وقامت صناعات متشابهة في كل منها من دون أية محاولة لتحقيق التكامل بين الصناعات الجديدة أو للإفادة من اتساع السوق العربية امام كل منها. وقد ادى هذا إلى عدم الاستفادة من الأوضاع الدولية الاقتصادية والعودة بسهولة إلى سيطرة النفوذ الاقتصادي الأوروبي[١٧].

ثالثاً: فكرة الوحدة العربية والسياسة البريطانية في أعقاب الحرب العالمية الثانية

كانت الانتفاضة الوطنية التي قادها الجيش العراقي ضد السياسة البريطانية في أيار/مايو ١٩٤١ نقطة تحول مهمة في السياسة البريطانية في المنطقة العربية. فهذه الانتفاضة العسكرية التي كانت جريئة إلى درجة الاصطدام المسلح مع قوات بريطانية كبيرة يفوق عددها وعدتها عدد الجيش العراقي وأعتدته. وقد أصيب العديد من الدوائر السياسية في العالم بالذهول من القرار السياسي العراقي بعدم الرضوخ للمطالب العسكرية البريطانية في وقت عصيب جداً وحرج للغاية بالنسبة إلى مستقبل الحرب. ومن الجهات التي أصيبت

(١٧) جلال أحمد أمين، **المشرق العربي والغرب: بحث في دور المؤثرات الخارجية في تطور النظام الاقتصادي العربي والعلاقات الاقتصادية العربية**، ط ٤ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٣)، ص ٣٨.

بالذهول الحكومة الالمانية التي وإن لم توافق على توقيت الحركة، إلا انها لم تخفِ اعجابها بشجاعة العراقيين التي استقطبت في تلك المرحلة الرأي العام العربي الذي نظر إلى العراق على أنه «بروسيا العرب» والمؤهل لقيادة العرب نحو الوحدة. ومن المعروف ان الانكليز وحلفاءهم في المنطقة تمكنوا من القضاء عليها بالتعاون مع الدبلوماسية الامريكية، إلا أن الحركة الوطنية العراقية هزت الضمير العربي وشكلت تهديداً خطيراً للسياسة البريطانية القائمة على هدف السيطرة الكاملة على مقدرات العرب الاستراتيجية والاقتصادية. ومن أجل عدم تكرار المثل العراقي في الوطن العربي اتخذت السياسة البريطانية سلسلة من الاجراءات التي من شأنها تكريس التجزئة وتعميقها والحد من مطامح العرب في الوحدة:

١ ـ تشجيع الاقليمية والقطرية وتركيز مفهوم الحدود الشرعية والسيادة الوطنية (القطرية) ومحاربة التوجهات السياسية والثقافية والاقتصادية ذات الأهداف الوحدوية.

٢ ـ التفاهم مع الولايات المتحدة حول اسس ومستقبل التعاون البريطاني ـ الامريكي في الخليج العربي، وخصوصاً في ما يتعلق بالامتيازات النفطية. وقد اعتبرت بريطانيا نفسها حكماً بين الامارات العربية في النزاعات الحدودية النفطية مثل تلك التي حدثت بين عُمان وابو ظبي والعربية السعودية. وقد تم تركيز مفهوم الحدود السياسية بين إمارات ساحل عمان التي كان سكان بعض منها لا يتعدى بضعة آلاف. ولعل قضية البريمي هي أحسن مثل على الصراع بين القوى العربية في منطقة الخليج والذي انتهى بتقسيم مناطق النفوذ في البريمي بين الشركات البريطانية والامريكية.

٣ ـ من أجل تقليل الاهتمام العربي بالقضية الفلسطينية وتحجيم نشاط حركة القومية العربية أقدمت الحكومة البريطانية على مشاورة عدد من المستشرقين والباحثين والعسكريين السياسيين حول أنجع الوسائل لإضعاف القدرة العراقية بعامة، والحركة القومية بخاصة، فجاء الجواب بضرورة إعادة تقسيم العراق وسوريا والاردن إلى اثنتي عشرة دولة، إلا أن هذا الموضوع وضع على الرف بسبب مقاومة فرنسا وبعض الشخصيات الدبلوماسية في وزارة الخارجية البريطانية الذين كانوا يرون ضرورة تشجيع العرب على إقامة نوع من الاتحاد تحت الرعاية البريطانية ومحاولة امتصاص تحديات الحركة القومية العربية.

٤ ـ في اليوم الاخير من الحرب العراقية ـ البريطانية، وبالتحديد في ٢٩ أيار/مايو ١٩٤١، أعلن انطوني إيدن وزير الخارجية البريطانية في «مانشن هاوس» أن الحكومة البريطانية تتعاطف مع آمال العديد من المفكرين العرب بالنسبة إلى الشعوب العربية، وهي «تحقيق درجات أكبر من الوحدة العربية»[(١٨)]. وقد شجعت بريطانيا المساعي العراقية ـ السورية ـ المصرية ـ الأردنية لإقامة جامعة الدول العربية التي صدر ميثاق انشائها في ٢٢

---

(١٨) بحيري، «بريطانيا والجامعة العربية: السنوات التأسيسية،» ص ١٠.

آذار/مارس ١٩٤٥. وقد نصت المادة الاولى من الميثاق بأن الجامعة العربية تضم الدول العربية المستقلة، بينما اكدت المادة الثانية أن هدف الجامعة هو توطيد العلاقات بين الدول الأعضاء والتنسيق بين سياساتها لتحقيق التعاون بينها وحماية استقلالها وسيادتها. وأكدت المادة الثامنة على أهمية احترام كل دولة النظام السياسي للدولة الاخرى واعتباره من اختصاص تلك الدولة، وتعهد كل دولة بعدم الاقدام على أي عمل من شأنه تغيير الأنظمة السياسية القائمة.

ولا نريد الدخول في مناقشة الايجابيات والسلبيات لميثاق الجامعة العربية، ولكن من الضروري تبيان الملاحظات التالية حول الموقف البريطاني:

١ ـ إن بريطانيا اعتبرت صيغة الجامعة العربية من خلال ميثاقها هي صيغة معتدلة تضمن «الاستقرار» في المنطقة، وهذه قضية مهمة جداً لضمان المصالح البريطانية واستمرارها.

٢ ـ استبعدت التحضيرات الأولية لتأسيس الجامعة كما استبعد الميثاق الاقطار العربية الغنية بالنفط التي كانت السياسة البريطانية تحاول إبعادها كلياً عن العلاقات العربية وعزلها عن حركة الوحدة القومية واعتبارها منطقة نفوذ بريطانية سياسياً وعسكرياً واقتصادياً.

٣ ـ ان الجهات البريطانية التي فكرت بتأييد المساعي العربية لإقامة جامعة الدول العربية كانت تعتبر هذه المؤسسة هي الحد الأعلى الذي يمكن قبوله من قبل بريطانيا، وهذا يعتبر من قبل القوميين العرب هو الحد دون الادنى.

وترى بريطانيا أنه لا ضرر من «الجامعة العربية» ما دامت ليست ضد المصالح البريطانية. ويقول تقرير مهم للاستخبارات البريطانية: «إذا قرأ المرء البروتوكول بعناية، وإذا اخذ بعين الاعتبار في الوقت عينه آراء وتطلعات من وضعوه، سيتبين أن البروتوكول يحدد أن العالم العربي يجب أن يعتمد توجهاً واحداً وواحداً فقط تجاه العالم الخارجي وليس هناك مجال لتوجهين والسير بأجزاء مختلفة من العالم العربي في اتجاهات متعددة. وفي ظل الظروف القائمة، لا يعني هذا غير أمر واحد: إن التوجه المحدد هو التعاون مع بريطانيا العظمى على استبعاد القوى الأخرى. وهكذا، على الرغم من عدم الإتيان على ذكر مسألة الفرنسيين في المشرق، فإنه من الواضح تمام الوضوح ما يعنيه البروتوكول: ولا شك أن فرنسا ستأخذ بهذا كدليل جديد على الشخصية البريطانية المنشأ للقومية العربية».

٤ ـ رأى العديد من البريطانيين أن انشاء الجامعة العربية من شأنه تحويل انظار الاقطار العربية عن القضية الفلسطينية والانشغال بالعلاقات المختلفة داخل اطار الجامعة ومع بريطانيا، وهذا يفسح المجال للأخيرة لدعم التوجهات الصهيونية في فلسطين التي اصبحت تجد في الولايات المتحدة دعماً غير محدود، وخصوصاً بعد صدور اعلان المؤتمر

الصهيوني في بلتمور عام ١٩٤٢ الذي طالب بفتح فلسطين لهجرة ١٠٠ الف يهودي دفعة واحدة.

وبعد فترة وجيزة على قيام الجامعة العربية بدأت الأخيرة تجابه تحديات عربية مهمة في مجال النضال ضد الاستعمار، وفي مقدمتها حركة الاستقلال الوطني في سوريا ولبنان، ونضال الشعب المصري من اجل الجلاء عن مصر والسودان، وبدء الحركات العربية التحررية في شمال افريقيا، ورفض الشعب الفلسطيني نتائج لجنة التحقيق البريطانية ـ الامريكية عام ١٩٤٦. وفوراً ومنذ عام ١٩٤٦ بدأت بريطانيا تغير من استراتيجيتها حيال جامعة الدول العربية، فأيدت تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧، ووضعت كل ثقلها بجانب المؤسسات والجمعيات الصهيونية وقدمت لها السلاح والمال، واعلنت رفضها الجلاء عن قناة السويس، وتوصلت إلى اتفاق شامل مع الولايات المتحدة عام ١٩٤٧ حول التنسيق بين النفوذين البريطاني والامريكي في المنطقة، وبدأت مرة اخرى تسعى لإحلال الشقاق بين الاقطار العربية.

رابعاً: الموقف الاسرائيلي من الوحدة العربية

منذ بداية الحركة الصهيونية كان الهدف الأساسي هو إقامة وطن قومي يهودي في فلسطين، ثم تطوير هذا الهدف إلى «دولة اسرائيلية» لا حدود لنفوذها تمهد لقيام «اسرائيل الكبرى» من النيل إلى الفرات. ولما اصبحت الصهيونية حليفاً طبيعياً للقوى الغربية الأساسية، وخصوصاً في الحربين العالميتين، فإن تحالفاً قوياً قد وحد من مواقف كل من القوى الأوروبية الغربية والولايات المتحدة واسرائيل لبسط السيطرة على المنطقة العربية ووضع العراقيل امام اية محاولات عربية للوحدة، بل العمل على خلق الذرائع والسبل من أجل اتباع سياسة تفتيت للمنطقة العربية، وإثارة المشاكل مع دول الجوار، والتعاون المباشر مع الحركات الانفصالية في الوطن العربي من العراق إلى السودان. وتم ترشيح تركيا منذ البداية للدخول في تحالفات عسكرية غربية، مثل حلف بغداد (عام ١٩٥٥)، والاشتراك في العدوان الواسع على العراق (عام ١٩٩١)، وخلق جسور تركية مع الكيان الصهيوني تعمل على إضعاف التوجه الوحدوي في الوطن العربي. ولا ننسى ان تركيا حصلت على اقليم الاسكندرونة من سوريا عام ١٩٣٩ بعد أن سلخته بالقوة العسكرية، وبعد التفاهم مع فرنسا الدولة المنتدبة على سوريا يومئذ.

إن التنسيق البريطاني ـ الفرنسي مع اسرائيل إبان العدوان الثلاثي على مصر، والعدوان الاسرائيلي على مصر والاقطار العربية المجاورة عام ١٩٦٧ بالتعاون والتنسيق مع الولايات المتحدة، لا يقبل أي شك في أن الهدف المشترك بين الاستعمار والصهيونية هو إضعاف قدرات الأمة العربية والوقوف ضد طموحها المشروع في التحرر والوحدة والتقدم.

إن دراسة الخطاب الذي ألقاه ديفيد بن غوريون في الكنيست الاسرائيلي في ٢ نيسان/ابريل ١٩٥٧ في أعقاب حرب السويس يؤكد هذه الاستنتاجات عندما قال: «إن هذه الحملة قد خفضت من مكانة الدكتاتور المصري، ولا أريد أحداً منكم أو أحداً من الناس ان يقلل من اهمية هذه الحقيقة. فأنا كواحد من الاشخاص الذين يتلقون رواتبهم من أجل المحافظة على امن اسرائيل. . . كان دائماً يساورني الخوف من أن يقوم فرد، مثلما حدث بين العرب في القرن السابع، أو مثلما حدث في تركيا خلال الحرب العالمية الأولى، يرفع معنوياتهم ويغير طباعهم ويحولهم إلى أمة محاربة. لقد كان هناك خطر، ولا زال هناك خطر من ان يكون عبد الناصر هو هذا الرجل»[١٩].

إن العدوان الاسرائيلي على مصر في حزيران/يونيو ١٩٦٧ لم يكن ليتحقق لولا الدعم اللامحدود الذي قدمته الادارة الامريكية، وبالذات المعونة العسكرية التي بلغت حتى عام ١٩٦٦ أكثر من ٩٢ مليون دولار. وقد كشف ستيفن كرين في كتابه **علاقات أمريكا السرية باسرائيل المتحفزة**[٢٠] الذي صدر عام ١٩٨٤ جوانب مهمة من سياسة التواطؤ الامريكي مع اسرائيل قبل العدوان وأثناءه. ويؤكد المؤلف ان المخابرات الامريكية لم تنظر أبداً إلى الحركة الصهيونية على أنها مجموعة من الهواة أو الحالمين، وأنها حركة توسعية على استعداد لاستخدام أبشع الوسائل حتى ضد اليهود انفسهم. وحول تواطؤ الولايات المتحدة في عدوان حزيران/يونيو ١٩٦٧، يستعرض المؤلف الخيارات الامريكية: إما ترك اسرائيل تتصرف بمفردها، أو أن تقوم الولايات المتحدة ببذل جهد حقيقي للتوسط لتسوية الأزمة، أو التمويه بعمل دبلوماسي يوحي بجديتها لحل الأزمة، ودفع اسرائيل سراً لشن الحرب بمفردها. وهذا الذي حصل، وقد استهدفت الولايات المتحدة تقويض نظام عبد الناصر وتمكين اسرائيل من الاستيلاء على اراضٍ عربية واسعة تصلح كرهينة تفاوض بها على «سلام» يخدم مصالحها أولاً. وهكذا انحازت الولايات المتحدة مع العسكرية الصهيونية لتحقيق «اسرائيل الكبرى» على حساب الأمة العربية.

ويشير الكتاب الذي سبق ذكره إلى ان إقدام الطائرات الاسرائيلية على ضرب سفينة التجسس «ليبرتي» يوم ٨ حزيران/يونيو ١٩٦٧ وإغراقها مع كامل طاقمها كانت عملية متعمدة، وكان رد الفعل الامريكي مائعاً مع فداحة هذا الاعتداء المسلح على هذه السفينة الاستخبارية. وقد أعرب المؤلف عن دهشته من الطريقة التي تاهت بها الفواصل والحدود

---

(١٩) أمين، المصدر نفسه، ص ١٦٢.

(٢٠) Stephen Green, *Taking Sides: America's Secret Relations with a Militant Israel, 1948-1967* (London: Faber and Faber, 1984).

وقد استعرض حسن نافعة أهم ما في الكتاب في: حسن نافعة، «الانحياز: علاقات أمريكا السرية بإسرائيل المتحفزة،» **شؤون عربية**، العدد ٤٧ (ايلول/سبتمبر ١٩٨٦)، ص ٢١٧ - ٢٢٥.

بين ادراك الولايات المتحدة لأمنها القومي ومصالحها الوطنية من جهة، وأمن اسرائيل القومي ومصالحها الوطنية من جهة ثانية. وإذا كانت التصرفات الاسرائيلية تجاه سفينة حربية امريكية بهذا الإصرار، وبهذه القسوة، على رغم الدعم اللوجستي الذي كانت تقدمه الولايات المتحدة للعدوان الاسرائيلي وتسويف الممثل الامريكي الدائم لدى الامم المتحدة بتطويل فترة المناقشات وعدم التوصل إلى قرار ما حتى تحقق القوات الاسرائيلية أهدافها، ترى ماذا يمكن ان تكون التصرفات الاسرائيلية حيال القوة الذاتية العربية أو أية محاولة عربية في اتجاه الوحدة؟

منذ البداية استهدفت الحركة الصهيونية تجزئة الامبراطورية العثمانية. وقال جابوتنسكي في كتابه **قصة الفرقة اليهودية** بأن الأمل الوحيد في إعادة فلسطين الينا هو في تجزئة الامبراطورية العثمانية[٢١]. وقد صاغ الياهو حسقيل بعد ربع قرن مقولة تفكيك وحدة العرب في خطة وضعها عام ١٩٤٦ تقوم على أساس تضخيم مشكلات الاقليات في الوطن العربي ومساعدة البلدان العربية على التوصل إلى حل صادق لمشكلاتها، وتشجيع العناصر الطامحة على تقسيم لبنان إلى دولتين: مسيحية واسلامية[٢٢]. وأما بن غوريون، فإن نظريته لأمن اسرائيل تعتمد على أربعة عوامل اساسية هي: الهجرة، وتأمين المساندة من دولة كبرى، وإقامة دولة صهيونية بغير حدود، وتطويق العرب[٢٣].

وبعد اعلان الوحدة المصرية - السورية وصف بن غوريون الرئيس الراحل جمال عبد الناصر بأنه اخطر اعداء العرب على الاطلاق[٢٤].

وقد وصف أبا ايبان وزير الخارجية الاسرائيلية السابق والسياسي المخضرم موقف اسرائيل من الوحدة العربية بهذه الكلمات المعبرة في مقابلة له مع مجلة **ريالتي** الفرنسية، فقال: «إن بقاء اسرائيل مشروط بثلاثة عناصر هي: استمرار المساعدات الحربية الامريكية المباشرة، واستمرار حماية الدول الكبرى للوضع الراهن في المنطقة (أي حراسة وضع التجزئة)، وأخيراً وفوق كل شيء، استمرار الخلافات العربية، لأنه لو اتحد العرب لما بقي أحد يهتم بنا ولسهل عليهم اذابة كياننا»[٢٥].

---

(٢١) عصام نعمان، «هل أصبحت الوحدة قراراً بالحرب؟»، **المستقبل العربي**، السنة ٨، العدد ٨٥ (آذار/مارس ١٩٨٦)، ص ٨.

(٢٢) المصدر نفسه، ص ٩.

(٢٣) المصدر نفسه، ص ٩.

(٢٤) المصدر نفسه، ص ٩.

(٢٥) المصدر نفسه، نقلاً عن: جورج ناصيف، **الوحدة العربية واسرائيل** (بيروت: معهد الانماء العربي، ١٩٨٥)، ص ٤٧.

خامساً: الخطوات الاسرائيلية لعرقلة قيام الوحدة العربية

تعتمد اسرائيل على سلسلة من الخطوات والاجراءات والتصرفات لمنع إقامة وحدة عربية. وهذه العوامل تمتاز بعدة توجهات تصب جميعها في خدمة الأمن الاسرائيلي وتحقيق مكتسبات اقليمية على الدوام عن طريق السلم أو الحرب. وليس هناك هدنة في المفهوم الاسرائيلي بين الخطوات السلمية وشن الاعتداءات المستمرة على العرب داخل فلسطين وخارجها. فالقوة العسكرية الاسرائيلية في حالة تأهب دائم والاعتداءات الاسرائيلية اليومية على جنوب لبنان اصبحت روتينية بينما يجلس المسؤولون العرب (والفلسطينيون) على مائدة المفاوضات بوساطة البيت الابيض. ومن يتتبع تواريخ اتفاقية كامب ديفيد واتفاقية غزة ـ اريحا يلاحظ أن الطائرات الحربية الاسرائيلية لم تتوقف حتى في يوم التوقيع على هذه الاتفاقيات عن قصف وحشي لجنوب لبنان وحرب ابادة للشعب الفلسطيني.

دعونا نتتبع خطوات السيناريو الاسرائيلي منذ عام ١٩٧٩:

في ٢٦ آذار/ مارس ١٩٧٩ تم التوقيع على اتفاقية السلام بين مصر واسرائيل في واشنطن والتي عرفت باتفاقية كامب ديفيد. وقد اعترفت مصر في تلك الاتفاقية بإسرائيل دولة شرعية ذات سيادة، وبأن حدودها لا تنتهك، وتعهدت بعدم تهديد اسرائيل بالحرب، وبتسوية كافة المنازعات بينهما بالطرق السلمية، وألا تسمح لأحد بأن يستخدم ارضها لتهديد أمن اسرائيل أو مواطنيها أو أملاكها، وبأن تعاقب من يقوم بذلك. وتعهدت مصر بالامتناع عن القيام بأية دعاية ضد اسرائيل، وان تسمح للسفن الاسرائيلية وللبضائع الآتية منها والذاهبة إليها بالمرور الحر في قناة السويس ومداخلها، وفي مضيق تيران وخليج العقبة، وألا تدخل في أي اتفاق أو تتعهد بأي التزام يتعارض مع ما تقدم. وقبلت مصر كذلك بأن يكون تسليح شبه جزيرة سيناء محدوداً، وأن تسمح بوجود لقوات الامم المتحدة فيها، والا تقام فيها موانئ حربية أو مطارات لأغراضها العسكرية. وتعهدت مصر كذلك بإلغاء كل القيود التي تحول دون وجود علاقات اقتصادية طبيعية مع اسرائيل، مما قد يميز اسرائيل من غيرها، وأن تبادر إلى إنهاء المقاطعة الاقتصادية لإسرائيل. كما تعهدت مصر بأنها بعد المرحلة الاولى للانسحاب العسكري فإنها ستبادر إلى عقد اتفاقيات اقتصادية وثقافية تدعم العلاقات بين البلدين.

وبالاضافة إلى الامتيازات التي منحتها مصر بموجب الاتفاقية لاسرائيل، فانها تعهدت بالتعاون معها لتوسيع التعاون مع اقطار عربية اخرى من خلال المادة السادسة من الملحق رقم (٣) الذي نص على بحث انشاء طرق وسكك حديد، وعلى انشاء طريق يربط مصر واسرائيل والأردن يسمح بحرية انتقال المركبات والسلع، وعلى إقامة خطوط الاتصال بالبريد والهاتف والبرق والاذاعة والتلفزيون طبقاً للقواعد والاتفاقيات

الدولية[٢٦]. وقد تعهدت اسرائيل مقابل ذلك بالانسحاب من الاراضي المصرية على مراحل، علماً بأن الولايات المتحدة وحليفاتها كانت قد طالبت فقط باعتراف مصر عبد الناصر باسرائيل مقابل هذا الانسحاب، إلا ان الرئيس المصري رفض ذلك وأخذ يركز على عملية إعادة البناء السياسي من الداخل، وفي ذهنه هدف واحد هو تحرير الارض بحسب الشعار الذي اطلقه: ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة.

إن أهم التائج المستخلصة من قرارات اتفاقية كامب ديفيد هي:

١ ـ إخراج مصر عن حلبة الصراع العربي ـ الصهيوني ومن مركزها القيادي في حركة الوحدة العربية في المشرق العربي والمغرب العربي على السواء.

٢ ـ البدء بتصفية الانجازات العربية على صعيد العمل العربي المشترك في إطار الجامعة العربية، فانهاء المقاطعة المصرية لاسرائيل بداية لجر دول عربية اخرى للسير في النهج نفسه والتوصل إلى اتفاقيات مماثلة لاتفاقية كامب ديفيد تمهد لتعاون شرق اوسطي يلغي مهمة الجامعة العربية لصالح مؤسسات اقتصادية دولية تشرف عليها الولايات المتحدة، ويشارك فيها بعض اقطار الشرق الاوسط، وتكون اسرائيل المحرك الرئيسي فيها.

٣ ـ إن الاتفاقية هي تمهيد لتصفية القضية الفلسطينية، تلك القضية التي اشغلت العالم لأكثر من قرن، والتي تعتبر حجر الزاوية في الفكر القومي العربي، وفي المساعي الوحدوية.

٤ ـ وضع الأمن القومي العربي تحت رحمة القوة الذاتية الاسرائيلية وفسح المجال لأقطار الجوار، بما في ذلك تركيا وايران، للتغلغل مجدداً في المنطقة.

٥ ـ إفساح المجال لاختراق ثقافي واسع النطاق تدعمه اجهزة الإعلام والعلاقات العامة الصهيونية والاوروبية والامريكية يستهدف تقويض النظام العربي القائم وهدم القيم التراثية والحضارية العربية، وخصوصاً الدين الاسلامي والقومية العربية.

٦ ـ تحقيق تغلغل اقتصادي صهيوني ـ امريكي لا يشمل الاقطار العربية المجاورة لاسرائيل فقط، بل يتعداه إلى منطقة الخليج العربي، حيث يعتبر قادة اسرائيل ان من حقهم تطوير علاقات نفطية ومالية مع هذه المنطقة واستخدام هذه العلاقات لتنمية مشاريع شرق اوسطية تكون فيها المصالح الاسرائيلية هي العليا.

٧ ـ إن التوصل إلى صيغة لـ «السلام» لا يعني مطلقاً توقف اسرائيل عن تطوير

(٢٦) أمين، المشرق العربي والغرب: بحث في دور المؤثرات الخارجية في تطور النظام الاقتصادي العربي والعلاقات الاقتصادية العربية، ص ١١٧ ـ ١١٨.

قدراتها الذرية والعسكرية والتقانية المختلفة، كما لا يعني توقف المساعدات العسكرية والمالية الامريكية، فمن المعروف أن هذه المساعدات تتضاعف كل عام. اما حجم المساعدات التي قدمت لمصر فكانت اقل بكثير، كما أن الادارات الامريكية المتعاقبة ظلت متمسكة بمبدأ التفوق الاسرائيلي واعتبرت الامن القومي الاسرائيلي جزءاً من الامن القومي الامريكي، وربما اكثر اهمية.

وكان الرئيس الراحل جمال عبد الناصر يدرك الأسباب التي تدفع الولايات المتحدة وحلفاءها للضغط عليه للاعتراف باسرائيل، وقال لمجلس وزرائه في ١٨ شباط/ فبراير ١٩٦٨ : «إن امريكا واسرائيل تعملان بكل قوة من اجل تصفية القضية الفلسطينية، وهما تحاولان بكل الوسائل تحويل القضية إلى مشكلة مصرية ـ اسرائيلية، ومشكلة سورية ـ اسرائيلية، ومشكلة اردنية ـ اسرائيلية(٢٧).

وفي لقاء عبد الناصر مع جيوليوس نيريري، رئيس جمهورية تنزانيا، يوم ١٨ كانون الثاني/ يناير ١٩٦٩، أوضح أن دين رسك، وزير الخارجية الامريكية، في حديث أخير مع محمود رياض (وزير خارجية الجمهورية العربية المتحدة) حاول ان يفتت القضية العربية ويحولها إلى قضايا عدة، وطبعاً في ذلك خطر على القضية كلها، وتساءل الرئيس عبد الناصر: «تصور مثلاً الاردن الضعيف عسكرياً يدخل في مفاوضات ثنائية مع اسرائيل، المتفوقة عليه عسكرياً، أي أنه سيجد نفسه غير قادر، من الوجهة العملية، على الوقوف امام اطماع ومطالب اسرائيل في القدس والضفة الغربية»(٢٨). وأكد الرئيس جمال عبد الناصر ان الاستراتيجيا الامريكية في المنطقة تتلخص في ايجاد دولة تابعة لها، ضامنة ولاءها داخل المنطقة العربية من أجل أن تكلفها بتنفيذ المهام التالية:

١ ـ تصدير الخبرات الفنية العالية لدول المنطقة.

٢ ـ السيطرة الكاملة على تجارة المنطقة.

٣ ـ أن تصبح مركزاً لتصدير الاستثمارات الأجنبية لدول المنطقة ومتابعة سير تلك الاستثمارات من أجل إنمائها(٢٩).

سادساً: السلام الاسرائيلي في أعقاب اتفاقيات كامب ديفيد

كما قلنا في السابق، فإن اسرائيل في مساعيها المختلفة لتمزيق الصف العربي لا تتورع مطلقاً عن دعم المكتسبات التي حصلت عليها سلماً بعمليات عسكرية مستمرة ضد

---

(٢٧) عبد المجيد فريد، من محاضر اجتماعات عبد الناصر العربية والدولية، ١٩٦٧ ـ ١٩٧٠ (بيروت: مؤسسة الابحاث العربية، ١٩٨٥)، ص ١٠٨.

(٢٨) المصدر نفسه، ص ٢٦٨.

(٢٩) المصدر نفسه، ص ٢٧٠.

الشعب الفلسطيني وضد الأقطار العربية المجاورة وضد الأمن القومي العربي عموماً. وبعد أقل من سنة على توقيع مصر واسرائيل تلك الاتفاقية كانت الممارسات العدوانية الاسرائيلية قد بدأت على الشكل التالي ولا تزال مستمرة:

١ ـ الغارة الجوية الاسرائيلية على المنشآت النووية العراقية (التي أنشئت للاغراض السلمية) وذلك عام ١٩٨٢.

٢ ـ الاجتياح الاسرائيلي للبنان في السنة نفسها واستمرار العدوان الاسرائيلي على لبنان حتى اليوم.

٣ ـ سلسلة الاغتيالات والتصفيات الجسدية لشخصيات فلسطينية قيادية، والتي شملت أقطاراً أوروبية وعربية عديدة، بالاضافة إلى العدوان الاسرائيلي الجوي السافر على مقر قيادة منظمة التحرير الفلسطينية في تونس وغيره، مما أدى إلى استشهاد عدد من القيادات المذكورة.

٤ ـ دعم المجهود العسكري الايراني ضد العراق وتقديم الاسلحة والخبرات لايران في حربها ضد العراق. والدور الاسرائيلي واضح في ما يعرف بقضية «ايران غيت»، وهي قضية تقديم السلاح الامريكي مقابل اطلاق الرهائن من أعضاء السفارة الامريكية في طهران.

٥ ـ دعم اسرائيل للحركات الانفصالية في شمال العراق وجنوب السودان.

٦ ـ الدور العسكري الاسرائيلي للعدوان ضد العراق إبان حرب الخليج الثانية، وقد شاركت اسرائيل في عمليات الإعداد للعدوان، كما ساهمت في تقديم تسهيلات لوجستية للقوات الحليفة، وكان ما يهمها هو تدمير القدرات الذاتية العراقية العسكرية والتقانية، وتحجيم دور العراق القومي والاقليمي ومركزه في اطار الفكر القومي وحركة الوحدة العربية.

لقد اعتبرت اسرائيل نفسها «دولة رئيسية» مشاركة في التحالف ضد العراق، ولهذا فإنها اخذت تطالب بثمن هذه المشاركة من الولايات المتحدة، ومن الاقطار العربية التي هرع بعضها إلى الاعلان عن رغبته في تطبيع العلاقات مع اسرائيل وإنهاء المقاطعة العربية عن طريق المطالبة بتصفية نظام المقاطعة العربية والتجاوب مع رغبات الادارة الامريكية بهذا الخصوص.

وقد أكد الرئيس الامريكي السابق جورج بوش في أعقاب العدوان على العراق ان «حرب الخليج هي حرب للدفاع عن مصير اسرائيل ومستقبلها، وأن الدعم الامريكي لاسرائيل هو مسألة ذات أهمية خاصة للمصالح السياسية والاقتصادية والعسكرية العليا

للولايات المتحدة في الشرق الاوسط»[٣٠]. وأكد المعلق العسكري الاسرائيلي رون بن بشاي، مراسل صحيفة **يديعوت** للشؤون العسكرية، أن المساعدات المقدمة إلى اسرائيل تخدم أولاً الأمن القومي الامريكي، وبالتالي فإن من حق اسرائيل أن تحصل عليها، وهي ليست من باب الكرم. وأكد أنه «إذا ما استمرت «المسيرة السلمية» فإن قيمة اسرائيل كحليفة استراتيجية للولايات المتحدة تزداد لأن «المسيرة السلمية» تزيل العقبات السياسية التي حالت دون استعانة الغرب باسرائيل دفاعاً عن المصالح الغربية في الشرق الاوسط، وبالتالي فإن اسرائيل كانت وما زالت حليفة استراتيجية للولايات المتحدة، وازدادت قيمة اسرائيل حالياً عشرات المرات وأضعاف ما كانت عليه في عهد الحرب الباردة. وعندما تطالب اسرائيل بأن تحصل على مساعدة أمنية، فإنها تحصل عليها كحق، وليس باعتبارها كرماً امريكياً»[٣١].

وقد كتب باحث ومحام لبناني هو عصام نعمان في مجلة **المستقبل العربي** عام ١٩٨٦ مقالاً تحت عنوان «هل أصبحت الوحدة قراراً بالحرب؟» أكد فيه «ان الوحدة العربية هي قرار بالحرب. لذلك يجب أن يفاجئ العرب اسرائيل بالوحدة وكأنهم يفاجئونها بالحرب. وإذا لم يتخذ العرب قراراً بالحرب يوماً من الأيام من اجل التحرير الذي هو طريق الوحدة، فستتخذه اسرائيل المرتابة المتربعة والمستعدة دائماً للانقضاض من اجل استباق كل وحدة ترى فيها أفولها الاكيد»[٣٢]. وفي محاضرة أعدها لندوة الدراسات الاستراتيجية في جامعة تل ابيب في اواخر عام ١٩٨١ قال آرييل شارون وزير الدفاع آنذاك: «سنمنع أي تغيير في الوضع الجغرافي ـ العسكري لمناطق المواجهة قد يؤدي إلى خطر لا يحتمل مثل إرسال كثيف لقوات عراقية إلى الاردن وإلى جنوب سوريا أو إرسال قوات سورية إلى الاردن. إن تجمعاً كهذا للقوات في منطقة المواجهة من شأنه ان يعرض جوهر وجودنا للخطر. وبناءً عليه لن يكون (هذا الاحتمال) مقبولاً من اسرائيل»[٣٣].

واليوم وقد مضت أكثر من أربع سنوات على العدوان الامريكي ـ الصهيوني على العراق، ومن دون الدخول في تفاصيل أحداث الفترة التي تلت ٢ آب/أغسطس ١٩٩٠، بما في ذلك أسباب الازمة العراقية ـ الكويتية وخلفية تلك الازمة وأبعادها على الامن القومي العربي، فإن المؤكد ان الهدف الاستعماري ـ الصهيوني هو تدمير النظام العربي

---

(٣٠) مقال جيمس زغبي في: **ميدل إيست ميرور** (٢٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٢)، وقد ترجمته صحيفة: **الرأي** (الاردن)، ٢٩/١١/١٩٩٢.

(٣١) رون بن بشاي، «مكانة اسرائيل الاستراتيجية في السياسة الامريكية ازدادت عشرات الأضعاف،» محاضرة ألقيت في جمعية يديعوت أحرونوت الاسرائيلية وقد ترجمتها صحيفة: **الدستور** (الاردن)، ١٩/١٠/١٩٩٢.

(٣٢) نعمان، «هل أصبحت الوحدة قراراً بالحرب؟».

(٣٣) المصدر نفسه، ص ١١.

وتصفية الاموال العربية واستخدامها في تدمير العرب بعضهم بعضاً. واليوم حين تواجه اسرائيل العرب، فإنها تواجههم وهي موحدة في الداخل ومدعومة بقوة من الولايات المتحدة ومن كثير من القوى العالمية، بهدف تحقيق اكبر قدر ممكن من المكاسب على حساب العرب، بينما الانظمة العربية تواجه اسرائيل وحلفاءها، وهي على قدر كبير من التفكك والانقسامات الداخلية، ولا تتلقى أي دعم إقليمي أو دولي نظراً إلى غياب الكيان العربي الموحد والمشروع العربي الموحد والحليف الاستراتيجي، أي الاتحاد السوفياتي السابق[٣٤].

سابعاً: الوحدة العربية والنظام الاقتصادي الشرق أوسطي

يعتبر مشروع النظام الاقتصادي الشرقي أوسطي سلسلة جديدة من التحديات والعراقيل التي تستهدف ايقاف أية محاولات جديدة لتحقيق الوحدة العربية. وبعد أن حققت اسرائيل نجاحات عسكرية وسياسية كبيرة على حساب القدرات الذاتية العربية فهي تحاول اليوم الالتفاف على العرب من خلال طرح مشاريع تعاون اقتصادية تبدو وكأنها مشاريع تنمية وسلام، ولكن آثارها في المستقبل العربي هي في الحقيقة أبعد مدى وأشد تدميراً من تلك التي شهدها الوطن العربي حتى الآن في ظل سلسلة المؤامرات الامريكية ـ الصهيونية ضد حرية الاهداف العربية وتقدمها ووحدتها. وتعتبر اتفاقيات غزة ـ أريحا التي تم التوصل إليها بين اسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية في ايلول/سبتمبر ١٩٩٣ هي الثانية في سلسلة التسويات الاستسلامية للعدوان الصهيوني بعد اتفاقيات كامب ديفيد عام ١٩٧٩، وخطورتها على القضية الفلسطينية وعلى الامن القومي العربي ربما تكون أكبر من مضامين ما جُني بالاتفاقية المصرية ـ الاسرائيلية لعدة عوامل:

١ ـ إن اتفاقيات غزة ـ أريحا عالجت القضية الفلسطينية ووضعت الأسس لتصفيتها، بالتعاون مع منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي الوحيد للقضية الفلسطينية.

٢ ـ إنها وضعت البداية لصراعات فلسطينية ـ فلسطينية تخدم في النتيجة الوجود الصهيوني على ارض فلسطين.

٣ ـ إنها جعلت من اسرائيل قطب النشاط الاقتصادي والتجاري والتقني في المنطقة على حساب النظام العربي ومشاريع العمل العربي المشترك في اطار الجامعة العربية وخارجها.

٤ ـ إنها وضعت الحجر الأساسي لتعاون اسرائيلي ـ عربي في إطار التعاون مع

(٣٤) مسعود ضاهر، «ثوابت الثقافة القومية العربية في المرحلة الراهنة،» **شؤون عربية**، العدد ٨١ (آذار/مارس ١٩٩٥)، ص ١٧٦.

الغرب عامة، والولايات المتحدة بصورة خاصة، تكون نتيجته تفوق ساحق للدور الاسرائيلي العسكري والسياسي والاقتصادي.

ويتمثل البعد الاقتصادي والسياسي للنظام الشرق أوسطي في الاساس في فكرة «السوق الشرق أوسطية» القائمة على فكرة «التعاون الاقليمي» التي تتكرر في جميع الاوراق الامريكية (ورقة هارفرد) والاوروبية والبنك الدولي. وهناك في هذه الاوراق ثلاثة افكار هي:

١ ـ ان منطقة الشرق الاوسط مقبلة على سلام دائم سيكون من نتائجه تخفيض كلفة الأمن.

٢ ـ الليبرالية التي يجب أن يقوم عليها الاصلاح الاقتصادي في جميع الاقطار الشرق أوسطية، بمعنى ان يكون الاصلاح بالمفهوم السياسي والاجتماعي، وضرورة انتاج فئات ذات مصلحة في السلام.

٣ ـ الربط بين السلام السياسي والاصلاح الاقتصادي والتعاون الاقليمي، ويتحقق هذا التعاون من خلال «سوق شرق أوسطية» تستهدف تحويل استمرار اسرائيل وتواصل نموها نحو المنطقة العربية، وبالتالي دمجها فيها أو معها لتستفيد نفطياً وغازياً وتصبح مركزاً تجارياً ومالياً لا يمكن الاستغناء عنه او تجاوزه إلى نظام اقتصادي عربي مستقل عنها أو متجاوز اياها[٣٥].

وقد اتفقت معظم التصورات والسيناريوهات الواردة في هذه الوثائق على ان «النظام الشرق اوسطي الجديد» سوف يتحدد عبر ثلاثة مستويات رئيسية:

١ ـ إقامة تجمع اقتصادي ثلاثي يجمع بين الاردن والكيان الفلسطيني واسرائيل على غرار الاتحاد الاقتصادي القائم بين دول البنلوكس الاوروبية الثلاث (بلجيكا وهولندا ولوكسمبورغ).

٢ ـ إقامة منطقة للتبادل التجاري الحر تضم كلاً من مصر واسرائيل والاردن، وسوريا، ولبنان، على ان تنتهي الترتيبات الخاصة حوالى العام ٢٠١٠.

٣ ـ إقامة منطقة موسعة للتعاون الاقتصادي تشمل بالاضافة إلى «منطقة التبادل التجاري الحر» بلدان مجلس التعاون الخليجي، وتتم في إطار حرية انتقال رؤوس الأموال.

ويرى محمود عبد الفضيل أن هذه المستويات الثلاثة للتعاون الاقتصادي تعتبر

---

(٣٥) عبد المنعم السيد علي، «البعد الاقتصادي للنظام الشرق اوسطي،» آفاق عربية، السنة ١٩، العددان ٧ ـ ٨ (تموز/يوليو ـ آب/أغسطس ١٩٩٤)، ص ٣١.

مستويات متداخلة ومترابطة، بحيث يفضي الواحد منها إلى الآخر. ويعتقد أنه في ظل الترتيبات الاقتصادية «الشرق اوسطية» الجديدة والتوزيع غير المتكافىء لمكاسب السلام، قد تصبح اسرائيل هي المركز ومحطة الضخ الرئيسية، وبقية البلدان العربية هي الاطراف في غياب نظام عربي جماعي يحافظ على الحد الادنى من شروط التنمية المستقلة والمتوازنة[٣٦].

وأما غسان سلامة فيرى أن السوق الشرق أوسطية هي هاجس مهم، حيث يبدو فيه انشقاق الجسم العربي إلى شظايا غير متآخية. فالسوق الشرق أوسطية لا تنبه العرب فقط إلى عجزهم عن إنشاء «سوق عربية» موحدة خاصة بهم دون غيرهم، ولا حتى عن أشكال ادنى بكثير من التعامل والتضامن والتكافل، أو حتى التعاون، بل أيضاً تنبههم إلى أخذ الآخرين علماً بهذا العجز الدائم، وإلى سعيهم الدؤوب لتحويله إلى مصلحتهم من خلال قيام «سوق» يدخل فيه العرب مشتتين بل متناحرين[٣٧].

أما اسرائيل، فإنها تتهيأ ليس فقط لدخول السوق الشرق اوسطية، بل لتكون محور هذه السوق في ظل التفوق العسكري والنووي والدعم والمساعدة الاقتصادية اللامحدودة من الولايات المتحدة. وفي الوقت الذي لا يزال فيه السيف الاسرائيلي مسلّطاً على رقاب العرب، فإن قادة اسرائيل مستعدون لانتهاز كل الفرص للتحدث عن السلام والتعاون الاقتصادي.

ونشير إلى افكار شمعون بيريس المطروحة في كتابه **الشرق الاوسط الجديد** الصادر عام ١٩٩٤ بالانكليزية، وقد ترجم إلى اللغة العربية (ونقتبسه من مقالة لمسعود ضاهر) وقد جاء فيه[٣٨]: «ينبغي ان ندرس التاريخ لنتعلم دروسه النقدية. ولكن ينبغي أن نتعلم أيضاً متى نتجاهل التاريخ. إننا لا نستطيع أن نسمح للماضي بصياغة مفاهيم جامدة تنفي قدرتنا على شق طرق جديدة... إن معرفة اللحظة المناسبة للافتراق عن الماضي تحقق مزية نافعة: عنصر المفاجأة، ويحصل احياناً ان ما يأتي على سبيل المفاجأة يولد قدراً من المعارضة أقل مما هو متوقع... إن مفتاح الحفاظ على نظام أمني يكمن في السياسة والاقتصاد... وان التمتع بمستوى عيش عال اليوم يتطلب إقامة علاقات تجارية تنافسية، وفتح الحدود، والاعتماد على العلم والتكنولوجيا... والجبروت الحقيقي، بما فيه الجبروت العسكري، لم يعد قائماً في المعسكر بل في الحرم الجامعي، وينبغي للسياسة أن تعبّد طريق التحول من الاستراتيجيا العسكرية الصرفة إلى التعاون السياسي والاقتصادي المعمق». ويضيف شمعون بيريس قائلاً: «هدفنا النهائي هو اسرة اقليمية من الامم، ذات سوق مشتركة، وهيئات مختارة على غرار الجماعة الاوروبية، وإن الحاجة إلى هذا الاطار

---

(٣٦) ملخص أفكار محمود عبد الفضيل عن مشاريع الترتيبات الاقتصادية الشرق أوسطية، انظر طارق الغندور، «التحديات الشرق اوسطية الجديدة والوطن العربي،» (استعراض للكتاب الصادر عن مركز دراسات الوحدة العربية)، شؤون عربية، العدد ٨١ (آذار/مارس ١٩٩٥)، ص ٣٣٧.

(٣٧) المصدر نفسه، ص ٣٣٧.

(٣٨) ضاهر، «ثوابت الثقافة القومية العربية في المرحلة الراهنة،» ص ١٧٦ ـ ١٧٧.

الاقليمي تقوم على اربع عوامل جوهرية هي: الاستقرار السياسي، والاقتصاد، والامن القومي، وإشاعة الديمقراطية».

إن هذا المنطق الاسرائيلي قد وضع اسرائيل في موضع متقدم جداً في المنطقة، وهو يستند إلى جهود اكثر من مئة عام من التخطيط الصهيوني الذي حقق هذه الانتصارات العسكرية والاقتصادية والسياسية على العرب بمساعدة القوى العالمية الكبرى، وخصوصاً الولايات المتحدة، مستفيداً من حالات التفكك والقطرية والتناحر والحروب الاهلية العربية ـ العربية، وخصوصاً في الفترة التي تلت اتفاقيات كامب ديفيد بين مصر واسرائيل. وهكذا فإن اسرائيل بدأت تفكر، كما قال الكاتب العربي محمد حسنين هيكل، بتنفيذ مشاريع اتحادية مثل «سوريا الكبرى» و«الهلال الخصيب»[٣٩] التي عارضها العرب بعد الحرب العالمية الثانية عن طريق تزعم النظام الاقتصادي الشرق اوسطي.

ومن الغريب أن الامين العام لجامعة الدول العربية عصمت عبد المجيد قد أيد وجهة النظر القائمة على أن السوق الشرق اوسطية لا تعني بأي حال من الاحوال استبدال التعاون العربي بآخر اقليمي، وأكد ان جامعة الدول العربية ستظل هي المعبر عن آمال وتطلعات أمتها العربية. وقال في محاضرة له ألقاها في افتتاح الموسم الثقافي لجامعة القاهرة يوم ١٩ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٤ ما يلي: «.. وعليه ليس ثمة تخوف من احتمالات هيمنة اسرائيلية على مصائر العرب وأقدارهم، ذلك أن اسرائيل لا تعدو ان تكون بقعة صغيرة مقيدة بمواردها المحدودة في محيط عربي واسع يمتلك امكانات كثيرة وموارد ضخمة. ومن ثم فلن يكون لاسرائيل اية ميزة اقتصادية، وانما يمكن التعامل معها كما يمكن التعامل مع غيرها سواء ايران او تركيا او قبرص حسب معايير وضوابط معينة تضعها كل دولة وفقاً لمصالحها الوطنية وفي إطار المصلحة القومية العليا للأمة العربية»[٤٠].

ولكن من حقنا أن نتساءل كيف يكون التعامل بين طرف يتسلح بالقنابل النووية وتدعمه الصهيونية العالمية والقوى الاستعمارية المختلفة ويملك اعلى درجات التقانة، وطرف ضعيف مفكك لا يحق له ان يملك قدرات علمية وتقانية أو أن يمتلك قدرات عسكرية تؤهله للمحافظة على امنه القومي. ويقول محمد حسنين هيكل[٤١]: «نحن نتصور

---

(٣٩) نص مقابلة محمد حسنين هيكل مع هيئة الاذاعة البريطانية في: العربي (القاهرة)، ٢٠/٢/١٩٩٥.

(٤٠) احمد عصمت عبد المجيد، «جامعة الدول العربية في ظل المتغيرات الاقليمية والدولية،» شؤون عربية، العدد ٨١ (آذار/مارس ١٩٩٥)، ص ١٢ ـ ١٧.

(٤١) محمد حسنين هيكل، «العرب على اعتاب القرن الـ ٢١،» المستقبل العربي، السنة ١٧، العدد ١٩٠ (كانون الاول/ديسمبر ١٩٩٤)، وهي نص محاضرة ألقاها هيكل أمام المؤتمر السنوي الثلاثين لجماعة خريجي المعهد القومي للإدارة العليا في مصر والذي عقد في الاسكندرية بتاريخ ٢٨ تشرين الاول/ اكتوبر ١٩٩٤.

أننا مقبلون على عصر من السلام مع اسرائيل، ولكن السلام اختيار حر يقوم ـ إذا ما قام ـ على تراضٍ بالتوافق يضمن مصالح جميع الاطراف وأمنهم. والسلام الذي يجري صنعه في العالم العربي الآن لا يبدو سلاماً حقيقياً قادراً على الازدهار. وفي صميم الموضوع فإنه سلام يقول بامتلاك اسرائيل لسلاح نووي وقصور الآخرين حتى على مقدرة الدفاع عن النفس، فضلاً عن التمسك بالحق، وربما يكفينا أن ندرس بعمق كاف «اتفاق غزة ـ اريحا اولاً»، وهو اتفاق يستحيل وصفه إلا بأنه اتفاق إذعان، ثم إن الطريقة التي يجري بها التعامل مع اسرائيل توحي بكل تفاصيلها بأنها عملية تسابق إلى جائزة اكثر مما هي لقاء مع اختبار مصائر وأقدار».

إن التحديات الاسرائيلية والامريكية الجديدة الخاصة بالدعوة إلى إنشاء نظام اقتصادي شرق اوسطي يجب أن تجابه بنظام عربي يقوم على اساس العمل العربي المشترك، وخصوصاً السعي لإقامة السوق العربية المشتركة والصندوق العربي للتنمية ومؤسسات عربية مشتركة لاستثمار المياه.

ومن هنا، فإن مسؤولية تاريخية تقع على كاهل جامعة الدول العربية والدول الأعضاء فيها للتحرك بسرعة لإيجاد آلية جديدة لتطبيع العلاقات العربية ـ العربية وتحقيق المصالحة القومية، والعودة إلى تنفيذ قرارات مؤتمرات القمة حول التعاون الاقتصادي العربي. إن الدبلوماسية الاسرائيلية تسعى دائماً لجر تركيا إلى المشاركة في المشاريع الاقتصادية الشرق اوسطية. وإن إقحام تركيا في المشاريع الجديدة من شأنه تعقيد الوضع في المنطقة أكثر وأكثر، فمن المعروف أن تركيا تعتبر المياه سلعة اقتصادية شأنها شأن النفط، وترفض الاعتراف بحقوق سوريا والعراق في مياه نهر الفرات في اطار القانون الدولي الذي يتحكم بتوزيع المياه المشتركة، لأن تركيا ترفض أصلاً ان تعتبر نهر الفرات نهراً مشتركاً على اساس أنه ينبع من أراضيها، ولذلك فهي مستعدة للتعاون مع مشاريع اسرائيلية أو سعودية لتصدير المياه عن طريق الأنابيب. وقد صرح سليمان دميريل رئيس الجمهورية التركية مرة: «ان العراق وسوريا لا يحق لهما ادعاء حقوق في انهار تركيا بدرجة أكثر مما يمكن أن تدعيه تركيا في حق نفطهما، ولتركيا الحق في أن تعمل ما تشاء في مواردها المائية»[٤٢].

ثامناً: مواقف القوى الكبرى من الوحدة العربية والدور الخليجي

من المعروف ان القوى الكبرى في سيطرتها الاستعمارية على الاقطار العربية عملت على تركيز دعائم القطرية سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً، ومن خلال رسم الحدود

(٤٢) John Bulloch and Adel Darwish, *Water Wars: Coming Conflicts in the Middle East* (London: Victor Gollancz, 1993), p. 14.

السياسية العربية اخذت بنظر الاعتبار اولاً المصالح الخاصة بها، وبالاخص المصالح النفطية والاستراتيجية، وقد سعت الهيئات الاستشارية الاجنبية للحكومات «المستقلة» لتركيز مفهوم هذه الحدود، وأنها حدود «مقدسة»، ومن الضروري عدم التخلي عن اي جزء من السيادة الوطنية لأي سبب، بما في ذلك الدخول في تعهدات عربية ثنائية أو من خلال مشاريع العمل العربي المشترك. إن هذا الشعور المفرط بالاقليمية وتعميق مفهوم «الدولة» على مفهوم «الأمة» قد ولد شعوراً بالاحباط لدى أولئك الذين يتطلعون إلى الوحدة العربية، أو على الأقل إلى تحقيق خطوات نحوها من خلال مشاريع اقتصادية واجتماعية وثقافية عربية مشتركة، أو من خلال خطط عسكرية موحدة لضمان الأمن القومي العربي.

إن جميع القوى الاستعمارية التي حكمت الاقطار العربية قد شجعت الاقليمية والعشائرية والخلافات العنصرية والدينية والمذهبية والفوارق الاجتماعية، وكلها أجمعت في سياستها على إبقاء كل قطر عربي ضعيفاً في الداخل وغير قادر على الدفاع عن نفسه، كما أجمعت على مقاومة أية توجهات على طريق الوحدة العربية.

وقد توصل علي محافظة في كتابه **موقف فرنسا وألمانيا وإيطاليا من الوحدة العربية، ١٩١٩ ــ ١٩٤٥** إلى الاستنتاجات التالية التي تؤيد ما ذهبتُ إليه اعلاه: «وخلاصة القول أن دراسة مواقف بعض الدول الكبرى من الوحدة العربية بين عامي ١٩١٩ ــ ١٩٤٥ تؤكد لنا حقيقة أساسية، وهي ان الوحدة العربية مشروع سياسي واقتصادي وثقافي خطير ليس في صالح أي دولة كبرى تحقيقه، لأن تحقيقه يعني قيام دولة عربية قوية ومنافسة خطيرة لهذه الدول، بسيطرتها على ممرات مهمة في قلب العالم، ولامتلاكها طاقات بشرية ومادية هائلة تحد من أطماع تلك الدول وطموحاتها، كما تثبت لنا حقيقة اخرى، وهي أن هذه الوحدة لا يمكن ان تتحقق إلا بإرادة العرب وعزمهم وتصميمهم لأنها تعنيهم وحدهم اولاً وأخيراً، فهي سبيلهم إلى الأمن والاستقرار والتقدم والازدهار. وحالة التجزئة التي يعيشونها اليوم لن تفضي بهم إلا إلى مزيد من الضعف والاضطراب والتخلف والعيش على هامش التاريخ»[٤٣].

لقد حاربت القوى الكبرى كافة المحاولات الوحدوية، سواء الملكية أو الجمهورية في الوطن العربي، ووقفت ضد الوحدة المصرية ـ السورية، وضد وحدة اليمن، وضد محاولات الوحدة بين العراق وسوريا، وبين مصر والسودان، وبين الاقطار العربية في شمال افريقيا، إلا ان دورها الاساسي كان في منطقة الخليج العربي. فقد استهدفت بريطانيا عزل المنطقة كلياً عن الاقطار العربية الأخرى والتوجهات الوحدوية العربية، وحتى كحد ادنى عن قضايا التعاون مع الاقطار العربية المجاورة. وتم رسم الحدود بين اقطار ومشيخات عربية يكاد لا يزيد عدد نفوس بعض منها على بضعة آلاف نسمة.

(٤٣) محافظة، موقف فرنسا وألمانيا وإيطاليا من الوحدة العربية، ١٩١٩ ـ ١٩٤٥، ص ٤٧٣.

وقد تم ترسيخ القواعد التالية:

١ - إن الحدود السياسية هي حدود «مقدسة» ويجب استخدام القوة المسلحة إذا حدثت أية محاولة لتغييرها من خارج المنطقة أو من داخلها. ومن الضروري المحافظة على شرعية هذه الحدود من محاولات قومية داخل اقطار الخليج العربي تدعو إلى الوحدة أو الاتحاد مع جيرانها داخل الاقطار الخليجية أو خارجها.

٢ - ربط فكرة الدفاع عن «قدسية هذه الحدود» بنظام الحكم الذي صور له أن دعم أية خطوة وحدوية معناه انهاء سلطة العائلة الحاكمة.

٣ - إن ثروات الأقطار الخليجية يجب ان تستثمر في الدرجة الأولى بدعم الاقتصاد الغربي، ومن خلال شركات استثمار غربية ومتعددة الجنسية، مع العلم أن معظم الحكام يعتبرون العائدات النفطية ثروة شخصية بالدرجة الاولى. وفي الفترة ما بعد الحربين العالميين، وحتى الفترة ما بين عامي ١٩٤٥ و١٩٧٣، لم يكن بإمكان أية قوة اجنبية استخدام بعض الاقطار الخليجية في تقويض النظام العربي، وذلك لقوة نفوذ الحركة القومية العربية، وكان الكثير منهم يهرع لإرضاء الرئيس الراحل جمال عبد الناصر الذي كان يدرك حقيقة الأوضاع في المنطقة ولم يكن يرغب في تفجير المواقف العربية دفعة واحدة أمام الضغوط الهائلة التي كانت تقع عليه من قبل القوى الاستعمارية والحركة الصهيونية.

ولم تكن العلاقات العربية أصلاً مع منطقة الخليج دائماً متوترة، فقد كانت على العموم هي علاقات قومية وطيدة باعتبار أن أمن الخليج العربي جزء لا يتجزأ من الأمن القومي العربي. ولقد وقفت اقطار الجامعة العربية، وخصوصاً العراق ومصر وسوريا، إلى جانب الخليج العربي مواقف ايجابية كثيرة:

١ - منذ نهاية الحرب العالمية الاولى قدمت هذه الاقطار العربية مساعدات ثقافية وانسانية قيمة إلى اقطار الخليج العربي.

٢ - وقفت بكل قواها مع عروبة البحرين ودافعت عن عروبة الجزر العربية الثلاث (طنب الكبرى وطنب الصغرى وأبو موسى) وكان موقف العراق بقطع العلاقات الدبلوماسية مع ايران وبريطانيا عند سيطرة ايران الشاه على هذه الجزر عام ١٩٧١ معروفاً.

٣ - وافقت كافة الاقطار الخليجية على مشروع الجامعة العربية بإيجاد صندوق لتنمية الامارات العربية الفقيرة والتي كانت تشمل حينئذ البحرين وقطر والامارات العربية السبع التي تشملها حالياً دولة الامارات العربية المتحدة.

٤ - إن الحركة الثقافية والاقتصادية المتمثلة حالياً لم تكن لتتحقق لولا الجهود التي بذلتها الاقطار العربية، وخصوصاً العراق ومصر وسوريا وفلسطين في مجالات التربية

والتعليم والخبرات الصحية والمالية، وفي مجال الاقتصاد والتخطيط، بالاضافة إلى العمالة العربية التي لعبت دوراً مهماً في الإعمار والصناعة الخليجية.

إن أمن الاقطار الخليجية لا يمكن أن يبقى وإلى الأبد تحت حماية الولايات المتحدة، فالتدخلات العسكرية لواشنطن والمصالح الامريكية المالية تأكل معظم العوائد النفطية الخليجية، ويذهب قسم آخر من هذه العوائد لدفع رواتب ونفقات أكثر من مليوني عامل اجنبي في المنطقة يؤلفون تهديداً أمنياً مستقبلياً للاقطار المضيفة، وخصوصاً بالنسبة إلى دولة الامارات العربية المتحدة التي وصلت فيها نسبة العمالة الآسيوية إلى اكثر من ٧٠ بالمئة. وهذه نسبة مخيفة وخطيرة.

إن الحل الطبيعي لبناء علاقات خليجية ـ عربية هي اولاً في تطبيع هذه العلاقات على اساس مصالحة شاملة، وعلى اساس بناء علاقات جديدة تستند إلى دور أقوى لجامعة الدول العربية لحل الأزمات العربية بعد تعديل ميثاق الجامعة الحالي وتضمينه مادة بتأسيس محكمة عدل عربية تنظر في القضايا المختلف حولها بين الدول الاعضاء.

وعلى الرغم مما يبدو من العلاقات المتينة بين الولايات المتحدة والاقطار الخليجية، فأحب ان أؤكد في هذه المناسبة أن مواقف الدول الكبرى ليست دائماً واحدة، بل تعتمد على مصالحها في الدرجة الاولى. ولا نستطيع أن ننكر وجود مصالح اجنبية، امريكية واوروبية، في الخليج العربي، وخصوصاً النفط، ولكن الاهم هو وجود مصالح خليجية في الوطن العربي تعتمد على وحدة التاريخ والتراث والمصالح المشتركة والمصير المشترك. فالمطلوب من الاقطار الخليجية أن تتحاشى دور الأداة للسياسة الامريكية لتقويض وتفتيت النظام العربي، وان تعمل لتكون عامل قوة للأمة العربية لأن الأمن القومي العربي هو وحدة لا تتجزأ، ومستقبل الأمة العربية يعتمد على وحدة التاريخ والتراث والعمل العربي المشترك ووحدة الارادة العربية المشتركة. أما بالنسبة إلى الحديث الذي تكرره بعض أقطار الخليج العربي حول الشرعية الدولية، فأنا أؤيد ما ذهب إليه الكاتب العربي محمد حسنين هيكل «انه لا يوجد شيء اسمه الشرعية الدولية، فهناك موازين قوة، وللأسف الشديد هناك عالم تحكمه موازين قوة، ثم إن من الأكرم أن يتحدث عن الشرعية الدولية مَن يملكون القدرة على فرضها، لكن من أسوأ الأصوات في الدنيا أن يتحدث شخص عن شيء ينفذه بالقوة وهو لا يملك امكانيات هذه القوة»[٤٤].

تاسعاً: الجامعة العربية ومشروع النظام الاقتصادي الشرق أوسطي

لقد اختارت الحركة الصهيونية والمؤسسات الامريكية القريبة من صنع القرار التوقيت الدقيق لطرح مشروع النظام الاقتصادي الشرق اوسطي. فقد خرج الوطن العربي بعد

---

(٤٤) نص مقابلة محمد حسنين هيكل مع هيئة الاذاعة البريطانية، في: العرب، ١٩٩٥/٢/٢٠.

حرب الخليج مهشماً ومفككاً وضعيفاً وفقيراً.

ولقد فشلت جامعة الدول العربية في تطويق أزمة الخليج العربي في مرحلة مبكرة، كما فشلت في التحرك السريع لوضع آلية لحل هذه الأزمة قبل تدويلها بدخول القوات الامريكية إلى منطقة الخليج العربي. وتُتهم جامعة الدول العربية أيضاً بالتقصير في ايجاد الصيغة المثلى للعمل العربي المشترك. وإذا كان بعض التقصير يقع فعلاً على الأمانة العامة للجامعة العربية، فإن قسماً كبيراً من هذا التقصير يقع أيضاً على القيادات العربية التي ركزت القطرية ورفضت التنازل عن أي جزء من سيادة أقطارها من اجل تطوير العمل العربي المشترك وضمان الأمن القومي العربي، ولم تعد اهمية للحوار والدبلوماسية من جهة، ولمصالح الشعب العربي الحقيقية من جهة أخرى. فالخلافات العربية استمرت عقوداً متوالية، وقد ألحق ذلك أفدح الاضرار بالقضية العربية. وهنا أشير إلى ما قاله الأمين العام السابق لجامعة الدول العربية الشاذلي القليبي في افتتاح مجلس الجامعة في ٢٤ آذار/ مارس ١٩٨٢: «إن الكثير من القضايا المتعلقة سواء بالصراع العربي ـ الصهيوني أم بالتنمية الاقتصادية متوقف على تسوية الخلافات العربية... في ظل الخلافات لن نتمكن من وضع أي سياسة فضلاً عن تنفيذ أي قرار يكفل بفض مشكلة من مشكلاتنا أو حل قضية من قضايانا.... وهذا الشلل الذي يهدد القرار العربي يزيد العدو الصهيوني قوة وجرأة على التوسع وفرض خططه الهادفة لضرب مواقع النضال ونسف مراكز الانتاج في كل قطر عربي».

ويرى المفكر العربي قسطنطين زريق «ان التحدي الذي يجابه الأمانة العامة للجامعة العربية هو أن تمثل في داخل الجامعة الفكر العربي الرائد والعمل العربي الصادق، وأن تمثل المستقبل المرجو في غمار الحاضر». وأوضح «أن الامانة العامة لا تملك الحرية التامة في عملها ـ ولكن لها ضمن الحرية المتاحة ـ ومن أجل توسيع مدى هذه الحرية ـ أن تكون الرمز والقدوة في صفاء الانتماء القومي والتعاضد في سبيل الخير المشترك وان جماهير الأمة العربية تتطلع إلى من يجسد هذا الرمز ويمثل هذه القدوة»[٤٥].

ويرى الاقتصادي العربي المعروف يوسف صايغ أن تعثر العمل العربي الاقتصادي المشترك (في اطار جامعة الدول العربية) يعود إلى اربعة عوامل هي:

١ ـ الانفصالية الاقتصادية.

٢ ـ تزايد قوة النزعة القطرية.

٣ ـ الخوف والريبة المتبادلان بين الأنظمة العربية.

(٤٥) «العمل العربي المشترك في اربعة عقود: نظرة نقدية ورؤية مستقبلية،» (ندوة)، شؤون عربية، العدد ٤١ (آذار/مارس ١٩٨٥)، مناقشة قسطنطين زريق، ص ٨٦.

٤ ـ تقلب الحياة السياسية العربية ومزاجيتها[٤٦].

وعلى رغم تغير الظروف الدولية والاقليمية منذ إنشاء جامعة الدول العربية عام ١٩٤٥، فإن ادارة الجامعة العربية واسلوب معالجتها للأزمات والمشاكل العربية بقيت من دون أن تتطور على رغم تعدد المنظمات التابعة لها وجيش الموظفين والمكاتب الموزعين في كل عواصم العالم. وقد ثبت أنها لا تعمل إلا بشكل روتيني وبيروقراطي، بحيث تشل حركتها للتوجه نحو حل الازمات وتطوير العمل العربي المشترك.

استنتاجات

إن تطبيع العلاقات المصرية ـ الاسرائيلية واتفاقيات كامب ديفيد واتفاقية غزة ـ أريحا يجعل من الصعب على جامعة الدول العربية أن تعمل ـ حتى إذا ارادت ـ لخدمة العمل العربي المشترك. وأمام هذه التحديات أرى من الضروري في المرحلة القادمة تشجيع مؤسسات قومية خاصة غير حكومية على غرار مركز دراسات الوحدة العربية للقيام بمهمة «الجامعة الشعبية العربية» وخلق مؤسسات اقتصادية واعلامية وثقافية عربية تكون مهمتها الوقوف امام جملة التحديات الصهيونية والاستعمارية والقطرية التي تعصف بالوطن العربي من جهة، وخلق وعي قومي يتطلع إلى مستقبل أفضل في اتجاه الوحدة من جهة أخرى، ومن أجل التغلب على العراقيل والمعوقات واخراج القضية العربية إلى الجماهير العربية بعد ان فشلت الحكومات العربية في المحافظة على أهدافها الأساسية. إننا امام عدو شرس مصرّ على الوصول إلى اهدافه ببناء اسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات، وهو يسير في مخططاته بسرعة مذهلة، «ونحن معرضون لأخطار حقيقية في جميع النواحي الاقتصادية والسياسية والأمنية والاجتماعية والثقافية والحضارية، بسبب وضع الضعف والتخلف والتمزق الذي خلفه وضع التجزئة هذا»[٤٧].

وفي كتابه عن **القومية والوحدة العربية: سألني سائل فأجبت**، يجيب سعدون حمادي السائل المستوضح قائلاً: «ألا تريد أن يتغير هذا الوضع إلى وضع تتحد فيه أمتنا بكامل اقطارها وبجميع اديانها وطوائفها وطبقاتها وفئاتها وأهوائها في دولة وحدة ذات سيادة تتجمع فيها كل إمكاناتنا المالية والاقتصادية والعلمية والعسكرية، وكل ما نملك من موارد بشرية تدب فيها روح العمل والانتاج والاصلاح والتغيير إلى الاحسن، فتتجدد حياتها ويتغير فيها كل ما هو غير صالح إلى ما هو افضل، فتزدهر الحياة وتتقدم ويزول الفقر

---

(٤٦) يوسف عبد الله صايغ، «الاندماج الاقتصادي العربي وذريعة «السيادة الوطنية»،» في: عادل حسين [وآخرون]، **دراسات في التنمية والتكامل الاقتصادي العربي**، سلسلة كتب المستقبل العربي؛ ١، ط ٣ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥)، ص ١٦٣.

(٤٧) سعدون حمادي، **عن القومية والوحدة العربية: سألني سائل فأجبت**، سلسلة الثقافة القومية؛ ٢٣ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٤)، ص ٢٤٤.

والجهل والمرض ويحل محله التفاؤل والأمل والنظر إلى الامام، فيحل الاعتزاز بالنفس محل القنوط والضعف، ويحل الشعور بالكرامة محل المهانة والذل»[٤٨].

إن الوحدة العربية هي صمام الأمان للحاضر والمستقبل، وإذا ما اتحد العرب، وحتى بالشكل الادنى من صيغ الاتحاد، فلن تجرؤ الصهيونية والقوى الاستعمارية على الاعتداء يومياً على أمنهم واستقلالهم والاستحواذ على ثرواتهم ومقدراتهم الاستراتيجية. وكما قال كوسيغين، رئيس الوزراء في الاتحاد السوفياتي، في ١١ شباط/فبراير ١٩٧٢ مخاطباً وفداً رسمياً عربياً: «إننا يجب أن نعمل لتوحيد العالم العربي، ضعف العالم العربي في تفرقته. إذا كان العرب متحدين يكونون قوة تهتز لها اوروبا لأن العرب يملكون طاقات أوروبا وغير أوروبا»[٤٩].

لقد مضى قرن كامل او يزيد على بدء نهضة الفكر القومي العربي، ولا زال الوضع العربي مفككاً وضعيفاً ومتخلفاً في كثير من الجوانب على رغم التقدم الذي حصل في القوات العسكرية والقدرات الاقتصادية والصناعية والمالية، والتقدم الذي احرز في ميادين التربية والتعليم، ومئات الالوف من حملة الشهادات العليا والكفاءات العلمية المتطورة.

إننا نتفق على أن سبب الكثير من العراقيل هو الصهيونية والقوى الاستعمارية، ولكن يجب أن نتذكر جيداً أن اسباباً مهمة وأساسية أخرى تكمن فينا بسبب الاقليمية والقطرية والعشائرية والأنانية وافتقاد الحرية والديمقراطية وروح الحوار وروح المسامحة. وكما قال المفكر العربي الكبير ساطع الحصري: «عندما تحررنا من نير الاستعمار اخذنا نقدس الحدود التي كانوا قد اقاموها في بلادنا، بعد ان قطعوا أوصالها... ونسينا أن تلك الحدود، إنما كانت حدود «الحبس الانفرادي» و«الاقامة الاجبارية» التي كانوا فرضوها علينا»[٥٠].

وهكذا فان الوحدة العربية اصبحت لنا اليوم قضية وجود.

---

(٤٨) المصدر نفسه، ص ٢٤٤.

(٤٩) المصدر نفسه، ص ٦١.

(٥٠) ساطع الحصري، **العروبة أولاً**، سلسلة التراث القومي، الاعمال القومية لساطع الحصري؛ ٩ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥)، ص ٩.

الفصل الثامن

التأثير الغربي في الهيئات والوكالات المتخصصة للأمم المتحدة

عصام عبد الغني محبوب(*)

لا ريب في أن مواجهتنا مع الغرب هي مواجهة حضارية وثقافية بقدر ما هي مواجهة اقتصادية وعسكرية. وإن محاولات الغرب ـ وبشكل خاص الولايات المتحدة ـ لإعادة الأنماط العامة للأوجه المختلفة للحياة في دول العالم الثالث ـ ومنها دول الوطن العربي ـ بما يتماشى والمفهوم الغربي، ليست بالأمر الجديد. كما أن محاولة استغلال الهيئات والوكالات المتخصصة للأمم المتحدة لتحقيق ذلك الهدف كانت قد انبثقت منذ بدايات التفكير بإنشاء الأمم المتحدة.

ولكن ما يجعل هذا الموضوع الحيوي يستأثر باهتمامنا البالغ ـ في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخنا بعد أن انهار الاتحاد السوفياتي وانتهت الحرب الباردة ـ هو انفراد الغرب (وعلى الأخص الولايات المتحدة) بالاستحواذ على منظومة الأمم المتحدة وجعل هيئاتها ولجانها المتخصصة أدوات طيعة لتحقيق مآرب الغرب على حساب حضارات دول العالم الثالث ومصالحها.

وقد تجدر الإشارة إلى أن مبدأ مونرو لعام ١٨٢٣ قد أكد على وجوب انتهاج الولايات المتحدة سياسة انعزالية عن العالم تمتد لتشمل حتى القارة الأوروبية، حيث قال مرة: إن أمريكا للأمريكيين وأوروبا للأوروبيين ولا شأن لأحدهما بالآخر. إلا أن كل ذلك قد تغير بتطور الإمكانيات الصناعية والاقتصادية للولايات المتحدة وإلى درجة كبيرة

(*) مدير في وزارة الخارجية، بغداد.

اضطرتها إلى النظر إلى ما وراء البحار لتصدير صناعاتها ومنتوجاتها وللاستحواذ على المواد الخام، مما أدى إلى تشابك مصالحها مع دول العالم وجعل واشنطن تغير سياستها الخارجية بشكل تدريجي، ثم جاءت الحربان العالميتان الأولى والثانية لتؤكدا المسار الجديد لأمريكا. وقد تعزز هذا المنحى عندما خرجت الولايات المتحدة من الحرب العالمية الثانية منتصرة وهي أغنى دول العالم، ولا سيما أن خسارتها في تلك الحرب كانت أقل بكثير من بقية حلفائها.

وفضلاً عما تقدم ذكره، فإن تفجير الولايات المتحدة للقنبلة الذرية، ثم استخدامها لذلك السلاح المروع ضد مدينتي هيروشيما وناغاساكي في اليابان، قد قاد واشنطن إلى الاعتقاد بأن الزعامة الدولية ومقدراتها قد أصبحت من مسؤوليتها، كونها الدولة الوحيدة التي تملك قوة ذلك السلاح الرهيب وتلك الثروة الطائلة، الأمر الذي يجعلها صاحبة النفوذ الأول في العالم برمته. وعلى الرغم من التغييرات المهمة التي شهدتها السنوات التي أعقبت نهاية الحرب العالمية الثانية وانتشار القنبلة النووية إلى الاتحاد السوفياتي وبريطانيا وفرنسا والصين والهند... الخ، فإن واشنطن لم تتخلَّ عن فكرة إقامة سلام عالمي يناسب أفكارها وطموحاتها. وقد وجدت الولايات المتحدة في دول أوروبا الغربية حلفاء مستعدين للتعاون. فانبثق التفكير باتخاذ منظومة الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة كأدوات مساعدة على تحقيق تلك الأهداف والطموحات.

غالباً ما تستند الكتابة عن موضوع الأمم المتحدة إلى بضعة مذاهب، منها «المذهب الواقعي» الذي يزعم بأنه لا يمكن تفسير العلاقات الدولية إلا من خلال مجمل المصالح الوطنية، ويصف المنظمات الدولية بأنها ملتقى لتجابه الدعايات. وإما أن تستند الكتابة إلى المذهب «الوظيفي» الذي يزعم ـ براءةً في الأغلب ـ أن الاتصالات بين الفنيين والاختصاصيين ستتيح ثقافة مشتركة ومسالمة ستؤمن في النهاية انتصار القيم الغربية... وإما إلى «خطابات خيالية» بدرجات متفاوتة، وتعتبر امتداداً لمثالية الرئيس الأمريكي وودرو ويلسن (١٨٥٦ ـ ١٩٢٤) حول نفوذ **حقوق الإنسان**، و**القيم الأخلاقية والديمقراطية** التي تنفتح في النهاية على نوع من **الفدرالية العالمية**[1].

ومن الآراء المسماة «الوظيفية» أيضاً، يقول موريس برتران إنها هي التي أوصلت إلى إنشاء الوكالات المستقلة الخاصة بالأمم المتحدة. وتعتبر الوظيفية حركة فكرية ملحة في نطاق كونها تعكس استبصاراً أساسياً حول طبيعة الحرب والسلام وإمكانية **إنشاء هوية عالمية** من خلال بناء «مجتمع مدني» دولي. يعزى ابتكار العقيدة الوظيفية إلى البريطاني ديفيد ميتراني الذي قام في عام ١٩٤٣ بوضع كتاب شهير عنوانه **نظام السلام الفعال** شرح فيه

(١) موريس برتران، **الأمم المتحدة من الحرب الباردة إلى النظام العالمي الجديد**، ترجمه عن الفرنسية لطيف فرج (القاهرة: دار المستقبل العربي، ١٩٩٤)، ص ٧ ـ ٨.

بأنه يمكن نمو المجتمع الدولي سلمياً عن طريق مشاركة الدول في «وكالات وظيفية» تقوم بنسج روابط التعاون السياسي، إذ إنه من خلال تشارك خبراء معاً مثل خبراء التعليم والصحة والزراعة. . . الخ لا بد من أن يتم خلق مناخ التفاهم على المستوى العالمي وعبر الحدود، وبذلك يمكن الإعداد لنوع من الهوية الدولية لأهل الفكر(٢).

والمعروف أن الأمم المتحدة قد مرت ببضع مراحل من قوى الأغلبية والمواقف من الأحداث الدولية المهمة، إذ كانت الدول الغربية هي المهيمنة في الجمعية العامة خلال السنوات العشر الأولى من عمر الأمم المتحدة، حيث كان من بين ٥١ دولة عضواً أصلياً عام ١٩٤٥، ٣٥ دولة تقف بشكل واضح مع الولايات المتحدة، وخمس دول فقط تقف مع الاتحاد السوفياتي، والعشر الباقية كانت غير منحازة. وهكذا كان الوفد الأمريكي يتمتع بسطوة كبيرة في الجمعية العامة ولم يتردد في استخدام تلك الأكثرية لخدمة مصالحه الوطنية(٣)، إلا أن إمكانية الاتحاد السوفياتي من استخدام حق النقض كانت عائقاً أمام تحقيق الغرب أهدافه ومطامعه غير المعلنة.

ثم جاءت فترة الكفاح من أجل إنهاء الاستعمار، فاستُخدمت الأمم المتحدة كمنبر للدعاية والتأثير في الرأي العام العالمي. وفعلاً حصل الكثير من الدول على استقلاله، ومن ثم انضمت تلك الدول إلى الأمم المتحدة في بداية عقد الستينيات، فتعززت قوة المعسكر الاشتراكي في الجمعية العامة بظهور العديد من دول العالم الثالث التي ساندت ذلك المعسكر. وقد استخدمت الأكثرية الجديدة الأمم المتحدة كمسرح لطرح الآراء وإصدار القرارات في الجمعية العامة. أما مجلس الأمن، فقد بقي خاضعاً لاستخدام حق النقض (الفيتو) من قبل أي من المعسكرين، مما أدى إلى إصابته بالشلل إلى حد كبير. واستمر هذا الوضع من تهميش الأمم المتحدة إلى نهاية الحرب الباردة. وهكذا لم يستطع الغرب تحقيق أهدافه غير المعلنة في دول العالم الثالث من خلال هذه المنظمة الدولية.

وقد أكد رتشارد ليون، رئيس «صندوق القرن العشرين»، على مدى تهميش الأمم المتحدة أثناء الحرب الباردة، في ما يخص القضايا المركزية في العلاقات الدولية، ومن ثم مدى التغير الذي طرأ عليها منذ بضع سنوات بقوله: «سوف لا يكون أمراً خيالياً أو وهمياً تماماً إذا ما أكدنا على أنه في بحر العقود القليلة الأخيرة كان بالإمكان التسامح مع نقاط الضعف الظاهرة للأمم المتحدة، لأن المرء كان يعتبرها منظمة ليست ذات شأن أو علاقة بمراكز الصراع الدولي إبان الحرب الباردة. وإذا ما أخذنا بنظر الاعتبار المعوقات التي فرضها العالم ذو القطبين، فإن الأمم المتحدة كانت محمية ومعفاة من أية مسؤولية

---

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٦.

(٣) John George Stoessinger, *The U.N. and the Super Powers, the City University* (New York: Random House, [s. d.]), p. 23.

لنوعية التعامل مع العديد من بؤر التوتر والحالات الخطيرة، وإن من أكثر نتائج إعفاء الأمم المتحدة وضوحاً من المحاسبة هي الأعمال المتفاوتة الجودة لما يسمى بالوكالات المتخصصة للأمم المتحدة، وبصورة خاصة منظمة التربية والعلوم والثقافة (اليونسكو)، ومنظمة الأغذية والزراعة (الفاو). أما اليوم، فمن الطبيعي أن الأمم المتحدة قد أصبحت تحتل موقعاً مركزياً في مسرح الأحداث الدولية»(٤).

إن انتهاء الصراع الايديولوجي بين المعسكرين الشرقي والغربي، وما تبع ذلك من آثار في العلاقات الدولية، وطموحات الغرب، والولايات المتحدة بشكل خاص، لإقامة ما يسمى بالنظام العالمي الجديد، قد أفضى إلى مسرح دولي تسوده الريبة وغموض الرؤيا للاحتمالات المستقبلية، بخاصة في ما يتعلق بالدول التي كانت تشكل الاتحاد السوفياتي المنهار والمعسكر الاشتراكي. ومن جهة أخرى، فإن بروز الولايات المتحدة كقوة عظمى وحيدة أدى بها إلى التصرف دولياً بشكل استبدادي ظالم وبجشع متزايد، وقد بلغ بها الانبهار المفرط حد الثمالة. وأصبحت ادعاءات كبار المسؤولين الأمريكان بزعامة منظومة الأمم المتحدة وتسيير دفتها بما يخدم المصالح الأمريكية أمراً مألوفاً وصريحاً. وهي توظف منظومة الأمم المتحدة كغطاء لتحقيق أهدافها ومصالحها. فتستخدم الأمم المتحدة للتدخل عسكرياً ضد العراق عندما يخدم ذلك مصلحة الإدارة الأمريكية، وتمتنع عن التدخل في التطهير العرقي الذي حصل في البوسنة والهرسك، أو في الاعتداءات الإسرائيلية ضد العرب عندما لا يخدم ذلك مصلحة تلك الإدارة. وتفرض العقوبات الاقتصادية عن طريق الأمم المتحدة بذريعة خرق دولة ما لمبادئ حقوق الإنسان، لكنها تمتنع عن القيام بذلك في ما يخص الصين مثلاً (على رغم مزاعم واشنطن بشأن خرق بكين لحقوق الإنسان) لأن معاقبة الصين (والكلام للأمريكان) تضر اقتصادياً بمصالح أمريكا، أي أن الموضوع برمته بالنسبة إلى واشنطن هو ليس ما إذا كان الأمر أخلاقياً أو إنسانياً أو شرعياً من عدمه، وإنما القياس بالنسبة إلى الإدارة الأمريكية هو ما إذا كان ذلك يخدم مصلحة أمريكا أو لا، سواء كان ذلك في ترويج مفاهيمها و«ثقافتها»، أو يخدم المصالح السياسية والاقتصادية وغيرها.

ومع كل ذلك، فإن درجة الانبهار والغطرسة التي أصابت الأمريكان عقب «انتصار الولايات المتحدة في الحرب الباردة» جعلتهم يعلنون أن الولايات المتحدة «قوة أخلاقية عظمى (Moral Super Power) كما هي قوة عظمى عسكرياً». ويقول موريس بي أبرام (الذي كان مؤخراً الممثل الدائم لأمريكا لدى المكتب الأوروبي للأمم المتحدة في جنيف): «في الوقت الذي ينظر فيه إلى الولايات المتحدة كقوة عظمى عسكرياً يفكر العديد بها

---

(٤) Richard Leone, «Foreword,» in: *The U.S. and the Future of the United Nations* (New York: [n. pb.], 1994).

أيضاً كقوة عظمى أخلاقياً. . . ويتوجب على الولايات المتحدة ألا تخجل من كونها تتمتع بالقوة الأخلاقية أو العسكرية»[٥].

والواضح أن من بين ما نجم عن انتهاء الحرب الباردة هي حالة من الانفلات في السلوك الدولي والتخلي عن الالتزام بروح ميثاق الأمم المتحدة ونصوصه وتجدد الأحلام بإمكانية الوصول إلى عالم تسيره الولايات المتحدة مستفيدة من منظومة الأمم المتحدة كغطاء لأعمالها.

ومن الجدير بالذكر أن مصطلح «الأمم المتحدة» كان قد ابتكره الرئيس الأمريكي الأسبق فرانكلن روزفلت. واستعمل هذا التعبير لأول مرة في «إعلان الأمم المتحدة» بتاريخ ١/١/١٩٤٢، أي إبان الحرب العالمية الثانية، وذلك عندما أعلنت ٢٦ دولة تعهدها بالمضي سوية في الحرب ضد دول المحور[٦] حتى النصر.

ويرى الدبلوماسي الفرنسي موريس برتران الذي عمل في الأمم المتحدة لمدة ١٨ سنة أنه في الوقت الذي تم فيه تأسيس الأمم المتحدة كان المنتصرون في الحرب العالمية الثانية يرون أن «حفظ السلام» يعني «حفظ النظام»، ذلك النظام الذي أقاموه بفضل انتصارهم. وبما أنه لم يكن لروزفلت ولستالين الرؤية نفسها تجاه النظام العالمي، فقد ظهرت الأمم المتحدة إلى الوجود في ظل الغموض والرياء المختفيين وراء الوهم المتولد عن الحلف العسكري ضد النازية والفاشية[٧].

وعلى الرغم من مرور ٥٠ سنة على مولد الأمم المتحدة وما اكتنف تلك الفترة من التغيير، إلا أن هذا الغموض وذلك الرياء لم يتبددا. وحين يرى المرء على شاشات المذياع المرئي شاحنات القوات الدولية وعرباتها المدرعة المدون عليها «UN» والمحاطة بمشاهد الحرب، يتساءل عما إذا كانت الأمم المتحدة منظمة سلام أم منظمة حرب، وعما إذا كانت فاعلاً مستقلاً على المسرح الدولي أم أنها ـ عبر مجلس أمنها ـ ليست سوى المنفذ لقرارات الدول الكبرى والولايات المتحدة بشكل خاص[٨].

أولاً: نشأة ودور اللجان والوكالات المتخصصة للأمم المتحدة

عندما يفكر المرء في تنظيمات الأمم المتحدة تقفز إلى ذهنه أولاً فروعها الرئيسية الستة التي يشكل تخطيطها صورة شبيهة بالزهرة الكبيرة، تحتل الجمعية العامة قلبها، بينما

---

(٥) Morris B. Abram, «The UN, the U.S. and the International Human Rights,» in: The U.S. and the Future of the United Nations, pp. 136 - 137.

المؤلف كان رئيس المؤتمر الوطني لليهود السوفيات، ١٩٨٣ ـ ١٩٨٨.

(٦) «Basic Facts about the United Nations,» Department of Public Information (New York, 1992), p. 3.

(٧) برتران، **الأمم المتحدة من الحرب الباردة إلى النظام العالمي الجديد**، ص ٦.

(٨) المصدر نفسه، ص ٦ ـ ٧.

تتكون تويجات هذه الزهرة من الجمعية العامة، ومجلس الأمن، ومحكمة العدل الدولية، والمجلس الاقتصادي والاجتماعي، والأمانة العامة، ومجلس الوصاية، وتموَّل هذه الفروع الرئيسية من الميزانية الاعتيادية للأمم المتحدة. ولكن بالإضافة إلى هذا التخطيط الذي يمثل المؤسسة الأم، هناك خطوط رئيسية، وأخرى فرعية وتشعبات يمثل مجملها ارتباط منظمات ووحدات صغيرة وعديدة بالأمم المتحدة تدير عالماً شاسعاً من الهيئات واللجان والبرامج التمويلية والوكالات المتخصصة. ومن بين تلك التنظيمات والوحدات البرامج الستة الكبرى وهي:

١ ـ برنامج الأمم المتحدة للتنمية.

٢ ـ برنامج الغذاء العالمي.

٣ ـ المفوضية العليا لشؤون اللاجئين.

٤ ـ صندوق الأمم المتحدة لرعاية الطفولة.

٥ ـ الصندوق العالمي للسكان.

٦ ـ الصندوق الدولي للتنمية الزراعية.

كما أن هناك خمس عشرة وكالة متخصصة تغطي اختصاصاتها مختلف أنماط الحياة وأوجهها، سواء كانت اقتصادية، أو علمية، أو تربوية، أو صناعية، أو زراعية، أو صحية، أو ما يتعلق بالطاقة الذرية والاتصالات السلكية واللاسلكية، أو ما يخص الملاحة البحرية الدولية والملكية الثقافية، فضلاً عن المنظمات المسماة «بريتون وودز» التي تعالج الأمور المالية، مثل صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي للإنشاء والتعمير، والاتفاق العام للتعريفات الجمركية والتجارية التي حلت محلها المنظمة العالمية للتجارة. ويضاف إلى ما تقدم ذكره عدد من اللجان الوظيفية، مثل لجنة التنمية الاجتماعية، ولجنة حقوق الإنسان، ولجنة وضع المرأة، وهناك لجان إقليمية.

ومن بين تلك التنظيمات ما هو مدرج في الميزانية الاعتيادية للأمم المتحدة، لكنها تتمتع بدرجات معينة من الاستقلالية، والبرامج الستة الكبرى المشار إليها أعلاه، والتي هي نوع من فروع الأمم المتحدة، والتي تمول كلياً أو جزئياً من مساهمات الدول الأعضاء مما يسمى بالموارد المضافة إلى الميزانية (Extra - Budgetary Resources)، ولكل منها مجلس إدارتها من الدول الأعضاء وهي تنتخب بالتناوب.

وعند الكلام على نشأة الوكالات المتخصصة تجدر الإشارة إلى المادة (٥٧) من ميثاق الأمم المتحدة التي تفيد بأن: الوكالات المتخصصة التي تنشأ بمقتضى اتفاق بين الحكومات والتي تضطلع بمقتضى نظمها الأساسية بتبعات دولية واسعة في الاقتصاد والاجتماع والثقافة والتعليم والصحة وما يتصل بذلك من الشؤون، يوصل بينها وبين

الأمم المتحدة وفقاً لأحكام المادة (٦٣). وتسمى هذه الوكالات في ما يلي من الأحكام بالوكالات المتخصصة، أي أن هذه الوكالات تنشأ بمقتضى اتفاق دولي حكومي يتم التمثيل فيها على مستوى مندوبي الحكومات، كما يتم الوصل بينها وبين الأمم المتحدة بواسطة اتفاقات دولية يبرمها معها المجلس الاقتصادي والاجتماعي وتوافق عليها الجمعية العامة وفق ما تقتضيه المادة (٦٣) من ميثاق الأمم المتحدة، بهدف تحقيق نوع من الإشراف للمؤسسة الأم على نشاط الوكالات المتخصصة، مع عدم المساس باستقلالية تلك الوكالات. ويكون للأمم المتحدة حق إصدار توصيات للوكالات المتخصصة بشأن مجالات أنشطتها ونظام عملها ولوائحها المالية. وتلتزم الوكالات ـ باستثناء البنك الدولي للإنشاء والتعمير وصندوق النقد الدولي ـ بإدراج هذه التوصيات على جداول أعمالها.

ومن الجدير بالذكر أيضاً أن الوكالات المتخصصة تلتزم بمعاونة مجلس الأمن في تنفيذ الجزاءات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي يمكن أن يقررها المجلس في حالات الإخلال بالسلم ووقوع العدوان[٩].

وتؤكد الفقرة (٢) من المادة (٤٨) من ميثاق الأمم المتحدة على أن تقوم الدول الأعضاء في الأمم المتحدة بتنفيذ قرارات مجلس الأمن بشكل مباشر وبطريق العمل في الوكالات الدولية المتخصصة التي تكون أعضاء فيها.

كما يستطيع مجلس الأمن أن يقيد نشاط الوكالات المتخصصة عن طريق إصداره قرارات وفق الفصل السابع من الميثاق. وعلى سبيل المثال لا الحصر، تؤكد الفقرة (١١) من قرار مجلس الأمن رقم ٦٧٠ في ٢٥/٩/١٩٩٠ «انه على منظمة الأمم المتحدة والوكالات المتخصصة وسائر المؤسسات الدولية في منظومة الأمم المتحدة أن تتخذ ما قد يلزم لتنفيذ أحكام القرار رقم ٦٦١ (١٩٩٠) وهذا القرار»، أي القرار رقم ٦٧٠. والمعروف أن القرار رقم ٦٦١ هو حول فرض مجلس الأمن حظر التعامل اقتصادياً وتجارياً مع العراق وفق الشروط الواردة فيه. والقرار رقم ٦٧٠ يقضي بانطباق الجزاءات على جميع وسائط النقل، بما فيها الطائرات.

ولا يهدف هذا البحث الموجز إلى شرح أو توضيح الأهداف المعلنة لتلك التنظيمات المرتبطة بالمؤسسة الأم للأمم المتحدة أو كيفية عملها. ولكن مجرد تعداد بعضها، كما أوردناه أعلاه، يعكس مدى التغطية الواسعة والتفصيلية لتلك التنظيمات للتعامل مع مختلف أنماط الحياة وأوجهها. وتعمل الدول الغربية على استغلال تلك اللجان والتنظيمات والبرامج والوكالات العديدة لترويج أفكار تلك الدول وثقافتها، وجعل سياساتها واستراتيجياتها هي المهيمنة في بلدان العالم الثالث، وتستثمر مجمل ذلك لتحقيق

(٩) مفيد شهاب، «العلاقة بين المنظمات العربية المتخصصة وجامعة الدول العربية،» **شؤون عربية**، العدد ٢ (نيسان/ابريل ١٩٨١)، ص ٨٤.

مصالحها الاقتصادية والسياسية وغيرها.

ثانياً: منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو)

بدعوة من حكومتي بريطانيا وفرنسا انعقد المؤتمر التأسيسي لميثاق اليونسكو في لندن، وتم اعتماد ميثاق المنظمة في ١٦/١١/١٩٤٥. وقد ورد في ديباجة الميثاق التأسيسي: «ان حكومات الدول الأطراف في هذا الميثاق تعلن باسم شعوبها أنه لما كانت الحروب تتولد في عقول البشر، ففي عقولهم يجب أن تبنى حصون السلام.. ولما كان السلام المبني على مجرد الاتفاقيات الاقتصادية والسياسية بين الحكومات لا يقوى على دفع الشعوب إلى الالتزام به التزاماً جماعياً ثابتاً مخلصاً، كان من المحتم بالتالي أن يقوم هذا السلم على أساس من التضامن الفكري والمعنوي بين بني البشر».

ثم أوضحت المادة الأولى من الميثاق: ان منظمة اليونسكو تستهدف المساهمة في صون السلم والأمن عن طريق التربية والعلوم والثقافة، إلى توثيق مجرى التعاون بين الأمم لضمان الاحترام الشامل للعدالة والقانون وحقوق الإنسان والحريات الأساسية للناس كافة من دون أي تمييز. ولهذه الغايات فإن اليونسكو أخذت على عاتقها العمل من أجل تعزيز التعاون والتفاهم بين الدول بمساندة أجهزة إعلام الجماهير وعلى تنشيط التربية الشعبية ونشر الثقافة. وهكذا ولدت اليونسكو محاطة بالاعتبارات والمنطلقات السياسية للدول الغربية. ويقول المفكر الهندي كيربال: «في ذلك الوقت لم يكن مطروحاً استئصال الفقر وتحويل المجتمعات التقليدية. أو على الأقل لم تكن هناك قناعة واسعة بدور العلم والتربية والثقافة في ذلك. ولكن روح الدستور كان يتضمن مفهوم الثقافة بالارتباط بكرامة الإنسان والعدالة الاجتماعية وازدهار البشرية، حيث ينص على أن كرامة الإنسان تتطلب نشر الثقافة وتنشئة الناس جميعاً على مبادئ العدالة والحرية والسلام»[١٠].

ويعترف رينيه ماهو، المدير العام الفرنسي الأسبق لليونسكو، أن المنظمة ظلت في مرحلتها الأولى تحت سيادة المفاهيم والأفكار والثقافات الغربية، وذلك لمقاطعة الاتحاد السوفياتي للمنظمة حتى أواسط الخمسينيات، ولأن أكثرية بلدان العالم الثالث كانت مستعمرة أو شبه مستعمرة.

ومن ثم اصطدمت اتجاهات اليونسكو وأنشطتها بمناخ الحرب الباردة، وتبين للكثيرين أن العالم أكثر تعقيداً من الأحلام الطوباوية عن بناء صروح السلام في عقول الناس[١١]، إذ في الوقت الذي كان فيه الغرب يحاول استغلال اليونسكو في بسط الهيمنة

---

(١٠) عزيز الحاج، **اليونسكو ضوء في آخر النفق..** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٧)، ص ١٤ ـ ١٥.

(١١) المصدر نفسه.

السياسية والفكرية الغربية على الأمم المتحدة والوكالات المتخصصة، استطاع العالم الثالث أن يكون له وزنه ودوره في المنظمات الدولية المنضوية تحت أسرة منظومة الأمم المتحدة، ولا سيما بعد أن اشتد نشاط الكتلة الاشتراكية واتفاق مواقفها عند التصويت في الكثير من الحالات مع مواقف البلدان النامية.

وهكذا فإن الولايات المتحدة وحليفاتها من الدول الغربية التي تتبجح بالديمقراطية وتريد ترويجها انزعجت كثيراً من الممارسات الديمقراطية داخل اليونسكو، حيث تؤخذ القرارات فيها بأكثرية الثلثين، ولا تملك أية دولة فيها حق النقض (الفيتو)، في حين أمست الدول الغربية تشكل أقلية في المنظمة بعد أن أصبح الثقل العددي لصالح الدول النامية والدول الاشتراكية، وأمسى أي قرار لا يحظى بموافقة الولايات المتحدة يشكل بنظرها تحدياً لإرادتها.

ومن الطبيعي أن ترغب البلدان النامية (بعد أن حصلت على الأغلبية من الأصوات في هذه المنظمة) بأن تنعكس طموحاتها على برامج اليونسكو في خدمة قضايا السلام ونزع السلاح الشامل ونيل الشعوب لحقوقها في افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، وفي تقليص الفجوة التقنية بين دول الشمال والجنوب، وأن تهتم بالمشاريع التنموية الأخرى. هذا في حين يرى الغرب أن المنظمة قد تحولت أكثر فأكثر إلى منظمة إنماء والتسييس المفرط. وقد ذكر رئيس الوفد الأمريكي «جونز» في كلمته في الجلسة الختامية للدورة السابعة عشرة للمؤتمر العام: «ان برامج الإنماء التي تعتمد على مساهمات الدول الأكثر نمواً يجب أن ترتبط برضى وإرادة تلك الدول... ولا يجب إثارة شعوب الدول المتقدمة، التي تقدم الأموال على حساب ضرائبها بالدولار... وباختصار فإن اليونسكو قد تحولت مع الأسف إلى منظمة سياسية قبل كل شيء»(١٢).

ويبدو واضحاً أن أكثر ما أثار الولايات المتحدة هو دعم المنظمة لحركات التحرر، وفي مقدمتها قضية فلسطين، ومحاربة الممارسات الإسرائيلية في الأراضي المحتلة، وموقف المنظمة في مدينة القدس وإقران الصهيونية بالعنصرية.. الخ. إن مجمل ذلك قد أدى إلى التهديد بانسحاب أمريكا من اليونسكو، ثم انسحابها فعلاً عام ١٩٨٤، وتبعتها بريطانيا. وتجدر الإشارة إلى أن خمس دول كانت تساهم بحوالى ٥٥ بالمئة من ميزانية اليونسكو، وفي مقدمتها أمريكا بـ ٢٥ بالمئة، ثم اليابان وألمانيا الاتحادية وبريطانيا وفرنسا.

وقد نسبت جريدة **المجاهد** الجزائرية تصريحات إلى رئيس الوفد الجزائري عقب مؤتمر اليونسكو في نيروبي جاء فيها: إن خلق أزمة مالية داخل اليونسكو غرضه خنق المنظمة وإفلاسها لإجبارها على الخضوع لوجهة نظر الاستعماريين... ففي كل مرة تتخذ مجموعة من البلدان قراراً يتعارض مع رغبات الاستعمار فإنه يسعى إلى فرض حصار مالي

---

(١٢) المصدر نفسه، ص ٣٧، عن المحاضر الرسمية للدورة أعلاه.

لإرغامها على كسر إرادتها وبما لا يتعارض مع الطروحات الغربية. ومع الأسف فقد لاحظنا أن جميع القضايا التي سجلت في جدول الأعمال لم تكن ذات أهمية للدول الغربية بالمقارنة بقضية ضم إسرائيل إلى أوروبا، وقد جرت تعبئة كل شيء لهذا الغرض[١٣].

وعلى الرغم من انسحاب أمريكا من اليونسكو في ٣١/ ١٢/ ١٩٨٤ وحرمان المنظمة من المساهمة المالية الأمريكية التي كانت تبلغ نسبتها ٢٥ بالمئة، فإن التأثير الأمريكي ونفوذه الواسع في اليونسكو بقي مستمراً، إذ اتخذ المجلس التنفيذي لليونسكو في دورته الاستثنائية الرابعة قراراً يقضي بإنشاء الولايات المتحدة الأمريكية بعثة لها من المراقبين لدى اليونسكو، «تقدم لها كل التسهيلات الممكنة»[١٤]. وقد تم إنشاء تلك البعثة فعلاً في ٣/ ٤/ ١٩٨٥ وهي عاملة إلى الآن. وعن طريق بعثة المراقبين الأمريكية بقيت واشنطن تمارس مختلف أنشطتها ومخططاتها في اليونسكو في ترويج المفاهيم التي تخدم مصالحها.

ومن جهة أخرى، تعززت إمكانيات أمريكا بالتأثير في أنشطة اليونسكو (كما هو الحال مع بقية الوكالات المتخصصة ولجان الأمم المتحدة)، وذلك عقب انهيار الاتحاد السوفياتي وسيطرة الولايات المتحدة وبعض الدول الغربية الأخرى على مجلس الأمن، إذ أصبح بمقدور واشنطن الالتفاف على أصوات الأغلبية من دول العالم الثالث في منظمة اليونسكو، وذلك عن طريق إصدار مجلس الأمن قرارات وفق الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة تحقق لواشنطن مآربها المختلفة، وتكبل المنظمة بقيود تحرم دول معينة من الإفادة مما تقدمه اليونسكو من معرفة ومعونات مختلفة، إذ عن طريق قرارات مجلس الأمن المتخذة وفق الفصل السابع من الميثاق يحرم العراق، مثلاً، من الكثير من الامتيازات، كالحوالات البريدية التي كان يستفيد منها في اقتناء المواد الثقافية والتربوية والعلمية. كما أن العراق لم يعد قادراً، نتيجة وجوب التزام اليونسكو بقرارات مجلس الأمن المجحفة ـ على المشاركة في الدورات التطويرية وورشات العمل والكثير من الاجتماعات العلمية والثقافية التي جمد نشاط العراق فيها. وبالإضافة إلى ذلك، حرم العراق حتى من الحصول على مطبوعات اليونسكو، لأن ذلك يقتضي دفع أثمانها بالعملة الصعبة، في حين أن موجودات العراق مجمدة.

ثالثاً: وجهة نظر أمريكية إزاء مستقبل موقف الولايات المتحدة من اليونسكو

يقول روجر أ. كوت (Roger A. Coat) (الذي كان عضواً في هيئة المستشارين في وزارة خارجية أمريكا المعنية بمراقبة اليونسكو في فترة انسحاب الولايات المتحدة من

---

(١٣) المصدر نفسه، ص ١٨٢.

(١٤) Roger A. Coat, «Increasing the Effectiveness of the U.N. System,» in: *The U.S. and the Future of the United Nations*, p. 58.

اليونسكو عام ١٩٨٤): هناك حاجة إلى رسم مجموعة من السياسات الأمريكية وأن تكون متكاملة وشاملة للمشاركة في الوكالات المتخصصة لمنظومة الأمم المتحدة، وبشكل خاص هناك حاجة إلى تطوير سياسة متماسكة لإعادة عضوية الولايات المتحدة في منظمة اليونسكو. إن عمل هذه المنظمة مهم وحيوي للتعامل مع العديد من المشاكل الأكثر أهمية التي تواجه الولايات المتحدة محلياً أو دولياً. ويمضي في قوله: إن اختصاص اليونسكو في ميادين العلوم والتربية والثقافة والاتصالات تشمل أربعة ميادين يرتبط نشاط كل منها بالآخر بشكل وثيق، وتعتبر أمراً أساسياً في مواجهة أكثر التحديات إلحاحاً التي تهيمن على جدول الأعمال العالمي. وإن عمل اليونسكو في هذه الميادين يمكنه المساهمة في ترويج الديمقراطية ويساعد على صياغة التعاون في مواجهة المشاكل البيئية والأوبئة، مثل مرض نقص المناعة المكتسبة، ويشجع على تطبيق حقوق الإنسان للأفراد..(١٥).

رابعاً: مؤسسات بريتون وودز

لا شك في أن الشؤون المالية والاقتصادية والتجارية تتمتع بأولويات عالية في سلم اهتمامات الولايات المتحدة ـ الدولة التي تقود العالم الرأسمالي ـ الأمر الذي يجعلها تقوم بكل ما يمكن لتوظيف الوكالات المتخصصة للأمم المتحدة لتحقيق المآرب الاقتصادية والمالية لأمريكا مستغلة في ذلك مجموعة المؤسسات المسماة «بريتون وودز»، مثل صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي للإنشاء والتعمير، والمؤسسة المالية الدولية، ومؤسسة التنمية الدولية، وما كان يعرف بالاتفاق العام بالتعريفات الجمركية والتجارية (الغات)، والتي حلت محلها مؤخراً المنظمة العالمية للتجارة المتمخضة عن جولة الأوروغواي للمفاوضات التجارية.

ومن خلال هذه الوكالات المتخصصة تحقق الرأسمالية الأمريكية مخططاتها وسياساتها إزاء بلدان العالم الثالث، ومنها الوطن العربي، وتغيير مفاهيمها وتوجهاتها الاقتصادية. وبغية الحصول على القروض أو ما يسمى بالتسهيلات المالية لا بد لتلك البلدان من الاستجابة لعدة شروط تكبلها لسنوات عديدة، وأن تخضع لما يدعى بالتكييف الاقتصادي، أي إعادة هيكلة الاقتصاد ومنهجها الفكري ومسارات تنميتها بما يتلاءم وسياسات البنك الدولي أو صندوق النقد الدولي، اللذين يعتبران من أبرز ركائز الرأسمالية، ويتم عن طريقهما تصدير مفاهيم «الخصخصة» والاقتصاد الحر والحريات السياسية الأساسية، فضلاً عن وجوب القبول بشروط ذات مكاييل متعددة، مثل مفاهيم حقوق الإنسان والديمقراطية وغيرها. ولا تتورع أمريكا عن خلق المشاكل وإثارة

---

(١٥) تقرير المدير العام عن نشاط المنظمة في عام ١٩٨٤ ـ ١٩٨٥، المؤتمر العام، الدورة الرابعة والعشرون، ١٩٨٧، الوثيقة رقم (٢٤ م/٣ ـ 24 C/3).

النعرات، وحتى الحروب الأهلية، في بلدان العالم الثالث بغية إضعاف هذه البلدان اقتصادياً إلى درجة تضطرها إلى القبول بشروط قاسية للحصول على القروض من الوكالات المتخصصة للأمم المتحدة المذكورة سابقاً.

وفي ما يتعلق بمنظمة التجارة العالمية، يقول عبد الكريم المدرس إن نظرة متأنية إلى اتفاقية الغات والتي وقعت عليها ١١٧ دولة اشتركت في المفاوضات تحدونا إلى القول إن اشتراك الجميع في إرساء قواعدها ومبادئها وبنودها هو قول بعيد عن الحقيقة، لأن الذي شارك في المفاوضات الفعلية وفرض نتائج هذه الاتفاقية إنما هو عدد محدود من الدول الغنية تقودها الولايات المتحدة وتضم الاتحاد الأوروبي وبعض دول جنوب شرق آسيا. أما بقية الدول، فقد دُفعت إلى التوقيع على أن تحصل على موافقة برلماناتها على الاتفاقية لاحقاً[١٦].

إن أبرز ما تمخض عن جولة الأوروغواي التي دامت سبع سنوات والتي تعد من أصعب جولات مفاوضات الغات وأشملها، هو تحويل الغات من اتفاقية إلى منظمة جديدة سميت بمنظمة التجارة العالمية (WTO). إن ظهور المنظمة الجديدة على مسرح الاقتصاد الدولي يعني استكمال المنظومة الثلاثية للعلاقات الاقتصادية الدولية. ويبدو أن التوجه في الاقتصاد الدولي الجديد يرتكز إطاره القانوني على ثلاث ركائز أساسية تدار من قبل الوكالات المتخصصة الآتية:

- نظام نقدي عالمي «متحرر» بإشراف صندوق النقد الدولي (IMF) وإدارته.

- نظام استثماري يقود ممارسته ويضع سياسته باتجاه «تحرير» النظام المالي الدولي البنك الدولي (The World Bank).

- نظام تجاري عالمي جديد أساسه تحرير التجارة الدولية، يدار من قبل منظمة التجارة العالمية (WTO) التي تمثل الفكر الغربي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية وصولاً إلى عولمة التجارة وتحريرها ودعم اقتصادات السوق.

خامساً: الوكالة الدولية للطاقة الذرية

لا شك في أن استغلال الولايات المتحدة للوكالة الدولية للطاقة الذرية يعد من الأمثلة الواضحة لمدى هيمنة الغرب على الوكالات المتخصصة ولجان الأمم المتحدة. فمثلاً، إن أمريكا تغض النظر تماماً عن إسرائيل التي تمتلك فعلاً عشرات الرؤوس النووية، في حين تعتبر واشنطن مجرد متابعة دولة ما لبرنامج نووي يستغل لأغراض

(١٦) عبد الكريم المدرس، «الاتفاقية العامة للتعريفات والتجارة (الجات) وآثارها الاقتصادية،» **شؤون عربية**، العدد ٨٠ (كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٤)، ص ٦٠.

سلمية موضع شكوك على اعتبار أنه يمهد لصنع سلاح نووي، ومن ثم اعتباره جريمة لا تغتفر وتستحق فرض عقوبات صارمة عليها. هذا علماً أن المفاعل النووي الإسرائيلي في ديمونا، والذي مضى على تأسيسه أكثر من ٣٠ سنة، هو في وضع متعب تماماً وإلى درجة تعرض المنطقة برمتها إلى الخطر... إذ إن الكثير من أجهزته بحاجة ملحة إلى تبديلها ويجب غلق المفاعل إلى أن يتم ذلك(١٧).

ومن جهة أخرى، نجد أن أغلبية المناصب المهمة في الوكالة الدولية للطاقة الذرية دائماً تشغل ممن هم من جنسيات دول غربية. فمثلاً، المدير العام للوكالة سويدي، وكذلك رئيس الدائرة الإدارية لها، فهو دائماً أمريكي الجنسية، كما أن دائرة الضمانات الحيوية شغلت من قبل سويسري ونمساوي وكندي. ويشغل رئيس دائرة البحوث والنظائر المشعة إيطالي... وهكذا. وعن طريق هؤلاء والخبراء العديدين يمكن الهيمنة على كل الأمور وبتفاصيلها.

ومن الأمثلة الصارخة بهذا الشأن تعامل الوكالة الدولية للطاقة الذرية واللجنة الخاصة للأمم المتحدة مع العراق، إذ نجد أن أكثر من ٨٥ بالمئة من المفتشين الذين زاروا العراق منذ بدء الأزمة وإلى الآن هم من بضع دول غربية، وبصورة خاصة أمريكا وبريطانيا. والكل يتذكر رجل المخابرات الأمريكي ديفيد كي الذي ترأس فرق تفتيش من الوكالة الدولية للطاقة، والوثائق التي حصل عليها من بغداد وأرسلها مباشرة إلى وزارة الخارجية الأمريكية بدلاً من إرسالها إلى الأمم المتحدة كما يتوجب عليه. كما كانت أغلبية أعضاء اللجان الخاصة للأمم المتحدة في ما يتعلق بالأسلحة الكيمياوية والصواريخ ذاتية الدفع والبرنامج البيولوجي من الدول الغربية أيضاً. والمعروف أن ما يقدمونه إلى مجلس الأمن من تقارير يقرر استمرار جريمة الحصار من عدمه... حصار صارم لم يسبق له مثيل في التاريخ المتحضر، ويعتبر من أبشع الأسلحة ذات الدمار الشامل، ويشكل أكبر خرق لمبادئ حقوق الإنسان، ويسبب إبادة جماعية تحت غطاء قرارات الأمم المتحدة وتقارير لجانها الخاصة. وإن مجمل ذلك قد خلق مفاهيم جديدة يتذرع بها من يلتزم باستمرار الحصار، حتى من هم من القومية والدين نفسهما، على أنهم مجرد تابعين يطبقون ما يسمونه بالشرعية الدولية (المتمثلة في الواقع بالهيمنة الأمريكية) ويضعون ذلك فوق انتمائهم الديني والقومي.

سادساً: لجنة حقوق الإنسان للأمم المتحدة

إن هيمنة الولايات المتحدة وحليفاتها من الدول الغربية على لجنة حقوق الإنسان للأمم المتحدة، وكل ما هو مرتبط بها من تنظيمات ومؤتمرات حول هذا الموضوع المهم،

(١٧) Amos Perlmutter, «Nuclear Fog: Egypt's Fears Go Beyond Israel's Basement Bomb,» *International Herald Tribune*, 4/4/1995.

تجسد تماماً مدى وكيفية استغلال الغرب لمنظومة الأمم المتحدة لترويج مفاهيم الدول الغربية، وتحقيق أهدافها المريبة في بلدان العالم الثالث، واستغلال هذه المبادئ السامية للتدخل في الشؤون الداخلية للدول.

وقد تجدر الإشارة إلى أن دول العالم الثالث ـ وبخاصة تلك التي كانت تقاسي تحت نير الاستعمار ـ هي التي كانت تنادي بوجوب الحصول على حقوقها، وبضرورة تطبيق مبادئ حقوق الإنسان من قبل الدول الغربية التي استعمرت البلدان النامية ونهبت ثرواتها وقتلت وعذبت مناضليها ضد الاستعمار. ولكن الأفكار والآلية التي تبنتها الأمم المتحدة بعد ذلك في ما يخص هذا الموضوع الحيوي أمست بيد الغرب أدوات لترويض دول العالم الثالث.

ويوضح الدبلوماسي الفرنسي موريس برتران خلفية الموضوع قائلاً: إن خطاب حقوق الإنسان هو خطاب غربي أساساً، فقد كان آباء ميثاق الأمم المتحدة يخاطبون فكر سكان البلدان الغنية حين أعلنوا في ديباجته عن إيمانهم بالحقوق الأساسية للإنسان وبكرامة الفرد وقدره وبما للرجال والنساء من حقوق متساوية.. وان ميثاق الحقوق المدنية والسياسية لعام ١٩٦٦ يعبر عن فلسفة الغرب في هذا الشأن[١٨]. ويضيف سايروس فانس، وزير الخارجية الأمريكية سابقاً، بهذا الصدد قائلاً: «إن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان للأمم المتحدة، الوثيقة التي ساعدت أمريكا على صياغتها، تعترف بجميع أنواع حقوق الإنسان [التي استعرضها فانس في مقالته]، وإن وثيقة الإعلان تعتمد كثيراً على لائحة حقوق الإنسان الأمريكية، والماغنا كارتا البريطانية، والإعلان الفرنسي بشأن حقوق الرجل والمواطن»[١٩].

ويضيف فانس قائلاً: «وحتى دول مثل الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى اللتين تزعمان اتّباعهما مستويات رفيعة [من احترام لحقوق الإنسان] لم يبدُ أنهما تؤمنان بأن تلك المستويات قابلة للتطبيق بالنسبة إلى البشر ممن ألوان جلودهم ليست من اللون الأبيض. ولم تعلُ صيحة احتجاج دولية عندما استخدمت الولايات المتحدة سبلاً قاسية لإخضاع قوى المعارضة في الفيليبين في مستهل هذا القرن، أو عندما دفعت بوحشية السكان الأصليين في أمريكا إلى مستوطنات «الهنود الحمر». واستخدم البريطانيون أكثر الطرق تطرفاً في قمع السكان الأصليين في شتى أنحاء الأرض، لكن قلة من العنصر الأبيض فكرت بالبريطانيين سوءاً [لأعمال القمع تلك]. كما أن البلدان التي لم تحترم القانون آنذاك كانت حتى أقل اهتماماً من ذلك بخصوص حقوق الإنسان[٢٠].

---

(١٨) برتران، **الأمم المتحدة من الحرب الباردة إلى النظام العالمي الجديد**، ص ١٢٤ ـ ١٢٥.

(١٩) Syrus R. Vance, «The Human Rights Imperative,» *Foreign Policy*, no. 63 (Summer 1986), p. 5.

(٢٠) المصدر نفسه.

ويمضي سايروس فانس مؤكداً: ولكن مثل هذه المواقف (من حقوق الإنسان) تغيرت بصورة راديكالية وجوهرية بعد الحرب العالمية الثانية، وبشكل رئيسي بسبب الرعب الذي تم الشعور به حول العالم عندما تم الكشف عن محرقة الإبادة (لليهود) (Holocaust)، وعندما تبين مدى تصفية الأشخاص غير المرغوب فيهم من قبل جوزيف ستالين. آنذاك أدركت دول وشخصيات (غربية) فجأة أنه من دون وضع مقاييس ومعايير لن تكون هناك حدود لخرق حقوق الإنسان. وفي عام ١٩٤٦ تأسست لجنة حقوق الإنسان في الأمم المتحدة وانتخبت إلينور روزفلت زوجة رئيس الولايات المتحدة سابقاً أول رئيس لتلك اللجنة[٢١].

أما بشأن تبني الولايات المتحدة موضوع حقوق الإنسان في سياستها الخارجية، فتوضح مقدمة الكتاب حقوق الإنسان والسياسة الخارجية للولايات المتحدة، أن نشر الاهتمامات بحقوق الإنسان وصيرورتها جزءاً شهيراً من السياسة الخارجية للولايات المتحدة، جاء نتيجة لحركة بدأت في الكونغرس الأمريكي في عام ١٩٧٣، وتم تعزيزها أثناء حملة الانتخابات الرئاسية للرئيس جيمي كارتر عام ١٩٧٦[٢٢].

وقد بدأت الجهود الأمريكية تكتسب زخماً متزايداً لاستغلال الأمم المتحدة لتحقيق مآرب الغرب بواسطة موضوع حقوق الإنسان، إلا أن الاتحاد السوفياتي، والمعسكر الاشتراكي بصورة عامة، كان يقف عائقاً صلباً أمام ذلك الزخم، وبخاصة في ما يخص موضوع حماية الأقليات والمنشقين، مثل أندريه زاخاروف وحركة التضامن (Solidarity) في بولندا، وما أشبه ذلك من القضايا التي روج لها الإعلام الغربي بشأن حقوق الإنسان.

ولا بد من التأكيد على الأهمية البالغة لاحترام مبادئ حقوق الإنسان، والعمل على تعزيزها والارتقاء بها إلى ما هو أفضل، إذ يعتبر هذا التوجه سياسة ثابتة لنا كعرب تنبع أساساً من القيم والمبادئ الإسلامية والقومية التي نؤمن بها، كما يجب التعاون مع هيئات الأمم المتحدة المعنية بحقوق الإنسان من أجل ضمان حمايتها في ضوء مبادئ العدالة والموضوعية واللاانتقائية في التعامل.

لقد أمسى موضوع حقوق الإنسان يستغل من قبل الغرب وعن طريق الشبكة الواسعة التي تقدمها الأمم المتحدة كغطاء ومنفذ سهل المرور والتدخل في الشؤون الداخلية للدول، واستغلال الآلية التي تقدمها الأمم المتحدة لتغيير ولاء الأقليات وإشعارها بعدم المساواة، وفتح قنوات لتخريب أشخاصها ومشاعرها من خلال تغذيتها

(٢١) المصدر نفسه، ص ٦.

(٢٢) Peter G. Brown and Douglas Maclean, *Human Rights and U.S. Foreign Policy* (Lexington, MA: Lexington Books, 1977).

بمشاعر العنصرية والطائفية ودفعها ـ عن طريق الترغيب أو التهديد والابتزاز ـ بالاتجاه الذي يخدم المخطط الغربي. وإن ما يحصل في شمال العراق يعد مثالاً صارخاً في هذا الشأن. والكل يعلم بما كان عليه شمال العراق قبل تدخل الغرب فيه باسم حماية حقوق الإنسان، وما آل إليه وساكنوه حالياً من بؤس وخراب.

وقد اقترح المقرر الخاص للجنة حقوق الإنسان في العراق الهولندي الجنسية ماكس فان دير شتويل، والذي عين استناداً إلى قرار لجنة حقوق الإنسان للأمم المتحدة في دورتها السابعة والأربعين (عام ١٩٩١)، فكرة مرابطة مراقبي حقوق الإنسان في العراق، ورُوجت لهذه الفكرة الولايات المتحدة الأمريكية والجهات الأخرى المعادية للعراق. والمعروف أن بيل كلنتون، رئيس الولايات المتحدة، يكرر أن الإدارة الأمريكية «تواصل من جانبها الدعم لعمل فان دير شتويل ولدعوته لإرسال مراقبين لحقوق الإنسان»(٢٣). ويراد من فكرة مرابطة مراقبي حقوق الإنسان في العراق جعل هؤلاء المراقبين ما يشبه الوكلاء السياسيين للدول الاستعمارية مع إغفال كامل لسلطة الدولة العراقية في ممارسة اختصاصاتها في السيادة والاستقلال.

وتستمر الدول الغربية في فرض مفاهيمها وإراداتها في ما يتعلق بحقوق الإنسان على المجتمع الدولي، مستغلة بذلك منظومة الأمم المتحدة. وقد طالب الغرب في المؤتمر العالمي لحقوق الإنسان الذي انعقد في فيينا في الفترة ١٤ ـ ١٩٩٣/٦/٢٥، بإنشاء منصب مفوض سام بحقوق الإنسان كهيئة جديدة مستقلة عالية المستوى في نطاق منظومة الأمم المتحدة، له القدرة على التصرف السريع في حالات الطوارئ المتعلقة بانتهاكات حقوق الإنسان. ويقول موريس بي. أبرام، ممثل الولايات المتحدة السابق لدى مكتب الأمم المتحدة في جنيف، إن الولايات المتحدة وكوستاريكا فكرتا بوجوب إنشاء مثل هذا المنصب منذ بداية عقد الستينيات، إلا أن الاتحاد السوفياتي أصر على معارضة ذلك خشية من أن يكون الحكم الدكتاتوري هناك الهدف الأول في أعمال المفوض السامي. وإن الولايات المتحدة قد أعادت الحياة لهذا الموضوع بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، وذلك لتعزيز تأثير برامج حقوق الإنسان. وبعد مرور جهود استغرقت ثلاثين سنة أقرت الجمعية العامة في شهر كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٣ استحداث منصب المفوض السامي لحقوق الإنسان، وقام الأمين العام بتعيين جوزيه أيالا لاسو (José Ayala Lasso) من الاكوادور كأول مفوض سام لهذا الغرض(٢٤).

---

(٢٣) «Text of a Letter from the U.S. President to the Speaker of the House of Representatives and the President of the Senate Regarding [Public Law 102 - 1],» 8 March 1995, White House PB.

(٢٤) *The U.S. and the Future of the United Nations*, p. 31.

وأكدت الدول الغربية كافة في مؤتمر فيينا المشار إليه أعلاه تساندها بعض الدول من أمريكا اللاتينية وأفريقيا على أن جميع حقوق الإنسان عالمية في طابعها، وهي تقبل التطبيق بشكل متساوٍ في إطار شتى التقاليد الاجتماعية والثقافية والدينية، وبغض النظر عن العرق واللون والجنس أو اللغة أو الدين. وطالبت بوجوب إنشاء محكمة جنائية دولية دائمة ومستقلة لمقاضاة الانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان والقانون الإنساني.

كما شددت الدول الغربية في المؤتمر العالمي لحقوق الإنسان على أن سياستها الخارجية النابعة من إيمانها بالديمقراطية (كذا) تستوجب ربط المساعدات الاقتصادية التي تقدمها إلى أية دولة في العالم بالحالة الديمقراطية في ذلك البلد ومدى احترامه لمبادئ حقوق الإنسان.

ومن الطبيعي أن يكون لدول العالم الثالث مواقف مخالفة للغرب الذي يريد أن يستغل هذه المبادئ السامية لحقوق الإنسان لنشر مفاهيمه والتأثير في ثقافات وحضارات تلك الدول وتقاليدها ولتحقيق أهدافه السياسية والاقتصادية. ومن أهم مواقف دول العالم الثالث وجوب احترام مبدأ السيادة وعدم التدخل في الشؤون الداخلية تحت ذريعة حماية حقوق الإنسان، وعدم استخدام المعايير المزدوجة أو الانتقائية عند معالجة انتهاكات حقوق الإنسان، وعدم ربط المساعدات الاقتصادية بمسألة حقوق الإنسان، وأن حقوق الإنسان والتنمية والديمقراطية حقوق مترابطة. فمن حق الشعوب أن تختار بحرية النظام السياسي والاقتصادي الذي يناسبها من دون إكراه، وعدم استخدام العنف والوسائل اللاديمقراطية بحجة الدفاع عن حقوق الإنسان والقيم الغربية والديمقراطية[٢٥].

ومن الجدير بالذكر أن الولايات المتحدة وعدد من الدول الغربية أرادت أن تستغل فترة الانفلات في السلوك الدولي التي تزامنت مع انهيار الاتحاد السوفياتي والمعسكر الاشتراكي وأعقبته، فكثفت تلك الدول من جهودها لترويج مفاهيمها عالمياً، وعملت على عقد مؤتمرات دولية تغطي مواضيعها أنماطاً مهمة من أوجه حياة الإنسان ووفق تخطيط مسبق وروابط موضوعية بين المؤتمرات التي تمت وتتم في النصف الأول من عقد التسعينيات، إذ إن مجملها يصب في تعزيز مفاهيم الغرب وتحديثها بما يتماشى ويتلاءم مع فترة السلام الساخن التي أعقبت انتهاء الحرب الباردة، وجعل تلك المفاهيم عالمية الطابع وتغزو حضارات وثقافات العالم الثالث.

فقد تم عقد مؤتمر القمة العالمي من أجل الطفل في نيويورك عام ١٩٩٠، والذي أعلن فيه الزعماء السياسيون عزمهم على إعطاء أولوية عليا لحقوق الطفل، واعتمدوا

---

(٢٥) «Text of a Letter from the U.S. President to the Speaker of the House of Representatives and the President of the Senate Regarding [Public Law 102 - 1],» 8 March 1995, White House PB.

مجموعة من الأهداف من أجل الطفل والتنمية في عقد التسعينيات. والمعروف أن الغرب يعتبر تشغيل الأطفال في آسيا وغيرها يؤدي إلى تخفيض كلفة المنتوجات هناك لتصبح أقل من كلفتها في الغرب، مما يجعلها أكثر تنافسية من الصناعات والمنتوجات الغربية ويهدد مصالح الغرب التجارية.

ثم التأم اجتماع مجلس الأمن في نيويورك في ٣١/١/١٩٩٢ على مستوى رؤساء الدول والحكومات لبحث **مسؤولية مجلس الأمن في صون السلم والأمن الدوليين**. وفي الوقت الذي سوف نورد فيه أدناه ايجازاً للمواقف المختلفة لهذا المؤتمر، يمكن القول هنا إن الولايات المتحدة قد حاولت بجد من خلال بيان مجلس الأمن الذي صدر عقب انتهاء هذا الاجتماع أن تجعل السوابق في التعامل الدولي على مدى العامين السابقين لذلك الاجتماع كسياق عمل يرقى إلى مستوى الأعراف والقوانين الدولية.

وانعقد مؤتمر الأمم المتحدة المعني بالبيئة والتنمية (مؤتمر قمة الأرض) في ريو دي جانيرو عام ١٩٩٢، الذي التزمت بموجبه حكومات العالم ببرامج عمل تفصيلية تهدف إلى تحقيق التنمية الاجتماعية والمستدامة بيئياً وفق المنظور الغربي.

ويستأثر المؤتمر العالمي لحقوق الإنسان الذي انعقد في فيينا في شهر حزيران/ يونيو ١٩٩٣ باهتمام خاص من لدن الباحث، ولا سيما أن هذا الموضوع يهدف إلى إضعاف مفهوم السيادة والسماح بالتدخل في الشؤون الداخلية للدول، وبشكل انتقائي. ولذا تم بحث هذا الموضوع بشكل من التفصيل لاحقاً.

وانعقد المؤتمر العالمي للسكان والتنمية في شهر أيلول/ سبتمبر ١٩٩٤ في القاهرة. والمعروف أن الدول الغربية قد نشطت في السنوات الأخيرة أكثر من السابق في وضع برامج عالمية تهدف إلى الحد من زيادة السكان في دول العالم الثالث بسبب القلق الشديد الذي غالباً ما يفصح عنه الزعماء الغربيون الناجم عن اعتقاد الغرب بأن استمرار ازدياد السكان في «البلدان النامية» يؤدي إلى زيادة القوة السياسية والاقتصادية فيها، كما يؤدي إلى تقوية النزعة لتأميم الاستثمارات الأجنبية والمطالبة بالسيادة والتحكم بالموارد الطبيعية في تلك البلدان وعلى حساب مصالح الغرب. ويعتقد الغرب أيضاً بأن زيادة السكان في افريقيا وآسيا سيؤدي إلى زيادة هجرتهم إلى الشمال، مما سيفاقم المشاكل العرقية والدينية في البلدان الغربية.

وقد مثل انعقاد المؤتمر العالمي للسكان وما دار فيه مساساً وخرقاً للكثير من الأعراف والتقاليد، بل حتى الأديان في دول العالم. ولعل ردود الفعل التي وردت في بيان شيخ جامع الأزهر الشريف تلقي بعض الضوء في هذا الشأن، إذ أشار إلى أن التشكيك في اعتبار الأسرة هي الوحدة الأساسية للمجتمع (كما جاء في المبدأ رقم ١٠ من مشروع الوثيقة الختامية للمؤتمر) تتنافى مع المقومات الإسلامية. كما تتنافى مع تلك المقومات مطالبة الوالدين بالتغاضي عن النشاط الجنسي للمراهقين خارج نطاق الزواج،

مع الرضاء عن هذا النشاط واعتباره سراً لا يحق لأي منهم التدخل فيه. ففي ما يخص العلاقات الجنسية لا يقر الإسلام أي علاقة جنسية بغير طريق الزواج الشرعي الذي يقوم بين الرجل والمرأة. ومن ثم فإن مما يناقض الإسلام أن يسمح بأشكال اقتران أخرى غير الزواج، كما تشير إلى ذلك الفقرة الخامسة من المادة الخامسة من المشروع، أو أن يتمتع الأفراد غير المتزوجين بحياة جنسية مرضية، كما تشير إلى ذلك المادة السابعة في فقرتيها الأولى والثانية. وفي ما يتعلق بالإجهاض، فإن مجمع البحوث الإسلامية في الأزهر الشريف قد انتهى إلى أن الحمل محرم إسقاطه، إلا إذا كان هناك سبب يقتضي المحافظة على حياة الأم. وخلص مجمع البحوث الإسلامية في تقويمه للمشروع بالقول بأنه إذا كان المجمع قد خص بالذكر ما يتصل بالمسائل الثلاث، فذلك لا يعني أن المشروع قد برئ من مخالفة الشريعة في ما عداها، فقد سرت فيه بعض العبارات التي توحي بأمور غير مقبولة، مثل المساواة بين الذكر والأنثى في حقوق الميراث الذي تشير إليه الفقرة السابعة عشرة من المادة الرابعة، وإلزام الحكومات والمنظمات غير الحكومية برفع الحد الأدنى لسن الزواج مع إتاحة بدائل تغني عن الزواج المبكر، كما جاء في الفقرة الثانية والعشرين من المادة الرابعة[٢٦].

وقد عبّر الكثير من الوفود عن اعتقاده بأن التعديلات التي جرت على مشروع الوثيقة الختامية للمؤتمر كانت بمثابة ترقيع أو محاولة عمل تجميلي لتلك الوثيقة، وبقي الكثير فيها مما يجب تعديله جوهرياً.

كذلك التأم مؤخراً المؤتمر العالمي للتنمية الاجتماعية في كوبنهاغن في ٦ آذار/مارس ١٩٩٥، ومن المخطط أن يتم عقد المؤتمر العالمي للمرأة في أيلول/سبتمبر ١٩٩٥ في بكين.

سابعاً: اجتماع مجلس الأمن على مستوى رؤساء الدول والحكومات (٣١/١/١٩٩٢)

لقد قادت الولايات المتحدة حملة غربية منظمة في اجتماع مجلس الأمن الذي انعقد في نيويورك في ٣١/١/١٩٩٢ على مستوى رؤساء الدول والحكومات لبحث موضوع مسؤولية مجلس الأمن في صون السلم والأمن الدوليين، وزعت خلاله الدول الغربية الأدوار في ما بينها، فقال جورج بوش رئيس أمريكا السابق على سبيل المثال، إن احترام الإنسان وحقوق الإنسان غير قابل للتصرف، وليس ملكاً للدولة بل هو شامل وعالمي. وقال ويلفريد مارتنس، رئيس وزراء بلجيكا: يجب عدم استخدام مبدأ عدم التدخل

---

(٢٦) الشيخ جاد الحق علي جاد الحق، البيان الذي وزعه مكتب شيخ جامع الأزهر الشريف ورئيس مجمع البحوث الإسلامية في آب/أغسطس ١٩٩٤.

كحجة قانونية للتغاضي عن انتهاك حقوق الإنسان، وتقترح بلجيكا أن يقوم مجلس الأمن بمعالجة الانتهاكات الخطيرة في مرحلة مبكرة. وأضاف جون ميجور، رئيس وزراء بريطانيا، أن الحكومة الجيدة ليست ترفاً، بل أساساً لبناء مجتمع مستقر ومزدهر. وهذا بدوره يبنى على أساس يشمل نصوصاً للتحقق من الالتزام بمبادئ حقوق الإنسان وإجراء انتخابات حرة ونزيهة.

والأسئلة التي تفرض نفسها هنا: من سيقرر أن حكومة ما ـ في الشرق الأوسط أو أمريكا اللاتينية أو أوروبا ـ تحترم أو تخرق حقوق الإنسان؟ وما هو المعيار الذي سيستخدم للحكم على حكومة ما بأنها جيدة أو غير جيدة؟ إذ إن الدولة العملاقة التي تريد أن تنهب الثروات الطبيعية لدولة ما سوف تعتبر الحكومة جيدة في حالة ترك الدولة العملاقة تنهب الثروات من دون مقاومة، والعكس صحيح. وهل السوابق التاريخية في السنوات القليلة الماضية ـ مثلما يحدث في إسرائيل والبوسنة والهرسك، وما يحدث للعراق وليبيا، وما يحدث في أمريكا اللاتينية والشرق الأقصى... الخ ـ تشجع دول العالم الثالث على الاطمئنان إلى نزاهة وعدالة الدول التي أمست تنفرد بالسلطة في العالم وتتصرف بها كما يحلو لها وتنصب نفسها مدعياً وشاهداً أو قاضياً في آن واحد؟

وربما تتمثل خلاصة أجوبة دول العالم الثالث في هذا المضمار بما جاء على لسان الصين والهند. فقد أكد لي بنج، رئيس وزراء الصين، في اجتماع مجلس الأمن المشار إليه سابقاً، أن مسألة حقوق الإنسان تندرج في إطار سيادة كل بلد، وينبغي عدم الحكم على حالة حقوق الإنسان في بلد ما بتجاهل كامل للعوامل التاريخية وظروفه الوطنية، وليس من المناسب ولا من المعقول المطالبة بأن تكون جميع البلدان بمستوى معايير ونماذج حقوق الإنسان في بلد واحد أو عدد قليل من البلدان. وأضاف أن الصين تعارض التدخل في الشؤون الداخلية للبلدان الأخرى باستخدام مسألة حقوق الإنسان كذريعة لذلك.

وانتقد ناراسيما راو، رئيس وزراء الهند، الحكم على الحكومات التي تتصدى للإرهاب على أساس أنه انتهاكات لحقوق الإنسان، الحقيقية منها والوهمية، وهي في معظمها وهمية. وأن جوهر حقوق الإنسان وطبيعتها يرتهنان بالقوى الاجتماعية والثقافية وتقاليد البلد.

وحول مسعى الأمم المتحدة لإيجاد معايير دولية موحدة لحقوق الإنسان، فإن هذه المعايير ينبغي عدم تحديدها من جانب واحد ووضعها بصفتها شروطاً مسبقة مطلقة للتفاعل بين الدول والمجتمعات في المجال السياسي والاقتصادي.

الخلاصة والاستنتاجات

يتضح مما سبق ذكره أن الأمم المتحدة قد أصبحت تحتل مركز الأحداث الدولية بعد أن ظلت شكلية وهامشية مدة تقارب الثلاثين سنة إبان الحرب الباردة. كما أن انهيار

الاتحاد السوفياتي قد أفضى، بطبيعة الحال، إلى سيطرة أمريكا وبعض الدول الغربية المتنفذة على الأمم المتحدة، وإلى تحويل الكثير من هيئاتها ولجانها المتخصصة إلى أدوات تستغلها تلك الدول لتحقيق مصالحها ونشر ثقافاتها، فضلاً عن ترويج المفاهيم الخاصة بالغرب في ما يتعلق بالتنمية والسكان والديمقراطية والتعددية واقتصاد السوق الحر، مع العمل على تقويض مفهوم السيادة للدول عن طريق استغلال السياسات المشار إليها سابقاً، إلى جانب استغلال شعارات تلبس صفات الإنسانية، مثل شعار حماية حقوق الإنسان وغيرها، كمنافذ مؤاتية للتدخل في الشؤون الداخلية للدول. فعقدت مؤتمرات عالمية خلال النصف الأول من التسعينيات تعالج مختلف أنماط أوجه الحياة، وإن هذا التوجه بمجمله يمثل في الواقع هجمة من نوع جديد ومطور ضد بلدان العالم الثالث، إن لم نقل إنه استمرار لتاريخ المجابهة الحضارية بين الشرق والغرب.

بيد أنه لا بد من التأكيد في الوقت نفسه على أن التعميم في الاستنتاجات والأحكام قد لا يخدم الأهداف الموضوعية التي ننشدها جميعاً في بحث العلاقة الحضارية بين الشرق والغرب، هذا إن لم يكن في واقع الحال غير جائز وغير واقعي، إذ إن من الواجب علينا أن نقر بالكثير من الأنشطة الإيجابية، بل والحيوية أحياناً، التي قدمها ويقدمها عدد من الوكالات المتخصصة. فعلى سبيل المثال لا الحصر، تم بالجهود المتضافرة مع منظمة الصحة الدولية، القضاء على عدد من الأوبئة التي كانت مستعصية في السابق، فضلاً عن السيطرة على أمراض أخرى في العديد من بلدان العالم الثالث. كما نجح صندوق الأمم المتحدة لرعاية الطفولة في تقديم الكثير من العون والخبرة، وكذلك برنامج التنمية للأمم المتحدة ومنظمة الأغذية والزراعة وغير ذلك. بيد أن الذهن سرعان ما ينصرف عن مثل هذه الأنشطة الجديرة بالتقدير تحت وطأة إخفاق منظومة الأمم المتحدة بهيكليتها العامة في النهوض بدورها المنشود، والمثبت في ميثاقها لخدمة الشعوب، بل وخضوعها إلى هيمنة عدد قليل معروف من الدول أمست تستغل منظومة الأمم المتحدة لتشويه الحضارات والحقائق، واختلاق المسوغات لارتكاب جرائم تجويع الشعوب، وتبرير الإبادة الجماعية، واستعمال الأسلحة المحرمة دولياً، مثل استخدام اليورانيوم المخصَّب في رؤوس القنابل الخارقة للدروع، وفرض الحصار الاقتصادي على رغم إسقاط جميع الذرائع التي اختلقت أصلاً لاستغلالها في فرض الحصار.

كما يستخلص مما سبق ذكره أن الولايات المتحدة تستغل الحقبة الفريدة من الانفلات في السلوك الدولي التي أعقبت انهيار الاتحاد السوفياتي في جعل بلدان العالم الثالث حقل تجارب، إذ عن طريق الخطأ والصواب تنتقى السوابق الملائمة لدول الغرب لتعميمها على دول العالم الثالث كسياق عمل يرقى إلى مستوى الأعراف والقوانين الدولية. وتعزز الكاتبة الأمريكية المعروفة فلورا لويس هذا التوجه في مقالة كتبتها في مجلة **السياسة الخارجية**، ومما جاء فيها: إن المهمات المركزية، لما بعد فترة الحرب الباردة، في تعزيز

وتطوير نظام الدولة وتقويض مفهوم السيادة الوطنية وتحقيقها ممكن عن طريق تجارب الخطأ والصواب، وهو أسهل من إنجازها عن طريق المحاولات المرئية في تقنين المواثيق. وإن هذا الأسلوب له فوائده، وما يميزه كونه ينطلق من التقاليد الأنغلو ـ ساكسونية التي تعتمد على تأسيس السوابق، وليس التقاليد النابوليونية التي تعتمد تقنين السلوك الدولي في مواثيق يتفق عليها(٢٧).

ويستخلص من البحث أيضاً أن الدول العربية ـ والولايات المتحدة على وجه الخصوص ـ توظف العوامل والسبل الوارد ذكرها أدناه لتحقيق مآربها في ترويج مفاهيمها وثقافتها وتعزيز هيمنتها على دول العالم الثالث.

١ ـ العامل المالي والاقتصادي

كبرت المساهمة المالية للدول الغربية في ميزانية الأمم المتحدة والتنظيمات الأخرى المشار إليها سابقاً المرتبطة بالمؤسسة الأم، إذ إن الولايات المتحدة وحدها تساهم بـ ٢٥ بالمئة من ميزانية الأمم المتحدة، وتأتي اليابان بالدرجة الثانية، حيث تساهم بما نسبته ١٢,٤٥ بالمئة، ثم ألمانيا ٨ بالمئة، وفرنسا ٦ بالمئة، وبريطانيا ٥,٠٢ بالمئة، وإيطاليا ٤,٢٩ بالمئة، وكندا ٣,١١ بالمئة، أي أن مجموع نسب ما تساهم به الدول الصناعية السبع يبلغ ٦٣,٨٧ بالمئة من ميزانية الأمم المتحدة وما يقارب ذلك في التنظيمات المرتبطة بها. ولا شك في أن هذه المساهمات المالية الكبيرة تعطي الغرب الكفة الأرجح في التأثير في انتقاء نوعية المشاريع ومضامين البرامج التي تروّج الأفكار والثقافة الغربية وتخدم مختلف سياسات تلك الدول سياسياً واقتصادياً وحضارياً وغيرها.

٢ ـ السيطرة على المناصب الحساسة

إن أغلبية كبار المسؤولين في الأمم المتحدة والتنظيمات المتخصصة المرتبطة بها هي من جنسيات الدول الغربية، إذ إن ما يقارب الـ ٨٠ بالمئة من رؤساء الوكالات المتخصصة (المدراء العامون) هم من دول الغرب، فضلاً عن أن الكثير من الخبراء العاملين في مختلف الوكالات المتخصصة واللجان المختلفة هم من الجنسيات الغربية. والمثال الذي يقفز بسرعة إلى الذهن بهذا الشأن هو أن ما يزيد على ٨٥ بالمئة من خبراء فرق التفتيش من الوكالة الدولية للطاقة الذرية الذين يزورون العراق (وفق القرار رقم ٦٨٧) هم من أمريكا وبريطانيا وغيرها من الدول الغربية. وتصدر قراراتهم وتقاريرهم بما يخدم الغرب. وبما أن أجهزة الإعلام الدولية هي الأخرى بيد الغرب، فإن صياغة التقارير تشوه الحقائق وتخدم المفاهيم التي يريد الغرب ترويجها، وبشكل يحاول إيجاد المسوغات لاستمرار جريمة

---

(٢٧) Flora Lewis, *The «G - 7/½» 1991 - 1992* (Washington, DC: Carnegie Endowments for International Peace, [n. d.]), p. 25.

الحصار، على رغم إسقاط حتى الذرائع التي اختلقت واستغلت لفرض الحصار. فمثلاً إن ديفيد كي الأمريكي الجنسية، والذي ترأس عدداً من فرق التفتيش للأمم المتحدة، كان يرسل تقاريره وما يحصل عليه من وثائق من بغداد مباشرة إلى وزارة الخارجية الأمريكية في واشنطن بدلاً من إرسالها إلى مقر الأمم المتحدة، كما تقتضي أحكام ميثاقها. وقد سبق أن كتب الكثير في الشرق والغرب عن ارتباطه بوكالة المخابرات المركزية الأمريكية.

٣ ـ إمكانية انتقاء المشاريع والبرامج المناسبة

إن الفقرتين (١) و (٢) المذكورتين سابقاً تساعدان الدول الغربية على انتقاء المشاريع والبرامج التي عن طريقها تتمكن الدول الغربية من تحقيق أهدافها ومصالحها، فتحصل موافقة المنظمات المتخصصة واللجان المختلفة للأمم المتحدة على المشاريع المجدية للغرب وترفض الباقية، إلا إذا تم تعديلها فتصبح مقبولة لها.

٤ ـ ممارسة وسائط الضغط والترغيب

تقوم الدول العربية بممارسة وسائط الضغط والترغيب على الدول، ولا سيما على الدول الصغيرة والمجهرية من أجل الحصول على أصواتها لإصدار القرارات في منظومة الأمم المتحدة التي تخدم مصالح الغرب، بل حتى عكس قرارات سابقة أو إلغاؤها مثلما حصل بخصوص اعتبار الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية.

٥ ـ إرهاب دول العالم الثالث

تقوم الدول الغربية بالتهويل بالقوة العسكرية الضاربة لديها والتأكيد على استعدادها لاستخدامها بكل قسوة إذ ما تطلب الأمر ذلك بغية حمل الدول الصغيرة على التصويت في منظومة الأمم المتحدة والمؤتمرات الدولية وفق رغبات الغرب. وقد كتبت مجلة أفريكا إيفنتس *(Africa Events)* (في عددها الصادر في شهر نيسان/ابريل ١٩٩١) مقالة عن العدوان على العراق جاء في مستهلها: «بغض النظر عن الذرائع والتبريرات التي تقدم حالياً لتهدئة بقية دول العالم، فإن الطريقة التي تم التفكير والمبادرة بها لحرب الخليج ونمط تنفيذها من قبل البيت الأبيض سوف تبقى تلاحق وتزعج ما تبقى من ضمير لدى الدول الغربية ولفترة طويلة قادمة، إذ لم تشهد سجلات التاريخ العسكري قط مثل هذه الحرب التي تعرض فيها جنود وهم في حالة الانسحاب إلى قنابل النابالم والحرق وهم أحياء، ربما ما عدا في حروب الفتوحات الاستعمارية القديمة، حيث كانت تتم إبادة مجاميع من السكان الأصليين عن عمد لإدخال الرهبة في البقية الباقية من السكان الأصليين بغية إجبارهم على الخضوع والإذعان للمستعمرين. إن التاريخ سيسجل حكمه بأن الأمريكيين قد استخدموا تقانتهم العالية لمكائن القتل بهدف رمي العراقيين بظهورهم لزرع الرعب في شعوب بقية دول العالم الثالث كي لا يحاولوا تحدي الذي لا يجب تحديه (العم سام)».

٦ ـ انتقاء الموظفين العاملين في سكرتارية الأمم المتحدة ومختلف المؤتمرات الدولية

يتم اختيار الموظفين العاملين من الجنسيات الملائمة أو ممن تم ترويضهم بشكل يخدم المصالح الغربية. والهدف من ذلك الاستفادة منهم في دعم المواضيع المناسبة ومساندتها ووضع العراقيل أمام ما يضر المصالح الغربية.

٧ ـ انتقاء القضايا والمواضيع

يتم انتقاء القضايا والمواضيع التي تطرح على المؤتمرات الدولية والمنظمات المختلفة للأمم المتحدة التي تخدم مصالح وثقافات الدول الغربية، وإبعاد قدر الإمكان المواضيع التي تتقاطع مع تلك المصالح. فمثلاً، تقحم مواضيع حقوق الإنسان والبيئة والديمقراطية والتعددية الحزبية وما أشبه، وتستبعد المواضيع التي تخص معاناة العالم الثالث التي تئن تحت وطأة الديون الخارجية وأعبائها، وبخاصة في القارة الأفريقية التي وصل حجم مديونيتها إلى ٢٨٥ مليار دولار، أو معاناة الفلسطينيين والشعوب التي أمست تعاني من فرض الحصار، وهكذا.

إن عدداً من موظفي سكرتارية الهيئات والمؤتمرات الدولية، ممن تم انتقاؤهم بصورة خاصة، يعمل بشكل هادئ ومحترف في توجيه أنشطة مكاتب رئاسة المؤتمرات الدولية وصياغة الوثائق الأولية بأسلوب يمهد لقبول الأفكار الغربية، ويتم ذلك بشكل لا يثير الشكوك.

٨ ـ هيمنة الولايات المتحدة على مجلس الأمن

تستغل الولايات المتحدة والدول المتنفذة الأخرى هيمنتها على مجلس الأمن لاستصدار قرارات بموجب الفصل السابع من الميثاق تكون ملزمة للوكالات المتخصصة وأعضائها، ومن ثم تتيح لواشنطن وحليفاتها القدرة على الالتفاف عبر تلك القرارات على أصوات الأغلبية في الوكالات، فتعمد إلى ممارسة أنواع من الحصار الثقافي والاقتصادي وغيرها لإعاقة التقدم التربوي والعلمي والحضاري للشعوب المتضررة من تلك القرارات.

إن الغطرسة الأمريكية والعنجهية التي تظهرها في العمل على «أمركة العالم» ـ إن صح التعبير ـ عن طريق فرض الأساليب والأنماط الأمريكية لمختلف أوجه الحياة على ثقافات العالم وحضاراته المختلفة، أخذت تثير قلق حتى الدول الأوروبية. كما أخذت صيحات خيبة الأمل تعلو من دول غربية متحالفة مع واشنطن إزاء النهج الأمريكي المتسم بالأنانية من الاستحواذ على المصالح والمنافع في العالم.

إن ضمور الاعتماد المتبادل الذي كان سائداً بين دول ضفتي المحيط الأطلسي لاستتباب أمنها القومي إبان الحرب الباردة أخذ يفتح الباب أمام المنافسة الاقتصادية

والحضارية والثقافية إلى السطح بين الولايات المتحدة وحليفاتها القلة من جهة، والعديد من الدول الأوروبية والبلدان الأخرى ذات الثقل الدولي كاليابان والصين وغيرهما من جهة أخرى. وإن مجمل ذلك سيجعل من فترة الإنفلات في السلوك الدولي ـ أي فترة اللانظام والفوضى التي شهدها المسرح الدولي حالياً ـ فترة عابرة.

وفضلاً عما تقدم، أخذت بلدان العالم الثالث تدرك تماماً أن ما يحيكه الغرب لدولة ما من مؤامرات سياسية وثقافية، ومن حملات امتصاص للعقول، لن يبقى مقتصراً على تلك الدولة، وإنما يتعداها، خصوصاً إذا ما نجحت التجربة الغربية من الدولة المعنية، ليمتد إلى غيرها من دول العالم الثالث، حيث تطور التجربة، وربما تحور، بشكل أو بآخر، وفق الدروس المستنبطة من تطبيقاتها السابقة لكي تلائم ظروف الدول الجديدة ضماناً للنتائج التخريبية المنشودة في ساحة العالم الثالث عموماً، الأمر الذي سيفضي إلى تزايد شعور دول العالم الثالث بالخطر الغربي المحدق، ومن ثم إلى اتحادها لمواجهة الهجمة الغربية الحضارية والاقتصادية والسياسية، كما حصل في ساحات العالم الثالث بعد الحرب العالمية الثانية عندما نال العديد منها الاستقلال في عقد الستينيات.

وأمام استنتاج كهذا، يتوقع المرء أن يزداد الشعور بضرورة توثيق العلاقات الإقليمية بدلاً من الانقياد وراء واشنطن في السعي إلى عولمة العلاقات والحضارات على أساس استغلال الظروف السائدة والوسائل القائمة، وبخاصة تلك التي توفرها شبكة العنكبوت المتمثلة بمنظومة الأمم المتحدة التي أثبتت جدواها الفائقة لأغراض الغرب في الهيمنة بعد أن كان يتحدث قبل سنوات قليلة عن عدم جدواها وفلتانها بيد بلدان العالم الثالث التي تشكل غالبية الأصوات فيها.

الفصل التاسع

النظام الإعلامي السمعي ـ البصري الغربي والاختراق الثقافي: نحو استراتيجيا جديدة للدفاع الذاتي

عبد الإله بلقزيز(*)

قد يكون الصراع الثقافي، أو الصراع بين الثقافات، أبرز مظهر معاصر للصراع بين الأمم والحضارات وبؤرة التناقضات المحتدمة بينها. ليس من باب اجتراح الحقائق المحتجبة أن يقول المرء إن الصراعات الثقافية شكل من التعبير عن تناقضات المصالح الاقتصادية والاجتماعية بين الدول والأمم والمجتمعات، فذلك من الدروس التي أقامت الدليل على وجاهتها التجربة التاريخية للمجتمعات والشعوب في العصر الحديث وفي ما سلفه من تواريخ. لكن موطن «الجدة» في الموضوع أن الثقافة باتت تمثل **الجبهة الأمامية** لتلك الصراعات المادية بعد أن كانت في خلفية المشهد أمام أرجحية لا غبار عليها للسياسة والاقتصاد والقوة العسكرية.

لقد تنبهت نظريات سياسية وسوسيولوجية حديثة ومعاصرة، منذ كارل ماركس في أواسط القرن التاسع عشر إلى بيير بورديو وريجيس دوبري في نهاية القرن العشرين، إلى واقع التلازم العضوي بين الممارسة الثقافية والمصالح المادية للناس؛ ولكن قلما جرى إدراك تميز حقل الثقافة بوصفه ليس فقط مجال التعبير عن تناقضات البنية الاجتماعية (أو البنية الحضارية الكونية) فحسب، بل بحسبانه حقلاً مستقلاً للتناقض، أعني: حقلاً تتحول فيه قيم الثقافة نفسها إلى **موضوعات** للصراع في شكل تبدو فيه مستقلة عن نظام

(*) أمين عام منتدى المغرب العربي.

العالم الخارجي، أي، بالتحديد، عن النظام الاجتماعي ـ الاقتصادي الذي به تتحدد وتتقوم.

لا يتعلق الأمر، في هذا، بانقلاب في الجوهر: أي في طبيعة منطق التناقض بصفته تناقض مصالح مادية بين الطبقات والفئات أو بين المجتمعات والأمم، بل هو يتصل بتحول جذري في نوع أدوات وتقنيات إدارة ذلك التناقض، وفي نوع الجبهات التي يتخذها ميداناً رئيسياً له. وقد يتوقف إدراك الأسباب الحاملة على حصول مثل هذا التحول الحاسم على معرفة الحقائق الجديدة التي أفرزها التطور الحديث في ميدان إنتاج الأفكار والرموز والقيم، ودورها في إعادة هيكلة حقل التناقضات داخل المجتمع الواحد، وفي ما بين المجتمعات، بحسبانه التحول الذي أعاد صياغة العلاقة بين إنتاج الرموز وصيانة المصالح بالصورة التي أضحى فيها الدفاع عن الرموز فعلاً كفاحياً ينتج أدواته الخاصة، وينتدب لنفسه جيشه الخاص: «ربما» بعيداً عن إدراك صلة ذلك بمحيط آخر من المصالح مختلف عن محيط الثقافة ذاته!

أولاً: الثقافة والتقانة

توقف فعل التغلب الحضاري ـ دائماً ـ على استعمال القوة المادية المجردة. فكانت القوة العسكرية، منذ المجتمع الأثيني، ومنذ الامبراطورية الرومانية، الأداة الأمثل لتحقيق الإخضاع والغلبة وصياغة التاريخ. ولا شك في أن استثمار نتائج الثورة العلمية الحديثة، منذ النهضة الأوروبية حتى الثورة الصناعية الثانية في النصف الأول من القرن العشرين، أضاف أسباباً جديدة إلى الحاجة لدى الحضارة الكونية الجديدة لفرض نموذجها وتعميمه عبر القوة المادية، وذلك من خلال ما أمكنها تقديمه من إمكانيات لتحسين قدرة تلك القوة المادية على الأداء على سبيل تحقيق هدفها في التغلب الحضاري. ولقد كان على المدفع أن يؤدي دوره التاريخي لفترة طويلة: إجبار المغلوب على التسليم للغالب بغلبته، بل ـ وأحياناً ـ النجاح في دفع ذلك المغلوب إلى التحلل من نظامه الحضاري المرجعي والاندغام في نظام الغالب!

لم يكن ذلك حال كل الشعوب التي تعرضت حوزتها للاستباحة بالقوة. ففيما نجح الاستعمار الفرنسي والبلجيكي والبريطاني والألماني في مسخ شخصية افريقيا «السوداء»، وفيما نجح البريطاني ـ نسبياً ـ في تحقيق بعض التطويع الحضاري لأجزاء من جنوب آسيا، وفيما أفلح نظيره الإسباني والبرتغالي في توطين لسانه وثقافته في أمريكا الوسطى والجنوبية ـ مستفيداً من سابقه الأوروبي الأنغلو ـ ساكسوني في أمريكا الشمالية ـ فقد عجز عن استحصال مثل ذلك التسليم الحضاري ـ الثقافي من اليابان والهند والعالم العربي والاسلامي. نعم، لقد نجح في أن يؤمن للسانه مساحة واسعة من الانتشار في التخاطب والتداول الجماعي لدى كثير من مجتمعات وشعوب هذا العالم، لكنه توقف عند حدود

هويتها: فلم يستطع ان يجري جراحة ناجحة في ذاكرتها الحضارية بما يدفعها إلى ممارسة نسيان جماعي لمنظومتها الحضارية المرجعية على نحو ما فعله في بقاع غيرها، على الرغم من نجاعة المدفع في إجبارها على تسليم مقاليد سيادتها على الأرض والثروة للغالب و«ارتضائها» ـ الاضطراري ـ العيش في كنف سيطرته المادية.

ليس مهماً ـ في موضوعنا ـ أن يستنتج المرء أن التناسب لم يكن حاصلاً بين الممانعة السياسية الرخوة والهشة، لهذه الشعوب المغلوبة، وبين المدى البعيد الذي بلغته ممانعتها الثقافية، بل المهم أن يلاحظ هذه الفجوة بين القدرتين (أي المادية والثقافية) لدى الغالب نفسه. وهي ملاحظة ذات وظائف فارقة في التحليل: إذ قد تسمح بفهم الأسباب التي سوف تحمل الغالب على إعادة بناء ومراجعة حساباته ورهاناته، وعلى إعادة صقل أدوات التغلب الحضاري على نحو جديد أكثر فاعلية ونجاعة.

ولا مراء في أن مراجعته تلك، وقد اتخذت صورة تأمل عميق في حصيلة تجربة التغلب السابقة، أثمرت لديه وعياً بوجوب إعادة النظر في نوع السبل التي سلكها ـ ونوع الأدوات الوظيفية التي توسل بها ـ للتمكين لنفسه من السيطرة والاخضاع. وكان من ثمار تلك المراجعة وعيه بالحاجة إلى انجاز مطلبين: **أولهما، ضرب البنية التحتية العميقة للمقاومة** السياسية والاجتماعية لدى مجتمعات وأمم ما فتئت تبدي وقائع مذهلة من تلك المقاومة؛ وما تلك البنية التي تعني سوى الهوية الثقافية، بحسبانها مرتكز التوازن الذاتي، وسبب الشعور العميق القوي بالاستمرار الحضاري. أما **ثانيهما، فهو تطوير أدوات تدمير البنية الثقافية** لهذه الشعوب من خلال **استثمار نتائج العلم** المعاصر، وتوظيفها في ميدان الثقافة.

ويمكن الجزم بأن نجاح الغرب في انجاز توظيف أمثل للتقانة في ميدان الثقافة يمثل ـ من دون مبالغة ـ ثورة كبيرة في مشروعه الحضاري لا تقل أهمية وتأثيراً عن الثورة الصناعية، أو عن الثورة السياسية (البرجوازية)، أو عن الثورة الفكرية الأنوارية. فهي أتاحت له ـ ولأول مرة في التاريخ ـ أن يخوض حروبه من بعيد دون أن يعرض قواته للخطر؛ وأتاحت له أن ينشر ويعمم نظام القيم لديه، ومشروعه الحضاري، من دون أن يحشد جيوشه لاحتلال البلد المستهدف، و ـ بالتالي ـ المغامرة بدفع كلفة تحقيق ذلك الهدف. جرى ذلك بواسطة الثقافة، وبأسلوب **الاختراق الثقافي**. لكنه لم يركب سبيل العنف الثقافي التقليدي الذي جربه أثناء الاحتلال من خلال إنشاء المؤسسة المدرسية والتربوية الحديثة، وفرض لغته وبرامجه العلمية قسراً، أو الذي جربه بعد «الاستقلال» من خلال حراسته علاقة التبعية الثقافية للنخب الجديدة به وإعادة انتاجها بمختلف الصور؛ أو ـ بعبارة أخرى ـ لم يركب مجدداً سبيل الهيمنة الثقافية من خلال السيطرة على مؤسسات إنتاج الثقافة المكتوبة وتوزيعها، وإنما فعل ذلك بواسطة إحداث نظام جديد ـ تماماً ـ للهيمنة والإخضاع الثقافيين هو **النظام السمعي ـ البصري**. وهو نظام مختلف عن

سابقه ـ تماماً ـ في درجة الفعالية التي يبديها، ويحصد ثمارها، على صعيد تكييف وعي الناس وإعادة صوغه.

ثانياً: النظام الإعلامي الجديد ومحنة الممانعة الثقافية

أنهت الصورة الإعلامية ـ المبثوثة عبر الشاشة ـ عمل نظام تقليدي من السيطرة الثقافية الغربية قام على أساس الإرساليات الثقافية والدينية، وجيش عرمرم من الباحثين الانثروبولوجيين، وشبكة هائلة من المدارس العصرية في المدن و ـ أحياناً ـ في الأرياف، ونظام كامل من المخاطبة الثقافية المستمرة عبر الكتاب والمجلة والجريدة، فضلاً عن البرامج التربوية والعلمية المطبقة في ميدان التعليم باسم «التعاون» و «تبادل الخبرة»! لقد غدت الصورة اليوم هي **المادة الثقافية الأكثر استهلاكاً، والأقدر على الفتك بنظام المناعة الثقافي الطبيعي»** لدى شعوبنا مما لم تستطعه المادة التقليدية المكتوبة على الرغم من كل سحرها المعرفي والجمالي!

نعم، لقد أصبح التلفزيون اليوم هو **المؤسسة الثقافية الأفعل** في الغرب من دون منازع، وأمام سطوته الضاربة، تراجعت معاهد البحث، والجامعات، ودور النشر، والصحف، وكل تلك الترسانة الثقافية الهجومية التقليدية التي عشنا ـ نحن العرب ومنذ أزيد من قرن ـ تحت رحمة ضرباتها من دون أن تدفعنا إلى إعلان الاستسلام الثقافي واللغوي والحضاري. وشيئاً فشيئاً، سيسلم الغرب ـ طائعاً ـ مشروعه الثقافي إلى الامبراطوريات السمعية ـ البصرية الجديدة، لتتحول المؤسسة الإعلامية إلى المؤسسة الأولى ـ بامتياز ـ لتحقيق السيطرة الثقافية، ومن ورائها السيطرة المادية.

أين مكمن وفعالية هذا النظام الجديد لإنتاج وتوزيع الرموز والقيم، أي ما يمكننا تعيينه بالمادة الثقافية الجديدة؟

إنه يكمن ـ في المقام الأول ـ في المادة التي يشتغل بها، وهي: **الصورة**. والصورة ـ هنا ـ ليست مجرد شكل، إنها ـ أكثر من ذلك ـ مادة مكتنزة بالخطابات والرسائل والدلالات. نعم، إنها شكل، يتقدم للمستهلك في قالب جمالي يستوفي الشروط التي تجعله على درجة كبيرة من الجاذبية والإغراء. ولهذا ـ كما سنرى ـ دور في استدرار اهتمامه في أفق فك مقاومته. ولكن، في تضاعيف ذلك الشكل الجذاب، ترقد رسائل ثقافية لتنبعث مؤدية لوظيفتها في تطويع المشاهد المستهلك. فالصورة أصبحت تقوم ـ من الخطاب الإعلامي المعاصر ـ مقام الكلمة في الخطاب التقليدي، مع فارق يكمن في قدرتها على تعميم مضمونها مما لم تستطعه الكلمة حتى في عز استعمالها الإذاعي قبل عقود قليلة:

الخاصية الأولى التي تتميز بها هذه المادة الثقافية ـ الإعلامية الجديدة (أعني الصورة) هي أنها تقدم نفسها في قالب **مشوق**. إن بناءها الجمالي الأخاذ يستهدف بلوغ عتبة

محددة: شد المشاهد ـ المستهلك؛ ويمتنع ذلك عن أن يكون ممكناً إذا لم يصل بناء الصورة بالمتلقي إلى ممارسة أقصى درجات الجاذبية والإغراء عليه، وإذا لم يصل به إلى عتبة التشويق وتحقيق المتعة. إن هذه هي السبيل الوحيدة للسيطرة عليه وإدماج توتره الوجداني في نظام الصورة توصلاً إلى تبليغ الخطاب المراد تبليغه. ها هنا يصبح للصورة فعل السحر: الفعل الذي يستسلم المتلقي تحت وطأته.

تنجم عن فعل السحر ــ هذا ــ الذي تمارسه الصورة على المتلقي نتيجتان: **أولاهما**: **الانجذاب** المستمر وغير المتقطع لوجدان المتلقي تجاه المادة الإعلامية المعروضة؛ وليس هذا الانجذاب إلا الثمرة الموضوعية لنجاح تلك المادة في احتكار انتباه المتلقي وصرفه عن محيطه المباشر. وهو احتكار ندرك قوته متى استعذنا واقع ذلك الزَّخ اليومي لملايين الصور التي تشل قدرته على المقاومة، والتي تعرض نفسها في نمط سلعي يرفع من حسّ الاختيار لديه، ويدخله في نسيج علاقات السوق! **أما ثانية** تينك النتيجتين، فهي نجاح المادة الإعلامية المعروضة في **شل ملَكة التحوط والتساؤل، وفي وأد حاسة النقد، لدى المتلقي**، ودفعه إلى استقبال خطاب الصورة من دون مصفاة نقدية. والهدف ــ في المطاف الأخير ــ تمرير جملة من القيم والمواقف من طريق سالك نحو الوجدان من دون مجابهة أي اعتراض عقلي أو ممانعة نفسية!

والخاصية **الثانية** التي تتميز بها الصورة هي أنها **تلغي اللغة** وتصنع لنفسها لغتها الخاصة، وهنا جزء من خطورتها. صحيح أن ثمة ــ في الغالب ــ مصاحبة لغوية للصورة، في الفيلم، أو في نشرات الأخبار، أو في برامج الأطفال، أو في التحقيقات المصوَّرة، أو في البرامج الغنائية، أو في المواد الإشهارية. . .الخ، لكن قوة المعروض لا تكون ــ في العادة ــ في المَقُول، وإنما في المصوَّر، بل في وسع الانتاج البصري أن يستغني عن الكلام ليؤدي وظيفة تبليغ الخطاب وبناء الوجدان. وتبدأ خطورة الموضوع حين يصير في وسع الخدعة التصويرية أن توظِّف في وعي المتلقي فكرة غير مطابقة تماماً لواقع الحال. ولعل في ما قامت به قناة الـ سي.إن.إن. (C.N.N.) الأمريكية، طوال فترة أزمة الخليج والعدوان الأطلسي على العراق، أعظم الشواهد على قدرة الصناعة الإعلامية البصرية في إنتاج أعلى معدلات التغليط والإيهام.

* * *

لم نتحدث عن الصورة ــ وما تَحُوزه من إمكانيات ــ من باب الحشو، بل من أجل سوق مقدمات منهجية ضرورية قد تساعد على تحليل فعالية هذا النظام الإعلامي الجديد **من الداخل**، أي من حيث آليات اشتغاله وأسباب سحره وتأثيره في المتلقي. على أننا نحتاج إلى استكمال ذلك بالتفكير في فعالية هذا النظام الإعلامي **من الخارج**، أي من حيث قدرته على ممارسة التأثير في المتلقي.

يتجلى هذا النظام الإعلامي مادياً في عشرات الامبراطوريات السمعية ـ البصرية

الضاربة، من قنوات موصولة بالأقمار الاصطناعية، ومبثوثة من مركز بعيد يمتد مجال تأثيره والتقاطه إلى أطراف نائية. وهو نظام بات قادراً على الوصول بيسر إلى مجتمعات شديدة الاختلاف في نسق القيم عن النسق الاجتماعي الذي تحمله المادة البصرية المبثوثة عبر ذلك النظام، إذ لا يتعلق الأمر بخطورة هذه الشبكة الهائلة من القنوات الفضائية ـ في ما يخصنا نحن في الوطن العربي على الأقل ـ بدورها السياسي على نحو ما نعاينه في عمل قنوات مثل: الـ سي.إن.إن. أو الـ يورونيوز (Euronews) أو تي.ڤي٥، (TV5)(Canal plus)... الخ، بل خطورة دورها على الصعيدين الاجتماعي والثقافي: إذ صار في وسع هذه الامبراطوريات أن تدمر آخر جبهات المقاومة لدى مجتمعاتنا: الجبهة الثقافية ـ الاجتماعية. وهو هدف بات ممكناً لسببين رئيسيين: لِيُسْر تحطيم ذلك الأمن الثقافي باستغلال التقانة، ثم لعجز النظام الاجتماعي ـ الثقافي العربي التقليدي عن إعادة انتاج سيولة القيم الضرورية لحماية النسيج الوطني من التمزيق والاستباحة:

١ ـ إن ربط الشبكة الإعلامية بنظام الاتصال الفضائي، وهو **أبرز اقتران معاصر بين الثقافة والتقانة**، رفع من قدرة الصناعة الإعلامية الغربية الجديدة على الانتشار خارج حدودها، ومكّن فئات واسعة من المجتمع العربي ـ مثلاً ـ من التقاط برامجها بالهوائيات العادية (في حالة القرب الجغرافي كما هو الأمر في المغرب العربي مع القنوات الفرنسية والايطالية والاسبانية والبرتغالية)، أو باستعمال الصحون اللاقطة (أي البارابول)، لكنه ـ بالتالي ـ حدَّ من قدرة الدولة، ونظام الرقابة الإعلامي، على منع ذلك الاختراق أو التشويش عليه. وكان ذلك تعبيراً عن اختلال حاد في التوازن بين التقانة هنا ـ وهي في حكم الغائبة أو المتخلفة ـ والتقانة هناك: حيث لم يعد من شيء قادر على أن يقف في وجه تعميم القيم التي يريدها مديرو النظام الثقافي ـ الإعلامي الغربي ومهندسو سياسته بعد أن ركّبوا صناعتهم على أحدث نظم الاتصال المبنية على قوام تقاني عالي الكفاءة.

نجحت الأقمار الصناعية في أن تضع تفاصيل العالم تحت المراقبة؛ ونجح النظام الإعلامي الجديد في أن ينقل عبرها القيم والرموز والصور التي شاء إلى كل النسيج الداخلي للعالم. وفي الحالين، كان ثمن ذلك هو **انهيار الأمن الثقافي** لدى مجتمعات ـ نحن منها ـ لم يعد لها ما تقاوم به، بعد الغزو العسكري والاقتصادي وبعد الهيمنة السياسية، سوى الثقافة والرموز(!) هذه التي تتعرض قدرتها الاستراتيجية اليوم للتآكل.

٢ ـ قبل عقدين ـ أو يزيد على ذلك بقليل ـ كان سائغاً لدى الجميع أن يتحدث عن الأمن الثقافي والاجتماعي، وعن الثقافة الوطنية أو القومية، وعن نسق القيم الذاتي المستقل والمتميز، وعن كل ما له علاقة ـ في ميدان الثقافة والاجتماع ـ بالأنا القومية وبالهوية التاريخية والحضارية للأمة العربية. كان «يمكن» لهذه الأمة أن تخسر حروباً وتنهزم عسكرياً من دون أن تستسلم؛ وكان «يمكنها» أن تُرزَأ في مشروع تنموي ـ عقدت عليه الآمال ـ من دون أن تستسلم، وكان «يمكنها» أن تشاهد دولتها تخر تحت

أقدام الجنرالات أو خبراء المؤسسات المالية العالمية من دون أن تصاب بالإحباط؛ وكان «يمكنها» أن تشاهد وقائع انفلات غرائز القهر والعدوان لدى حكامها من دون أن ترفع الراية البيضاء. . . الخ. كانت تستطيع أن تمتص كل تلك الصدمات والفجائع ـ في ما مضى ـ من دون أن تدفع ثمن ذلك من توازنها الذاتي. ولم يكن مربط فرسها، في ذلك كله، سوى رصيدها التاريخي ـ الحضاري، ولاشعورها الرمزي، المعبرين عن نفسهما في ميدان الاجتماع والثقافة في شكل كان يبدو فيه التواصل والاستمرار قانوناً أرجح ـ في رسم مشاهد الحاضر ـ من قانون الانقطاع، وفي شكل تعوّض فيه الممانعة الثقافية ـ بل المكابرة القومية ـ عن النكسات المادية!

وليس من شك في أن أهم مؤسسات الاجتماع والثقافة، التي نهضت بدور إنتاج تلك الممانعة على مدى تاريخي طويل، هما الأسرة والمدرسة: لقد كان لهما على الدوام ـ بقوة فعل التربية والتلقين ـ أن يغذيا المجتمع بحاجاته من القيم والرموز والمعايير والمبادئ، وأن يحصّنا ناشئته في كل حقبة من مخاطر التكييف الخارجي، ويزوداها بنظام المناعة الثقافي الذي يحميها من الاستتباع أو من الانسياق وراء نظم ومراجع أخرى تقع خارج الجغرافيا الثقافية والاجتماعية للكيان الوطني. وباختصار، كانت هاتان المؤسستان المعمل الطبيعي لإنتاج وصناعة السلوك والذوق والاختيار لدى المواطن العربي، و«الثكنة المدنية» لحماية الأمن الثقافي للمجتمع. غير أن هذه المؤسسات لم تعد ـ اليوم ـ قادرة على الاستمرار في أداء هذه الوظائف على النحو الذي كانت تستطيعه في ما مضى. . .

ربما كان ذلك لقصور في الجهاز الذاتي لهذه المؤسسات التربوية ـ وبخاصة منها المؤسسة التعليمية ـ التي لم تعرف ثورة من الداخل على نظمها التقليدية للتلقين؛ وربما كان ذلك بسبب كثافة الهجوم الثقافي الذي تعرض له المجتمع ـ ونسق القيم فيه ـ من خلال الثورة الاعلامية إياها، ولكن ليس من شك ـ في الحالين ـ أن مؤسسات النظام الثقافي والاجتماعي الطبيعية للمجتمع العربي الراهن لم تعد قادرة على مواجهة هذا التحدي المصيري بانتظام عملها على القواعد القديمة نفسها؛ وعلى النحو نفسه، لن يكون في وسع النظام الإعلامي العربي الراهن أن يقوم مقامها في أداء هذا الدور لتخلّفه وتفاهته.

ما العمل إذاً؟

ما العمل إذا عجزت نظمنا التقانية المتخلفة عن امتصاص مخاطر الاختراق الثقافي المعادي؛ وما العمل إذا ما كان أداء مؤسساتنا التربوية والتعليمية في منطقة الصفر مما نحن في حاجة إليه لضمان توازننا الثقافي والحضاري الذاتي أمام ضراوة ما يقع على البسيطة من تحولات على درجة هائلة من التأثير في بنانا الذاتية؟

ثالثاً: ما العمل؟

ربما كان هذا هو السؤال الوحيد الذي ما زال يحتفظ ـ من دون سائر الترسانة القديمة من الأسئلة ـ براهنيةٍ تمنحه الشرعية. وقد يكون ذلك بسبب كونه سؤالاً يتعلق بالمستقبل حصراً، وينطوي طرحه على نَفَس نقدي للحاضر! والحق أن نقديته متقررة من (مجرد) طرحه؛ أما تشوفه المستقبلي، فذلك مما لا يرقى إلى أمره شك. وعلى ذلك، سنسوق ـ في هذا المضمار ـ حديثاً عاماً وموجزاً في ما يجدر بالمستقبل (أي مستقبل الأمن الثقافي والنظام الإعلامي في الوطن العربي) أن يأخذ بأسبابه: فعلاً مقاوماً منه للاختراق والاستباحة الثقافيين، وتطلعاً إلى إشباع حاجياته من القيم والرموز والصور:

١ ـ لن تقل حاجتنا إلى حماية الأمن الثقافي عن حاجتنا إلى التحرر من العقل الجمركي الرقابي. فالأمن الذي نريده، والذي علينا أن نبنيه، ينبغي ألا يتخذ شكل انغلاق على الذات في وجه تيارات التحول، التي يحمل الزخُّ الإعلامي الخارجي بعض معطياتها إلينا، وينبغي ألا يحاول ركوب سبيل المعاكسة التقنية من خلال التشويش على القنوات الملتقَطة. . .الخ، بل إن الأمن الذي نريده ممتنع عن التحقق من دون توفير الحد الأدنى من الإشباع الثقافي والجمالي والرمزي والمعلوماتي لحاجات الناس هذه. والمفهوم من ذلك أن علينا أن ننجز **ثورة ثقافية شاملة في مدارسنا ومؤسساتنا التربوية، وفي جامعاتنا وأجهزة إعلامنا، ترتفع بها هذه المؤسسات ـ في الشكل والمحتوى ـ إلى مؤسسات عصرية قادرة على المنافسة، ومتمتعة بشرعية لدى الرأي العام**. وعلى ذلك، حين سيكون في وسعنا أن نطور مناهج التعليم والتربية، وأن نصنع الفيلم الجيد والبرنامج الثقافي والترفيهي الجيد، وأن نقدم الخبر السياسي على أحدث طراز، والكم الضروري من المعلومات للناس من دون حَجْب أو تصفية رقابية، وحين ننجح في فتح أجهزة الإعلام السمعية ـ البصرية أمام كل الآراء والتيارات الفكرية والسياسية والاجتماعية في المجتمع. . .، حينذاك فقط، سننجح في حماية أمننا الثقافي من الاستباحة والتدجين، لأننا سننجح في **إعادة صياغة وبناء** مؤسسات إنتاج الثقافة والمعلومات والرموز، وفي إعادة تجديد وظائفها.

٢ ـ تقترن بهذه الحاجة الداخلية على صعيد مضمون مؤسسات الثقافة والإعلام، حاجة أخرى داخلية تتعلق **بشكل** هذه المؤسسات وبناها التحتية؛ وهذه ليست حاجة شكلية كما قد يخيَّل لبعضهم، بل أمست **جوهرية** بالنظر إلى أن الإعلام أصبح صناعة بكل ما للكلمة من معنى، ثم بسبب أن أي تقصير في إعادة الهيكلة العلمية لتلك المؤسسات، سينتهي بها إلى الإخفاق في أداء وظائفها على النحو المطلوب. وهذا يعني أننا بتنا اليوم أمام حاجة ضاغطة إلى ولوج تجربة التوظيف الشامل للتقانة في ميدان الإعلام، وذلك باستثمار الطاقة القصوى لمواردنا العلمية والتقانية والبشرية فيه، والسعي إلى حيازة تقانة متطورة لتنمية قدرته على الأداء. وهذا إذا كان يحتاج، في المقام الأول، إلى إرادة

سياسية، فهو لن يكون ممكناً إلا بترجمة تلك الإرادة على مستويات ثلاثة: على مستوى **البنى النظرية**، حيث الحاجة إلى وضع دراسات علمية حول صناعة الإعلام وصناعة الرأي العام، وأوجه البرمجة والإدارة للتوجهات الثقافية العليا، وصولاً إلى صياغة **استراتيجيا إعلامية جديدة**. ثم على مستوى **تمويل** هذه الاستراتيجيا، حيث الحاجة إلى رفع **معدل الإنفاق** على ميدان الإعلام السمعي ـ البصري، وتكثيف **الاستثمار** فيه لتحديث شبكاته وتجديد قدرته على الأداء. وأخيراً على مستوى **بنيته التعليمية التحتية**، حيث الحاجة إلى تكوين أطر كفؤة في هذا الميدان؛ الأمر الذي تترتب عنه الحاجة إلى بناء شبكة هائلة من المعاهد الخاصة بالإعلام السمعي ـ البصري وتعهُّدها بالرعاية المادية والتحديث العلمي للبرامج.

٣ ـ ولما كانت دول عربية قد دخلت تجربة توظيف نظم الاتصال (الفضائي) الحديثة في ميدان الإعلام، وباتت قادرة ـ بسبب ذلك ـ على البثّ خارج حدودها الجغرافية، وعلى ايصال «رسالتها» إلى العرب في الديار وفي المَهَاجر، ولما كان مضمون تلك الرسائل الإعلامية بعيداً عن أي محتوى قومي، وغارقاً في نزعته الاستهلاكية السلبية، ولما كان ذلك يهدد بإعادة صياغة الوعي العربي الجمعي على نحو ساقط. . .، فإن الحاجة باتت ماسّة إلى بناء **مركز إعلامي قومي سمعي ـ بصري** ينهض بمهمة حماية الوعي والوجدان العربيين من الاختراق الأجنبي ومن الاحتكار الثقافي ـ النفطي المتواطئين معاً لأداء مهمة مشتركة: تدجين وعي الناس وإغراقه في تفاهته، ومنعه من الارتباط بأي همّ وطني أو قومي! ولا حاجة إلى القول إن هذه القناة الإعلامية الفضائية القومية المطلوبة ينبغي أن تكون عربية، في خدمة أهداف الأمة، وليست موصولة بأهداف نظام سياسي بعينه، حتى وإن تمتّع بشرعية قومية. كما أنه لا حاجة إلى القول إنها أصبحت مطلباً غير قابل للإرجاء.

❋ ❋ ❋

هذه ـ في اختصار شديد ـ هي أولويات الثقافة العربية، اليوم، والتحديات المطروحة عليها للردّ على الاختراق الثقافي والمصادرة والمسخ المعنوي الذي ينهض به النظام الإعلامي الغربي المعاصر. إن هذه الثقافة مطالبة اليوم بالارتفاع ـ في الأداة والأداء ـ إلى مستوى الصراع الثقافي والحضاري الراهن، الذي أصبح بؤرة التناقضات بين الأمم، وبين الدول، وهو امتحان تاريخي جديد لا يجوز لنا أن نخسره.

الفصل العاشر

دور الاختراق الثقافي في خطة السيطرة الأمريكية على العالم

ـ ١ ـ

صلاح المختار(*)

موضوع الاختراق الثقافي ليس محض مسألة تدار في المراكز الثقافية أو الإعلامية المتخصصة، كما كان الحال في السابق. وقد تفضل عبد الإله بلقزيز وأوضح العديد من الأسس والركائز التي يستند إليها الاختراق الثقافي، مؤكداً أن هذا الاختراق ليس عملية تصدير ثقافة معينة ــ كما هو معروف سابقاً ـ وإنما هو جزء مقوم في خطة شاملة كونية لفرض الهيمنة العالمية من قبل قطب عالمي واحد، هو الولايات المتحدة الأمريكية.

هنا أود أن أعرض مقابلة جرت في نهاية سنة ١٩٩٣، لها دلالات كبيرة وخطيرة، فقد عقدت شبكة الـ سي.إن.إن. (C.N.N.) الإخبارية لقاءً مع السيناتور لي هاملتون، حول العديد من المشاكل الدولية التي كانت ساخنة آنذاك، ووُجه إليه سؤال محدد، هو: ما رأيك في دور شبكة الـ سي.إن.إن.؟ فأجاب قائلاً: حينما أنشئت شبكة سي.إن.إن. في بداية الثمانينيات، لم أكن أتوقع على الإطلاق أن تكتسب هذه القيمة، وهذا الدور الخطير والكبير، إذ إننا لم نعد نستطيع منع أنفسنا من انتظار ما تقوله الشبكة قبل اتخاذ القرار السياسي، ولذلك... فإن القرار السياسي اليوم لا يتخذ من دون التأثير المباشر لشبكات التلفاز، وبالأخص شبكة الـ سي.إن.إن.، وتناول كمثال على ذلك

(*) رئيس تحرير جريدة الجمهورية في بغداد.

الحملة الأمريكية على الصومال، وكيفية التمهيد لهذه الحملة بإرسال فرق تلفازية قبل نزول القوات الأمريكية في الصومال، لكي تنقل نقلاً حياً ما سيجري الى الرأي العام الأمريكي، وتصوير العملية وكأنها إنقاذ لشعب جائع وقع صريع حرب أهلية دامية. وكان الهدف من ذلك مزدوجاً، هو إقناع الشعب الأمريكي بمشروعية وسلامة الهدف والنية، والتعتيم على الأهداف الحقيقية على الصعيدين العالمي والداخلي أيضاً.

وبعد هذه المقابلة صدرت معلومات عديدة من الولايات المتحدة الأمريكية، لها دلالات مستقبلية خطيرة في هذا المضمار، إذ أعلن عن إنشاء شركة كبرى برأسمال قدره تسعة مليارات دولار، لتمويل إطلاق حوالى ٦٠٠ قمر صناعي، لتدور حول الكرة الأرضية، وتغطي أقصى قرى العالم بالاتصالات التلفازية والهاتفية والحاسوبية وغيرها. ولكن في إطار هذه الخطة (إطلاق هذه المجموعة من الأقمار الصناعية) يبدو واضحاً أن حصة الأسد كانت للصورة التلفازية التي يراد بها أن تسيطر الولايات المتحدة على العالم تدريجياً.

لهذا سأتناول بعض الأفكار المتصلة بالموضوع، وأتجنب قدر الإمكان ما تطرق إليه عبد الإله بلقزيز، لتداخل الموضوع ووحدته الواضحة.

ـ ٢ ـ

إذا عدنا الى الخمسينيات، رأينا أن الإطار القديم للخطة ـ وبالمناسبة فالخطة ليست جديدة ـ طرأ عليه تغيير جوهري بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، وقبل ذلك بقليل بعد انهيارات أوروبا الشرقية في نهاية سنة ١٩٨٩، ولكن كلنا يعلم أن خطة الولايات المتحدة للاختراق الثقافي قديمة قدم لعبها دوراً أساسياً عقب الحرب العالمية الثانية، في تلك الفترة ابتدأت **المرحلة الأولى** من مخطط الاختراق الثقافي الأمريكي للعالم، وكانت الخطة تقوم على إلحاق الضعف بالبنى التحتية الارتكازية في مجال الثقافة للخصوم المحتملين والواقعيين للولايات المتحدة، لذلك رأينا أن الولايات المتحدة الأمريكية في ذلك الزمن تخوض معركة شرسة ضد المدرسة الواقعية، والمدرسة الواقعية كانت تمارس تأثيراً فعالاً في العالم، في مجالات السينما والقصة والرواية والفن بمختلف أشكاله، وكانت مسارح الصراع هي إيطاليا والهند ومصر، على اعتبار أن هذه الدول نماذج أو مراكز إقليمية مؤثرة وفعالة، رأينا الثقافة الأمريكية تزحف على هذه المراكز من أجل تحطيم النزعة الواقعية في التعامل مع الأحداث والظواهر الاجتماعية والثقافية.

إن من يتذكر مسرح وسينما وثقافة الخمسينيات والستينيات، وحتى السبعينيات في مصر وإيطاليا والهند، وخصوصاً في مجال السينما، يستطيع أن يخرج باستنتاج خطير وكبير، وهو أن ما يجري الآن في هذه المراكز، من تطورات في مجال الإنتاج السينمائي والتلفازي والثقافي بشكل عام، يعد انتصاراً لنمط الثقافة الأمريكية. فبعد أن كانت

المدرسة الواقعية مهيمنة ومؤثرة، في هذه المراكز، وفي جميع أقطار العالم الثالث، وحتى في أوروبا الغربية، مثل فرنسا وغيرها، رأينا أن الثقافة في هذه البلدان قد تحولت الى التسطيح المتعمد، فعلى سبيل المثال، انتقلت السينما الإيطالية من معالجة ظواهر الفقر والصراعات الاجتماعية وتحديد الأسباب الكامنة وراء ذلك، كما هي حال أفلام المخرج فيتوريو دي سيكا، الى الاهتمام بأفلام (الكاوبوي) والجريمة، الى أن طغت هذه المدرسة في إيطاليا. وهذا الشيء حدث في السينما الهندية، وفي السينما المصرية، وفي المسرح المصري.

إن مصر كانت منتمية بشكل مطلق الى المدرسة الواقعية في الأربعينيات والخمسينيات والستينيات، لكن هذا الأمر تغير تماماً، حيث اندحرت وهزمت مدرسة يوسف وهبي في المسرح وحلت محلها مدرسة أحمد بدير وسمير غانم وغيرهما من الذين يمثلون منهج التسطيح وتجاوز القضايا الاجتماعية والفكرية العميقة، ودغدغة المشاعر الإنسانية الغرائزية البسيطة والساذجة.

وفي فرنسا أيضاً، كانت هناك ثقافة مؤثرة في العالم، وكانت هناك السينما الفرنسية، تصدر رقوقها السينمائية الى العالم وتستقبل بترحاب كبير، ولكن هذه المدرسة تراجعت في العالم، وضمر تأثيرها، وحل محلها تأثير الأفلام ذات الطبيعة الغرائزية والتسطيحية، سواء كانت فرنسية أو أمريكية، وأصبحت للأخيرة سطوة بارزة في فرنسا.

إن هذا التحول لم يحصل بصورة عفوية، لأن هناك تخطيطاً مركزياً قام على الدخول في تفاصيل العمل الثقافي والسينمائي في مختلف أنحاء العالم، وأشرفت على ذلك إحدى شعب الـ سي.آي.أي. (C.I.A.)، وخصصت لذلك مبالغ كبيرة من أجل الوصول الى هذا الهدف، وهو تسطيح العقل الإنساني، لأن العقل الإنساني المستند الى ثقافة عميقة ومتخصصة ومدركة للمشاكل الإنسانية يستطيع مقاومة الغزو، والوقوف بوجهه، ورده باقتدار وتمكن كاملين.

ولهذا، وبما أن الثقافة الأمريكية تتميز بالسطحية، لأنها ثقافة مجتمع استهلاكي، بلا جذور، فإنها لم تستطع مواجهة ثقافات الأمم الأخرى، خصوصاً الأمم ذات الحضارات العريقة كالحضارات الشرقية، أو الحضارات الراهنة كالحضارة الفرنسية، فلجأت إلى أسلوب تفتيت أسس هذه الثقافات العميقة من خلال تسطيح ثقافة ووعي الإنسان العادي.

ـ ٣ ـ

أما المرحلة الثانية في المخطط الأمريكي، فقد شهدناها في نهاية الثمانينيات ومطلع التسعينيات، حيث انتقلت الولايات المتحدة من محاولة التأثير وإضعاف النماذج الأخرى في العالم، الى محاولة احتواء هذه النماذج؛ ففي المرحلة الأولى وضعت الأسس لاضعاف

الثقافات الأخرى، والحضارات الأخرى، وتم اختراقها بشكل فعال بالوسائل التقليدية المعروفة، أما في المرحلة الجديدة، فإن الولايات المتحدة أدركت أن الفرصة التاريخية التي انتظرتها طويلاً للهيمنة على العالم قد حانت، ولكن المفارقة الكبرى ظهرت في أن الولايات المتحدة، حينما انهارت كتلة أوروبا الشرقية ثم بدأت بوادر انهيار الاتحاد السوفياتي، غير قادرة على السيطرة على العالم بقواها الذاتية، لأنها مريضة في اقتصادها وفي ثقافتها، ولا تملك القدرات الكافية لفرض سيطرتها على العالم عن طريق الملء الفوري الذي أحدثه انهيار الشيوعية وبدء اهتزاز مكانة الاتحاد السوفياتي في العالم آنذاك.

إن عملية دخول الولايات المتحدة في مرحلة الاختراق الثقافي الجديدة، في العالم، تؤشر انتقالة نوعية في التعامل مع العقل الإنساني، إذ إن هذا العقل الذي عرض لتأثيرات استمرت أكثر من ثلاثين سنة، أصبح جاهزاً لتقبل الإيحاءات أو الصور أو الرسائل التي كانت الولايات المتحدة تعمل على بثها وإيصالها بمختلف الطرق.

وحرص الولايات المتحدة على اعتماد الصورة التلفزيونية، قبل جميع الوسائل الأخرى، يعود ويرتكز على عوامل وأسباب عدة، فأولاً هناك أزمة اقتصادية في الولايات المتحدة، تتفاقم وتزداد سنة بعد أخرى، ولا يمكن بأي حال من الأحوال تصور سيطرة دولة واحدة على العالم من دون امتلاكها شرطاً أساسياً من شروط السيطرة، وهو الاقتصاد الحيوي والمتين والمتفوق على اقتصادات الدول الأخرى، وهذا الشرط غير متوفر في الولايات المتحدة، لسبب بسيط، هو أن الاقتصاد الأمريكي يعاني اختلالات بنيوية خطيرة، نذكر نموذجاً واحداً فقط منها، أو يدلل عليها، وهو الدين العام الذي بلغ في سنة ١٩٩٤، ٤,٨ ترليون دولار وهو رقم خيالي يعادل ٨٠ بالمئة من قيمة الناتج القومي الأمريكي، مما يدل على أن المجتمع الأمريكي، والاقتصاد الأمريكي بشكل خاص، في حالة تراجع وتدهور، فإذا كان الاقتصاد، أو القاعدة الاقتصادية للهيمنة غير صالحة للسيطرة، إذاً كيف تستطيع الولايات المتحدة الأمريكية السيطرة على العالم...؟ أما البنية الاجتماعية، فهي الأخرى غير قادرة على تحمل أعباء مهمة السيطرة على العالم، فالسيطرة على عالم فيه ثيران هائجة ومتصارعة مهمة غير سهلة، وهي تقتضي تقديم تضحيات بشرية بالدرجة الأولى، إضافة إلى التضحيات بالأموال، وخوض معركة السيطرة على العالم يكلف الولايات المتحدة ليس عشرات الآلاف من القتلى، وإنما مئات الآلاف، وبنية المجتمع الأمريكي المتميز بأنه مجتمع أقليات لم يتحول بعد إلى مجتمع أمة يتحرك بدوافع وطنية، وإنما هو مجتمع يتحرك ويلتقي ويتوحد بدافع المصلحة بمعناها الأناني الصرف. هذا المجتمع لا يستطيع تقديم التضحيات، ولذلك فإن إحدى أهم ثغرات الأمن القومي الأمريكي هي انحطاط معنويات الفرد الأمريكي بشكل عام، والجندي الأمريكي بشكل خاص، كما دلت على ذلك جميع تجارب الحروب التي خاضتها الولايات المتحدة، فالبنية الهشة للمجتمع الأمريكي وللفرد الأمريكي لا تسمح للولايات المتحدة بالسيطرة على العالم عن طريق الغزو العسكري بسبب تكاليفه البشرية الباهظة جداً.

وهناك أيضاً مشكلة عدم وجود فراغ استراتيجي في العالم، فانهيار أوروبا الشرقية، ثم انهيار الاتحاد السوفياتي في ما بعد، لم يخلقا فراغاً استراتيجياً في العالم، لكي تأتي الولايات المتحدة وتملأه من دون عوائق، وبعكس ما حصل عقب الحرب العالمية الثانية، حينما حصل فراغ استراتيجي بسبب تدهور مركز بريطانيا وفرنسا وألمانيا، وهي القوى الرئيسية التي كانت سائدة في العالم، في ذلك الوقت، تقدمت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي لملء الفراغ الاستراتيجي الذي حصل، أما عقب انهيارات أوروبا الشرقية، فإن العالم كان يتميز بأنه مملوء بالحيتان الكبيرة، مملوء بالقوى الكبرى، سواء كانت قوى عملاقة اقتصادياً لا يمكن احتواؤها كاليابان وألمانيا، أو كانت قوى عسكرية شلت إرادتها أو أضعفت قدراتها مؤقتاً كروسيا والصين.

ـ ٤ ـ

إن هذا العالم غير قابل للاحتواء بمجرد تحرك أمريكي في المجال السياسي والعسكري، فالفراغ الاستراتيجي غير موجود، والموجود هو التخلخل الاستراتيجي الذي حصل بسبب التحولات التي نتجت من انهيار النظام العالمي، وعدم نشوء نظام عالمي جديد كبديل من الذي انهار، فنشأ عالم الفوضى والانفلات، ومن ثم فإن الولايات المتحدة لا تستطيع التقدم بسهولة لملء الفراغ، لوجود المقاومة العنيفة، الاقتصادية والتقانية والعسكرية من الأطراف الأخرى.

ثمة عامل آخر في لجوء الولايات المتحدة الى أساليب الغزو الثقافي هو متانة التشكيلات الاجتماعية والحضارية في بلدان العالم الثالث وبعض بلدان أوروبا، فالولايات المتحدة حينما تحركت في الخمسينيات والستينيات والسبعينيات، أرادت إضعاف البنية التحتية لثقافة وحضارة البلدان الأخرى، تمهيداً لاختراقها، وقد نجحت الى حدود بعيدة في هذا المسعى، لكنها لم تصل الى الهدف النهائي، وهو تحطيم الثقافات والأسس التي ينطلق الفرد منها في تفكيره وقراراته والمؤثرات التي تتحكم في سلوكه الفردي والاجتماعي، فقد بقيت البلدان ذات الحضارات العريقة، أو الحضارات الراهنة، مثل فرنسا وألمانيا وغيرها، تدافع عن الهوية بمختلف الوسائل والطرق. وكما أن الولايات المتحدة واجهت وجود قوى أخرى، اقتصادية وعسكرية كبرى، فإنها واجهت وجود تشكيلات اجتماعية حضارية راسخة وقوية، على رغم ما أصابها من ضعف ووهن، ولعل اعتبار فرنسا الآن أن مشكلة الهوية هي التحدي الأكبر الذي يواجهها، على رغم قوتها وعظمتها الاقتصادية والتقانية، مظهر من مظاهر المشكلة التي تواجهها الولايات المتحدة في سعيها للسيطرة على العالم.

إن هذه العوائق، وغيرها كثيرة، دفعت الولايات المتحدة إلى الشعور بأن الفرصة التاريخية لسيطرتها على العالم، بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، يجب أن تغتنم بأية طريقة

ووسيلة، ولهذا تخلت عن الكثير من المواضعات والتقاليد والأسس التي حكمت العلاقات الدولية، والعلاقات الثنائية، ولجأت الى وسائل القمع الفكري والعسكري، وإلغاء سيادات الدول، والتدخل في شؤونها الداخلية تحت ذريعة فرض نمط الحياة الأمريكية، أو كما قال جورج بوش في بداية سنة ١٩٩٢ في خطابه عن «حالة الاتحاد»: إن القرن القادم هو قرن أمريكا، وإن الزعامة في القرن القادم سوف تكون للولايات المتحدة فقط، مفترضاً أن العالم يخلو من المقاومة والعوائق والقوى الأخرى التي لها دور ولها جدارة في أن تبقى في هذا العالم.

والولايات المتحدة بسبب ذلك أخذت تلجأ إلى نقض الشعارات التي رفعتها طويلاً، خصوصاً منذ عهد الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر، في نهاية السبعينيات، وخصوصاً شعار حقوق الإنسان واحترام الحريات الإنسانية، لأن السلوك الأمريكي الذي ظهر في السنوات الأخيرة كان يعتمد على القمع وإلغاء الدول أو التجاوز عليها، وحتى الدول الحليفة للولايات المتحدة مثل دول أوروبا واليابان، حينما تختلف هذه الدول مع الولايات المتحدة.

وظهر واضحاً أن الولايات المتحدة تحمل مشروعاً حضارياً للعالم، يتسم بالتسطيح وإفقار العقل الإنساني، ويستخدم وسائل القمع والإرهاب لفرض نموذجه على العالم.

ـ ٥ ـ

إن السؤال الذي يطرح نفسه في ضوء هذه المقدمة السريعة، وهذه الملاحظات الأولية هو التالي: هل تستطيع الولايات المتحدة في عملية الاختراق الثقافي هذه أن تنجح وأن تصل الى الهدف الكبير، وهو السيطرة على العالم...؟ إن الجواب هو لا، فالتكنولوجيا أو التقانة مهما بلغ تأثيرها، ومهما بلغ نفوذها، فإن لها ما يقاومها. فعلى الصعيد التقاني، هناك باستمرار وسائل تقانية مضادة لما يمتلكه أي طرف دولي أو إقليمي من إمكانات تقانية، حيث إن التقانة تطور التقانة، وهي عنصر محايد يتبع من يستخدمه، خصوصاً عندما يكون المستخدم بارعاً ومتقدماً وقادراً على الابتكار والخلق. ولهذا لا يجوز أن نقول إن تفوق الولايات المتحدة في المجال التقاني سوف يتيح لها النجاح في مهمتها، بل يجب القول إن ذلك يعد محفزاً للعمل الجاد ضد خطة أمريكا تلك.

أما العامل الثاني، فهو إدراك العالم أن المشروع الأمريكي للسيطرة على العالم هو مشروع استعماري كلاسيكي، أي كولونيالي، فالولايات المتحدة أعادت العالم خمسين سنة على الأقل الى الخلف، فبعد أن انهارت الكولونيالية وبرزت الامبريالية لتقود العالم الرأسمالي، أخذت الولايات المتحدة ترتد الى عصر الكولونيالية، القائم على العنف والقوة في فرض الإرادة والسيطرة على موارد الدول الأخرى. وبالتأكيد فإن الشعوب كالأفراد لا تقبل أن تتخلى عن سيادتها وثقافتها وحقوقها طوعاً، وستجد الوسائل المناسبة للمقاومة

ورفض الهيمنة التي تحاول الولايات المتحدة فرضها. ونظرة الى عام ١٩٩٣ وما بعده، أي عامي ١٩٩٤ و١٩٩٥، تؤكد بشكل كامل أن الشعوب بدأت مقاومة حقيقية للولايات المتحدة ومحاولات الغزو التي تقوم بها، ولعل النموذج الفرنسي والأوروبي دليل على أن المقاومة لا تقتصر على دول العالم الثالث، بل هي تشمل حتى أقرب الحلفاء للولايات المتحدة. ففرنسا، على سبيل المثال، طرحت في الاجتماعات الأخيرة لدورة أوروغواي للغات موضوعاً ثقافياً لأول مرة، مع أن الغات منظمة اقتصادية تجارية لا تهتم بالمواضيع الثقافية، وذلك حينما طالب الوفد الفرنسي بوضع ضوابط وقيود على انتقال الرقوق السينمائية والتلفازية الأمريكية الى أوروبا، وهذا الأمر لم يطرح لولا الشعور الفرنسي العميق بخطر تذويب الهوية الفرنسية والهوية الأوروبية نتيجة السعي الأمريكي الحثيث للسيطرة على العالم. وبعض الدول الأخرى من غير المالكة للتقانة المتقدمة والحضارة الحديثة يملك مقومات ذاتية للمقاومة، وهي الإرث الحضاري والقومي والثقافي. لذلك، أنا شخصياً، لا أميل الى الفرضيات التي تقول بأن الغزو الثقافي الأمريكي، سواء جاء بصيغة غزو تلفزيوني متفوق تقانياً، أو أي شكل آخر، قابل للنجاح، لأن إرادة البشر باستمرار هي الأقوى، وتستطيع أن تطور القدرات التقانية والعلمية الكافية لرد هذا الغزو، كما تستطيع أن تطور آليات دفاع ذاتية بسيطة وبدائية، لكنها فعالة، خصوصاً حينما تقترن بالكرامة القومية.

إن الغزو يتجه الى تحطيم الكرامة الإنسانية؛ كرامة الفرد وكرامة الأمم، من قبل مجموعات بشرية لم تصل بعد الى مرتبة الأمة، وإنما يجمعها رابط واحد هو المصلحة الأنانية فقط، وهي عبارة عن خليط من الأجناس والأعراق التي هاجرت بحثاً عن الرزق أو تهرباً من الاضطهاد. لذلك فإن مجتمعاً كهذا، حينما يواجه مقاومة ضارية ويتحمل خسائر فادحة، يتراجع عن مشروعه الاستعماري. ولذلك لم يعد أمام البشرية من خيار للقضاء على محاولات الغزو الثقافي الأمريكية سوى المقاومة السياسية والثقافية والفردية والعسكرية إن اقتضى الحال.

الفصل الحادي عشر

منطلقات الإعلام الغربي

عبد الستار جواد(*)

«كانت عاصفة الصحراء انتصاراً مدمراً ولاأخلاقياً للرقابة العسكرية وهزيمة ساحقة للصحافة، وعلى رغم ذلك فإن وسائل الإعلام الكبيرة وافقت على مسايرة صناع الحرب».

جون آرماكارثر

الجبهة الثانية

- ١ -

تتجلى منطلقات الإعلام الغربي في طبيعة العلاقة بين هذا الإعلام والواقع الثقافي والسياسي الذي ينطلق من معطياته واتجاهاته. فإذا كان الإعلام هو ظل السياسة ومرآتها العاكسة، كما يقال، فإن السياسة الغربية على وجه العموم هي من عطاء ذلك الواقع الثقافي والاجتماعي والاقتصادي الذي تعمل فيه، بمعنى آخر، يمكن القول بأن الثقافة الغربية التي تشكلت عبر العصور من نتاج الحضارة الأوروبية الثقافي، تشكل القاعدة التي ينطلق منها الجهد الإعلامي الغربي أو العملية الإعلامية التي تعالج قضايا ومواقف وأحداثاً مختلفة في ضوء تقاليدها المهنية ومصالحها الذاتية والعامة.

وفي الأوساط الثقافية في بريطانيا مثلاً، هناك مقولة مشهورة تجسد المنطلق الأساسي لوسائل الإعلام في بريطانيا. وقد جاء في هذه المقولة: «إنك لا تستطيع أن تفهم الإعلام البريطاني ما لم تفهم الرأسمالية البريطانية».

(*) أستاذ في كلية الآداب، قسم الاعلام، جامعة بغداد.

ويتضح مضمون هذه المقولة في الشركات الاحتكارية الإعلامية الكبرى التي تمتلك القسم الأعظم من وسائل الإعلام من صحف ومجلات ومحطات إذاعية وتلفزيونية وشبكات أنباء، علماً بأن حفنة من بارونات الصحافة (Media Barons) من أمثال روبرت مردوخ وماكسويل وهيرست وغيرهم، هي التي تمتلك هذه الشركات التي تمتلك بدورها مجموعات الصحف في بريطانيا والولايات المتحدة، وهما البلدان اللذان يقودان العملية الإعلامية الغربية بسبب وجود أكبر عدد من الصحف ووكالات الأنباء وأقمار الاتصالات الصناعية فيهما.

فإذا كان في بريطانيا ست شركات إعلامية تمتلك معظم صحف شارع الصحافة (Fleet Street)، فإن في الولايات المتحدة خمسين شركة تمتلك معظم وسائل الإعلام في الولايات المتحدة التي يبلغ ما تستخدمه من هواتف مدينة نيويورك وحدها رقماً يفوق ما تستخدمه القارة الأفريقية برمتها[1].

- ٢ -

ولما كانت الدول الغربية الصناعية والولايات المتحدة هي التي تمتلك تقانة الاتصالات الحديثة وكبريات الصحف ووكالات الأنباء وشبكات الأخبار الإذاعية والتلفزيونية، فإنها بذلك أصبحت تسيطر على عملية تدفق الأخبار والمعلومات من طرف واحد.

وظلت دول العالم الثالث تمارس دور المتلقي وحسب لأنها لا تمتلك وسائل الإعلام الكبرى ولا تقنياتها، ولا حتى جمهورها، ذلك أن أولويات الدول النامية تختلف عنها في الدول الصناعية ولا سيما في ما يخص وسائل الإعلام وحرية الصحافة.

من هنا أخذت الأصوات تتعالى في الدول النامية تدعو إلى ضرورة تحقيق توازن في تدفق الأخبار والمعلومات[2]، إلا أن هذا التوازن غير ممكن في الوقت الحاضر على الأقل، وذلك راجع الى اختلاف الأنظمة الإعلامية (Press Systems) في هذه البلدان وافتقارها الى وسائل إعلام حديثة ومجتمعات متطورة اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً وسياسياً، بحيث يتحقق التوازن في مستويات التطور بين المجتمع ووسائل إعلامه.

---

(١) انظر: Ben H. Bagdikian, *The Media Monopoly* (Boston: Beacon Press, °1983), pp. 3 - 28 and Simon Jenkins, *Newspapers: The Power and the Money* (London: Faber and Faber, 1979).

(٢) تنادي دول العالم الثالث بتحقيق «تدفق متوازن» (Balanced Flow) في المعلومات والأخبار يتناسب مع حجم وسائل الإعلام وقدراتها وتطورها في بلدانها. وقد تبنت اليونسكو هذا الموقف نسبياً مما دعا الولايات المتحدة وبريطانيا إلى إيقاف دعمهما للمنظمة ثم الانسحاب منها. علماً بأن الغرب يطرح مفهوم «التدفق الحر» (Free Flow) ويدافع عنه بأطروحات تتناقض مع أطروحات دول العالم الثالث.

إن عملية التدفق الحر في الأخبار والمعلومات التي يمارسها الغرب الصناعي اليوم تحمل في طياتها تهديدات ومخاطر جدية على الثقافات الوطنية في دول العالم الثالث. إن سيل المعلومات والبرامج والمواد الإعلامية وغيرها التي تبث من وسائل الإعلام الغربية ليل نهار تحمل معها قيماً حضارية وثقافية وأساليب للحياة لا تنسجم الى حد كبير، بل تتناقض في كثير من الأحيان مع القيم السائدة في الدول النامية.

بل إن الأمر قد تعدى الدول النامية الى صراع ثقافي داخل الدول الغربية، وإلا كيف نفسر قول رئيس وزراء فرنسا بأن أفلام هوليوود تهدد الثقافة الفرنسية، وقد وصفها آلن جوبيه وزير الخارجية بأنها قبائل متوحشة زاحفة لابتلاع الحضارة الغربية.

هذا بالنسبة الى دولة صناعية غربية، فكيف هي الحال في دول حديثة النشأة وما زالت تتلمس سبيلها في الحياة ولها أولوياتها في التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية؟

إن محطات البث المباشر عبر الفضاء التي تجوب الأثير على مدار الساعة وبمختلف اللغات، وتصل الى كل بقاع المعمورة بأسرع وقت وأزهد ثمن قد حولت الجغرافيا الى تاريخ وطبعت العالم بسمات جديدة لها أثرها الفاعل في حركة المجتمع. فالمواطن الانكليزي مثلاً الذي يستلم في جهاز تلفزيونه وفي مخدعه عدداً كبيراً من قنوات البث بلغات مختلفة، قد يندمج مع بعضها، وبخاصة تلك التي يجيد اللغة التي تبث فيها، وهو بالضرورة سيتأثر بما تنطوي عليه هذه القناة التي قد تكون ألمانية أو فرنسية أو أمريكية من مضامين تحمل حضارة وثقافة وأسلوب حياة معين. النتيجة التي يخشاها الانكليز مثلاً هي اندماج المواطن الانكليزي في ثقافة غير سكسونية، ثم ضياع هويته الثقافية والوطنية وتبدل نزعاته وأسلوب حياته.

والأمر أخطر من ذلك في مجتمعات ناشئة تتطلع الى الجديد الوافد وتنبهر بإنجازات الغرب وأنماط حياته ومعطيات ثقافاته. إزاء ذلك لا بد لدول العالم الثالث من أن تتحرك لوضع الخطط الدقيقة لمعالجة الموقف، ولا بد لهذه الدول من أن تعي طاقاتها وأن تتعامل مع الظروف الجديدة برؤية عصرية واقعية.

يقول كينث كاوندا رئيس زامبيا في حديث الى الصحفيين: «على وسائل إعلامنا الحديثة أن تعكس طبيعة مجتمعنا وتدافع عن فلسفتنا وقيمنا ومصالحنا كدولة مستقلة. إذا لم تفعلوا هذا فإنكم لستم معنا كأمة»(٣).

---

(٣) Munir K. Nasser, «News Values Versus Ideology: A Third World Perspective,» in: John L. Martin and Grover Chaudhary, *Comparative Mass Media Systems*, Longman Series in Public Communication (New York: Longman, c1983), p. 49.

ـ ٣ ـ

إن الغرب، من جهة أخرى، ينظر الى المعلومات والأخبار الصادرة من دول العالم الثالث على أنها أخبار معدة (Managed News) من قبل الأجهزة الرسمية، وبشكل يخدم الأنظمة الحاكمة وأولوياتها. ولذلك فإن المعلومات والأخبار الصادرة عن الغرب تمر بأشكال صارمة من الرقابات، وهي محكومة بجملة عوامل نابعة من قيم العالم الثالث الذي تسوده أنظمة ذات حزب واحد، على حد قول منظري الثقافة الغربية. ومن جملة هذه العوامل التي تتحكم بأخبار الغرب:

١ ـ العوامل الايديولوجية.

٢ ـ العوامل السياسية.

٣ ـ العوامل الاجتماعية والاقتصادية.

٤ ـ العوامل الديمغرافية.

٥ ـ الواقع الثقافي.

إن غالبية الدول في العالم الثالث تستخدم أسلوباً واحداً في السيطرة على مضمون وسائل الإعلام فيها، وبعضها يستخدم الرقابة المسبقة على الموضوعات الحساسة، وبعض الحكومات تستخدم الرقابة المباشرة. وفي بعض أقطار العالم الثالث تتحدد القيم الإخبارية في ضوء الاعتبارات الإقليمية سياسياً وثقافياً.

وفي هذا السياق يمكن القول بأن لوسائل الإعلام في المنطقة العربية معاييرها الإعلامية الخاصة، حيث تأخذ بنظر الاعتبار الخلفيات الثقافية والسياسية والاجتماعية لجمهورها وتعطي ذلك أهمية كبيرة. وحين يحدد حراس البوابة (Gatekeepers) الإطار العام الايديولوجي والاجتماعي والديني للجمهور، يصبح من السهل عندئذ اختيار الموضوعات التي تناسبهم.

كما أن الجمهور في آسيا يتلقى ويقرأ الأخبار المبثة باللغة الانكليزية أكثر من الأقطار التي لا تتكلم الانكليزية كلغة أم. فضلاً عن أن الكثير من الصحفيين الإعلاميين في آسيا يتلقون تعليمهم في الغرب. ولذلك فالتأثيرات الغربية والثقافة الآسيوية تتداخل وتؤثر في عملية التعامل مع الأخبار والمعلومات.

لقد وجد الكثير من دول العالم الثالث أن ليس أمامه خيارات، ذلك أن وكالات الأنباء الغربية الكبرى قد تمكنت الى حد كبير من صياغة أسلوب عرض الخبر في هذه الدول على غرار أسلوبها وحددت القيم الإخبارية لوسائل الإعلام، فأصبح الاعتماد المباشر على هذه الوكالات مصدراً أساسياً في الحصول على أخبار العالم. ولهذه الحال بالتأكيد انعكاساتها على الواقع الثقافي والاجتماعي والسياسي، هذا الواقع المحكوم بما

يضخ اليه من معلومات وأخبار وطريقة تقديمها وما تنطوي عليه من مضامين.

لقد أدت وسائل الإعلام الغربية وما زالت تؤدي دوراً كبيراً في نشر الثقافة الغربية واتجاهات الحياة العامة في الأقطار الأوروبية والولايات المتحدة، وقد أخذ دور هذه الوسائل الإعلامية يتزايد وتشتد فاعليته بشكل يتناسب مع التقدم التقني في مجالات الصناعات الإعلامية.

وقد شهدت السنوات الأخيرة منعطفات حادة في أثر الإعلام الحديث في توجيه الأحداث وتغيير مواقف الرأي العام الدولي بأساليب مختلفة.

يقول رمزي كلارك وزير العدل الأمريكي الأسبق: «ثمة احتكارات إعلامية تجارية عملاقة تقرر الأمور بالتعاون مع الحكومة وتنشر ما يمليه الخط الرسمي وتصور العدو على أنه شيطان. ثم تخنق أي صوت يقول أي شيء ضد الهجوم الأمريكي على العراق»[(٤)].

وفي هذا السياق، نرى من المناسب الإشارة الى أن ما اصطلح عليه بـ «الإعلام الغربي» ليس إعلاماً واحداً في الظروف الاعتيادية، وذلك بسبب تعدد المصالح واختلافها من دولة أوروبية الى أخرى. فضلاً عن ذلك، فإن مفهوم الإعلام الغربي أصبح الآن يشمل أوروبا الغربية والولايات المتحدة تجوزاً.

أما في أيام الأزمات والحروب، فإن هذه الدول تسعى الى تنسيق حملاتها الدعائية وتوحيد جهودها إزاء الخصم، وقد تجلى هذا في الحرب العالمية الثانية وما شهدته من تنسيق، وفي أم المعارك التي وصفت في أدبيات الإعلام الغربي بحرب الخليج الثانية.

- ٤ -

لقد وحدت دول التحالف سياساتها الخارجية إزاء العراق وأسست مكاتب دعائية اضطلعت بمهمة إيصال رأي الحكومات الأوروبية الى وسائل الإعلام، إلا أن العلاقة بين أمريكا وبريطانيا وفرنسا قد تميزت بالإذعان لقيادة الولايات المتحدة في المجالات العسكرية والسياسية والإعلامية[(٥)].

إلا أن علاقة بريطانيا بالولايات المتحدة كانت مؤشراً واضحاً على قوة التحالف والتنسيق في المواقف بينهما، بشكل استدعى الى الأذهان النزاعات السكسونية التي تربط بين البلدين ووشائج اللغة والعرق والدين والتراث. وليس صعباً إدراك طبيعة العلاقة الخاصة بين بريطانيا والولايات المتحدة، ذلك أن بين الدولتين تحالفاً خاصاً في مجالات

---

(٤) رامزي كلارك، النار هذه المرة: جرائم الحرب الأمريكية في الخليج، ترجمة مازن حماد (عمّان: الشركة الأردنية للصحافة والنشر، ١٩٩٣)، ص ١١.

(٥) «The World Changeth,» *Economist* (22 June 1991), p. 15.

الإعلام يطلق عليه «التحالف الخاص» (Special Alliance)، وبموجبه يتم تنسيق مواقف الدولتين في القضايا السياسية والإعلامية والاستخبارية، ولا سيما أيام الأزمات[٦].

وقد تجلى تطبيق التحالف الخاص في حرب الفوكلاند التي شنتها بريطانيا لإخراج الأرجنتين من الجزر التي تحتلها بريطانيا، وقد قامت الولايات المتحدة بتزويد السفن البريطانية بالوقود والمعلومات الاستخبارية عن تحركات القوات الأرجنتينية.

فإذا كان هذا الأمر بهذا الوضوح بالنسبة الى بريطانيا، فما الذي دعا فرنسا «الديغولية» وصاحبة مقولة «أوروبا للأوروبيين» الى تبني مواقف الولايات المتحدة على رغم الانقسام الشديد في الرأي العام الفرنسي إزاء الحملة ضد العراق؟

هنا تبرز اتجاهات الدعاية التي روجتها الولايات المتحدة وبريطانيا وسعتا الى إقناع فرنسا التي توجد لها مصالح هائلة في المنطقة العربية والشرق الأوسط بأن العراق بات يشكل خطراً جدياً على مصالح الغرب ومصادر النفط، بل ذهبت وسائل إعلام الحلفاء الى أبعد من ذلك، فادعت أن العراق أصبح يهدد الحضارة الغربية والمدن الأمريكية نفسها.

وقد اندفعت فرنسا الى أن يكون لها دور في مصالح ونتائج ما بعد إخراج العراق من الكويت، سواء أكان دافعها نابعاً من حرصها الشديد على ضمان مصالحها، أم من إحساسها بأنه يجب ألا يغيب عن بالها أنها كانت امبراطورية ذات يوم، شأنها في ذلك شأن بريطانيا، وأنها المدافعة عن القيم الأوروبية وثقافة الغرب وحضارته.

أما الدول الأوروبية الأخرى، فقد وجدت نفسها محكومة بقوة التأثير السياسي والاقتصادي لهذه الدول الثلاث بزعامة الولايات المتحدة، فضلاً عن ضرورة أنه يصدر عن السوق الأوروبية المشتركة موقف لا يتناقض مع مواقف بريطانيا وفرنسا بشكل خاص على رغم أن الكثير من الدول الأوروبية لا تحبذ المثل الأنغلو ـ سكسونية التي يشترك في الالتزام بها الإنكليز والأمريكان.

فليس غريباً إذاً أن تدعم الولايات المتحدة مساعي بريطانيا لجعل اللغة الانكليزية لغة الإعلام الدولي، وربما السعي لأن تكون العاصمة البريطانية لندن عاصمة العالم الإعلامية. وهذا المسعى بالطبع يهدف الى شيوع حضارة الجينز ونمط الحياة الأمريكية والمثل والتقاليد الأنغلو ـ سكسونية التي يتمسك بها الانكليز والأمريكان على حد سواء على رغم ما يظهر من خلافات متفاوتة الحدة بين الحين والآخر. فقد روي عن دوق وندسور قوله: «الشيء الذي يدهشني أكثر من سواه حول أمريكا هو الطريقة التي يخضع بها الآباء الأمريكيون لأولادهم».

---

(٦) Jeremy Tunstall, *The Media are American* (London: Constable, 1983), p. 5.

وقد شاعت مقولة الشاعر روديارد كيبلنغ التي نقد بها اللهجة الأمريكية وطريقة الحديث: «ليس للأمريكي لغة، بل له لكنة ولغة عامية ومحلية ولهجة وما الى ذلك». وقد أثر عن الكاتب الكبير جورج برنارد شو جملته الشهيرة: «إن الأمريكي الخالص مئة بالمئة هو ٩٩ بالمئة أحمق».

وللأمريكيين بالطبع عباراتهم وأوصافهم الطريفة أو اللاذعة التي تصف الإنكليز وعاداتهم. من ذلك عبارة دنكان سبيث (Duncan Speath): «إنني أعرف لماذا لا تغرب الشمس أبداً عن الامبراطورية البريطانية. إن الله لا يثق بالانكليزي في الظلام».

ولكن الخلافات الأوروبية سرعان ما تتلاشى عندما تتعرض المصالح أو القيم الأوروبية الى تحديات من خارج القارة الأوروبية. والشاعر كيبلنغ نفسه هو صاحب المقولة المشهورة: «الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا».

ـ ٥ ـ

إن الغرب على علم تام بعمق الخزين الحضاري العربي، ولا سيما في حضارتي وادي النيل ووادي الرافدين، ولكن هذا الغرب ما زال ينظر الى الحضارة العربية نظرة غير منصفة في أغلب الأحيان، على رغم أن المستشرقين نشروا العديد من أمهات كتب التراث العربي، وأسهموا في التنقيب عن الآثار في المنطقة العربية.

أما صورة العربي في الإعلام الغربي فهي صورة مشوهة وبعيدة عن الحقيقة، إذ تصور وسائل الإعلام الغربية العربي على أنه متخلف يحب تعدد الزوجات ويشجع الإرهاب ويفرط في تناول المشروبات، وأن عقليته استهلاكية وفكره غير منظم، وهكذا.

لقد ساعد في تكوين هذه الصورة المشوهة عن العرب وحضارتهم سيطرة رأس المال الصهيوني ونفوذه في الاقتصاد الغربي وتغلغله في شرايين الإعلام الغربي برمته، ولكن ليس من المعقول أن نلقي اللوم دوماً على النفوذ الصهيوني وننسى السلوك المنفر لبعض العرب وإقبالهم على وسائل اللهو والعبث والضياع، مما أسهم في تحقيق عملية تشويه صورة العرب في الخارج بشكل أو بآخر. فضلاً عن ذلك، فإن النظرة السلبية للعرب تمتد في جذورها الى الحروب الصليبية وزيارات الرحالة الغربيين للبلدان العربية في مراحل التخلف والانحطاط.

لقد تكرست هذه الصورة في أذهان الغربيين منذ زمن، ولا سيما في وسائل الإعلام على اختلاف مذاهبها، بحيث بات من الضروري أن تنبري وسائل الإعلام العربية هي الأخرى الى انتهاج سبل حديثة لمخاطبة الرأي العام العالمي بأسلوب موضوعي وبطريقة مقنعة وبعيدة عن الانفعال والعاطفة الساذجة.

إن الإعلام العربي في الوقت الراهن يحتاج إلى تحقيق أكبر قدر من ثقة الجماهير به،

قبل أن ينقل الى العالم المواقف والآراء والأحداث التي تجري في الوطن العربي. فقد اتبع الإعلام الغربي بقيادة الولايات المتحدة أساليب عدة في التأثير في الرأي العام الدولي والغربي. من ذلك:

١ ـ التكرار والملاحقة.

٢ ـ الإثارة العاطفية.

٣ ـ عرض المعلومات وكأنها حقائق.

٤ ـ تحويل انتباه المواطنين.

٥ ـ اتباع أسلوب البرامج المحددة.

ولنا هنا أن نشير إلى أن هذه الأساليب قد فعلت فعلها في التأثير في معنويات المواطن العربي الذي يشكو بالفعل من سلبيات الإعلام العربي، والتي من أبرزها:

١ ـ التشكيك في مصداقية أجهزة الإعلام.

٢ ـ السلبية واللامبالاة.

٣ ـ الانفعال وسرعة الاستهواء.

٤ ـ سيادة الانطباعات الجاهزة.

إن فن الدعاية هو فن التقرب من الجماهير، ولذلك فإن العزلة والاكتفاء بالنيات الطيبة لن يجديا وحدهما في مواجهة التحديات. فالجماهير حينما تراقب الأحداث وتشعر بالخوف منها، تشتد الحاجة بها الى الموضوعية والمصداقية والتصريحات الرسمية الصادرة عن حكومات، ولا تحتاج الى نظريات سياسية ومقالات أو افتتاحيات[(٧)].

ـ ٦ ـ

في الأزمات هناك حاجة حقيقية أكثر من أي وقت آخر الى تخطيط إعلامي تتفاعل فيه كل وسائل الإعلام مع الحالة العامة للمجتمع وثقافته وحضارته وأسلوب حياته. هذا التخطيط لا بد من أن يقوم على مقدرة سياسية ودقة وإدراك وفكر مبدع واستخدام تكتيكي للاستراتيجيا السياسية. هذا فضلاً عن قدرة المخطط الدعائي على التنبؤ بالأحداث ومعرفة الثابت والمتحول في السياسة والدبلوماسية.

أما النظرة السطحية للأحداث، فإنها لن تتيح أمام المخطط الإعلامي فرصة لإرساء

---

(٧) عبد الستار جواد، «المنهج الإعلامي في فكر الرئيس القائد،» في: **المحور الإعلامي** (بغداد: فرع الرشيد، ١٩٨٧)، ص ٦٤.

أفكار جديدة. إن ماكنة الدعاية الغربية تتلقف الأحداث العالمية والأخبار وتتعامل معها وفق أسلوب فني مبرمج يهدف الى تحقيق غاية معينة ولجمهور معين.

إن قوة تأثير وسائل الإعلام الغربية نابعة من التخطيط الدقيق والإمساك بخيوط الرأي العام ومعرفة اتجاهاته وكيفية استمالته أو مخاطبته في مراحل تطور الأحداث. وقد زاد من قوة تأثير الإعلام الغربي ضعف التخطيط الإعلامي السياسي المقابل.

من هنا نرى من المفيد طرح النقاط الآتية التي قد تساعد في معالجة الموقف السياسي الإعلامي ودفعه باتجاه فاعل:

١ ـ على الدولة أن تقوم بعملية تقييم حقيقي موضوعي لخصائص سياستها.

٢ ـ إلغاء العيوب القديمة في أجهزة الإعلام.

٣ ـ حتى لا تتيه الدولة في متاهات تخطيط إعلامي غير دقيق فإن عليها أن تستوعب أصول الرأي العام العالمي وخيوطه.

٤ ـ التخطيط الإعلامي يتغير بحسب مقتضيات الأحوال والأحداث وظهور مكتشفات جديدة.

٥ ـ التعاون التام بين وزارتي الخارجية والإعلام.

٦ ـ من المفروض أن ينجح التخطيط الإعلامي في خلق رأي عام عالمي مستعد لقبول سياسة الدولة.

٧ ـ قد يقوم التخطيط الإعلامي على توجيه ضربات متلاحقة الى النقاط الضعيفة في السياسة أو الدول.

٨ ـ الإنسان مغرم بالتطور والتجديد، فتكرار القديم سيضيق الخناق على الجمهور ويدفعه الى تصديق الأكاذيب.

٩ ـ لا يوجد رأي أو إعلام قادر على إقناع جميع شعوب العالم.

١٠ ـ يجب أن يكون التخطيط قادراً على خلق شعور وتفكير جديدين يمدان سياسة الدولة بما تحتاجه لمتابعة استراتيجيتها.

١١ ـ الإعلام السياسي يحتاج إلى أعين يقظة تجعل عملية الدعاية ملائمة للتحول السياسي.

١٢ ـ مهمة التخطيط الإعلامي هي دعم معلومات وأخبار وأجهزة الإعلام بما يؤكد صحتها[٨].

---

(٨) عبد الستار جواد، «اتجاهات الإعلام الغربي،» آفاق عربية، السنة ١٨، العدد ١ (كانون الثاني/يناير ١٩٩٣)، ص ٥٥.

بقي أن نقول بأنه لا بد للمخطط الإعلامي المسؤول من رسم استراتيجيا مضادة قائمة على استيعاب العملية الإعلامية التي تضطلع بها الولايات المتحدة وأوروبا وطبيعة النظام العالمي الجديد.

إن الإعلام الناجح القادر على إقناع الرأي العام في الداخل والخارج، هو ذلك الذي يسعى لتنوير الرأي العام بطبيعة الأحداث، ويقدم تفسيرات متوازنة لها، ويزيد من وعي الجماهير وقدرتها على فهم الأحداث. إن إعلاماً كهذا لا بد من أن يستند إلى أسس علمية من التخطيط الإعلامي الدقيق القائم على استقراء قدرات أجهزة الإعلام الحالية وإدراك طاقتها وإلغاء عيوبها القديمة. فالإعلام الناجح قائم على فهم الثابت والمتحول في العمل الإعلامي مع القدرة الفائقة على معرفة حساب الاحتمالات. وفي أوقات الأزمات يكون هذا الإعلام في أمسّ الحاجة الى التخطيط للحملات الإعلامية الهادفة الى مخاطبة الرأي العام وإحداث الأثر المطلوب فيه.

كما أن مهمة الإعلام تتعدى عملية نقل اتجاهات الرأي العام وحسب، لتشمل كذلك عملية صنع الرأي العام، وإلا ستكون أجهزة الإعلام بمثابة حمام الزاجل الذي تقتصر مهمته على نقل الرسائل من طرف الى آخر.

الفصل الثاني عشر

الاستنزاف الثقافي والنظام الإعلامي الجديد

عبد الجبار داود البصري(*)

ـ ١ ـ

حين نستقرئ تاريخ العلاقات الدولية يبدو واضحاً أن النفوذ الثقافي يتسلل في إثر النفوذ السياسي والاقتصادي، وأن عقد الاتفاقات التجارية يسبق عقد الاتفاقات الثقافية، وأن وزراء الخارجية في الدول الكبرى هم قبل كل شيء رجال اقتصاد ومال، فمن بين ثمانية وزراء خارجية للولايات المتحدة الامريكية كان سبعة منهم مدراء بنوك أو مستشارين لشركات ومؤسسات تجارية وصناعية كبرى(١).

(*) باحث ومدير في وزارة الاعلام سابقاً.

(١) يمكن ملاحظة هذه الحقيقة في الجدول الآتي المأخوذ من: ميشيل كولون، احذروا الإعلام، ترجمة ناصرة السعدون (بغداد: منشورات مركز أبحاث أم المعارك، [د.ت.]):

اسم الوزير	فترة وزارته	عمله قبل وزارة الخارجية
جون فوستر دالاس	١٩٥٣ ـ ١٩٥٩	مستشار شركة ستاندرد أويل
كريستيان هيرتر	١٩٥٩ ـ ١٩٦١	في مؤسسة روكفلر
دين راسك	١٩٦١ ـ ١٩٦٩	مدير مؤسسة روكفلر
هنري كيستجر	١٩٧٣ ـ ١٩٧٧	
سيروس فانس	١٩٧٧ ـ ١٩٨٠	مدير مؤسسة روكفلر
ألكسندر هيغ	١٩٨١ ـ ١٩٨٢	مدير بنك شايز مانهاتن
جورج شولتز	١٩٨٢ ـ ١٩٨٩	مدير شركة باكتل
جيمس بيكر	١٩٨٩ ـ ١٩٩٢	مستشار قانوني لشركات النفط الكبرى

وحين تكون العلاقات الثقافية بناء فوقياً للقاعدة الاقتصادية ـ السياسية وغطاءً لها، يكون التأثير متبادلاً بينهما، فتكون العلاقات النقابية انعكاساً للمصالح الاقتصادية والسياسية وفي خدمتها... فإذا كانت العلاقات الاقتصادية والسياسية قائمة على مبدأ التكافؤ والاحترام المتبادل والتعاون، كانت العلاقات الثقافية نزيهة وبناءة، وحين تقوم العلاقات الاقتصادية على مبدأ الاستعمار والغزو والتسلط والتمييز العنصري والطبقي بين الدول والمجتمعات، تكون العلاقات الثقافية منحرفة وغير سليمة ومشبوهة.

لقد كانت مرحلة الاستعمار التي عرفتها جميع الدول والشعوب الواقعة على طريق الهند أو المنتجة للنفط والخامات والمواد الأولية مرحلة سلب ونهب، وسرقة واضطهاد، فكانت العلاقات الثقافية بين المستعمِرين والمستعمَرين علاقات اضطهاد وتبعية وسلب وسرقة، وكان سفراء الدول الاستعمارية جواسيس ولصوصاً وجنرالات جيش.

في هذه المرحلة كانت الدول الاستعمارية تستورد المواد الأولية والمعادن والنفط والحبوب بأثمان زهيدة وتعيد تصديرها على شكل مواد مصنعة إلى المنشأ بأسعار باهظة فتسترد ما دفعته. أما الثروة الثقافية، فكانت تُسرق من الدول النامية لتستقر في متاحف الدول الاستعمارية ومكتباتها من دون مقابل، وقد رافق كل ذلك علاقات ثقافية تشوه تاريخ الدول المسروقة وتسلبها أمجادها وتغزو عقول أبنائها غزواً فكرياً يقتلعهم من جذورهم العريقة ومن أصالتهم.

يقول جون ديوي: الغالبية العظمى من المتاحف الأوروبية هي في جانب منها آثار تذكارية لقيام التوسع الاستعماري، وكانت كل عاصمة تكرس جانباً من المتحف لإظهار عظمتها الفنية الماضية وتخصص الجانب الآخر لعرض الأسلاب التي جمعها حكامها أثناء غزوهم للشعوب[٢].

وهذا ما يلاحظه كل من زار متاحف فرنسا وألمانيا وانكلترا، فهنالك النسخ الأصلية من آثارنا، وفي بلادنا صور منقولة عنها كمسلة حمورابي وباب عشتار والكثير من آثارنا الرافدينية والاسلامية.. ويحار الزائر لهذه المتاحف كيف تسنى نقل بنايات كاملة من حيث ينبغي أن تكون، إلى المواقع التي ينبغي ألا تكون فيها.

وتأتي بالدرجة الثانية بعد هذه المسروقات، سرقة الكتب العربية والشرقية النفيسة وسرقة المخطوطات التي تمثل تراثنا الزاهر المجيد في الأدب والفلسفة والعلوم.

ففي مكتبة المتحف البريطاني في انكلترا ٥٦ ألف مخطوطة شرقية، وفي مكتبة باريس الوطنية سبعة آلاف مخطوطة عربية، وفي مكتبة الفاتيكان في ايطاليا ٦٠ ألف

(٢) جون ديوي، الفن خبرة، ترجمة زكريا ابراهيم؛ مراجعة وتقديم زكي نجيب محمود (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٦٣)، ص ١٨.

مخطوطة شرقية، وفي مكتبة الاسكوريال في اسبانيا ألفا مخطوطة عربية وشرقية، وفي مكتبة ليدن في هولندا ثمانية آلاف مخطوطة باللغات الشرقية، وفي مكتبة برلين في المانيا عشرة آلاف مخطوطة مماثلة، وفي مكتبة المتحف في روسيا ١٢ ألف مخطوطة شرقية منها خمسة آلاف مخطوطة عربية، وفي مكتبة الكونغرس في الولايات المتحدة الأمريكية ملايين الكتب العربية المخطوطة والمطبوعة[٣].

وقد توخّت بعض الاتفاقيات الدولية إضفاء الشرعية على سرقة الممتلكات الفكرية، فأجازت للدول المسروقة حق استرداد آثارها ومخطوطاتها، ولكن لقاء مبالغ تحددها الدول التي تمتلك تلك المسروقات، وهي مبالغ تعجيزية الغرض منها إضفاء الشرعية عليها حيث توجد الآن.

- ٢ -

وحين تطورت الرأسمالية الاستعمارية التجارية إلى رأسمالية مالية تقوم على أساس نظام عالمي جديد يعيد توزيع الصناعة والزراعة عالمياً، ويعتمد على الشركات الدولية متعددة الجنسيات، وينشئ مصارف دولية وظيفتها تصدير الرساميل واستيرادها والتلاعب بأسعار الصرف والفائدة وأقساط التأمين، تعرضت الدول النامية إلى ظاهرة استنزاف بشعة تتجاوز نزعة الجشع الاستعماري وتنشئ تبعية أقسى وأمرّ. وقد أدت إلى ألوان من الاستنزاف الثقافي.

ففي صناعة الكتاب، يمثل انتاج الكتب في العالم حالة غير متكافئة وغير متناسبة مع عدد سكان كل دولة، ويبدو تطور هذه الصناعة بطيئاً في الدول النامية ومتسارعاً في الدول الغربية، وتحول الكتاب من كونه وسيلة تثقيف إلى كونه سلعة تجارية معدة للتصدير. فبينما لا تسد الكتب المنتجة في الدول النامية حاجتها الثقافية والتعليمية والتربوية على رغم شيوع الأمية فيها، نجد الدول المتقدمة تنتج أكثر مما تحتاج إليه وتصدر كميات كبيرة منها.

ويمكن ملاحظة ذلك في ما يأتي:

ففي هذا الجدول[٤] تقول الأرقام إن أوروبا وأمريكا الشمالية انتجت ٢٠٢ ألف عنوان عام ١٩٥٥ مقابل ٦٥ ألف عنوان أنتجه كل العالم، وتطور انتاجهما عام ١٩٧٤ إلى الضعف، فبلغ ٤٥٢ ألف عنوان في حين لم يتطور كل انتاج العام أكثر من ١١٩ ألف

---

(٣) انظر هذه الأرقام وغيرها في: نجيب العقيقي، المستشرقون؛ بحث عن الاستشراق لدى جميع الامم منذ فجره من ألف عام إلى اليوم، ٣ ج، ط ٢ مزيدة ومنقحة (القاهرة: دار المعارف، ١٩٤٧).

(٤) UNESCO, *Statistical Yearbook, 1975* (Paris: UNESCO, 1975).

عنوان، وتمثل نسبة الانتاج في الحالتين ٧٥ بالمئة من مجموع الانتاج العالمي. ويبلغ انتاج ورق الكتب في الدول المتقدمة ثلثي كمية الانتاج العالمي، وتستهلك الدول النامية كميات كبيرة منه تستنزف الأموال الطائلة التي تسهم في رفع سعر الكتاب. فقد جاء في احصاءات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم أن الوطن العربي يستهلك من ورق الكتب سنوياً ما يقارب ٣٢٤ ألف طن، ويبلغ المستورد منها ٢٠٣ آلاف طن(٥).

اسم القارة	الكتب المنتجة عام ١٩٥٥		الكتب المنتجة عام ١٩٧٤	
	عددها (عناوين)	نسبتها إلى مجموع الانتاج (بالمئة)	عددها (عناوين)	نسبتها إلى مجموع الانتاج (بالمئة)
أوروبا	١٣١٠٠٠	٤٨,٧	٢٧٦٠٠٠	٤٨,٣
الاتحاد السوفياتي	٥٥٠٠٠	٢٠,٤	٨٠٠٠٠	١٤
أمريكا الشمالية	١٦٠٠٠	٥,٩	٩٦٠٠٠	١٦,٨
آسيا	٥٤٠٠٠	٢٠,١	٨٣٠٠٠	١٤,٥
أمريكا الجنوبية	٩٠٠٠	٣,٣	٢٠٠٠٠	٣,٥
أفريقيا	٣٠٠٠	١,١	١١٠٠٠	١,٩
جزر الاوقيانوس	١٠٠٠	٠,٤	٥٠٠٠	٠,٩
المجموع	٢٦٩٠٠٠	١٠٠	٥٧١٠٠٠	١٠٠

ومما له أثره في حركة الكتاب بين الشرق والغرب أو الشمال والجنوب ما ورد في معاهدات حق المؤلف، كمعاهدة برن والاتفاقية العالمية لحق المؤلف. فقد أوجبت هاتان المعاهدتان حماية حق المؤلف، وعدم ترجمة المصنفات إلا بإذن منه ولقاء مكافأة مجزية، ولكنها عدلت نصوصهما لتسمح للدول النامية بترجمة الكتب بحرية خلال عام أو ثلاثة من تاريخ الصدور، أو لقاء تصريح تصدره الدول النامية الراغبة في الترجمة، أما الترجمة المعاكسة فليس أمامها مثل هذه التسهيلات. وتبدو هذه التسهيلات وليدة الحرص على مصلحة الدول النامية ولغرض تجنيبها دفع مبالغ بالعملة الصعبة للمؤلفين الأجانب، ولكنها في التطبيق أدت إلى تدفق الكتب الغربية على الدول النامية وقلة ما يترجم من كتب الدول النامية إليها، مع أن كل الاتفاقيات الثقافية تشترط تبادل الكتب وترجمتها بشكل متوازن ومتناسب.

وفي حقل الصحافة وتبادل المعلومات والأنباء، يقول الإعلاميون بأننا محاطون بطبقة

(٥) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، إدارة الاعلام، **الاعلام العربي حاضراً ومستقبلاً، نحو نظام عربي جديد للاعلام والاتصال: تقرير اللجنة العربية لدراسة قضايا الاعلام والاتصال في الوطن العربي** (تونس: [المنظمة]، ١٩٨٧)، ص ٥٦.

من المعلومات أشبه بالغلاف الجوي نسبح فيها كما يسبح السمك في الماء. ويقدر بعض الباحثين هذه المعلومات بأكثر من ٣٤ مليون كلمة يومياً تهاجمنا من مناشئ مختلفة لا تمثل عدالة في التوزيع، فمن بين كل عشر معلومات أو أخبار هنالك ثمانية أخبار أو ثماني معلومات عن الغرب ومعلومتان فقط تخص الدول النامية.

والمعلومات التي تتناول الحياة الغربية تهدف إلى إقناعنا وكسب ثقتنا وبلورة صورة الغرب، بينما المعلومتان اللتان تخصان الدول النامية فتحرّفان الحقيقة وتشوهان واقع الدول النامية وتستبدلان المفردات بمفردات مغرضة، فالثوري إرهابي، والوطني، اقليمي أو دكتاتوري. وتستعملان الارقام حيث ينبغي استعمال الكلمات، والكلمات حيث ينبغي استعمال الأرقام والنسب، أيهما أكثر إخفاء للحقيقة.

ويدل على رجحان كفة الغرب في حقل الصحافة إذا علمنا أن ٧٦٨٠ صحيفة يومية تصدر في مجموع دول العالم تطبع ٣٦٥ مليون نسخة بمعدل ١٣٠ نسخة لكل ألف شخص، حصة الولايات المتحدة وأوروبا منها ٤٣١٨ صحيفة يومية تطبع ٢٨٩ مليون نسخة بمعدل ٣٣٤,٥ نسخة لكل شخص، بينما تبلغ حصة الوطن العربي في دوله الخمس عشرة ١١٣٦ صحيفة يومية لا يتجاوز ما يطبع منها مليوني نسخة بمعدل ٣٠ نسخة لكل ألف شخص(٦).

ويبدو التفاوت أكثر وضوحاً في طبيعة المادة الصحفية نفسها، فهنالك خمس وكالات غربية تحتكر تجارة الأنباء تنتج ما يعادل ٣٧,٥ مليون كلمة يومياً على النحو الآتي(٧):

التسلسل	اسم الوكالة	عدد الكلمات التي تبثها (بالمليون)
١	اسوشييتد برس	١٧
٢	يونايتد برس	١٤
٣	رويتر	١,٥
٤	الفرنسية	١
٥	تاس	٤
	المجموع	٣٧,٥

ومن ناحية أخرى، نجد أربع وكالات للأنباء في العالم الثالث لا تنتج يومياً أكثر من ربع مليون كلمة كالآتي:

---

(٦) انظر هذه الارقام وغيرها في دراسة سجاد الغازي، في: **حق الاتصال** ([بغداد]: دائرة الشؤون الثقافية، [د.ت.]).

(٧) كولون، **احذروا الإعلام**، ص ٣٤٩.

التسلسل	اسم الوكالة	عدد الكلمات المبثوثة (بالألف)
١	دول عدم الانحياز	١٠٠
٢	الأنباء الأفريقية	٢٠
٣	أنباء الكاريبي	٢٥
٤	أنباء الخليج	١٨
	المجموع	١٦٣

هذا التدفق غير المتوازن في الأنباء يؤدي إلى استنزاف وعينا ويجعلنا نسبح في طبقة معلوماتية غريبة عنا.

وفي **حقل التقانة الإعلامية والثقافية**، التي تشمل المطابع ومحطات الاذاعة والتلفزة والأقمار الصناعية والحاسبات، يصدر الغرب إلى الدول النامية الأجهزة التي انتهت صلاحيتها في بلدانه ويحتفظ بأسرار عملها لكي تظل الدول النامية في حاجة ماسة إلى الخبرة الغربية. ويبدو هذا واضحاً في نقل تقانة الأقمار الصناعية. فالصاروخ الذي يطلق القمر الصناعي وادارة القمر الصناعي، وإدامته والحفاظ عليه من الأسرار التي يعتمد الشرق فيها على الغرب والتي تستنزف الثروات الضخمة في كل خطوة ومرحلة.

ويقول أحد الباحثين: إن آليات نقل التقانة تساعد البلدان المتقدمة على تطوير قدراتها وتراكم التبعية في البلدان النامية، ذلك أن كل عملية استيراد للسلع الانتاجية تتولد منها قيمة مضافة هي اكثر أهمية في البلد المصدر منها في البلد المستورد، إذ يحصل الأثر التراكمي الفعلي في بلد المنشأ لا في بلد المستهلك[(٨)].

وهنالك استنزاف ثقافي هائل ناجم عن إعادة هيكلة الاقتصاد الرأسمالي، فقد أصبحت المعرفة والخبرة العلمية هي السلعة الرئيسية في البلدان المتقدمة، وصار الطلب على العلماء والتقانيين أكثر من الطلب على العمال اليدويين اصحاب الياقات الزرقاء، وصار التنافس بين الدول قائماً على هذا الأساس، واتجه التطور الصناعي نحو الصناعات العلمية بدلاً من الصناعات كثيفة العمالة، الملوثة للبيئة، التي تعتمد على استهلاك الطاقة والمواد الخام التي أخذت طريقها إلى الدول النامية حيث توجد الطاقة والأيدي الرخيصة

---

(٨) فؤاد مرسي، **الرأسمالية تجدد نفسها**، سلسلة عالم المعرفة؛ ١٤٧ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٠)، ص ٧٥، ويذكر فؤاد مرسي القصة التالية:

إن دولة عربية اشترت طائرتين من نوع «ايرباس» عن طريق بعض الوسطاء، فرفضت شركة اللويدز (البريطانية) للتأمين طلباً من تلك الدولة بالتأمين عليهما ومن دونه لا يتم استخدام الطائرتين في الملاحة الجوية العالمية. ثم تبين أن الطائرتين تحتاجان إلى كاسيت لبرمجة قيادة الطائرة أوتوماتيكياً وتتم هذه البرمجة شهرياً في بريطانيا أو امريكا ومن دونها لا يمكن استخدام الطائرتين دولياً، وأخيراً فقد رفضت شركة فرنسية هي دلتا أيروتكنيك تقديم قطع الغيار وتوفير الصيانة اللازمة للطائرتين.

والمواد الأولية. وفي ضوء هذه الحقائق ازداد طلب الدول المتقدمة على العلماء وذوي الكفاءات، فاستفحلت ظاهرة هجرة الأدمغة تحت اغراءات عدة كتوفير حرية البحث العلمي وزيادة الأجور. وحين لا تجدي هذه الاغراءات نفعاً تلجأ الدول «المتقدمة» إلى اختطاف العلماء أو اغتيالهم وحرمان الدول النامية من خدماتهم.

وهنالك استنزافات أخرى في حقول تسويق الأفلام السينمائية، وبرامج التلفزيون وساعات البث الاذاعي، ومناهج التربية والتعليم، وغيرها من ميادين الثقافة والاعلام.

ـ ٣ ـ

وقد لفتت هذه الظواهر الثقافية والاعلامية أنظار المخلصين في اليونسكو وغيرها إلى ضرورة قيام نظام إعلامي جديد يحقق التكافؤ في الفرص وعدالة التوزيع ويقيم العلاقات الثقافية على أساس التواصل، والتدفق الحر والمتوازن للمعلومات، ويكون لجميع الاطراف حق التعلم والاعلام، وحماية الذاتية الثقافية وحرية الرأي والتعبير وحق الرد والتصويب. وقد اعتمد هذا النظام الأسس التالية:

أ ـ الاعتراف بتعدد مصادر الأنباء وانتاجها وتحريرها من أن تكون أدوات سيطرة وهيمنة وأن تحترم قيم كل أمة من الأمم.

ب ـ اعتبار الإعلام والثقافة حقاً عاماً، وليس سلعة محتكرة لأغراض تجارية، وإقرار توزيع عادل للموارد الطبيعية المتاحة كذبذبات البث الإذاعي والمدار الفضائي.

ج ـ وضع قواعد قانونية دولية تكفل احترام هذا النظام عن طريق تعديل المادة التاسعة عشرة من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان التي تضفي الشرعية على عملية التدفق الحر للمعلومات من طرف واحد[٩].

وكان في طليعة المنادين بالنظام الإعلامي الجديد جان دارسي رئيس المعهد الدولي للاعلام الذي دعا إلى وضع ميثاق للاتحاد الدولي للمواصلات السلكية واللاسلكية عام ١٩٦٩، وكان أول من نبه لضرورة استبدال الحق في الاعلام، بالحق في الاتصال.

وفي عام ١٩٧٢ صدر عن اليونسكو إعلان المبادئ الرائدة لاستخدام الاذاعة عن طريق التوابع الصناعية من أجل حرية تبادل المعلومات ونشر التعليم وتعزيز التبادل الثقافي.

وفي عام ١٩٧٧ أصدرت احدى جامعات كندا كتاباً عنوانه **الأبعاد المتطورة** حددت فيه العناصر الأساسية في حق الاتصال بأنها الحق في ان تُسمِع وأن تُسمَع، والحق في ان تردّ وأن تحصل على رد.

---

(٩) حق الاتصال، ص ١٥ ـ ١٧.

وفي عام ١٩٧٨ خولت اليونسكو مديرها العام القيام بأنشطة تخدم هذا الاتجاه، وكان المدير وقتها محمد مختار أمبو من السنغال.

وفي العام نفسه أصدر خبراء اليونسكو المجتمعون في استوكهولم ورقة عمل بعنوان «الجوانب الخاصة والدولية للحق في الاتصال».

وفي عام ١٩٨٠ أصدرت اللجنة الدولية لدراسة مشكلات الاتصال تقريراً يدعو إلى استكشاف جميع مضامين الحق في الاتصال.

وفي عام ١٩٨١ أقيمت ندوة في بغداد من قبل المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بالتعاون مع وزارة الثقافة والإعلام حول حق الاتصال، وجاء في بيانها الختامي: إن بلداننا لا تزال في وضع المستهلك الكبير لكل ما يصدر عن الدول الغربية، لذا فمن معطيات هذه الندوة الدعوة إلى حماية المستهلك وذوقه وبيئته، وتطلعاته الوطنية وحريته وكرامته وهويته القومية.

ـ ٤ ـ

وكان ردّ الولايات المتحدة الامريكية عدائياً طوال الثمانينيات:

لقد تزعمت تحالفاً ضد النظام الدولي الجديد للمعلومات مكوناً من امبراطوريات الاعلام والثقافة الخمس وهي:

امبراطورية هاشيت في فرنسا.

وامبراطورية بيرلسكوني في ايطاليا.

وامبراطورية بيير تيلسمان في ألمانيا.

وامبراطورية مردوخ في أمريكا.

وامبراطورية هيرسان في فرنسا.

وفي ادارة ريغان شنت الصحافة الامريكية حملة مكثفة ضد اليونسكو والنظام الاعلامي الجديد، ومارست ضغطاً على تونس لاستدعاء سفيرها المتحمس لهذا النظام.

وفي عام ١٩٨٥ سحبت الحكومة الامريكية سفيرها في اليونسكو ورشحت المندوب البريطاني قائماً بأعماله.

وفي هذا العام استُبدل محمد مختار أمبو بالاسباني فدريكو مايور الذي تجاهل النظام الاعلامي الجديد وعاد إلى الموقف السابق له.

وفي عام ١٩٨٨ رفض مايور النظام الدولي الجديد للمعلومات الذي قدمته دول العالم الثالث[١٠].

---

(١٠) انظر: حمدي قنديل، «الجوانب القانونية والفلسفية للحق في الاتصال،» في: المصدر نفسه.

وبعد، إن هذه العلاقات الثقافية القائمة على الاستنزاف الثقافي وعدم التكافؤ في توزيع المعلومات، واحتكار التقنية المتقدمة في الثقافة والاعلام، وتحويل وسائل الاتصال إلى أسلحة فتاكة في عقول مواطني العالم الثالث ووعيهم، وإخفاق النظام الاعلامي الجديد والهجوم عليه من قبل الاحتكارات الدولية تؤشر حالة أو وضعاً دولياً لا يخدم الأمن الثقافي بقدر ما يهدده ويمنع كل محاولة خيرة من أجل إصلاح الخلل فيه ووضع قواعد قانونية جديدة تحكم العلاقات الثقافية وتؤسس علاقات دولية سليمة.

وأخلص من كل ما تقدم إلى التمنيات الآتية:

أ ـ إقامة علاقات ثقافية ودية بين الشعوب مجردة من الأغراض التجارية والأهداف الاستعمارية.

ب ـ إعادة اللقى الأثرية والمخطوطات المسروقة إلى الدولة ـ الأم بأسعار زهيدة ورمزية.

ج ـ توزيع الموارد الطبيعية كالمدار الفضائي توزيعاً عادلاً وتأميمها وعدم احتكارها من قبل الدول المتقدمة.

د ـ تصدير التقانة ونقلها بنزاهة من دون أن تكون مخالب تتسلل إلى البلدان النامية لتنهشها.

الفصل الثالث عشر

نظرة في:
الاتصال الثقافي الدولي والعوامل الميسرة لسريانه من الغرب إلى العرب

هادي نعمان الهيتي(*)

خالد حبيب الراوي(**)

مقدمة

كان القرن السادس عشر بداية نشوء النظام الرأسمالي في أوروبا الغربية، مما قاد، في ما بعد، إلى ظهور استخدام واسع للآلة وحدوث سلسلة من التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، والتي ازدادت عمقاً في القرنين السابع عشر والثامن عشر وبعد ذلك، حيث أخذ التقدم يتسارع في البلدان الغربية، وكانت شعوب العالم الأخرى تحيا ظروفاً أدت إلى حصول التغير فيها ببطء، مما جعل الهوة بين أوروبا والدول الأخرى تتسع.

وهذه الهوة تجسدت على مستويات الثقافة والاقتصاد والاجتماع والأدب والفن والتقنية. وقد رافق النشاط الاتصالي الذي اتخذ أشكال الإعلام والدعاية والحرب النفسية والاتصال الثقافي هذه التغيرات.

(*) قسم الإعلام، كلية الآداب، جامعة بغداد.

(**) رئيس قسم الإعلام، كلية الآداب، جامعة بغداد.

ولم يكن الوطن العربي في معزل عن تلك الاهتمامات والفعاليات، بل هو احتل ـ في بعض المواقف ـ موقع الصدارة، وخصوصاً منذ أواخر القرن التاسع عشر بسبب سعة التناقض بين الطروحات الوطنية والقومية العربية، والمواقف الغربية، مع إحساس العرب باللاعدالة في تعامل الغرب مع قضاياهم. لذلك اتخذ موضوع العرب والغرب محوراً مهماً من اهتمامات العرب، وكذلك من اهتمامات الغرب، وكانت مظاهر العلاقة بين الغرب والعرب قد اتخذت أشكالاً متعددة، هي الأخرى[1].

وليس هذا فحسب، بل إن مجمل مسائل التغيير الاجتماعي والتنمية، والتحديث، وافتراض صور المستقبل العربي، كان ينظر إليه من تصور مستويات للعلاقة بين الغرب والعرب.

ويلاحظ أن الغرب لم ينظر إلى العرب نظرة الند للند، لكنه نظر إليهم باعتبارهم خصماً في بعض الأحوال، ونظر إليهم في أحيان أخرى باعتبارهم عدواً، أو طرفاً متخلفاً.

ومع ابتعاد الغرب عن العرب بفاصل التقدم والتخلف، إلا أنهما ارتبطا بفعل التعامل اليومي، وفي مقدمته التعامل التجاري، إضافة إلى الاتصال الثقافي. فقد عمل الغرب على الاستعانة بالاتصال تحقيقاً لأهداف سياسية واقتصادية وثقافية. لذا كان توظيف الاتصال من بين أبرز أنشطة الغرب في توجهه نحو الأقطار العربية، كما كانت هيئات الاتصال من بين أوائل الأجهزة التي عمل على إنشائها عند دخوله هذه الأقطار، فضلاً عن أن كثيراً من الهيئات الأخرى التي أنشأها الغرب كان يحرص على أن تمارس أنشطة اتصالية.

وكانت أعمال الرحلات والاستكشاف والاستشراف من بين اهتمامات الغرب المهمة. وعند استعراض تاريخ العلاقة بين أوروبا وأجزاء العالم الأخرى، بما فيها الوطن العربي، يتضح أن «أغلب تلك الحركة كانت لحساب الإنسان الأوروبي وتقاليده الفكرية والثقافية، وقد تجددت بعد ذلك علاقاته بالطرف الآخر على أسس مسبقة لا علاقة لهذا الأخير بها، إذ لم يسهم في تحديدها لأنها كانت سابقة عليه وخارجة عن إمكاناته واهتمامه. . لقد تحددت هذه العلاقة منذ البدء من طرف واحد، وهو الطرف الأوروبي الذي تحكم في مسارها فأوصلته في النهاية إلى السلطة العسكرية والسياسية ذات النفوذ»[2].

---

(١) أحمد المطيلي، «الاناسة الأوربية. . . وقراءة الذات،» دراسات شرقية، السنة ١، العدد ٢ (كانون الثاني/ يناير ١٩٨٨)، ص ٣٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٥.

أولاً: حركة الاتصال الثقافي الدولي

كانت الصدمة الثقافية الواسعة قد تولدت عند احتكاك العرب مباشرة بالغرب في أوائل القرن التاسع عشر، حيث كان الاحتكاك شكلاً جديداً اتخذ صيغة المواجهة الثقافية الشاملة، وحلت أوروبا في المنطقة العربية، وهي تحمل حصائل كثيرة من ثقافتها، وكان لتلك المواجهة مخرجاتها في إثارة العقل العربي تساؤلاً عن الموقف العربي الذي ينبغي أن يقفه إزاء هذه الثقافة. لذا اتضحت اتجاهات عدة، وقد وضعت هذه الاتجاهات كلها الغرب في الحساب قبولاً أو رفضاً، ولكن بعض هذه الاتجاهات لم يفصح عن نفسه إزاء الغرب بشكل صريح، إذ اكتفى برفع الشعارات بينما تجد أن ما يؤول إليه عمله السياسي يصب في خدمة الغرب. كما أن منها ما كان قد فهم ثقافة الغرب فهماً خاطئاً، وقد شخصت هذه الظاهرة على مستوى كثير من بلدان العالم الثالث.

يقول أحد الباحثين في هذا الصدد: «إن العالم الثالث أوجد لنفسه الروح الأوروبية.. أوجد أكبر مصفاة بترول، وأكبر سد، وأقوى مولد، هذا من جهة، ومن جهة أخرى تجد الجوع والمجاعة للانقلابات وهدم الاستقرار، والحروب الأهلية.. ذلك أن بعض دول العالم الثالث تريد أن تتشكل حسب العالم الغربي الذي ورث «الروح»، ولكن ليس البناءات التحتية المماثلة له»[٣].

ويعيش العالم فترة تفاعل ثقافي واسعة، وتزيد من سعتها طبيعة التغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية الدولية الواسعة، والتطور التقاني الفضائي الذي أتاح للاتصال الثقافي مجالات أوسع، مما أوجد حركة اتصال دولي لم يسبق لها مثيل. ويجد العرب أنفسهم طرفاً في عملية الاتصال الدولي، إلا أن القضية الأساسية هي في مستوى مشاركتهم في الاتصال.

وكان ضعف مشاركة العرب في عملية الاتصال عاملاً من عوامل سعة الهوة بينهم وبين الغرب، ففي فترة الحكم العثماني كان العرب في شبه عزلة عن العالم، كما أنهم انشغلوا أو أبعدوا عن قضايا مستقبلهم. وهناك إحساس واضح لدى قطاع واسع بأن الثقافة الغربية فرضت نفسها خلال القرون الثلاثة الأخيرة على العالم، بحيث إن شعوب العالم الثالث أخذت تشعر بالنقص أمام تلك الحضارة. وفي هذا الصدد يقول أحد الباحثين: «لقد حاولنا أن نكوّن لأنفسنا أسطورة عن الغرب نحاول من خلالها تحويل مزايا الغرب إلى نقائص، وتحويل نقائصنا إلى مزايا عن طريق تمجيد النفس والتقليل من شأن الغرب، مما أضعف مواجهتنا له بسبب عدم فهمنا»[٤].

---

(٣) محمد دحماني، تغريب العالم الثالث: الخرافات والحقائق، ترجمة دمري أحمد (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٨٥)، ص ٢٢.

(٤) فؤاد زكريا، «نظرة العرب إلى الغرب،» محاضرة في الاتحاد العام للكتاب والصحفيين في الكويت بتاريخ ٢٢/ ٤/ ١٩٨١.

هذا مع العلم أن الانتفاع من حصائل الاتصال الثقافي بالغرب لا يعني في الأحوال جميعها أن ذلك يشكل انتصاراً للغرب، وهناك أمثلة متعددة حول هذا الأمر، حيث إن «هناك مقولة ذات أهمية وهي أن ما يخشاه الغرب الإمبريالي حقيقة هو تحديث بلدانـنا»(٥). كما أن المعروف تاريخياً أن كثيراً ممن حاربوا الاستعمار في الوطن العربي، وفي كثير من بقاع العالم، قد حاربوه عن «طريق استخدام مفاهيمه نفسها لمحاربة الاستعمار نفسه، وكان يخشى من أولئك الذين يستخدمون مفاهيم الغرب والثقافة الغربية في مواجهة الاستعمار»(٦).

ولكن هناك من يحذر من الثقافة الغربية، أو الثقافة الأجنبية عموماً، من دون تقديم بديل للمشاركة الاتصالية، أو بحجة الحرص على التراث الحضاري والفكري والفني، على رغم أن ذلك، كما يقول أحد الباحثين العرب، «لا يمنع من أن نعيش عصرنا، وأن نتعامل مع المنطلقات الحضارية لهذا العصر، كما لو كانت منا و إلينا، ذلك لأن القيم الحضارية الأصلية تختفي فيها الشرقية والغربية، فهي قيم إنسانية أو أصبحت كذلك، ولهذا فهي ملك لنا جميعاً، إذا اقتبسنا منها، وليس لنا محيد. . والاقتباس ليس معناه الاندماج وإقفال الفكر دون الاختبار السليم وتجاوز المعطيات التي لا تصلح لهذا المجتمع أو ذاك»(٧).

هذا مع العلم أنه منذ أواخر القرن الثامن عشر برزت اتجاهات تدعو إلى الإصلاح في الوطن العربي، ومن بين تلك الاتجاهات الدعوة إلى الاستفادة من الينابيع الغربية، حيث كان هذا الاتجاه ينادي باستيراد أفكار الغرب في التحديث والعصرنة.

وبعد الحرب العالمية الأولى احتدمت المجادلات على نطاق واسع حول الجوانب التي يترتب اقتباسها من الغرب. وفي فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية برزت اتجاهات واضحة للربط بين بعض التوجهات الثقافية العربية وبعض جوانب الفكر الغربي، بينما برزت بعد ذلك ايديولوجيات أخرى، يحدد كل منها موقفاً من الغرب يبدو واضحاً لدى بعضهم، بينما يكتنفه قدر من الغموض لدى بعضهم الآخر، إلا أن من الممكن القول إن من تلك المواقف ما هو قريب ـ إلى حد ما ـ من الغرب، وبعضه يبعد عنه إلى حد العداء، لكن أحداً لم يدعُ إلى القطيعة الدائمة ومنع الاتصال الثقافي، باستثناء قوى ربما كانت تستهدف

---

(٥) مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، «نحن والغرب،» **الأهرام**، ٦/٣/١٩٨٤، ص ٧.

(٦) زكريا، المصدر نفسه.

(٧) عبد الكريم غلاب، «تعقيب على بحث الاستعمار وأزمة التطور الحضاري العربي الذي كتبه الدكتور ابراهيم أبو لغد،» ورقة قدّمت إلى: **أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي: وقائع ندوة الكويت ما بين ٧ ـ ١٢ نيسان «ابريل» ١٩٧٤**، إعداد وإشراف شاكر مصطفى (الكويت: جامعة الكويت، جمعية الخريجين، ١٩٧٥)، ص ١٥١.

من خلال ذلك إظهار وجهها بمظهر معين، أو رغبة منها في العزلة لعدم قدرتها على مواكبة أحداث العالم وقضاياه. وهذا التيار الأخير يرى أن لا مجال للأخذ والعطاء، ويحاول أن يؤكد أن موروثنا الثقافي كافٍ في حد ذاته للتعامل مع الحياة ومع مشكلاتها. ولهذا فهو يدعو إلى رفض الاتصال الثقافي مع العالم، ويلاحظ أن هذا التيار لا يقتصر على الموقف الثقافي فحسب، بل له موقفه في مناهضة التحديث... وكثيراً ما يستغل هذا التيار المشكلات التي تعانيها الأمة العربية أو الانكسارات التي حلت بها للتشبث بسلامة طروحاته، بينما يتشبث آخرون بطروحات أخرى من بينها أن الثقافة الغربية لم تبدأ في الغرب وحده، بل هي حصيلة ثقافات عديدة من بينها الثقافة الغربية، وأن التقانة الغربية هي ظاهرة تاريخية من غير الممكن تجاهلها أو العزوف عن الاتصال بها والانتفاع منها.

ونخلص من خلال المعطيات المارة الذكر إلى النتائج التالية:

١ - إن الغرب ينظم عمليات الاتصال الثقافي الواسع ويسيطر عليها، ويشكل الاتصال الدولي حيزاً كبيراً منه، وإن المجتمع العربي، شأنه شأن كثير من بلدان العالم الثالث، هو مستقبِل لذلك الاتصال، وهو على رغم مشاركته في هذه الحركة الدولية، إلا أنه لم يستطع الوصول بمستوى عطائه إلى لفت نظر العالم في مجال إبداعي متفرد.

٢ - إن الاتصال الدولي الغربي قد أحدث تأثيرات واسعة في الحياة الثقافية العربية، ليس على مستوى المحتوى الفكري في الثقافة العربية فحسب، بل على مستوى الآثار النفسية أيضاً.

٣ - إن الغرب في الذهن العربي يرتبط بمجمل التحولات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وبكل طروحات النهضة العربية والمستقبل العربي.

٤ - إن هناك تيارات متعددة في الوطن العربي إزاء العلاقة بالغرب، ولكن التيارات إزاء ما ينبغي أن تكون عليه غير واضحة، أي أن العلاقة المستقبلية بالغرب غير واضحة.

٥ - إن التقانة الحديثة المتمثلة باستخدام سواتل الفضاء في البث التلفزيوني قد وفرت لحركة الاتصال الدولي مجالات أوسع وقوة أكبر، ووُضع المجتمع العربي قبالة حركة الاتصال الغربي المستمرة.

ثانياً: العوامل الميسرة لحركة الاتصال الثقافي الدولي بالتدفق إلى الوطن العربي

تشكل المعطيات المذكورة ما يفصح عن أن حركة الاتصال الثقافي الغربي هي واحدة من القضايا الملحة في حياة العرب المعاصرة ليس في تأثيراتها السلبية أو الإيجابية فحسب، بل في مستوى اهتمامات الإنسان العربي، وحدود قبوله بمحتوى ذلك الاتصال وتوجهاته

وتوجهاته النفسية والاجتماعية.

ونعرض في ما يلي أبرز العوامل التي تيسر للاتصال الثقافي الغربي إحداث تأثيرات في المجتمع العربي.

١ ـ ضعف التخطيط العربي للمستقبل

تكاد خريطة المستقبل العربي أن تخلو من التخطيط الخلاق، وكثيراً ما تتضح صور يبدو فيها الاستسلام أمام المستقبل أو التراخي أمام تياراته القوية، ومن جانب آخر فإن الصور التي يرسمها الغرب للمستقبل العربي تبدو أمام الكثيرين من العرب ذات جاذبية.

وعلى هذا، فإن التحليلات السياسية والاجتماعية والحلول التي تطرحها وسائل الإعلام الغربية تفعل فعلاً واضحاً في الرأي العام العربي، وكثيراً ما تشكل عوامل لكثير من الاتجاهات التي تدخل في الثقافة العربية كبديلات، مما يجعل هذه الوسائل ذات فاعلية وتأثير.

٢ ـ شيوع البلبلة الفكرية

تشيع اتجاهات فكرية على الصعيد العربي، منها ما هو ليبرالي أو قريب منها، ومنها ما هو ماركسي أو قريب منها، ومنها ما هو إسلامي أو متشبه به. ويروّج لهذه المنطلقات قوى وجماعات متعددة ومتنافرة، ويبدو منها ما هو منفتح للحوار مع الآخرين، ومنها ما هو منغلق. وهذه الظاهرة تمثل جانباً من البلبلة الفكرية التي تصور الحياة الثقافية للمجتمع العربي.

ويزيد من حدة هذه البلبلة أن قضية العلاقة بين العرب والغرب، على رغم أن لها جذوراً واسعة، إلا أن الفكر العربي لم يستطع أن ينتهي إلى صيغة نهائية أو متفق عليها للتعامل مع الغرب ومع معطيات ثقافية وحضارية، بل هو لم يستطع أن يحدد ما ينبغي أن يأخذه من الفكر الغربي وما ينبغي أن يتجنبه، وكثيراً ما تطغى الشعارات على هذه المسألة التي يعد الموقف الحاسم إزاءها مطلباً ومسؤولية.

وعلى هذا، فإن هذه البلبلة تشكل موقفاً محيراً ومربكاً إزاء عملية التفاعل الثقافي، وبالتالي فإن أمرين يظهران للعيان على الأقل في هذا المجال: **أولهما**، أن الاختيار العشوائي من الثقافة الغربية لا بد من أن يظل مستمراً، **وثانيهما**، أن اختلالاً في الثقافة العربية يستمر في التزايد.

٣ ـ الإحساس بالخيبة

إن النظم وأساليب العمل السياسي في العديد من أقطار الوطن العربي تبدو من بعض الوجوه بالية، وتبدو المؤسسات غير صادقة، أو على الأقل قديمة أو تقليدية في

تفكيرها، وبالتالي فإن المدافعين عنها يظهرون يوماً بعد يوم في موقع أضعف من حيث التطور الفكري في العالم، ومن وجهة النظر المعاصرة، ولكنها في الوقت نفسه قد تبدو قوية بسبب امتداد أركان لها في الكيان الاجتماعي التقليدي، وبسبب رسوخ منطلقاتها الفكرية المتوارثة. وهذا العامل الأخير كان واحداً من العوامل التي قادت إلى تطويق الفكر المعاصر، وبالتالي إلى خذلان بعض توجهاته، مما يثير الإحساس بالخيبة.

وهناك عوامل كثيرة تثير هذا الإحساس، كما تثير النقمة العربية، منها «شعور العرب الدائم بالإحباط التاريخي وعدم القدرة على الإنجاز أو التغيير أو التقدم، ومن ثم استمرار تفاقم الهوة التي تفصلهم عن الغرب المتقدم وعن الحضارة، كما أن طموحهم يظل دائماً أكبر من إمكانياتهم. وبسبب هذه المفارقة الأولية يضعهم في حالة احتجاج كامن ودائم ضد الأوضاع المحلية والعالمية، أي ضد الموقع الذي يحتلونه فعلياً على خريطة التقدم البشري، وهذا ما يشكل سبباً لجرح ذاتي في الكبرياء الوطنية وفي الكرامة الذاتية»[8]. يضاف إلى ذلك ما يشهده المواطن العربي من انكسارات متلاحقة في وقت كانت ترتفع فيه شعارات كبيرة، وينتاب إحساس بالخيبة الشعور القومي العربي بسبب ذلك، مما يدفع على مزيد من التعرض للثقافة الأجنبية، ومزيد من احتمال التأثير.

٤ ـ تعاطف النخب مع الفكر الغربي

بفعل عوامل تاريخية تكونت في مجتمعات العالم الثالث، والوطن العربي بالذات، أكثر من نخبة متعاطفة مع الغرب. ويلاحظ أن هذه النخب لها نفوذ سياسي واجتماعي واقتصادي، فضلاً عن النفوذ الثقافي، مما يدعم الاتجاهات الغربية التي تحملها وسائل الاتصال الثقافي الغربي. ويشكل وجود هذه النخب تيسيراً لسريان الاتصال الثقافي الغربي في المجتمع العربي، خصوصاً أن هذه النخب تمتلك تبريرات فكرية حول ارتباط يقظة الوعي العربي بالفكر الغربي من حيث النشأة والتبلور، كما أنها تجد في سقوط بعض الايديولوجيات والشعارات والآمال العربية ما يسوغ لها طرح اتجاهاتها بما يعزز ما تعرضه وسائل الاتصال الغربية.

وبوجه عام، فإن ما تحمله هذه النخب من أفكار لا تبدو غريبة عن المجتمع العربي في كثير من الأحيان على رغم أن طروحاتها تصل إلى مستوى دعوتها لاستقدام كل شيء من الغرب. كما أن هذه النخب تعد في منظور أكثر السلطات العربية وكأنها ابنة شرعية لها على رغم تباين اتجاهات تلك السلطات. وعلى هذا، يرى بعضهم «أن كل النخب والطبقات الوسطى والمحظوظين في العالم هم داخل حي النموذج الغربي»[9]. هذا مع

---

(٨) برهان غليون، «العرب والغرب،» دراسات شرقية، السنة ١، العدد ٣ (ربيع ١٩٨٨)، ص ٧٠.

(٩) دحماني، تغريب العالم الثالث: الخرافات والحقائق، ص ٢٣.

العلم أنه منذ مطلع القرن العشرين نشأت ظاهرة أطلق عليها في ما بعد: الاتجاه نحو الغرب أو الاستغراب أو الغربنة. وقد بدت بادئ ذي بدء على أنها نظرة تقدمية، وقد أحدثت تأثيراً واضحاً في الثقافة العربية على مختلف المستويات، ولكنها لم تستطع الوصول بالثقافة العربية إلى اكتساب هوية متميزة لأنها ظلت حبيسة المحاكاة أو التبعية أو مواجهة بعض الدعوات ذات المنحى المخالف.

٥ ـ التأثير في اتجاه واحد

إن الاتصال الثقافي الدولي اليوم يقوم بين مجتمعات غير متكافئة في أوضاع نموها الثقافي السياسي والاجتماعي، وهناك تدفق غير متوازن بين الغرب والشرق، إذ يتجه الاتصال من الغرب من دون أن يوازيه تدفق من الطرف الآخر. وعلى هذا، فإن الوطن العربي يقع في جهة الاستقبال الاتصالي من دون أن يستطيع التوجه إلى الطرف الغربي.

وهناك دراسات كثيرة حول هذه القضية، وقد كانت موضع عناية كثير من المنظمات الدولية كاليونسكو، والمختصين والخبراء.

ويضاعف من هذا كله أن الغرب بسبب ظروف تاريخية كثيرة ما يزال يرى في الوطن العربي مجموعة من الانطباعات، وتعزز ذلك وسائل الإعلام الغربية نفسها التي تظهر العرب في إطار الانطباعات الاجتماعية الغربية السائدة.

وفي دراسة ميدانية أجريت على عينة من طلاب المدارس العليا في مدينة نيويورك وتصوراتهم لأربع دول شرق أوسطية هي مصر، والعربية السعودية، والعراق وإيران، وقدمت الدراسة في اللقاء السنوي الحادي والعشرين الذي نظمته رابطة دراسات الشرق الأوسط في أمريكا الشمالية في ١٤ ـ ١٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٧، وردت الإشارة إلى هذه المسألة من خلال القول: «إن ما ينقل لنا في وسائل الإعلام الأمريكية، وبشكل مكثف، وخصوصاً في العشر سنوات الأخيرة، هي الأحداث السلبية في الشرق الأوسط، أو طوال هذه المدة قلما وصلنا شيء مهم وإيجابي حول ثقافات المنطقة وتاريخها الذي له أهمية كبرى في صنع تاريخ الغرب نفسه؛ عن الدين وأبعاده الإيجابية، عن الموروث الفني الغني.. قلما وصلتنا فكرة واقعية عن حياة الإنسان العادي المتوسط من هذه المجتمعات. إن ما ينقل وما يقال هي وحدها الصراعات والمواقف التي تجللها مظاهر القتل والدمار، ولم يتم تقديم صورة هذا الشعب أو ذاك إلا نادراً، ولذا لم يزل هناك في الولايات المتحدة اليوم القليل من الفهم والتفهم لحملة الوضعية الشرق ـ أوسطية، ولم يزل المجال متروكاً لعوامل العداء والمجابهة»[١٠].

---

(١٠) جاكلين رودولف توبا، «صورة الشرق الأوسط والعوامل المؤثرة في تشكلها،» **دراسات شرقية**، السنة ١، العدد ٢ (كانون الثاني/يناير ١٩٨٨)، ص ٤١.

وعلى هذا، فإنه في الوقت الذي يتجه فيه الإعلام من الغرب إلى الوطن العربي، ويكون التأثير أحادياً وليس مزدوجاً، فإن صورة العرب في صحافة الغرب، ومجمل إعلامه، ظلت سلبية، وتشكل وسائل الاتصال الدولية عوامل هز دائمة في الشخصية العربية، في نظرتها إلى ذاتها وفي نظرة الآخرين إليها.

٦ ـ القيود على الحرية

إن النهضة الثقافية التي توفرت للغرب لم يكن لها أن تتحقق لولا سعة حرية الفكر التي أتيحت له.

وعلى الصعيد العربي، يلاحظ أن التاريخ قد ارتبط إلى حد كبير بالتسلط وغياب الحرية. . ويلاحظ أن سياسات القمع قد ارتبطت بتبريرات متباينة.

وفي الظروف الحاضرة يعد غياب الحرية، أو قصور حدودها في الوطن العربي، مبعثاً على مزيد من التعرض لوسائل الاتصال الثقافي الأجنبي، وفي مقدمتها الوسائل الغربية، مما يعطيها المجال لإحداث تأثيرات أوسع في ثقافة المجتمع العربي.

٧ ـ قلة الإبداع العربي

ما يزال الجدل حاداً حول حدود استهلاك المواطن العربي للإبداع الفكري الأجنبي، وفيه يتضح أن قلة الإبداع العربي على مستويات النمو عموماً، والنتاجات العلمية والفنية والأدبية لا ترقى إلى مستوى إثارة اهتمام العالم. لذا فإن النتاج الفكري يتجه من الغرب إلى العرب، وتبدو الثقافة العربية في بعض الجوانب محاكية لبعض جوانب الثقافة الغربية.

ومن جانب آخر، فإن قطاعاً واسعاً من المجتمع العربي يجد في الطروحات الفكرية العربية تكراراً أو تهرباً من مواجهة مستقبل جديد، لذا يتجه ذلك القطاع إلى تلقف بعض جوانب الاتصال الثقافي الغربي.

٨ ـ أحادية النظرة في بعض الاتجاهات الفكرية

تبلورت خلال النصف الثاني من القرن الحالي اتجاهات فكرية متعددة في الوطن العربي، ومنها ما أتيح له فرص كافية لتقديم طروحاته الفكرية.

ويبدو من أغلب الطروحات الفكرية، ومن بعض أوجه السلوك السياسي، أن هناك قدراً واضحاً من الأنانية، حيث ترى أغلب الاتجاهات في نفسها وحدها سلامة التوجه، مما يجعل النظرة الأحادية واضحة في أغلب الاتجاهات القائمة.

وهذا المنطلق على المستوى الفكري والسلوكي قد فقد جاذبيته خلال العقود الأخيرة، لذا يمكن أن تكون مبعثاً لتلقف قطاعات من المجتمع ما تطرحه وسائل الاتصال الغربية من توجهات.

٩ ـ اتساق الاتصال الثقافي الغربي مع المسحة الإنسانية

للاتصال الثقافي الغربي قوته وجاذبيته وجدته، عبر مختلف وسائل الاتصال الثقافي، مما يدفع إلى الحرص على التعرض لهذه الوسائل، فضلاً عن عامل آخر وهو أن الاتصال الثقافي الغربي يبرز مسحة إنسانية في مجمل توجهاته الفكرية كالحرية وحقوق الإنسان وغيرها من التوجهات القيمية التي يرى فيها الإنسان العربي ما يتناغم مع مشاعره وتطلعاته. وهذا ما يزيد من حرصه على التعرض للاتصال الثقافي الأجنبي.

١٠ ـ ضعف الإعلام العربي

تشير الملاحظات والدراسات إلى تعرض نسبة عالية من الجمهور العربي للإذاعات والقنوات التلفزيونية الأجنبية. ويرجع ذلك إلى عوامل متعددة من بينها ضعف مستوى الإعلام العربي، كما أن مستوى ثقة المواطن العربي بوسائل الإعلام العربية ما يزال موضع تدارس. وهذا يزيد من التعرض للاتصال الثقافي الغربي.

١١ ـ المجابهة

إن المؤسسات الثقافية والاتصالية الغربية المتباينة مع الفكر القومي العربي عديدة ومختلفة، ونعترف بأن حصرها وحصر جهودها بشكل تفصيلي مسألة صعبة للغاية.

إن مجابهة الإعلام المساند للمجهود الثقافي الغربي تستلزم الوعي بهذه المجابهة، إضافة إلى:

١ ـ توسيع قاعدة الكادر الثقافي والإعلامي والفني القادر على الإنتاج المتطور للأعمال الثقافية والإعلامية المختلفة لكي يلبي الحاجات الثقافية والإعلامية للمواطن العربي.

٢ ـ توفير الرأسمال القادر على تهيئة إنتاج أعمال ثقافية وإعلامية ذات مستوى ينافس مثيلاتها في الغرب.

٣ ـ توفير التقنيات الحديثة.

٤ ـ كسر العزلة بين الأقطار العربية وإتاحة المجالات للانتقال الحر للثقافة والإعلام العربيين.

الفصل الرابع عشر

كيف يمارس الإعلام الغربي التشويه العنصري ضد العرب ومستقبلهم؟

صباح ياسين(*)

ـ ١ ـ

اتفق علماء الاتصال والاجتماع والسياسة على أن من أهم ميزات الإعلام وسماته في النصف الثاني من القرن العشرين هو الوصول والتحقق مما أسماه مارشال ماكلوهان بالقرية الكونية، بحيث إن جميع سكان الكرة الأرضية يعرفون الأخبار المثيرة التي تحدث في عالمهم فوراً، وإن كان هناك فارق قد لا يتجاوز الدقائق. وإذا أخذنا بنظر الاعتبار أن تصور هذا العالم جاء في عصر الأقمار الصناعية، ومع مواكبة التقدم التقني، نستطيع القول إن تأثير الإعلام في الجماهير المختلفة قد بدأ يأخذ دوراً ريادياً، وبخاصة في مجالات العلوم الإنسانية المختلفة.

وقد خصص علماء الاجتماع دوراً مهماً لأجهزة الإعلام المختلفة وتأثيرها في النشء الجديد، بحيث أصبحت المؤسسات الإعلامية تنافس البيت والمدرسة، وهما أهم الأدوات للتنشئة. وكذلك، وبزيادة عدد القنوات الإعلامية والتأكد من تأدية وظائفها الخاصة بالتثقيف والاقتناع والتسلية والإعلام أو الإبلاغ، فلا بد من أن نأخذ بعين الاعتبار نظرية الاختيار الذاتي (Selectivity)، أي أن المشاهد أو المستمع أو القارئ، تبعاً لوسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة، يختار ما يراه أو يسمعه أو يشاهده، وكذلك فهو يحلل، ثم يختزن هذه المعلومة أياً كان مصدرها. وهكذا تعمل ميكانيكية الاقتناع

(*) المدير العام للإذاعة والتلفزيون، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد.

وآلياتها، أي بتخزين المعلومة وتحليلها، ثم الاقتناع بها والدفاع عنها. وهنا تكمن خطورة الإعلام، فمجرد التأثير في الموقف السائد يترجم هذا الموقف الى سلوك منظور (Over Behavior) في جميع الجوانب المتعلقة بالسلوك، كالسلوك السياسي والاجتماعي والاقتصادي وغيره.

من هذه المقدمة يتبين لنا الدور الخير الذي يمكن أن تلعبه وسائل الاتصال الغربية في تغيير السلوك، أو ما يطلق عليه بغسل الدماغ من خلال ما تكرره عبر برامجها المبرمجة والموجهة الى الشعوب المستهدفة، وبخاصة لكونها تملك إنتاج التقنيات العالية والمتطورة، ومنها الأقمار الصناعية لتمرير بثها الإذاعي والتلفزيوني وإيصاله الى أي مكان وفي أي وقت تقرره.

وقد عملت وسائل الاتصال الغربية بشكل عام، والأمريكية بشكل خاص، على زعزعة الأنظمة في المعسكر الاشتراكي منذ وقت طويل، وخصصت لهذا الغرض الأموال والبشر والتقنية العالية. وفعلاً، ونتيجة الظروف الاقتصادية المتدهورة في بعض هذه البلدان، وعوامل أخرى مساندة، استطاعت هذه الدوائر الإعلامية أن تنفذ الى المتلقي داخل هذا المعسكر وتعمل على عزلته عن نظامه من جهة، وترغيبه في الحياة (السعيدة) داخل المجتمع الرأسمالي من جهة أخرى.

فإذا ما طرحنا السؤال الآتي: كيف استطاع الإعلام الغربي أن ينفذ الى هذا العالم المحصن بالايديولوجيا بهذه السهولة؟ سنجد أن الإجابة عن سؤال لاحق في ما يتعلق بالعالم الثالث أو الأقطار العربية، أقل سهولة في الاختراق وتحويل اتجاهاته في الاتجاه الذي ترغب فيه هذه الدول، وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية، وهي التي تمتلك الكثير من الوسائل المتاحة لهذا الغرض، وبخاصة الإعلان عما يسمى بـ «النظام الدولي الجديد» الذي تبلور بعد عام ١٩٩١. وتسعى الدول الغربية بشكل عام، والولايات المتحدة بشكل خاص، الى سياسة ما يسمى بالترغيب والترهيب. فهي تدعو الى منهجها منذ أمد طويل، وبخاصة في بلدان العالم الثالث، وبالتخصص الدقيق (لبلدان العالم الثالث الغنية بالموارد الطبيعية، ومنها النفط، والفوسفات والذهب... الخ)، وفي الوقت نفسه، تلوح بالترهيب، أو أحياناً تستخدم إذا اقتضى الأمر، لأغراض هذه السياسة، وسائل إعلامها بكل قنواته المتاحة، وبأحسن الملاكات البشرية المتخصصة، وبأفضل الأجهزة التقنية المتاحة. وهذا ما نطلق عليه تسمية الغزو الثقافي الذي يبدأ بشكل متوازٍ (مساير) للغزو الاقتصادي والسياسي، ولكن وللأسف الشديد، يتطير الكثير من مثقفينا من كثرة الحديث عن الغزو الثقافي لأنه يتحول لدى بعضهم، وفي بعض الحالات، الى ستار لتكريس الجمود والتعصب وتمجيد الانغلاق. غير أن كشف الغزو الثقافي ومقاومته يظلان مهمة حيوية وأساسية، ومن دونها يستحيل النضال الجدي والناجح ضد أخطار التكلس والركود وسلب الشخصية الوطنية. لقد كانت الفجوة في التقنية والإمكانات

والموارد بين وسائل الإعلام والاتصال في بلدان العالم المتطور من جهة، وأكثرية بلدان العالم من جهة ثانية، فجوة واسعة وذات عواقب مخيفة. وما يسود العالم حتى اليوم في ميدان الإعلام والاتصال هو نظام مجحف غير عادل يقوم على اللاتوازن لصالح العالم المصنع، وبالضد من مصالح العالم المتنامي. وبفعل التحكم السياسي والقدرات الاقتصادية والصناعية والتقنية الهائلة، فإن الأقلية توجه الأخبار ومسار الإعلام كما تريد، ولصالح مخططاتها الاستراتيجية والسياسية ومصالحها الاقتصادية والمالية.

- ٢ -

وانطلاقاً من كل ما تقدم، فإن الولايات المتحدة الأمريكية تعي هذه الحقائق وتنطلق منها الى أغراض السيطرة والتحكم ضد دول العالم الثالث، كما أنها تستخدم في وطننا العربي «الكيان الصهيوني» لتنفيذ العديد من مخططاتها الرامية الى مسخ الشخصية العربية.

وعبر معطيات طروحات النظام الدولي الجديد يمكن أن نتعرض لدور مؤسسات الإعلام في الغرب في ممارسة الإرهاب الفكري وتغذية النزعات العدائية والعنصرية ضد الوطن العربي، وضد شعوب العالم الثالث بشكل عام، وربما يكون وراء ذلك تناقض المصالح. ومع الأخذ بعين الاعتبار التراكمات التاريخية في الشعور واللاشعور من الحروب الصليبية الى الحروب الاستعمارية، ثم معارك التحرير الوطني، يمكن كذلك أن يكون الجهل بواقع الشرق عموماً عاملاً مؤثراً في ذلك. وقد تساءلت فعلاً بعض الصحف الغربية، مثل نيويورك تايمز، بقلم آرثر شليسنغر (جونيور)، عن مدى معرفة أمريكا بالشرق. وهو إذ يؤكد هذا الجهل يعتبر الأمر «أن جهلنا لمدى جهلنا هو الذي لا يغتفر». لذلك فإنه من الطبيعي أن يمهد هذا الجهل، وعدم وعي حقيقة هذا الجهل ومخاطره، الى تفشي النزعات التعصبية العدوانية من دون أي مبرر، سوى الغاية في الهيمنة والسيطرة والمصادرة.

وقد فضحت اليونسكو الأسباب الكامنة وراء العدوانية والسلبية والجهل الذي تتسم به المؤسسات الإعلامية الغربية في فهم الواقع السياسي والاجتماعي في المشرق عموماً. فالعالم الثالث يعرف فعلاً عن الغرب أكثر بكثير مما تعرفه المؤسسات السياسية والإعلامية في الغرب عن حياة الناس وعاداتهم وتقاليدهم ومشاكلهم في العالم الثالث، كما أن اليونسكو استدلت في دراساتها من خلال اختلال موازنة التدفق الإعلامي بين الغرب والشرق. وعلى سبيل المثال، فإن غالبية البلدان النامية، ومنها أقطار الوطن العربي، تستورد ما لا يقل عن نصف البرامج التي تعرضها محطات التلفزة في الخارج، ويأتي ٧٥ بالمئة من تلك البرامج من أمريكا، ولا تستورد أمريكا على وجه الخصوص أية برامج ثقافية أو علمية من أقطار الوطن العربي، إلا تلك التي ترسل من خلال مكاتب الشركات الإخبارية الأمريكية التي توجد في المنطقة العربية، وهي تصنع من خلال الموقف الغربي

ذاته. كذلك، تستورد محطات التلفزة في الوطن العربي ما يمثل ٤٣ بالمئة من البرامج التلفزيونية من أوروبا، وجزءاً ضئيلاً من اليابان (أفلام الكارتون للأطفال). وهذا الحجم من المواد الإعلامية المتدفق من الشمال الى الجنوب يقطع أية فعالية حوارية حضارية يمكن أن تسهم في تقارب الشعوب.

وبالإضافة الى ذلك، أسهم التطور العلمي المتسارع الذي يظهر واضحاً بقوة في ميدان الاتصال، وبشكل خاص من خلال التحولات المتوالية والمتفاعلة بين تقارب وتكامل قطاعات ثلاثة كانت موازية للثورة الاتصالية، هي: قطاع المعلوماتية، وقطاع المواصلات، والقطاع السمعي والبصري. يدعم كل ذلك الاستثمارات المالية الهائلة التي تبحث عن الأسواق، حتى ان مفكراً مثل ريجيس دوبريه الذي بحث في حقل «الميديولوجيا» أو الوسائطية، أي «علم الاتصال»، يحذر من الخطر القادم الذي يعرضه الغرب لتغطية مشاريعه خلف شعارات التدفق «الحر» للأخبار والمعلومات.

ومن نتائج ذلك، انتزاع الفرد من أرضه وإدخاله في العملية الرأسمالية الواسعة عبر التحول الكبير في ثلاثة مظاهر أساسية هي: اقتصاد السوق، والسيطرة على التقنية والعلم، ثم الدولة الوطنية البيروقراطية.

- ٣ -

هكذا يدخل الإعلام عبر الصحون اللاقطة للبث الفضائي، ومشاريع الربط بين الحاسوب الشخصي وأنظمته وأنظمة حاسوب معلوماتية دولية. ثم هناك الخلط بين أوراق الإعلام وحرية تدفق المعلومات والأخبار، وبين «تحرر الفرد من جذوره» لكي يلحق بسرعة بـ «عولمة» قادرة على إنتاج ثقافة كونية لا مبالية بمشكلات الجوع في الصومال وراوندا بقدر اهتمامها بمبيعات فيلم «حديقة الديناصورات» المثير للخيال والمتعة.

إن الإعلام الغربي لا يبشر بالتجانس، وإنما يذهب الى البحث عن تنميط ثقافي واحد، وهذا ما برر حملة الهجوم الواسعة على الايديولوجيا. وقد دافع عن هذه الفكرة المفكر الأمريكي الجنسية الياباني الأصل فوكوياما في كتابه **نهاية التاريخ**، وهو الذي أعلن عن إفلاس الايديولوجيا من دون بديل قادر على ضمان التواصل كوريث مؤهل لأخذ مكانه ايديولوجياً. ولكن أي بديل للتواصل ذلك؟ إنه تماماً يتطابق مع الفكرة الرأسمالية في تدويل وسائل الاتصال، وهي فكرة رجال السوق في الجمع للمصالح على طاولة «حرية التعبير التجاري» باعتبارها حقاً جديداً من حقوق الإنسان. فبدلاً من سيادة الوطن حلت إذاً سيادة المستهلك، وهي تماماً تعبر عن انتشار فكرة تدويل وسائل الاتصال التي تقود الى أن تبقى شبكات البث الإخبارية (وكالات الأنباء)، أو التلفازية (البث الفضائي)، تحت سيطرة القوى الاقتصادية القادرة على صناعة وسائل الاتصال وتوزيعها وتنظيم تداولها.

إنه تعبير آخر لغياب الوعي والاستسلام للنموذج التجاري، نموذج السوق. فالاستعمار والامبريالية والهيمنة، الجميع يتجه الى مصادر الحق في الاستقلالية، وبالتالي تكريس التبعية عبر منع التواصل، الاتجاه في خط عمودي من أعلى إلى أسفل، من دون أي اعتبار للخصوصيات وللحق في الرد.

إن هيمنة الإعلام قفزت ليس فقط عبر سيادة الدول والمجتمعات، بل تحولت إلى قوة تقود إلى تحطيم الشخصية الوطنية وتذويبها، بل إلغائها تحت ذرائعية معبرة عن مفهوم السوق الرأسمالي في ضمان وصول البضائع إلى كل مستهلك سواء رغب في ذلك... أم لا... لذلك فإن الإشكالية التي يعرضها الإعلام في الوقت الحاضر هي قدرته في التعبير عن خيارات الشعوب الحقيقية نحو السلام والتعاون والأمن الجماعي.

لقد كشفت أحداث العدوان الأمريكي على العراق عام ١٩٩١ عن التناقضات الفاضحة التي وقع بها الإعلام الأمريكي الذي انزلق في النهاية بعيداً عن ادعاءات الحيادية نحو تبني المواقف الرسمية باستسلام تام وجعل «السلطة الرابعة» تخضع لـ «السلطة الأولى» خضوعاً لم يسبق له مثيل. فقد تعامل الإعلام الأمريكي مع قضية العراق بكثير من الهوس، وكأنه، كما قيل، ينفخ في نار حرب عنصرية صليبية. وقد أدت هذه التبعية إلى أن يتحول الإعلام الأمريكي، وفي الغرب أيضاً، إلى داعية للحرب وحاثٌ على العنف والقتل والاغتيال.

ولم تتورع إحدى شبكات التلفزة الأمريكية عن الحث على المبادرة بالحرب والقتل، ملاحظة أن الجنود الأمريكيين قد نفد صبرهم لأنهم بكل بساطة «يريدون قتل العراقيين والعودة الى ديارهم». وقد أدى هذا الموقف إلى تناقض كبير مع الأخلاقيات المهنية التي غُيبت بشكل فظيع، فحل بدلاً منها الكذب الرسمي والتزوير والمراقبة السابقة للمواد الإعلامية ومغالطة الرأي العام.

إن الإعلام الأمريكي، وفي الغرب عموماً، قد كشف عن روح عدائية تعصبية ضد العرب تهدف إلى تصغير، بل إلغاء، هذه الأمة... إلغاء الدور والقدرة على المواجهة وإثبات الحق في الوجود. إن شبكة سي.إن.إن. (C.N.N.) الأمريكية الإخبارية تكشف في هذه الواقعة عن فعالية تسويق اللامبالاة تجاه مصائر الشعوب... إنها تنقل حديث أحد الطيارين الأمريكيين الذي شارك في حملة القصف الأولى على العراق، ولتأكيد نجاح ضرب العراق بالقنابل، حيث يقول: «لقد تمكنت من ضرب هدفي بكل دقة، وها أنا أعود سالماً كما ترون»... ويسأله مقدم البرنامج: «ماذا ستفعل الآن؟» فيرد قائلاً: «سأتناول وجبة غذائي لأعود في مهمة ثانية»... هكذا تظهر الحرب في التلفزيون شيئاً عادياً جداً يمكن تأجيله إلى ما بعد الغداء، كأي عمل، أو أية لعبة تقوم بها بكل طمأنينة وراحة بال!

وباختصار، لقد أسهم الإعلام في الغرب، ومن خلال تسليط الضوء بالتحليل على

واقعة الحرب ضد العراق عام ١٩٩١، في إعطاء المشروعية للحرب والتدمير، وكشف عن اختلال فكرة الموضوعية والحيادية التي تدعيها تلك الوسائل. فقد أصبحت الشرعية الدولية هي شرعية تبرير كراهية الغرب للشرق، وتبرير ممارسة الحرب والحصار على الشعوب، حتى إن فكرة الحرب ضد العراق ـ على سبيل المثال ـ أضحت عملاً حضارياً يستحق من كل الغرب أن ينظم مساهماته، وأن يعتبر قضية تدمير العراق ضرورية للمحافظة على مصالح الغرب الاقتصادية، ليس في منطقة الخليج، بل في العالم بأسره.

إن فكرة تسويق العداء نحو العرب تستهدف إحباط إمكانية أن ينهض العرب بمشروع حضاري جديد، لذلك فإن تعميق الكراهية ضدهم من خلال تحميلهم مسؤولية الإرهاب والحروب والتدمير يقود إلى فكرة أخرى، وهي إمكانية نزع الثروة ومصادرتها لمصلحة الحضارة الغربية التي تبشر بعدالة موهومة!

لقد تبلورت تلك المصادرة لحق العرب في الحياة في نماذج من الاحتلال العسكري المباشر، أو في فرض تسويات سياسية، وأخيراً، محاصرة وتجويع من يقاوم هيمنة الغرب وعدوانيته.

تعقيبات

المشاركين ومناقشاتهم

١ ـ أحمد مطلوب(*)

عنوان الندوة التي عقدها المجمع العلمي هو «إشكالية العلاقة الثقافية مع الغرب»، وما كان لي أن أعقب عليها هذا التعقيب لولا أن بعض الباحثين أشار إلى الثقافة الأجنبية القديمة وتحدث عن الترجمة. وليس لدي تعليق على الترجمة عن اليونانية لأنها تمثل بلداً غربياً، وإنما تعليقي ينصب على الترجمة عن الفارسية فأقول: إن ما ذكره القدماء والمحدثون من الأثر الفارسي في الثقافة العربية مبالغ فيه إلى حد كبير، إذ المعروف أن الفارسية التي عرفها العرب هي تطور للدرية التي نشأت بعد الإسلام، وقد ذكرها الجاحظ في القرن الثالث للهجرة، واللغة الدرية هي التي دون الفرس بها آدابهم بعد الإسلام. وهذه حقيقة لا تنكر، وقد قررها المستشرق براون منذ مطلع القرن العشرين. وتابعه الباحثون فذكر أحمد أمين أن لغة الفرس في عهد الدولة الساسانية كانت الفهلوية، وقد تعرضت هذه اللغة للاضمحلال والفناء بعد دخول الإسلام واللغة العربية إلى إيران، وأن أكثر الكتب الفهلوية ضاعت ولم يبق منها إلا القليل. وقال د. محمد غنيمي هلال إن الفارسية الدرية هي لغة الأدب الفارسي بعد الفتح الإسلامي لإيران، وإلى ذلك ذهب الدكتوران أحمد ناجي القيسي وحسين محفوظ.

ومن أقدم ما ذكر من الشعر الفارسي قصيدة العباس التي أنشأها ليستقبل بها المأمون عند قدومه إلى مرو في سنة ١٩٣هـ/ ٨٠٩م ولكن كازمرسكي يرى أنها زائفة منتحلة، وأيده براون، وقالا: إن الأدب الفارسي نشأ بعد هذا التاريخ، أي في القرن الثالث للهجرة وما بعده، وكان متأثراً بالأدب العربي.

إن القول بتأثير الثقافة الفارسية في الثقافة العربية، وبأن الترجمة عن الفارسية كانت ذات أثر عظيم في الفكر العربي الإسلامي، قول لا يمثل الحقيقة، وإن ذكر القدماء كابن النديم بعض الكتب والرسائل التي قيل إنها ترجمت إلى العربية. ومن يدري، فلعل تلك

(*) عضو المجمع العلمي العراقي، بغداد.

الكتب والرسائل كانت منحولة، ويؤيد ذلك:

١ ـ إنها لم تصل إلينا كما وصلت كتب اليونان.

٢ ـ إن اللغة الفارسية الحديثة لم تكن لغة تأليف قبل الإسلام، وإنما نمت بعد ذلك وألفت فيها كتب على غرار الكتب العربية، كما اعترف مؤلفوها في مقدماتها.

٣ ـ إن القدماء أنفسهم شكُّوا فيها، فقال الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥هـ: «ونحن لا نستطيع أن نعلم أن الرسائل التي بأيدي الناس للفرس أنها صحيحة غير مصنوعة، وقديمة غير مولَّدة، إذ كان مثل ابن المقفع وسهل بن هارون وأبي عبيدالله وعبد الحميد وغيلان يستطيعون أن يولدوا مثل تلك الرسائل ويصنعوا مثل تلك السير». وجاء مثل ذلك في شرح التبريزي لبيت أبي تمام:

بل كان كالضحاك في سَطَواته ... بالعالمين وأنت أفريدون

هذا شيء أخذه الطائي من سِيَر الفرس.

٢ ـ علي عطية عبد الله(*)

نتقدم بالشكر الجزيل إلى اللجنة الثقافية في المجمع العلمي على ما بذلته من جهد لعقد هذه الندوة الحيوية التي جاءت في وقت تعيش فيه الأمة العربية محنة عصيبة يشارك فيها الأبناء قبل الأعداء، حيث نرى الناس فيها سكارى، وما هم بسكارى، لشدة هول المأساة التي يعيشون في أيامها، كما نشكر السادة المحاضرين على جهودهم في إعداد محاضراتهم. يبقى أن نكون صريحين مع النفس وصادقين مع الجميع عندما نبدي رأينا وملاحظاتنا على ما ألقي في الندوة من محاضرات، وعلى ما سبقنا من تعقيبات، فضلاً عن برنامج الندوة نفسها.

أولاً: إن عنوان الندوة واضح، وهو إشكالية العلاقة الثقافية مع الغرب وليس العلاقة الثقافية مع الغرب. وهذا يعني أن موضوعات الندوة يجب أن تنصب على جوهر الموضوع: ما أسبابها، صيغ معالجتها، الخلفية التاريخية لها... الخ، وقد أعطى الإطار العام للندوة هذا التوجه، إلا أن ما ينقصه هو موضوع ما يجب عمله على مستوى الأنظمة والمؤسسات الثقافية والإعلامية العربية لمجابهة الغزو الثقافي الأجنبي من دون اللجوء إلى حالة الانغلاق أو الانعزال. ومع أن الفقرة السابعة من المنهاج قد أشارت إلى ذلك، إلا أن الباحثين لم يتعمقوا فيه محاولين الابتعاد عن المساس بواقع النظام العربي السياسي والإعلامي والثقافي والتربوي الذي هو أساس المشكل.

ثانياً: لقد تضمنت الدراسات المحاور الآتية:

(*) عضو المجمع العلمي العراقي، بغداد.

ـ **المحور التاريخي**: بيّن لنا هذا المحور تعامل العرب مع الثقافة الأجنبية عبر مراحل تاريخية معروفة، وقد أكدت المعلومات التي وردت في هذا المحور قدرة العرب والمسلمين على التفاعل الإيجابي مع ثقافات وعلوم وفلسفة الآخرين، فاستفادوا وأفادوا حيث كان تعاملهم يدل على مستوى عالٍ من الثقة، وعلى حقيقة أهمية الصيانة والحصانة المبدئية والعقائدية.

عندما بدأ العرب بالتعامل مع ثقافات أجنبية، وبالتالي عندما بدأوا بالاحتكاك بثقافة الآخرين وعلومهم، كانوا حملة رسالة وفكر وعقيدة مكنتهم من التفاعل الإيجابي ومحاججة الآخرين، فأثروا فيهم تأثيراً إيجابياً كبيراً. وهذا درس يجب أن نسير عليه الآن، فلا مجال لغزو ثقافي عندما نكون في مستوى ثقافي وعلمي وفكري يحاكي المستويات الثقافية والعلمية والفكرية للآخرين، وعندما تصبح حالة مناجاة وأخذ وعطاء... فكيف نصل إلى هذا المستوى؟ إن المطلوب هو التحدث عنه وتحديده في هذه الندوة، وليس مجرد سرد معلومات معروفة للجميع، وهو أمر لم يتحدث به أحد، ولم يتناوله أحد في التعقيب إلا بأسلوب الإشارة المستحبة.

إن الأنظمة العربية السياسية والاقتصادية والتربوية والتعليمية والثقافية مقصرة في هذا المجال وبعضها تقصيره متعمد، فلنقل للأنظمة العربية هذا الشيء وبكل أمانة من دون مجاملة أو مخادعة لأننا نفيدها في ذلك ولا نضرها إن هي أدركت ذلك.

ـ **المحور الاقتصادي**: تبين من هذا المحور أن المحتوى الاقتصادي للنظام العربي يعيش في مشكلة كبيرة يجب تجاوزها قبل الدخول في القرن الحادي والعشرين، وأن التنمية الاقتصادية مهمة جداً بالنسبة إلى بناء الإنسان العربي، والتكامل الاقتصادي العربي حيوي ومهم، والتوقعات المستقبلية، وبخاصة في مجال الطاقة، تحتم على العرب الوحدة الاقتصادية وإيجاد بدائل للطاقة. وكل ما جاء في هذا المحور جيد من الناحية العلمية، إلا أنه لم يشخص علاقة التنمية الاقتصادية ببناء حصانة الإنسان العربي تجاه عناصر الغزو الثقافي في هذا المجال، كما لم يوضح مشاكل التنمية الاقتصادية الوطنية والقومية، ولم يتطرق إلى أسباب هجرة الأدمغة العربية إلى الخارج وكيفية الحد منها، فنحن نعلم أن من أهم أسباب صفاء المناخ العلمي هو الاستقرار السياسي والواقع المادي واحترام حرية العالم العربي ومشاركته في شؤون وطنه المتعلقة باختصاصه، ومع ذلك فإن هذا المحور أشار إلى بعض هذه المشاكل عن بعد.

ـ **المحور الإعلامي والثقافي**: تحدث هذا المحور عن منطلقات الإعلام الغربي والاستنزاف الثقافي والنظام الإعلامي الجديد والاختراق وأسلوب الإعلام الغربي في التشويه العنصري ضد العرب ومستقبلهم... الخ، ومعظم ما ورد في محاضرات هذا المحور لا جديد فيه، بل هي معروفة ثقافياً وصحافياً. وإذا صح القول بأن تكرار ما هو صحيح مفيد، فإننا كنا نتوقع أن نسمع بعض ما يجب قوله بشأن الإعلام العربي قطرياً

وقومياً. . . هل أن الجهد الإعلامي يقوم بواجبه الوطني والقومي بوعي وإدراك تامين، أو أنه يعبر عن سياسة السلطة التي كثيراً ما تكون متقاطعة مع مصلحة الأمة العليا وتدفع باتجاه المحنة القومية المتمثلة في تكريس القطرية، ومن ثم خلق حالة الدولة ضد الأمة، وقد يشخصن ذلك المفكر العربي برهان غليون في كتابه المعنون **المحنة القومية** الصادر عن مركز دراسات الوحدة العربية عام ١٩٩٣.

إن التحدث عن أسلوب الغرب في الإعلام ورغبته في غزو الآخرين ثقافياً، أمر واضح، فالغرب صاحب مصلحة وتطلعات قد لا تكون مشروعة، ولكنه يعمل من أجلها تحقيقاً لأطماعه، فهو يتبع ما يراه محققاً لذلك. ومقابل ذلك يجب ألا نقف مكتوفي الأيدي وننادي بالتوازن والمساواة، فقد يتحدث بالكرم من لا يملك شيئاً. . . فهل نبقى مفلسين كعرب على مستوى الإعلام والثقافة والتنبه والتعامل المدني في تداول المسؤولية والسلطة، ومن ثم نبقى مادة لهجوم الغرب وانتقاداته، أم نعي مسؤوليتنا تجاه إنساننا العربي، وتجاه أمتنا، فنعمل ما يعزز دورها ويجعلها تتفاعل بإيجابية وبثقة مع الآخر. هذا هو بيت القصيد كما يقال، فلنعمل على إعادة النظر بكل خططنا الوطنية والقومية، ونبذ ما وجدناه خائباً، والتمسك بما هو ناجح من خلال تجربة قرن تقريباً، فإذا ما احترمنا أنفسنا وتعاملنا كأمة بعيداً عن التنافس والتناحر وأشعرنا الآخر بذلك، فسنجده مضطراً لقول الحق من جانبنا. بعد أن يعجز عن إيجاد الثغرات في صفوفنا، فليكتب الإعلاميون والمثقفون والمفكرون في ذلك، وليسمع السياسيون كلمة الحق. دورنا أن نقول الحق ونفتش عن الحقيقة وننطلق إلى أمام. لا فائدة في مراقبة الآخر مراقبة مجردة، بل مراقبة مع عمل جدي يرقى بنا إعلامياً وثقافياً وسياسياً ووطنياً وقومياً إلى مستوى الاحترام الذي يفرض نفسه على الآخر وبثقة. . . إن محاضرة د. عبد الإله بلقزيز توقفت إيجازاً عند ما يجب عمله، حيث تحدث عن «ما العمل؟».

ـ **محور الوحدة العربية**: تناول هذا المحور موضوع الغرب والوحدة العربية وموضوع الوحدة العربية «تحديات التجزئة وخطورة المشروع الشرق أوسطي».

وقد تناولت الموضوعات معلومات وحقائق ليست بخافية على المفكرين والمثقفين العرب المهتمين بشؤون أمتهم، إلا أنه ووفقاً لقاعدة إذا ما ذكر صحيح، فلا ضرر في العودة إلى ذكره في مناسبة كتلك التي نحن نلتقي تحت سقفها لكي لا ننسى، أو تحقيقاً لشعار كي لا ننسى قضايانا نستذكر. . . وقد تنفع الذكرى المؤمنين. . . ولو أن مشكلة الأمة الأساسية في المؤمنين. . . أين هم الآن وما قدراتهم وما سعة الساحة التي تركتها لهم الأنظمة العربية لممارسة فعالياتهم خدمة لأهداف الأمة الحقيقية، وليست المحنطة في علب تلك الأنظمة. إن ما جاء في هذا المحور يعيد تثبيت وقائع وحقائق تتعلق بمحاربة الغرب للوحدة العربية، وسياسته في هذا المجال تحقيقاً لأغراض بقاء التجزئة العربية، ونحن نعلم، كما يعلم الغرب نفسه، أن مصلحته المبنية على الطمع والاستغلال لثروات

الأمة تدعوه إلى محاربة الوحدة العربية، وأن المعلومات المعروفة والمؤكدة في الموضوع الثاني للمحور تعزز ذلك بالوقائع الموثقة. فإذا كنا نعرف ذلك جيداً واختبرناه طيلة قرن من الزمان، فلماذا نكرر الدورة في بداية القرن التالي، أي لماذا لا نعي المشكلة المتمثلة في التجزئة والتخلف وعبث الكثير من الحكام العرب بشؤون الأمة... لماذا لا نتحدث بصراحة المثقف والمفكر الملتزم تجاه قضايا الأمة، ونبتعد عن البؤس الذي نعيش فيه الآن تحت طائلة الخوف من قول ما يجب قوله. إن ما وصلت إليه الأمة الآن من موضوع شائن يدعو كل إنسان عربي شريف إلى أن يقول كلمته ليسجل موقفاً شريفاً تجاه هذه الأمة. إنه لعجب أن نرى الأمة تُذبح ونحن صامتون، بل نلهي أنفسنا بأمور واضحة أسباب حدوثها وترتبط بسلوكية معظم الأنظمة العربية وتجاهلها لما يحاك في الخفاء للأمة من شر واغتصاب.

فالمشكلة أكبر من الجامعة العربية، وأكبر من المنظمات الإقليمية التي ما هي إلا وليدة حال الأمة هذا. إن الفيض لا يعالج من أطرافه وإنما يعالج من منبعه، كما يقال، فيمنع كل هذه المشاكل المطروحة من غزو ثقافي وتنظيمات إقليمية بديلة للعمل العربي المشترك، هو تفكك الأمة وتخلفها وتسلط أنظمة على شؤونها لا ترعى حرمتها ولا يهمها غير ذاتها واستمرار سلطتها... إنها محنة قومية كبيرة ولا تحل بمثل هذه الندوات، بل بالنضال الجماهيري المنظم...

﴿وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾[1].

٣ ـ عبد الله سلوم السامرائي(*)

لدي ملاحظة منهجية أرى من الأهمية بمكان الانتباه لها والعمل بها، وهذه الملاحظة يمكن تفريعها إلى ملاحظات فرعية أخرى. من هذه الملاحظات لا بد من أن يتحدد المقصود بالغرب: هل هو الغرب الأوروبي أو الغرب الأوروبي والأمريكي؟ وهل المقصود الغرب المسيحي أو الغرب الاستعماري؟ والملاحظة المنهجية الثانية: كان على اللجنة المشرفة أن تعين الفترة المعنية بالبحث، أين تبدأ، وأين تنتهي، فقد ذهب الباحثون مذاهب شتى، فتوقف بعضهم عند الحروب الصليبية بداية لهذه العلاقة واستمر بها حتى يومنا هذا، وذهب فريق آخر إلى أبعد من هذا الزمن، وتوقف فريق ثالث عند مطلع هذا القرن حيث بداية التكامل والتآمر بين الصهيونية والاستعمار، وبخاصة منذ المؤتمر الصهيوني في بال عام ١٨٩٧، واجتماع هذه القوى الاستعمارية المتحالفة بعضها مع بعض، وبخاصة مع المؤامرة الكبرى التي تأكد وجودها في عام ١٩٠٧، والتي كان وعد

---

(١) القرآن الكريم، «سورة هود،» الآية ٨٨.

(*) وزير إعلام سابق، وعضو المجمع العلمي العراقي، بغداد.

بلفور عام ١٩١٧ أحد أكبر علاماتها، ومن ثم عقد وتنفيذ اتفاقية سايكس - بيكو سيئة الصيت التي قسم المستعمرون بموجبها الأمة العربية إلى أشلاء.

ومن الملاحظات المنهجية الأخرى التي أرى من المهم الوقوف عندها هي أن يصار إلى إطلاع المشاركين في الندوة على البحوث قبل وقت مناسب من عرضها لكي تأتي مناقشة البحوث موضوعية ونافعة.

لقد تحدث الباحثون كلٌ في الموضوع الذي أعده، وكان علينا أن نعلق على بعض ما جاء في هذه البحوث، فكانت هناك وقفة عند محور الاستشراق ودارسيه أوضحت أن الاستشراق اقترن بالعلاقة بين الغرب والأمة العربية والدين الإسلامي. وهذه العلاقة اشتدت واقترنت بعمق منذ المؤامرة الصهيونية الاستعمارية، حيث كانت بريطانيا تقود العملية الاستعمارية، فزجت بمجموعة من العلماء والباحثين ليكتبوا في الحضارة العربية الإسلامية، فكانت كتاباتهم في كل الميادين وعلى مختلف المستويات. واستغل المستعمرون هذه الكتابات ووظفوها في خدمة أغراضهم الاستعمارية. وقد ظهر «عدد» من بين هؤلاء كان أميناً على الناحية العلمية، فحقق في تراث الأمة وعلق، وكان صادقاً، فجاءت كتاباته نافعة.

وقد استغلت الحركة الصهيونية والمستعمرون كل أنواع الكتابة، حتى كتابات هؤلاء العلماء «المستقيمين والجادين»، فكانت تتحدث عنهم وتعرض كتاباتهم بأنها دليل على أن «كل المستشرقين كانوا يكتبون بصورة علمية»، وحينما تشتد المعارضة وتعلو أصوات الإدانة كان هؤلاء المستعمرون يتحدثون عن حرية الرأي وأن للعالم أن يكتب ما يشاء، فهناك من يكتب فيحقق نجاحاً ويقدم دراسة نافعة، وهناك من يعجز عن ذلك، وأن الأجر لا يعدو أن يكون إلا «اجتهاداً» فردياً ليس لهذه الدولة الاستعمارية أو تلك التي ينتسب إليها هذا المستشرق أو ذاك نفوذ عليه... والحقيقة أن المستعمرين استغلوا كتابات المستشرقين لتنفيذ خططهم الاستعمارية.

لقد برز المستشرقون على المسرح الثقافي وانتشروا في معظم أقطار القارة الأوروبية، فكان هناك مستشرقون من انكلترا وفرنسا وألمانيا وهولندا وروسيا القيصرية، ومن بعد الاتحاد السوفياتي ودول المعسكر الاشتراكي. وكان عدد من هؤلاء من اليهود، وآخر من المسيحيين، وكان عدد من هؤلاء عميلاً للمخابرات الاستعمارية لهذه الدولة أو تلك، وكان عدد المخلصين للعلم والملتزمين بشروطه قليلاً.

وعلقت على تعقيبات الأخوة الذين تحدثوا معقبين على المحاور التي ألقيت في اليوم الأول، وهي «العرب والثقافات الأجنبية في العهود الإسلامية» لصالح العلي، وبحث أ. محمد توفيق حسين «التجربة التاريخية لعلاقة العرب بالثقافة الأجنبية». وتوقفت عند بحث د. حسام الدين الآلوسي «ملاحظات حول الاستشراق ودارسيه»، ومحاضرة د. عبد الرحمن الحبيب «التنمية العربية/الإمكانات والتحديات»، ودراسة حميد الجميلي «المحتوى

الاقتصادي للنظام العربي وتحديات القرن الواحد والعشرين»، حيث كانت تعقيباتهم وتعليقاتهم متفاوتة في الدقة والمواجهة، كما أنها كانت متناقضة بعضها مع بعضها الآخر، حيث اختلف الأخوة المعقبون على كل شيء... اختلفوا على:

- مفهوم الغرب.
- مفهوم الصهيونية.
- مفهوم الاستعمار.
- مفهوم الاستشراق.
- مفهوم العرب والعروبة.
- مفهوم الإسلام والصحوة الإسلامية.

واشتد الخلاف على مفهوم التنمية، وتعمق الخلاف حول النظام الدولي الجديد.

وتساءلت: هل هذا الخلاف هو خلاف «الرحمة» على «قاعدة» «اختلاف علماء أمتي رحمة»؟ إن اختلاف الرأي مسألة مشروعة وتدل على الحرية الفكرية، كما أنها دليل الحيوية والنشاط، إلا أن اختلاف «الأخوة» كان على «المبادئ والأسس والمفاهيم». وهذه مسألة خطيرة، ولا سيما حينما يصير الاختلاف إلى خلاف وإلى تناقض، ويصعد إلى درجة تحمل شيئاً من التحامل والتنافر «وقليلاً من الاتهام». وتساءلت ثانية: هل هذا من إشكاليات العلاقة الثقافية مع الغرب أو أن علته فينا نحن المثقفين من أبناء هذه الأمة العربية؟

فإذا كان هذا الأمر من نتائج هذه العلاقة مع الغرب أو بفعل تآمره، فعلينا أن نعترف بأن المؤامرة الصهيونية الاستعمارية قد حققت كامل أهدافها: قسمت الوطن العربي إلى أقاليم ومزقت الأمة العربية إلى شعوب وقبائل، وشتتت وفتت العلماء والباحثين وفرقتهم أيدي سبأ، فعطلت دور الأمة العربية من أن تقوم بأداء رسالتها كأمة ذات رسالة وتحمل أمانة، وأن تواصل دورها في أن تبدع وتقدم عطاء حضارياً يتناسب مع دورها التاريخي.

إن الأمة العربية في مطلع هذا القرن أدركت أبعاد المؤامرة الصهيونية الاستعمارية، فأشارت إلى أطرافها وحددت أساليبها وعرفت أغراضها، وتابعت مواقفها وتطورات وسائلها. وكانت البدايات في عملية المواجهة والتحدي لهذه المؤامرة أكثر عمقاً وأوسع إدراكاً وأعنف مجابهة، وكان للمثقفين والسياسيين ورجال الدين وعامة الشعب مواقف كبيرة على طريق المقاومة والمواجهة، وكلما مشى الزمن تراجع الموقف حتى انتهينا إلى حالة نتناقض فيها ونختلف على مفهوم «الخطر الصهيوني» و«الخطر الاستعماري» و«أخطار التجزئة» و«السكوت على القتل والنهب والتهجير للعرب». إن اختلاف المثقفين على هذه الدرجة يثير الأسى ويدفع إلى السؤال: هل الأمة العربية في ميدان مثقفيها قد سقطت في

حومة الخيبة واليأس والضياع، وانسحبت إلى صف المؤامرة، فصار «مثقفوها» يعملون على تمزيقها والإجهاز على البقية الباقية من حيويتها وقدراتها عن غفلة أو عن عمالة أو عن يأس؟ إن كل الذين تحدثوا وعقبوا من المثقفين الذين يشهد لهم تاريخهم وسجل حياتهم بأنهم من المثقفين المناضلين، مطالبون بألا ينسوا تاريخهم وألا يتخلوا عن مسؤولياتهم، وأن يثقوا بأنفسهم وبأمتهم، فيعودوا كتاباً مناضلين يقاتلون كما كانوا بالأمس، يقاتلون بالكلمة المغموسة بالدم.

وفي يوم الأربعاء ١٩٩٥/٥/٣ تحدث د. سعدون حمادي عن «الغرب والوحدة العربية»، وكان حديثاً ممتعاً ومفيداً. وتوقف محمود علي الداود عند موضوع «الوحدة العربية وتحديات التجزئة وخطورة النظام الشرق أوسطي». وكان حديثاً موفقاً هو الآخر، ومتوازناً مع عنوان الموضوع، وقد أبرز خطورة النظام الشرق أوسطي الذي ترتفع أعلامه على ساريات عواصم عربية وفوق الكنيست الصهيوني في تل أبيب.

وتحدث أ. عصام عبد الغني محبوب عن «التأثير الغربي في الهيئات والوكالات المتخصصة للأمم المتحدة».

وكان بحث د. عبد الإله بلقزيز عن «الاختراق الثقافي»، فكان بحثاً قيماً، تحليلاً ومجابهة للخطة الأمريكية للاختراق الثقافي العربي.

وتعاقب إعلاميون من العراق، تحدث تباعاً منهم: أ. صلاح المختار، رئيس تحرير جريدة الجمهورية، عن دور الاختراق الثقافي في خطة السيطرة الأمريكية على العالم، ود. عبد الستار جواد عن منطلقات الإعلام الغربي، وأ. عبد الجبار البصري عن الاستنزاف الثقافي والنظام الإعلامي الجديد، ود. خالد حبيب الراوي، ود. هادي نعمان الهيتي عن الاتصال الثقافي الدولي والعوامل الميسرة لسريانه من الغرب إلى العرب... فكانت بحوثهم إعلامية جيدة أفادت المستمعين وأغنت الندوة بآراء وأفكار نافعة. وقد تدافع المعقبون كل يدلو بدلوه. ولما كانت مواضيع بحوث هذا اليوم واضحة لدى الباحثين وموفقة، فقد جاءت تعليقات المعلقين أقل تناقضاً وأكثر انسجاماً مما كانت عليه تعليقات اليوم الأول.

ومما جاء في تعليقنا: إن المجمع العلمي مشكور إذ يفتح أبوابه مشرعة، يجمعنا بين الحين والآخر للوقوف والمناقشة والبحث في واحدة من المشكلات والتحديات الثقافية والفكرية والسياسية، ويفسح المجال رحباً لأن نقول بحرية ما نراه، ويلقي كل منا ما يمتلك من كلمة واعية وفكرة مسؤولة، يصبها في نهر المعرفة العربية، فيتدفق سلسبيلها عذباً نميراً يحمل معه أغصاناً وأوراقاً وأزهاراً، ويجرف معه سيقاناً يابسة وأشواكاً وحشفاً.

إن أريج الحرية في هذه الأجواء من أعذب أنواع الأريج، وإن الشعور بالأمن والاطمئنان يؤلف أكبر ثمرة وأعظم هدية يقدمها المجمع لهذا الحشد من المثقفين،

ولأولئك الذين ينتظرون أن تجتمع هذه البحوث والشروح والتعليقات في كتاب لكي يكون بين أيدي المتعطشين للزاد والنماء من معين هذه الدراسات.

ولي على هذه البحوث والتعليقات لما قدم هذا اليوم ويوم أمس الملاحظات الآتية:

- إن الباحثين قدموا عرضاً علمياً عن الموضوع الذي بحثوا فيه، ولكن معظمهم لم يقدم النتائج التي توصل إليها بصورة منهجية، وهناك قسم بخل علينا بتقديم الحلول للمشاكل والسلبيات التي تعرض إليها.

- إن المثقف العربي لا بد من أن يكون ملتزماً بموقف أمته منحازاً إليها، يعيش قضيتها ويعمل لإيجاد الحلول لمشكلاتها، إذ لا يمكن للإنسان أن يكون محايداً بين الأمة وسلبياتها وأعدائها.

وعليه، فإني أرى أن من إشكاليات العلاقة الثقافية مع الغرب التي يمكن استخلاصها مما قدم في هذه الندوة ومن تعليقات المعقبين النتائج الآتية:

- إن المؤامرة الصهيونية الاستعمارية استغلت الثقافة وحققت معظم أغراضها على حساب الأمة العربية.

- إن أطراف هذه المؤامرة كانت: الحركة الصهيونية، والدول الاستعمارية وعلى رأسها بريطانيا ودول أوروبية متعددة.

وانضمت الولايات المتحدة الأمريكية وزحفت لتستحوذ على أكبر الغنائم من جراء هذه المؤامرة، فكانت الطرف الأشرس والأخبث والأظلم، حيث حولت العلاقة بين أطراف المؤامرة الرئيسيين الصهيونية والاستعمار الذي كان «استعماراً استيطانياً» إلى «استعمار امبريالي»، وتمكنت الصهيونية من أن تتحكم في دول المعسكر الاشتراكي ابتداء من الاتحاد السوفياتي وإلى بقية الدول التي اجتمعت في حلف وارسو، فكانت المؤامرة قد بسطت أخطبوطها على الأمة العربية، وأوقعت الأمة في معركة كبيرة تسببت بآثار ونتائج خطيرة يمكن جمعها وعرضها في النقاط الآتية:

- إقامة الكيان الصهيوني قاعدة عسكرية في قلب الوطن العربي ابتدأت مسخاً ثم صارت دولة، حيث تدافعت دول الاستعمار، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية، ودول حلف الأطلسي، ودول حلف وارسو على الاعتراف بها (وكان هذا الهدف هو الهدف الأولي الاستراتيجي الذي قامت عليه المؤامرة الصهيونية الاستعمارية).

- تمزيق الوطن العربي إلى أقاليم متعددة ورسم حدود جغرافية في ما بينها، وقد زرعت على طول هذه الحدود ألغاماً وقنابل موقوتة لكي تفجر ما تشاء منها في سبيل إشعال الفتنة بين الأقاليم العربية لتكريس الإقليمية وخلق العداوات والتناقضات بين أقطار الأمة العربية.

ـ تمزيق الأمة العربية إلى شعوب وزجها في معركة واسعة عميقة متعددة الأطراف، وقد استنفدت هذه المعركة معظم طاقات الأمة العربية المادية والمعنوية، مما عطل دورها الحضاري.

ـ سرقت الدول الاستعمارية كل خيرات الأمة العربية، حيث استحوذت على هذه الخيرات واستنزفتها، وحملتها إلى خزائنها، وجعلت من الكيان الصهيوني قاعدة عسكرية متحركة وعدوانية حملت البلدان العربية على أن تستنزف خيراتها لكي تكون قادرة على مجابهة هذه القاعدة العسكرية العدوانية، فكان أن وظفت الأقطار العربية معظم وارداتها للتسليح العسكري، فكان ذلك على حساب التنمية والتقدم.

ـ عملت المؤامرة على السيطرة على النظام العربي الذي تأسس بعد الحرب العالمية الأولى وتحويله من نظام عربي جاء في أعقاب «اليقظة العربية» والثورة العربية إلى نظام يتراجع في كل يوم خطوة وخطوات، حتى اصطف هذا النظام إلى جانب الدول الاستعمارية وتراجع خلفها وأصبح عميلاً لها.

وكان بودي أن يتطرق الباحثون والمعقبون إلى الإجابة عن سؤال: ماذا علينا أن نعمل اليوم بعد هذه النتائج المأساوية؟ وليس لي أن أجيب لأن هذا السؤال للأمة العربية بكل تنظيماتها ومثقفيها، فعليها أن تجيب عن هذا السؤال عبر منظماتها وأحزابها وحركاتها ومثقفيها، وإن كان لنا أن نقول في هذه العجالة شيئاً فنرى: ان على المثقفين أولاً، وفصائل الثورة والمقاومة جميعاً، إدراك هذه المؤامرة وأسباب قيامها وتأشير أطرافها وتحديد نتائجها وإدانتهم ومحاربتهم وتحميلهم وزرها.

ـ على الشعب العربي أن يوحد كلمته عبر أحزابه الوطنية والقومية والاشتراكية، ويتجاوز الأنظمة التي تسعى إلى عقد الصلح مع الكيان الصهيوني والاعتراف به، والتأكيد على الحرية والديمقراطية وإقامة الأحزاب الوطنية والإسلامية والاشتراكية، وإيجاد الصيغة للتعاون الجبهوي بين هذه القوى، وفتح معركتين أساسيتين متكاملتين: معركة مع الأنظمة اللاهثة وراء الصلح مع الكيان الصهيوني، ومعركة مع الدول الاستعمارية والكيان الصهيوني، وذلك بضرب مصالح هذه الدولة المستعمرة والإبقاء على جذوة النضال مشتعلة ضد الكيان الصهيوني عبر الكفاح المسلح الذي ساحاته الوطن العربي كله وساحته المركزية فلسطين، حيث الكيان الصهيوني المسخ.

٤ ـ حسن محمد طوالبة(*)

في البدء لي ملاحظة إجرائية، وهي أن ظروف الباحثين العرب الذين لم يتمكنوا من الحضور حالت دون مناقشة مواضيع مهمة كان المفروض أن يقدموها في هذه الندوة،

(*) باحث أردني.

ولذا أرى في الندوات اللاحقة أن يتم تكليف باحثين احتياط للباحثين العرب الذين يعتذرون في اللحظات الأخيرة حتى لا يختل منهاج الندوة.

أما ملاحظتي الأولى، فهي في إطار بحث د. حسام الدين الآلوسي الذي قدم عرضاً مكثفاً وغنياً عن الاستشراق ودارسيه. ولما كانت لنا ملاحظات سلبية ونقدية على دراسات بعض المستشرقين الذين كانوا يهدفون إلى تحقيق أغراض سياسية وايديولوجية، فلا بد من أن نتنبه لموضوع الدارسين العرب في الجامعات الغربية، وبالذات في مجال العلوم الإنسانية. وفضلاً عما طرحه ياسين الحسيني، فإن أطاريح طلبة الدراسات العليا تتعرض لضغوط من الأساتذة لتوجيهها نحو الهدف الذي يريدونه ويخدم أغراضهم، كما أن مراكز البحوث ومصارف المعلومات في الجامعات والدول الغربية عموماً تطوق طالب الدراسات العليا بمعلومات ومراجع تجعله يخدم غرض الأستاذ المشرف. فهذا الموضوع هو في نتائجه نوع من الاستشراق المعاكس ويؤدي في كثير من الأحيان إلى الهدف الايديولوجي والسياسي للطرف الآخر.

وفي السياق نفسه، أود أن أطرح موضوعاً آخر، وهو أن بعض الحكومات العربية يسعى لتكليف باحثين وكتاب من دول الغرب ليكتبوا في موضوعات تهم ذلك البلد العربي، فالهدف واضح لنا، وهو الدعاية للنظام أو للحكومة في ذاك البلد، ولكن الذي يحصل هو أن هؤلاء الكتاب يفرضون مصطلحات غربية، سواء أكانت سياسية أم اجتماعية أم فنية، بدعوى الموضوعية، ومن أجل أن يظهر المطبوع غير منحاز إلى الحكومة أو النظام في ذاك البلد. وللأسف، فإن هذه التكليفات تكون مقابل مبالغ طائلة.

والملاحظة الثانية تتعلق بالمحور الاقتصادي. صحيح أن الباحثين تناولوا التنمية العربية وتحديات القرن الحادي والعشرين أمام الاقتصاد العربي، وحبذا لو تناول أحد البحوث تأثير الاقتصاد الغربي في الثقافة العربية وفي الثقافة في دول العالم النامي. فمن المعروف أن هذه الدول تستورد معظم الصناعات الغربية وتدخل في الخدمة اليومية في حياة الإنسان العربي وغيره، ويتعامل مع مفرداتها ورموزها الثقافية كل يوم مثل وسائل الاتصال والمواصلات. فالشباب العرب يعرفون رموزاً ثقافية غربية عديدة، مثل أنواع السيارات والبلدان التي صنعتها، وكذلك الحال بالنسبة إلى الطائرات ووسائل الاتصال الإعلامية، وما تعرضه من رموز ثقافية غربية، مثل أسماء الأفلام والممثلين والمغنين، وغيرها الكثير، حتى أصبح الشباب يتداولون العبارات الأجنبية صباح مساء، ويرون مثلهم في رمز من رموز الغرب. فهذا الموضوع مهم وخطير، ولا سيما إذا دخل الكيان الصهيوني بعد اتفاقات التسوية التي أبرمها مع أطراف عربية مجال التطبيق وتبادل البضائع وعرض النتاج الإعلامي والثقافي في الأقطار العربية بيسر وسهولة. وعند ذاك لنا أن نتصور حجم الخطر الذي يتهدد ثقافتنا العربية الإسلامية، ويتهدد بالتالي هويتنا القومية.

وأخيراً، فإني أرى أن الإشكالية الثقافية مع العرب تكمن في سعي دول الغرب إلى

طمس الهوية الثقافية والقومية للعرب واختراق الثقافة العربية برموز غربية أكثر جذباً وتشويقاً للشباب بالذات. وهذا الأمر يدخل في خطط الدول الغربية وسياساتها إزاء الأمة العربية، فضلاً عن خطط الصهيونية التي تسعى إلى إكمال برنامجها الاستيطاني التوسعي على حساب العرب. وعلى الرغم من الحظر والخوف من هذه السياسة، فإن الفكر العربي القومي يرفض الانغلاق والتقوقع على الذات، بل يدعو إلى الانفتاح الواعي الواثق بالنفس، ويدعو إلى حوار متكافئ مع الآخر، حوار يقوم على الاحترام المتبادل، وليس مصادرة حق الآخر واستلاب ارادته وثقافته القومية. وهذا الحوار لا أعتقد أنه سيتحقق ما دامت الأمة العربية منقسمة على ذاتها، فالوحدة والتلاقي على أساسيات الفكر القومي هما الكفيلان بفتح حوار مقبول مع الغرب والرد على تشويهات المستشرقين.

٥ ـ حبيب القيسي(*)

تجمعت لدي ملاحظات كثيرة كنت أود عرضها عليكم، غير أن قصر الوقت يحول دون ذلك. وهنا لا بد من التذكير بضرورة أن يخصص وقت أوسع للمناقشة، ويتاح للمتنافسين أن يطلعوا على أبحاث الحاضرين قبل إلقائهم خلاصات أو بعض خلاصات عنها.

كنت أود أن تكون أبحاث السادة المشاركين في هذه الندوة متسلسلة في ضوء طبيعة موضوع الندوة الذي يبدو أن موضوع «الاستشراق» يشكل في الواقع المادة الرئيسية فيها، ولا غرابة في ذلك إذا ما استنتجنا أن هذا الموضوع هو منبع الأزمة التي تعانيها العلاقة الثقافية مع الغرب. فالثقافة، كما أؤمن بها، «موقف نظري وعملي من الحياة»، وهي «وعي جديد» دائماً ينطلق من إرادة، ويتجدد مع الحياة لتتبلور قيمتها وصورتها من التقدم والتطور. وإن ما يعانيه عالم اليوم من أزمة في علاقات المجتمعات والشعوب إنما هو نتيجة حتمية لأزمة الحوار بين هذه الأطراف، التي فرض بعضها هيمنته على بعضها الآخر بوسائل غير مشروعة، ولأهداف غير إنسانية، مما أصبح يؤكد، وبوضوح، أن الحل النهائي لتحقيق حرية الشعوب، هو امتلاكها إرادتها المستقلة في بناء حياتها وضمان مستقبلها انطلاقاً من القاعدة الثقافية الذاتية لتلك الشعوب، بكل ما لديها من القاعدة الثقافية الذاتية، وبكل ما لديها من طاقات الخلق والإبداع، ومواصلة تثبيتها بأصالتها وهويتها التاريخية واللغوية والنفسية، وهي الثوابت التي تنبني عليها إسهامات الأمم في البناء الحضاري للانسانية.

والثقافة، من ناحية أخرى، هي أساس وسائل التعبير والتقويم لدى الانسان، ففي الثقافة، ومن خلالها، يتجسد للخير وجوده الواضح لكي يكون ضرورياً.

(*) أستاذ في كلية الآداب، جامعة بغداد.

ومن الثقافة، وفي الثقافة يتبلور الحق، ويتجلى، ويتضح، فهي إطار، مضمون للحق، كقيمة ومبدأ عمل. والثقافة «سهل ممتنع» أحياناً، مما يجعلها أمراً يحتاج إلى «ثقافة»، وإذن لا بد من «ثقافة» لـ «الثقافة».

والحوار في اطار الثقافة ومضمونها إعانة للنفس للوصول إلى الحق والخير، ومن هنا كان الحوار الثقافي سبيلاً واضحاً لتقدم الفرد والجماعة وتطور الحضارات وازدهار المدنيات وتسامي قيمها ومبادئها. كان هذا وما زال واحداً من قوانين حركة التاريخ، التي تفرز صفيها طبقاً للمعطيات الثقافية السيكولوجية التلاقي، كما يسميها توينبي.

في ضوء ما تقدم، يسهل أن تستنتج أن عالم اليوم يعاني أزمة في الحوار بين الثقافات، فليس هناك توازن في الوجود، بل لغة القوة والهيمنة هي السائدة، ووحدة العالم في المنظور الانساني المبدئي استهدفتها قوى شريرة، بالتفتيت والتشتيت، فتفشت عوامل التفرقة والتناحر بين الأمم والشعوب لكي يسهل على تلك القوى الطاغية إحكام السيطرة على تلك الأمم والشعوب. هذا التأزم في الحوار الثقافي بيننا وبين الغرب، لا نبالغ إذا قلنا إنه بني على أساس «الاستشراق» كحركة منظمة لها جذورها العميقة وآثارها المدمرة للحق والحقيقة. إن بداية حركة الاستشراق كانت قد بدأت منذ بزوغ أقوى حضارة اندفعت إلى الوجود الانساني، وهي حضارة العرب والمسلمين، مما كان يشكل أول مواجهة حادة بين تلك الحضارة الجبارة وما كان عليه العالم قبل ذلك التاريخ من بقايا حضارات. . . فرسالة الاسلام كانت نقطة انطلاق عملاقة لأمة العرب في مسيرة حضارية تاريخية شاملة لبناء الوجود الانساني. وقد شكل ذلك بداية تخلخل ميزان القوى في عالم القرون الوسطى، وبروز تحدٍّ كبير لعالم غير العرب مما كان من نتائجه المنظورة ما هو معروف بالنسبة إلى تيجان الفرس والروم وعروشهم، وكانت ردة الفعل القوية المضادة للعرب وحضارتهم، فأصبح العرب، والاسلام ورسول السلام محمدﷺ محاور هجوم مضاد، وموضع نقمة، وهدف ثأر. ونتذكر هنا من الشواهد التاريخية قيام الحركة المعادية للأيقونات زمن الامبراطور البيزنطي ليون الثالث (٧١٧ ـ ٧٤١م)، مما اعتبر تحدياً فكرياً عربياً اسلامياً تسرَّب إلى داخل العقيدة المسيحية، وكذلك حركة الاستخفاف زمن الأمير الأموي في الاندلس عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ ـ ٢٣٨هـ/ ٨٢٢ ـ ٨٥٢م)، تلك الحركة التي قام بها المستعربون، وكان مبعثها الحقيقي الانهيار الذي أحدب الحضارة اللاتينية المسيحية في شبه جزيرة ايبريا وانهزام هذه الحضارة وذوبانها التدريجي في الثقافة العربية الاسلامية، كما أن الوثيقة التاريخية المأثورة عن «الفار القرطبي» دليل واضح أدق على ذلك.

لقد كان للمؤسسات الاستشراقية في العصر الحديث دور متعاظم في تشويه الكثير من الحقائق التاريخية واختلاق الافتراءات والأراجيف المتعمدة وبثها في الكثير من جوانب التراث العربي الاسلامي. وكانت هذه الحملة التضليلية المنظمة تستهدف أصلاً الإساءة إلى

العرب والغض من شأنهم ودورهم في بناء الحضارة الانسانية المعاصرة، وإذا كان لزاماً على الباحثين العرب أن يكونوا في مستوى مسؤولياتهم العلمية، فإن التصدي «المنظم» لكشف هذا التزوير العلمي، وكشف منهجيته المغرضة، اللاموضوعية، ينبغي أن يشكل الهاجس الأقوى في اهتماماتهم واستعداداتهم بالصيغة المنهجية العلمية التي لا تتغير إلا بإطار ردة الفعل، على الرغم من أننا، وهذا مما يجب الاعتراف به، قد تأخرنا كثيراً في الرد على تلك الحملة العنصرية ضد العرب والاسلام، إذ يستحسن أن يكون ردنا على أضاليل المستشرقين الغربيين المغرضين بأسلوب غير محدد بآنية رد الفعل، والاقتصار على عملية «ثأر» من «الآخر»، وإجهاد أنفسنا في «ادلجة» الموضوعات بصورة تعسفية بقصد الثأر من الآخر قبل العلم بالآخر، والكشف عن الخطأ فيه، إذ يستهدف هذا الجهد «المقابل» صياغة خطاب علمي عربي بصيغة مقنعة إلى الطرف الآخر وبأقرب وقت ممكن.

ثمة بعض أمور تتصل بموضوع الاستشراق لم يشر إليها، منها مشروعات ثقافية تولتها مجموعات معينة من دول جنوب غرب أوروبا، ضمن نطاق منظمات متخصصة في الأمم المتحدة أحياناً، وخارج ذلك النطاق أحياناً أخرى، تهدف إلى خلق نوع من الحوار بين ثقافات الشعوب والأمم، فدول جنوب غرب أوروبا على حوض البحر المتوسط (فرنسا، اسبانيا، البرتغال، ايطاليا) أعلنت مؤخراً عن مشروعات تهدف إلى الربط الثقافي، أو إعادة الربط الثقافي بينها وبين دول المغرب العربي.

ولا ننسى أن المستشرق الفرنسي ماسينيون قد نسبت إليه «الحركة المتوسطية» القائلة بأن للشعوب القاطنة على شواطئ البحر الابيض المتوسط خصائص خاصة بهم ليست عربية.

كما أن الحركة الشرق أوسطية التي كانت لها مؤتمراتها في الدار البيضاء وتونس وغيرهما تؤكد أنها تصيب في اتجاه واحد مع الحركة المتوسطية، ولا تقتصر على كونها ذات أبعاد اقتصادية بحت. ومثل ذلك أيضاً الندوة التي عقدت مؤخراً في تونس بإشراف منظمة اليونسكو تحت شعار التسامح في البحر الابيض المتوسط، وقد حضرها عدد من رموز الفكر السياسي المسلمين والمسيحيين واليهود، وأسموا التجمع بأنه مؤتمر نداء عالمي للتسامح وإلغاء الحواجز النفسية والحضارية والثقافية بين الشعوب والمجتمعات، وقيام علاقات على أسس جديدة من الثقافات العالمية تعتمد على التعايش والتسامح وتعميق الحوار بين المجتمعات والشعوب والأديان من خلال هياكل ومؤسسات. هذه إشارات إلى أمور ذات دلالات خاصة، يجدر مناقشتها بعمق وبصيرة، لكنها لم تذكر في الندوة.

إننا نؤمن بحتمية التلاقي بين ثقافات الشعوب والأمم، إذا كانت الثقافات مبنية على ثوابت تؤكد انسانيتها. ولذلك فإن حالة التأزم التي يمر بها عالم اليوم إنما هي حالة اختناق في المفاهيم الصحيحة والمنطلقات المبدئية، مما منع قيام الحوار الثقافي المطلوب بين الحضارات لخير الانسانية وتقدمها.

وهنا يجب التأكيد على ضرورة أن يكون التوجه إلى الحوار الثقافي توجهاً جاداً وصادقاً بعيداً عن الغرض الدعائي، وإلا اصبح عاملاً مضافاً في تأخر الشعوب، وتكريساً لاستقواء القوي على الضعيف. ونتذكر هنا ـ على سبيل المثال ـ قولاً لرئيس الولايات المتحدة الامريكية الأسبق رونالد ريغان، في التأكيد على أهمية التفاهم الدولي والتبادل الثقافي بين الشعوب والأمم: «لقد كان لدي دائماً اعتقاد عميق بأنه يمكن التقليل جداً من مشاكل العالم إذا بدأت الشعوب تتحدث بعضها إلى بعض بدلاً من الحديث بعضها عن بعض»، مما يوضح أن مثل هذه الأقوال الكبيرة كانت وما زالت في نطاق الشعارات، فحسب، إذ ما أوسع الثقة بين القول والعمل؟

وأخيراً، إذا كنا نقول بأن الإطار العام لأزمة العصر الحديث هو حالة الشلل في الحوار الثقافي بين الشعوب والأمم يسبب انعدام الإرادة في إقامة هذا الحوار، فإن أزمتنا الثقافية مع الغرب، بناء على ذلك، هي أزمة حوار، بمعنى من المعاني. وإذا كان الأمر كذلك، فإن المطلوب في تقديري هو تحديد البدء بالمبادرة إلى اتخاذ الموقف، ومن جهتنا نحن، وذلك بإيجاد خطة مركزية لحركة البحث العلمي لمعالجة القضايا الثقافية الكبرى في تاريخنا الحضاري، وباستراتيجيا متكاملة بأبعادها القطرية والقومية والدولية، تعمل في ظل الثوابت القومية النابعة من المبادئ الانسانية لحزبنا القائد وأمتنا العربية ذات الرسالة الخالدة، وتحدد آليات عملية لتنفيذ برامج تلك الخطة، وأن يكون ضمن السياقات الاستراتيجية العامة لهذه الخطة معالجة قضايا التحريف التي أقحمتها حركة الاستشراق في موضوعات كثيرة وحساسة في التاريخ العربي الاسلامي، نعتمد في ذلك منهجية علمية رصينة نحقق من خلالها بداية جادة لكتابة تاريخنا الحديث، في ضوء إعادة القراءة لتاريخنا القديم، ضماناً لمستقبلنا الكريم. إنه هدف مركزي علينا أن نحرص على إدراكه واجباً قومياً وانسانياً في آن، وفاء لرسالة أمتنا في بناء التاريخ، بما تصنعه من «قوة في الحق» مقابل «الحق في قوة» فرضه الطاغوت، في زمن مضى.

٦ ـ مسارع حسن الراوي(*)

﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾(١).

الحضارة البشرية هي ثمرة جهود الإنسان وحصيلة نضاله المستمر عبر مراحل التاريخ. ولقد ساهمت أمم العالم جميعها، كل بحسب قدرتها وقدرها، في بناء صرح هذه الحضارة البشرية التي يتمتع بها جيلنا المعاصر.

(*) وزير سابق، وعضو المجمع العلمي العراقي، بغداد.

(١) القرآن الكريم، «سورة التوبة،» الآية ٣٢.

وعلى الرغم من أن كل أمة تشارك الأمم الأخرى في بعض السمات الحضارية، إلا أن لها من الخصوصيات الحضارية ما يميزها من الأمم الأخرى. فهناك عموميات عالمية الجوانب، وهناك خصوصيات لكل أمة تحدد هويتها وشخصيتها ـ في مجال الثقافة ونظام القيم التي هي محور الحضارة في الأمة ولبها ـ وبخاصة أن الأمة العربية أمة مجيدة منبتها أصيل وتاريخها عريق، وقد ساهمت في بناء الحضارة البشرية، وأثرت في حركة التاريخ، وأدت دوراً مؤثراً فاعلاً في تقدم الحضارة الغربية عندما كانت أوروبا تغط في دياجير الظلام وتعيش في عصر الانحطاط والتخلف. وعندما نهضت أوروبا بفضل التقدم العلمي والثورة الصناعية والتقانية وصار لها كيانات سياسية وقومية مستقلة، استطاعت أن تستعمر العالم سياسياً وتستغل ثرواته وموارده، فصيغ الاستعمار فضلاً عن الهيمنة السياسية والتبعية الاقتصادية والغزو الثقافي وما تبعه من تخلخل في النظام القيمي للأمة المستعمرة وربما سقوطه.

وأساليب الاستعمار ومناهجه في الغزو الثقافي واستلاب الشعوب متعددة ومتنوعة، ومن أهمها الاستشراق وإدارة الشعوب وانتشار المؤسسات التعليمية والأجهزة الثقافية الأجنبية في بلدان العالم.

إن الإنصاف والموضوعية يتطلبان منا، ونحن نتدارس في هذه الندوة الفكرية العلمية إشكالية الغرب والثقافة العربية، أن نشير إلى أن الاستعمار ليس كله شراً ونقمة، ففيه بعض الإيجابيات إلا أن سلبياته وضرره أكثر من نفعه وأعم كالخمر.

ولا يسعني في هذا المقام، ومن أجل ألا أطيل وأتعدى الوقت المحدد لي، إلا أن أشير إلى الدراسات التي أصدرتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بالتعاون مع مكتب التربية العربي لدول الخليج بمناسبة الاحتفاء بالقرن الخامس عشر الهجري. ولقد جاء في مقدمة المجلد الموسوم من **مناهج المستشرقين**، ص ١١، ما نص على أن معظم المستشرقين ـ إلا فيما ندر ـ على الرغم من اختلاف أساليب التناول ومناهج البحث وطرق الدراسات، ينتهون في غالب الأحايين إلى نتائج متشابهة، من بينها:

أ ـ إن العنصر العربي عنصر متخلف بفطرته وطبيعته الجنسية والمناخية، الأمر الذي عطل فيه دوافع الإبداع والابتكار.

ب ـ إن الإسلام دين نهي وأوامر وزجر وكبت للحرية والاجتهاد، الأمر الذي أنتج أمة فاقدة للشخصية خاضعة للمشيئة مسلوبة الإرادة.

ج ـ إن محمد نبي العرب والمسلمين هو أقرب إلى الشخصيات الإصلاحية منه إلى الأنبياء المرسلين إلى العالمين.

د ـ إن دور العلماء المسلمين في كل أطوار التاريخ لم يتعدَّ النقل عن الحضارات واللغات الأخرى نقلاً حرفياً مجرداً، وأحياناً نقلاً محرفاً من دون ابتكار أو إضافة.

هـ ـ إن علاج الأمة الإسلامية ونجاتها من الكبوة والتخلف يكمن في احتذاء النموذج الغربي سلوكاً وتطبيقاً وثقافة.

السؤال الذي يطرح نفسه: لماذا كل هذا التشويه والتطاول على التاريخ العربي؟

بالتأكيد هناك أسباب كثيرة ومتنوعة ودوافع متعددة وراء هذه الظاهرة التاريخية الخطيرة في تزييف الحقائق، ولعل من أهم هذه الأسباب، كما يذكره المحللون الآتي:

أ ـ إن عدد المستشرقين الذين كتبوا عن تاريخ العرب وحضارتهم أكثر من المؤرخين العرب.

ب ـ إن أكثر المستشرقين الذين تناولوا التاريخ العربي هم من اليهود المتخاذلين للصهيونية والذين يناصبون العرب والمسلمين العداء التاريخي.

ج ـ إن الذين كتبوا التاريخ العربي كتبوه بنظرة الحاضر إلى الماضي، فالمؤرخ الأوروبي يسعى إلى كتابة التاريخ مقلوباً فيعكس الحاضر على الماضي.

د ـ إن كثيراً من المستشرقين هم أداة لتحقيق أهداف حكوماتهم الاستعمارية، فهم يروّجون في إطار إيمانهم بأن الإسلام هو مصدر الخطر على سلطان الغرب والحضارة الأوروبية، وقد حاولوا تسليط مغريات الحضارة الغربية حتى ينصرف الناس عن النظام القيمي والمثل العليا والعقيدة الإسلامية.

ففي مجلس اللوردات الانكليزي، وصف جيلاد سنون فريدة القرآن الكريم: ما دام هذا الكتاب موجوداً في الأرض، فلا مجال في إخضاع العرب والمسلمين.

وقال اللورد اللنبي: والآن انتهت الحروب الصليبية. أما الجنرال الفرنسي غورو، فعندما دخل دمشق قال أمام قبر صلاح الدين، الآن عدنا يا صلاح الدين، كما أكد بن غوريون أن ضمان سيطرة إسرائيل واستمرارها في البقاء هو اختلاف العرب وإبعادهم عن دينهم وثقافتهم. المهم هو كيف تقابل حركة الهدم. ولعل في المقترحات الآتية جواباً، وهو يكون عن طريق:

أ ـ إعادة بناء الشخصية المسلمة ضرورة حتمية، وتكون عن طريق التمسك بتعاليم الدين الحنيف والقيم الأخلاقية.

ب ـ إعادة كتابة التاريخ العربي على أسس علمية سليمة.

ج ـ التمسك بالعروبة عن طريق الحفاظ على سلامة اللغة العربية والسعي لاستكمال حركة التعريب والمصطلحات.

د ـ مواجهة ما صنعه الاستعمار من غزو ثقافي بقيام قواعد فكرية لها استراتيجيات وخطط مستقبلية، وبمقاومة المؤسسات الثقافية والتربوية الغربية المنشرة في البلدان العربية.

٧ ـ فوزي الخالصي(*)

لقد أجاد الباحثون أيما إجادة في كشف مشاريع الغرب ومخططاته الثقافية الاستعمارية بعيون فاحصة ونظرة ثاقبة. ولكن، كما قال د. عبد الإله بلقزيز: «ما العمل»؟

ما العمل إذن؟. . . ينبغي أن ننظر إلى أنفسنا النظرة الثاقبة نفسها وبعيون فاحصة مماثلة لتلك التي نظرنا فيها إلى المستعمر لنقومها.

إنه لمن الصعوبة بمكان تحقيق الأهداف النبيلة التي تصبو إليها الأمة العربية ما لم تمتلك الوسائل والإمكانات التي تحقق تلك الأهداف. فالأمة العربية الموحدة، وقوميتها الموحدة، ورسالتها الخالدة المؤطرة بتعاليم الدين الإسلامي الحنيف، كلها شعارات لهدف نبيل. فهل تتوفر الوسائل لتحقيقه؟ الجواب، إن الاستناد إلى الانسياق الحالي الذي تنساق بموجبه البلدان العربية، واضح وجلي.

فالدول هذه في طريقها إلى التجزئة ضمن مخطط غربي مرسوم. وسوف يشهد القرن القادم تفتتاً للدول العربية يزداد بموجبه عدد الرؤساء والأمراء والملوك، فيزداد الخلاف وتسهل السيطرة.

وليست الدول الإسلامية بمنأى عن ذلك.

ما العمل إذن؟. . . ينبغي أن نقوّم أنفسنا قبل الدخول في مشاريع كبيرة نقارع بها العدو العملاق.

أنا لا أرى أية إشكالية مع الغرب. فسياسة الغرب حيال الوطن العربي ثابتة ومعلنة منذ بداءة هذا القرن مستهدفة تفتيته وحصره في تناقضاته، ثم استنزاف كنوزه وحرمان أبنائه من المشاركة في صنع قرارات حياتهم، وعزله عن التقانة الحديثة عن طريق توفير المناخ الملائم للعلماء العرب للهجرة، إذ يوجد الآن أكثر من نصف مليون عالم عربي يعملون في الغرب، ويساهم ذلك في استنزاف موارد العرب، أي نزيف في العقول سمحنا به.

ولعل أخطر الإشكاليات موجودة فينا. . . نحن. . . وتتركز في امتلاكنا قابلية وضع اللوم على الجانب الآخر، وأننا لا نخطئ والآخر هو المخطئ، وإن أخطأنا أو أخفقنا أو عجزنا عن مواجهة العدو الحقيقي، فعندنا القابلية لخلق الأعداء الوهميين في الداخل وفي الجوار، ونعمل على تحويل أجمل ما في حياتنا من تراث خلقي وسمو تربوي نقله إلينا الأجداد عبر الرسالة المحمدية إلى غرائز تفيض بالحقد والكراهية على الآخر،

(*) كلية الهندسة، جامعة بغداد.

وتصبح عندئذ هوية المواطن الصالح مرهونة بالانتماء.. سواء أكان ذلك الانتماء حزبياً أم طائفياً أم جغرافياً.

لقد منّ الله علينا بخيرات لا تعد ولا تحصى صارت مطمعاً للأجنبي، فكنوزنا متعددة، منها كنز الموارد البشرية، وكنز الثروات الطبيعية، وكنوز وحدة اللغة ووحدة الدين ووحدة القومية. وفوق كل هذه الكنوز يتربع الكنز الأعظم والناموس الأسمى **القرآن الكريم**، لو عملنا به لفزنا فوزاً عظيماً... غير أنه لم يبقَ من القرآن إلا رسمه ومن الإسلام إلا اسمه. قال الإمام علي بن أبي طالب يوصي ولديه الحسن والحسين عليهم السلام: الله الله في القرآن لا يسبقكم بالعمل به غيركم.

نحن نملك خيرات وفيرة ستبقى محرمة علينا ومحللة للغرب ما لم ننظر إلى أنفسنا ونقوّمها. وسنبقى نحرس الكنوز المدفونة ريثما يحتاج إليها الغرب، فيستخرجها لينعم بها، وسنبقى محرومين من أبسط ما تتمتع به شراذمة الغرب، مثل حق تقرير المصير والمشاركة في صنع قرارات حياتنا ما لم نعمل بالناموس السماوي والكنز الأسمى **القرآن الكريم**، وبعكسه سيقتلنا الحرمان ونحن نملك كنوز الأرض، وسيقتلنا العطش ونحن نملك مياه الأرض العذبة.

كالعيسِ في البيداء يقتلها الظمأ   والماء فوق ظهورها محمول

٨ ـ خليل ابراهيم الزوبعي(*)

أثيرت في هذه الندوة قضايا حساسة أختلف مع ما طرح فيها، ولنبدأ بقضية **الاستشراق**: فليس كل المستشرقين أشراراً وليس كل ما كتبه المستشرقون يعد معادياً لتاريخ أمتنا، فهذه النظرة فيها كثير من التجني على الحقيقة، ولا بد من التفريق بين من أساء إلى أمتنا ومن خدمها. لم يترك المستشرقون باباً من المعارف العربية وتأثيرها في مدنية أوروبا وعلومها إلا وفتحوه ونشروا فيه المطولات والبحوث المستفيضة. أليس من الوفاء أن نذكر المستشرق الروسي العلامة الشهير كراتشكوفسكي الذي تخصص بالحضارة الإسلامية بأجمعها، وبمختلف فروعها وميادينها، وألّف العديد من الكتب عنها، ومن أهمها **تاريخ الأدب الجغرافي عند العرب** الذي استغرق تدوينه من عام ١٩٣٨ إلى عام ١٩٤٥. أليس من الوفاء أن نذكر بالعرفان تصدي المستشرق الإنكليزي جورج فارمر للمزاعم القائلة إن موسيقى العرب كانت تنقل من فم إلى فم من دون تدوين، والاستنتاج من هذا أنها كانت خالية من التأليف الفني، وأنها ظلت بدوية ضعيفة الاتقان، إذ إنه برهن على أن العرب عرفوا التدوين الموسيقي قبل أن يعرف الغربيون مبادئه بثلاثة قرون. هذا ولا بد من الإشارة إلى أن هذا المستشرق المنصف أتحف المكتبة العربية بما يزيد على العشرين كتاباً عن الموسيقى العربية.

(*) باحث.

فلماذا نغضب ونتهم جميع المستشرقين بالشعوبية ومعاداة العرب بمجرد أن قال بعضهم إن الشعر الجاهلي منحول؟ ألم يقل هذا بعينه أبو عبد الله محمد بن سلام الجمحي (١٣٢هـ) وزاد عليه أن المعلقات السبع جمعها ورواها حماد الراوية، وهي من الشعر المنحول؟ ألم يؤكد هذا الرأي ياقوت؟

يجب أن نعترف بأن المستشرقين هم من قوميات غير قومياتنا يختلفون عنا ديناً وحضارة، ودخلت بلدانهم معنا في حروب دامية أشهرها الحروب الصليبية. فمن الطبيعي أن تختلف وجهة نظرهم عن وجهة نظرنا، ومن الطبيعي ألا ينصف العرب بعض المستشرقين، وأن تختلف آراؤهم عما كتبوه عن تاريخنا، ولكن يجب ألا ننسى الخيرين منهم، والذين دافعوا عن تاريخنا خير دفاع ومدحوا أمتنا خير مديح. أننسى مقولة العلامة الفرنسي غوستاف لوبون في القرن التاسع: لم يرَ التاريخ فاتحاً أرحم من العرب؟ ولوبون هذا قد تمنى أن يكون العرب قد استولوا على العالم ومنه أوروبا، لِما كان فيهم من لين الطبائع وكرم السجايا، وهو القائل إنه كان يصيب أوروبا النصرانية باستيلاء العرب عليها مثلما أصاب إسبانيا من التقدم والارتقاء والحضارة الزاهية الرفيعة.

وهذه هي ملحوظاتي التي وددت أن أعرضها عن الاستشراق. أما ملحوظاتي عن التنمية وهمومها، فإني قد أختلف مع بعض ما ذكره المتحدثون حولها، إذ ليس مجرد زيادة إنتاج النفط وتوظيف عوائده في الاستثمار يكفي لقيام تنمية في الأقطار العربية المنتجة للنفط، ومنها العراق، إذ يجب ألا يغرب عن بالنا أن هذه البلدان المنتجة يحدد حريتها في الإنتاج الحصص التي تخصصها الأوبك (منظمة الدول المصدرة للبترول) لكل دولة منتجة، مع ملاحظة أن الوكالة الدولية للطاقة تراقب بدقة متناهية السوق النفطية، فإذا ما ارتفعت أسعار النفط الى درجة يمكن أن تهدد فيها نمو الاقتصاد العالمي تدخلت في السوق وضخت فيه من مخزونها النفطي المعد لهذه الغاية، وأوقفت هذا الارتفاع تعاونها في تنفيذ خطتها هذه الدول المنتجة للنفط من خارج أوبك، أو حتى من داخل أوبك. وهكذا يظهر لنا أن عملية إنتاج النفط وتسويقه عملية معقدة. هذا ولا بد من معرفة الحقيقة العلمية الاقتصادية التالية، وهي أن عملية التنمية الاقتصادية إنما تتمثل في المواجهة الحادة لمعوقات التنمية الاقتصادية التي تقوم على ثلاثة عناصر: **أولها** تغيير بنياني، فالتنمية الاقتصادية إنما تتمثل في ذلك التغيير البنياني الذي يكون من شأنه تحقيق زيادة سريعة ودائمة في الدخل الفردي الحقيقي عبر فترة ممتدة من الزمن. **وثانيها** دفعة قوية يتوقف حدوثها على حد أدنى من الموارد التي ينبغي تكريسها لعملية التنمية الاقتصادية إذا أريد أن يكون لها أي فرصة للنجاح. **وثالثها** تبني استراتيجيا ملائمة للتنمية، والمقصود بها النمط أو الأسلوب الذي تلتزمه السلطات في تحريك عجلات التنمية الاقتصادية. إن القول الذي ذكر في هذه الندوة بوجوب اتخاذ التصنيع في البلدان العربية أساساً للتنمية الاقتصادية ينبغي ألا يؤخذ على إطلاقه، إذ يجب أن يكون معلوماً أن البلاد المتقدمة صناعياً لن تفتح أبواب أسواقها لصناعات البلاد النامية التي بلغت في مضمار الصناعة

شوطاً يؤهلها لتصدر بعض منتجاتها إلى الخارج. وخير مثال على هذا ما حدث لصناعة البتروكيمياويات في العربية السعودية التي لم تسمح لها هذه الدول بأن تصدر إلى أسواقها إلا حصة معينة ضئيلة جداً، وحتى الولايات المتحدة الأمريكية سلكت السبل نفسها معها، وعلى هذا الأساس لا بد من إيجاد سوق خارجية... هذه السوق ليست إلا سوق وحدة الأقطار العربية التي أصبح قيامها ضرورة ملحة لا على أساس عرقي ولغوي وديني وتاريخي فقط، ولكن على أساس اقتصادي، ورفع مستوى دخل الفرد حتى يعيش بكرامة كإنسان.

أود أن أتقدم بتحيتي وإعجابي الصادرين من القلب للدكتور عبد الإله بلقزيز لما قدم من طروحات وآراء علمية مدروسة بعمق وبتفصيل دقيق وافٍ، فهو لم يترك شاردة أو واردة إلا وأبانها، فقد ربط الحاضر بالمستقبل، فأحسن وأجاد وأبدى رأيه الصريح الواضح في ما يجب عمله للخروج بالأمة العربية من هذه الحالة الحالكة التي تعيش فيها.

هذا ولا يسعني كذلك إلا أن أحيي الدكتور سعدون حمادي لما أتحفنا به من آراء سديدة تخرجنا من التقوقع في إطار الماضي من دون التطلع إلى ما يحدث من تواصل الحضارات في عالم أصبح قرية صغيرة مع الحفاظ على هويتنا القومية.

لي بعض الملحوظات حول ما قاله عن الوحدة العربية د. سعدون حمادي، ولدي عدد من الوثائق البريطانية التي أطلقت بعد مرور ثلاثين عاماً وفق تعليماتهم، والتي ستزيل الكثير من الغموض. صحيح وقف الغرب ضد توحد الوطن العربي منذ الحرب العالمية الأولى عندما نكثت بريطانيا بوعدها مع الشريف حسين واقتسمت الوطن العربي مع فرنسا وأعطت وعد بلفور إلى الصهاينة.

وصحيح أيضاً أن السياسة الغربية استمرت في معاداة كل وحدة يسعى إليها العرب حتى وصل الأمر بالخارجية الأمريكية إلى أن تعمم كتاباً سرياً تحت رقم ٢٢٧٩ ومؤرخاً ١٨ نيسان/ ابريل ١٩٥٨ إلى كافة رؤساء البعثات الأمريكية في الشرق الأوسط حول سياسة الولايات المتحدة الأمريكية تجاه الجمهورية العربية المتحدة والتي نص على قيامها بعد حوالى شهرين جاء فيه:

أ ـ إن وزارة الخارجية تؤكد الأهداف الأساسية لسياسة الولايات المتحدة الأمريكية في علاقاتها مع الجمهورية العربية المتحدة. وهي تؤكد من جديد أن ازدياد نفوذ مصر يتعارض مع القرار المشترك للكونغرس عن الشرق الأوسط، ويؤدي إلى تقوية القومية العربية ويشجع الاتجاهات المضادة للغرب، وبالتحديد الاتجاهات المضادة لأمريكا في الشرق الأوسط وفي أفريقيا، ثم هو يؤثر في هيبة حلف بغداد الذي يعتبر حلقة مهمة في شبكة الدفاع عن العالم الحر، ويمس بالضرر موقف إسرائيل ومصالحها، الأمر الذي لا تستطيع الولايات المتحدة أن تتجاهله.

ب ـ إن وجود السيطرة على مواصلات نقل نفط الشرق الأوسط إلى أوروبا، سواء عن طريق قناة السويس أو عن طريق أنابيب النفط المتجهة إلى البحر المتوسط وتحت السيطرة الفعلية للقاهرة، يضع المصالح الأمريكية في المنطقة في خطر أكيد، فإن ذلك يجعل الجمهورية العربية المتحدة الآن في وضع يمكنها من ممارسة ضغط على الولايات المتحدة وغيرها من القوى الغربية، وهذا الاحتمال يمكن أن يتحول إلى سلاح مخيف في يد الرئيس عبد الناصر.

ج ـ وجاء في الفقرة الخامسة: يتحتم أن تظل جهودنا متجهة إلى فكرة الوحدة بين مصر وسوريا، ويجب ألا تتوقف جهودنا لإيجاد فاصل بين البلدين، وينبغي أن يظل ذلك من أبرز أسس سياستنا في المنطقة، وهناك قوة داخلية تشارك الغرب في معتقداته، كما أن هناك قوى خارجية يمكنها في أية لحظة ملائمة أن تتدخل، وينبغي تدعيم هذه القوى من غير كلل، وينبغي أن نتذكر دائماً أن أي تفسخ في الجمهورية العربية المتحدة لن يقرر فقط مصير مصر تحت حكم عبد الناصر، وإنما سوف يجعل من السهل أيضاً محاربة القومية العربية في أي شكل تتخذه في الشرق الأوسط.

د ـ ولسوف تكلل جهودنا بالنجاح أكثر إذا أمكن عزل الجمهورية العربية المتحدة عن باقي العالم العربي. وبالنسبة إلى هذه المهمة، فإن ممثلي الولايات المتحدة، سواء في الأقسام الدبلوماسية أو في أقسام الاستعلامات والدعاية في العالم العربي، عليهم أن ينشروا الاعتقاد بأن الجمهورية العربية المتحدة تشكل خطراً مباشراً على كل الحكومات العربية، وفي البلاد الملكية علينا أن نشرح بقوة أن تدعيم الجمهورية العربية المتحدة قد يؤدي إلى سقوط حكم جميع البيوت الخاصة، كما أن في الجمهوريات يمكن بث الخوف من ابتلاع القاهرة لهذه الجمهوريات... الخ.

هذا ما كان من أمر الأمريكان الذي فضحته وثائقهم، أما ما كان من أمر الإنكليز، فإليكم ما جرى بعد ظهر يوم ١٤ تموز/ يوليو ١٩٥٨ الذي قامت فيه الثورة: لقد اتصل سام فول السكرتير الشرقي للسفارة البريطانية بوزارة الدفاع هاتفياً، فحول النداء إلى مديرية الاستخبارات العسكرية. كان ذلك في الساعة الثانية بعد الظهر، فكلمني قائلاً: إن السفير البريطاني يقيم الآن في فندق بغداد في الجناح رقم ٢٢ ويريد أن يقابل قائد الثورة. لقد حددوا موعداً للمقابلة، فكلمت الزعيم عبد الكريم قاسم الذي وافق على المقابلة، وأرسل العقيد الركن دريد الدملوجي لاستصحابه. ثم اجتمع السفير والسكرتير وقائد الثورة ونائبه عبد السلام وأصبحت مقرراً للاجتماع.

قال السفير: لا وحدة مع عبد الناصر. النفط يجب أن يتدفق من دون عائق. إذا وصلت يد عبد الناصر إلى منابع النفط في العراق، فلبريطانيا موقف آخر. وخرج الاثنان وتفرق المجتمعون. استوعب عبد الكريم قاسم الموقف الدولي وطلبات بريطانيا، وفي يوم ١٦ تموز/ يوليو أعلن عبد الكريم قاسم سياسة حكومته على لسان وزير ماليته محمد

حديد، وقد استجاب لكل ما أرادت بريطانيا. وفي الحال أبرق السفير البريطاني إلى حكومته زافاً إليها البشرى العظيمة والنبأ الكبير بأن لا وحدة مع الجمهورية العربية المتحدة، وأن النفط سيتدفق، وأن لا تأميم للنفط. وفي الوثيقة البريطانية ١٤٠٩٥٦/ ٣٧١ وجهت وزارة الخارجية البريطانية إلى سفارتها في بغداد الرسالة المرقمة (١١٤/ E.O/١٠١٥) بتاريخ ٢/٣/١٩٥٩، وفيها التعليمات الآتية:

أنت تعلم بتقييمنا للوضع في العراق أن السياسة التي يتوجب علينا اتباعها نتيجة لذلك لا بد من أن تعتمد على الأسس الآتية:

أ ـ إن وجود حكومة مستقرة ومستقلة عن كل من القاهرة وموسكو تخدم مصالحنا بشكل جيد.

ب ـ إن حكومة تنفذ بفعالية أهداف قاسم التي أعلنها ستحقق هدفنا المشار إليه.

ج ـ إن أكثر البدائل احتمالاً بالنسبة إلى النظام الحالي هو نظام معاد لمصالحنا الحيوية.

د ـ ولذلك، فإن علينا أن نقوم بأقصى ما نستطيع لتأمين بقاء قاسم في الحكم ما لم يصبح واضحاً لدينا بأنه قد تراجع عن تطبيق سياسته هذه التي أعلنها. عندما يصبح هذا الاحتمال وارداً، في هذه الحالة، فإن شخصاً ما غيره إذا وجد وكان مخلصاً لهذه السياسات نفسها، فإنه بلا أدنى شك، سيخدم مصالحنا بشكل جيد.

وهكذا تبين الوثائق المواقف الأمريكية والإنكليزية المعادية للوحدة العربية والتناقضات بين الحكام العرب التي تستغلها القوى الأجنبية.

٩ ـ حسام محيي الدين الآلوسي

الملاحظة الأولى تتعلق بما قاله د. سعدون حمادي بأن موضوع الندوة المركزي هو: كيف تكون علاقتنا الثقافية على وجه الخصوص بالغرب؟ ووضح اتجاهان: الغالب فيهما عدم التقاطع المسبق والمتشنج والانغلاقي، بل الواعي. هنا تقع ملاحظتي: أريد أن أحيي سعدون حمادي، وخصوصاً على تشخيصه لخاصية العلاقة بيننا وبين الثقافات الأجنبية في فترة حضارتنا الإسلامية الأولى، وهي كما قال: علاقة إيجابية انفتاحية واعية. أما خاصية علاقتنا الآن فهي انغلاقية، وأرجح أسباب هاتين الخاصيتين إلى سببين رئيسيين: **الأول**، الثقة بالنفس عند المرحلة الأولى الإسلامية المزدهرة وتعاليم الدين الخاصة بالعلم والمعرفة ووحدة الشعوب وعدم وجود عقدة ضد الآخر. والثاني، أنها اصدرت من مراكز القوة، بينما الثقافات الأخرى من موقف ضعف. ولم تكن المسألة السياسية شديدة العلاقة بالمسألة الثقافية آنذاك، وبالنتيجة قال: إن الذي علينا فعله الآن هو الانفتاح الإيجابي الواعي نحو هذه الثقافات.

هذا كله طرح جيد، ومع استثناءات بسيطة يمكن إضافتها إلى هذا الطرح تتصل بالموقف بين العرب وغير العرب بما يسمى «الشعوبية» بمعانيها المتغيرة عبر الدولة الأموية، فالعباسية في ما بعد، أعني تغير المفهوم من طلب التساوي مع العرب على أساس إسلامي إلى الاستعلاء عليهم وتحقيرهم، وإعلاء عناصر وثقافات أخرى، وهو مظهر سياسي إلى حد ما، ثم ما حصل لاحقاً من موقف محرفي الفلسفة وكل علوم الأوائل، أقول في ما عدا هاتين الملاحظتين، فإن تشخيص حمادي سليم من حيث موقف رواد النهضة العربية في القرن التاسع عشر والعشرين، وهو مثال كان بإمكان د. سعدون حمادي إبرازه، إذ كان موقفاً بلا عقدة ضد الآخر، وإن هذا الموقف الانفتاحي الواثق بالنفس تحول مع اشتداد الاستعمار علينا من التسعينيات إلى الآن إلى شبه تقاطع وصفته برمي الطفل مع ماء الغسيل، وأسماه رودنسون طرح كل المحرز.

إن العلاقة مع الغرب ليست علاقة سياسية فحسب. في محاضرة سنة ١٩٩٢ حول «دور النخبة الثقافية في بناء ثقافة عربية مستقلة»، قلت إن هناك السياسي والتاجر، وهناك العالم والباحث والفنان والمفكر والمنظر، وعلينا عدم التفريط بكل ما قدمته وتقدمه حضارة «الآخر» الآن. معنى هذا أن نبدأ من العنصر الأولي للحضارة، وهو أمر مستحيل واقعياً حتى لو أردناه، وحتى لو كان صحيحاً، وهو غير صحيح قطعاً. إن خطر الدعوة إلى الانغلاق التي تزداد الآن على الساحة العربية هو خطر آخر لا يقل عن خطر «الاغتراب». إن هذه الدعوة للانكفاء الثقافي على الذات والتقاطع الكامل مع العصر أو الآخر هي دعوة لإبقائنا متخلفين، لأننا لا نستطيع أن نتقدم ونلحق بالآخر إلا من خلال روح العصر ومناهجه ووسائله وعلومه. ومصداق ذلك أن الغرب يبخل علينا ـ على دول العالم الثالث ـ بأسراره العلمية وتقانته، وأقول يبخل أيضاً علينا بمناهجه وعقله وأفكاره.

الملاحظة الثانية مختصرة، وتتعلق ببحث د. عبد الإله بلقزيز. إن بحث د. عبد الإله بلقزيز يسير في هذا الاتجاه من حيث التوجه، ومع تحياتي له على محتوى بحثه المركز إلا أن ما أعنيه هو شكله وأسلوبه. أريد أن أحييه على هذا الأسلوب الفني والأدبي الرائع، وهذه التعابير المكتنزة بالمعاني، وكل هذه القدرة على الأداء بأسلوب منغم. والفكر واللغة شيء واحد وحضورهما واضح عند عبد الإله بلقزيز، كما أن مكانته اللغوية والنحوية حاضرة بأعلى مستوى لدرجة أنني لم أسمع ما يخدش السمع لغوياً ونحوياً، إلا ربما مرة واحدة فقط، أحييه مرة ثانية لأنه ذكرنا بأننا في مجمع علمي هو في الأصل مجمع للغة العربية، وعساه يكون قدوة لنا جميعاً.

في ما يتعلق بالمناقشات حول موضوع **«ملاحظات حول الاستشراق ودارسيه»**، بدأ د. الياس فرح لافتاً الانتباه إلى أنه ليس صدفة أن ينعقد مؤتمر المستشرقين الأول في سنة ١٨٧٣، وبعده بسنوات المشروع الصهيوني حول فلسطين. لاحظ أيضاً أن صورة العقل العربي عند المستشرق لم تكن تلفيقاً خالصاً، حيث أمامه التخلف العربي، وعلى نطاق العالم

الإسلامي والشرقي. وقال إن بعض ادعاءات المستشرقين والغربيين غير صحيح، مثل قولهم بالمعجزة اليونانية. سارتون وآخرون أثبتوا دين اليونان للحضارات الشرقية وحضارة وادي الرافدين والنيل على وجه الخصوص. وقال الياس فرح إنه في موقفنا من الاستشراق والغرب لا بد من أسلوب الحوار والرد الواعي.

تعقيبي على د. الياس فرح أنه فعلاً مما يسترعي الانتباه ظهور الاستشراق بشكل مبرمج ومنظم، وقبول كلمة استشراق في ذلك المؤتمر مع ظهور المشروع الصهيوني الهرتزلي.

أما بالنسبة إلى تخلف العرب والشرق، وأن المستشرق يستمد بعض صوره عنا من الواقع، فهذه نقطة فصّلتها في البحث وفي الملخص، حيث إن صادق العظم في نقده لإدوارد سعيد عندما يتحدث الأخير عن صورة العقل العربي عند ماكدونالد وغب، يقول العظم إن حديث ماكدونالد وغب عن استسلام الشرقي للغيب، وغياب الإحساس بوجود نظام تحكمه قوانين عند الشرقي، ونظر الفلاح إلى كل شيء من خلال الدين، كل هذا كان واقعاً وليس مجرد خيال، وكأن المستشرق يقول للسياسي والاستعماري والتاجر: استفد من هذا الوضع في تعاملك مع الشرقي أو العربي.

بالنسبة إلى المعجزة اليونانية، أحب أن أشير إلى أنني في سنة ١٩٧٣ ألفت كتاباً كبيراً لفضح هذه المعجزة مبيناً دور الحضارات الشرقية في العلم والفن والفلسفة قبل اليونان، حتى ان مجلة **الطليعة** الكويتية خصصت ملفاً خاصاً في أحد أعدادها في السبعينيات (١٩٧٣) باعتبار أن هذا الكتاب هو صرخة ضد العنصرية والمركزية الأوروبية.

أما بشأن الدعوة إلى الحوار، فهذه دعوة جيدة، وقد أشرت في محاضرتي وفي الملخص الذي ألقي في الندوة إلى أن هذا هو ما فعله رواد النهضة العربية الحديثة في أوائل القرنين التاسع عشر والعشرين وأواخرهما، لكن صوت الحوار بدأ يضعف مع اشتداد الاستعمار وسيطرته على الوطن العربي بحيث يكاد يختفي اليوم.

بالنسبة إلى د. سعدون الزبيدي، فقد قال إنه لا يوجد في المحاضرات هذا الصباح بحث عن إشكالية، بل عرض، ولاحظ أن رأي الغربيين فينا تغلب عليه الصفة السالبة، وقال: يجب تجنب القول إن الاستشراق انتهى، وقال إن الاستشراق مؤسسة منظمة، وإن مواقف برنارد لويس الاستعمارية واضحة.

جوابي على د. سعدون الزبيدي أنه بقدر ما يتعلق الأمر بموضوعي أقول: معالجتنا أوضحت هذه الإشكالية في صلة الغرب بالشرق ثقافياً في نظرته، وفي موقفنا من هذه النظرة، وفي ظهور عدة توجهات جديدة عند الطرفين (تبديل اسم الاستشراق، ومن الطرف الآخر الاستغراب) وظهر في الصورة وجود أسباب وايديولوجيات وعقد تحكم

الطرفين ومحاولات مؤدلجة للتشويه. كما أشرنا إلى أنه منذ تصنيف إدوارد سعيد وضح أن الاستشراق منه أكاديمي ومنه مؤسسة، والأول في خدمة الثانية، كما تعاملنا مع برنارد لويس بتفصيل والانتقادات عليه كثيرة أوردناها في خلال البحث.

بالنسبة إلى أ. مسارع الراوي قال: الاستشراق كله أسلوب من أساليب الاستعمار، وهو مؤسسة، وتمنى أن يكون هناك حصر لتغلغلات هذه المؤسسة في الوطن العربي، وهي دعوة جيدة. أما بحثنا فلم يأخذ كأمر مسبق أن الاستشراق كله سلبي، فأوردنا كل وجهات النظر بما في ذلك محاولات المستشرقين الجديدة للتخلي عما لصق بأسمائهم وبالاستشراق من نقد وتهم، وقارئ البحث لا بد من أن يصل إلى نتيجة محدودة.

أما ما يشير إليه أ. الراوي من تأكيد المستشرقين لأحكام حول العقل العربي والرسول ﷺ والإسلام والحضارة العربية، وهي أحكام متجنية، ثم تساؤله: لماذا هذا التطاول؟ فأقول إنه سؤال جيد أجبنا عنه من خلال عرض ناقدي الاستشراق ورافضيه. أما تساؤله: أين أعمال من درسوا هذه التهم دراسة حوار؟ أقول هذا يوجد، وأشرت في بحثي إلى دراسات تملك هذه الصفة، مثلاً بحوث **مناهج المستشرقين** بجزأين، وهي أعمال مكتب التربية العربي لدول الخليج، وكذلك مسلسل **الاستشراق** بخمسة أجزاء كبيرة صادر عن دار الشؤون الثقافية في بغداد بين عامي ١٩٨٧ و ١٩٩١، وهناك كتب أخرى اطلعنا عليها فيها نقد تفصيلي، ومع ذلك فإن أحد مقاصد بحثنا هو أنه آن الأوان، ليس عن طريق «الاستغراب»، بل عن طريق البحث العلمي المتخصص، لمناقشة كل هذه التهم، وأيضاً تشخيص الآراء العلمية الصحيحة في ما قدمه المستشرقون والفكر الغربي عنا، لكن يبقى أن أحسن رد على هذه التهم حول العقلية العربية والشرقية هو أن تتطور هذه الشعوب وأنظمة حكوماتها والوسائل والمناهج العلمية، كما تفعل اليابان.

بالنسبة إلى د. خليل إبراهيم الزوبعي: هل الكلام موجه إلي أم بشكل عام إلى المحاضرين؟ مهما يكن، فإن ملاحظته أن الاستشراق بدأ قبل عام ١٨٠٠ صحيحة، وأنا لم أقل إنه بدأ سنة ١٨٧٣. وفي البحث كله أتينا على آراء، ومنها رأي إدوارد سعيد المتضارب: مرة أنه بدأ مع هوميروس ومرة أنه بدأ مع المد الاستعماري الحديث، وهو الأمر الذي انتقده عليه العظم وآخرون.

أنا قلت إن مصطلح استشراق و«مستشرق» قبل رسمياً من المؤتمر الأول للمستشرقين سنة ١٨٧٣. أما ملاحظة د. خليل إبراهيم الزوبعي بأنه ليس كل المستشرقين شعوبيين وضدنا، فهذا صحيح، وفي خلال بحثنا أوضحنا أن الاستشراق الأوروبي الاشتراكي، مثل الاستشراق البولندي... الخ، لا ينطبق عليه ارتباطه بالاستعمار والجهاز الاستشراقي، وكذلك الاستشراق الألماني كما لاحظ عديدون.

وأنا لا اعتراض لي على تقييم د. خليل إبراهيم الزوبعي للاستشراق إيجابياً، وسنضيفه إلى قائمة المقومين إيجابياً. إن بحثنا على وعي تام بتعددية التقييم للاستشراق،

وقد كرسنا الملاحظة الثانية لجلب آراء مقومين للاستشراق سلباً أو إيجاباً أو معاً، كما أن حول موضوع «هل تبدل الاستشراق؟» نحيل جزءاً كبيراً من أوراق البحث إلى المشاركين.

ويبدو أنه لا يوجد تواصل بين المتناقشين والمحاضرين غالباً، إما بسبب عدم الاطلاع على المحاضرات أو أوراق البحوث، وأما بسبب طبيعة الاستماع لتلخيص برقي.

لقد سبق إيضاح ملاحظة أ. ياسين الحسيني أن الاستشراق لم يبدأ سنة ١٨٧٣، فيجب ألا نكرر ذلك. أما بصدد كتاب **التبشير والاستعمار** فهو أحد مصادر بحثنا، لكن أقول إن عمر فروخ غير رأيه في بحث له جديد ضمن مسلسل **الاستشراق** وأتينا على ذكره خلال البحث.

إن كلام أ. الحسيني صحيح، وهو على حق. أما في ما يتعلق بمكتبة الإسكندرية، وما أثاره المستشرقون والمؤرخون الغربيون حولها، أقول: هذه بسيطة إذا ما رجع الإنسان إلى كتب خصصت فقط لبيان فريات أو افتراءات المستشرقين في السيرة، وما قالوه عن القرآن الكريم والتاريخ العربي وعلوم العرب، لكن مرة أخرى، أقول: إن عدم اطلاع المناقشين على أصول أوراق الموضوعات التي كتبها المحاضرون مسألة خطيرة تغنينا لو توفرت عن كثير من المناقشات. وشكراً له على مستلات نادرة عن حرق مكتبة الإسكندرية، وشكراً على الأمثلة التي يدين بها الغرب والاستشراق. وأنت يا أخي ياسين ستضاف إلى قائمة الذين وقفوا الموقف السلبي الخالص ضد الاستشراق.

بالنسبة إلى د. حسن طوالبة: أشكره على توضيحاته حول البعثات ودور الحكومات السلبي، أما بشأن الحوار والانفتاح فقد رحبنا بهذا سابقاً.

بالنسبة إلى د. حبيب القيسي: أولاً أشكره على ثنائه على عملية بحثنا وموسوعيته. لقد قال: لكن البحث قدم معلومات معروفة، وقال: إن الاستشراق تبدل، كما أن التأزم بيننا وبين حضارة الغرب معروف وعلينا أن نفهم الآخر أو الغربيين، فلهم مقولاتهم وأرضيتهم، ولا بد من دراسة رأيهم فينا دراسة علمية.

جوابي هو: إن بحثي جلب كل مقتضيات القضية، وطبعاً الآراء في الاستشراق بحثت في عشرات، بل مئات الدراسات. إن الجديد عندي هو توظيف هذه المعلومات للوصول إلى نتائج وأحكام موثوقة، وربما جديدة. لقد أوضحت دراستنا المواقف من الاستشراق وخصصت جزءاً، يعالج فيه المستشرقون أنفسهم موقفهم ويراجعونه نحو منحى جديد، ليس على أساس شرق وغرب، بل على أساس الموضوعات والمشكلات، كما أوضحنا، وحاولوا جهد الإمكان فصل أنفسهم عن المؤسسة الاستعمارية، وامتحنا مدى جدية هذه المحاولة، وهل فعلاً تبدل الاستشراق، وأثنينا على مواقف عديدة لنا منهم بما في ذلك دعوة مضادة، أو هي استشراق معكوس، أو ما يسميه حسن فهمي وآخرون «الاستغراب»، وانتقدنا هذا المسعى. كما أن تصور الغرب لنا من خلال صورته

هو جزء أساسي في المحاضرة، سواء على لسان الصعيدي، أو في الأصل عند إدوارد سعيد ومتابعيه مثل العظم، وأشرنا إلى أنه لا بد من دراسة علمية للموضوع، واستشهدنا بمحاولات مثل **مسلسل الاستشراق** ومنظومة **مناهج المستشرقين** في جزئيه.

وهكذا يبدو أن الأمر لا يخلو من نقصان معلومات عن المحاضرة وأصلها المخطوط، وأن السماع الملخص برقي هو المسؤول عن مثل هذه التعقيبات التي لا شك في أن من ورائها حسن القصد، لكنني واثق من أنها لن تقال لو اطلع المعقبون على الأوراق المكتوبة كاملة. كما أشرنا إلى أن بعض نقاد إدوارد سعيد قالوا له: أنت لم تقدم حلاً لمشكلة الاستشراق، ووضعوا حلولاً جئنا عليها في أصل البحث.

وأقول في ختام تعقيبي على د. حبيب القيسي إني أوفيت بالمطلوب، كما جاء في خطط ورقة البحوث التي أعدها المجمع، والتي تنص بالنسبة إلى محور الاستشراق على ما يأتي: ثانياً: الاستشراق عرض وتحليل وإيضاح لمكانة ذلك الجهد الثقافي في مجمل أهداف الغرب عن خروجه إلى العالم (خاصة العالم الثالث) في عملية بناء قوته الاقتصادية والعسكرية مع اهتمام خاص لمناقشة أطروحة موضوعية ذلك النشاط ومدى قربه من الحقيقة. كان الاستشراق مبادرة من الغرب للاتصال بالثقافة العربية، ولكن من مواقع القوة والاستعمار، فماذا كانت المنهجية والنتائج؟ تقييم موضوعي لنتائج الاستشراق (ص ١١).

وهكذا يجد المطلع على البحث أننا تعاملنا مع هذه المقولات كلها بشكل مفصل وتعددي ومنصف ما أمكن، وأتينا على تقييمه سلباً وإيجاباً وما بينهما، وشخصنا منهجيته أو منهجياته، وركزنا على صلته بالنسبة الكلية للمجتمع الأوروبي منذ عصر النهضة الأوروبية وقبل ذلك وتصاعداً مع الإمبريالية، كما حددنا وجهات النظر في: هل تبدل وكيف؟ وما موقف دارسينا تجاهه بما في ذلك «الاستغراب»، وكذلك أنه سواء تبدل أو لم يتبدل، فما زال في الساحة الفكرية العربية «مستشرقون عرب» يعيدون من اتجاهات مختلفة إسلامية وقومية مقولات استشراقية عفا عليها الزمن، وقد شخصنا بعضاً منها ممثلين لكل اتجاه.

ملحق

برنامج الندوة

اليوم الأول

الثلاثاء ٣ ذو الحجة ١٤١٥هـ ـ الموافق ٢ أيار/مايو ١٩٩٥م

الجلسة الأولى

رئيس الجلسة: مسارع حسن الراوي ـ عضو المجمع العلمي العراقي

٩,٠٠ ـ ٩,١٠	**كلمة الافتتاح** صالح أحمد العلي
٩,١٠ ـ ٩,٣٠	**الثقافة العربية والانتماء القومي** برهان غليون(*)
٩,٣٠ ـ ٩,٥٠	**العرب والعلوم الأجنبية في العهود الإسلامية الأولى** صالح أحمد العلي
٩,٥٠ ـ ١٠,١٠	**التجربة التاريخية لعلاقة العرب بالثقافة الأجنبية** محمد توفيق حسين
١٠,١٠ ـ ١٠,٣٠	**ملاحظات حول الاستشراق ودارسيه** حسام محيي الدين الآلوسي
١٠,٣٠ ـ ١٠,٥٠	**الاستشراق والثقافة العربية** محيي الدين إسماعيل(*)
١٠,٥٠ ـ ١١,٣٠	استراحة.

الجلسة الثانية

رئيس الجلسة: أحمد مطلوب ـ عضو المجمع العلمي العراقي

١١,٣٠ ـ ١١,٥٠	**القومية العربية وموقف الغرب منها** علي فهمي خشيم(*)

(*) تشير هذه النجمة إلى أسماء الباحثين الذين لم يتمكنوا من حضور الندوة.

١١,٥٠ ـ ١٢,١٠	التنمية الاقتصادية العربية: الإمكانات والتحديات عبد الرحمن الحبيب
١٢,١٠ ـ ١٢,٣٠	المحتوى الاقتصادي للنظام العربي وتحديات القرن الحادي والعشرين حميد الجميلي

التعقيبات والمناقشات

اليوم الثاني

الأربعاء ٤ ذو الحجة ١٤١٥هـ ـ الموافق ٣ أيار/مايو ١٩٩٥م

الجلسة الثالثة

رئيس الجلسة: محمود الجليلي ـ عضو المجمع العلمي العراقي

٩,٠٠ ـ ٩,٢٠	الغرب والوحدة العربية سعدون حمادي
٩,٢٠ ـ ٩,٤٠	الوحدة العربية: تحديات التجزئة وخطورة النظام الشرق أوسطي محمود علي الداود
٩,٤٠ ـ ١٠,٠٠	التأثير الغربي في الهيئات والوكالات المتخصصة للأمم المتحدة عصام عبد الغني محبوب
١٠,٠٠ ـ ١٠,٢٠	النظام الاعلامي السمعي ـ البصري الغربي والاختراق الثقافي: نحو استراتيجيا جديدة للدفاع الذاتي عبد الإله بلقزيز
١٠,٢٠ ـ ١٠,٤٠	دور الاختراق الثقافي في خطة السيطرة الأمريكية على العالم صلاح المختار
١٠,٤٠ ـ ١١,١٠	استراحة

الجلسة الرابعة

رئيس الجلسة: بشار عواد معروف ـ عضو المجمع العلمي العراقي

١١,١٠ ـ ١١,٣٠	منطلقات الإعلام الغربي عبد الستار جواد

١١,٣٠ ـ ١١,٥٠	**الاستنزاف الثقافي والنظام الإعلامي الجديد** عبد الجبار داود البصري
١١,٥٠ ـ ١٢,١٠	**الاتصال الثقافي الدولي والعوامل الميسرة لسريانه من الغرب إلى العرب** خالد حبيب الراوي هادي نعمان الهيتي **كيف يمارس الإعلام الغربي التشويه العنصري ضد العرب ومستقبلهم؟** صباح ياسين

التعقيبات والمناقشات

فهرس

(ب)

(ت)

(ث)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

هذا الكتاب

يعتبر الصراع بين الثقافات، أبرز مظهر معاصر للصراع بين الأمم والحضارات وبؤرة التناقضات المحتدمة بينهما، وهذا الصراع ـ بلا شك ـ هو تعبير عن تناقضات المصالح الاقتصادية والاجتماعية بين الدول والأمم والمجتمعات، فذلك من الدروس التي أقامت الدليل على وجاهتها التجربة التاريخية للمجتمعات والشعوب في العصر الحديث، وفي ما سلفه من تواريخ. لكن موطن «الجدة» في الموضوع أن الثقافة باتت تمثل الجبهة الأمامية لتلك الصراعات المادية بعد أن كانت في خلفية المشهد أمام أرجحية لا غبار عليها للسياسة والاقتصاد والقوة العسكرية.

ان صعوبة البحث في العلاقة الثقافية مع الغرب ترجع إلى التناقض السياسي بين الغرب وأهداف الأمة العربية، وهذا التناقض هو الذي دفع الغرب الى معاداة حركة القومية العربية ومشروع وحدة الوطن العربي.

يتناول هذا الكتاب موضوعاً بالغ الأهمية ويشغل قدراً وافراً من اهتمامات الباحثين والمواطنين العرب وهو «إشكالية العلاقة الثقافية مع الغرب». ويضم الكتاب بين دفتيه بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي عقدها المجمع العلمي العراقي. وقد توزعت موضوعات الندوة على خمسة عشر فصلاً، إضافة الى تعقيبات ومناقشات المشاركين.

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «سادات تاور» شارع ليون

ص.ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣ ـ بيروت ـ لبنان

تلفون: ٨٦٩١٦٤ ـ ٨٠١٥٨٢ ـ ٨٠١٥٨٧

برقياً: «مرعربي» ـ بيروت

فاكس: ٨٦٥٥٤٨ (٩٦١١)

الثمن:
أو